أسلوب الوعيد

في القرآن الكريم

تأليف

أ.د. عبد الحليم حفني

الناشر مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا القاهرة ت: ٣٩٠٠٨٦٨

الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

مكتبة الآداب (على حسن)



تمهيد

أهداف الوعيد فى القرآن الكريم أبعد وأوسع بكثير مما توحيه النظرة العجلى، فقد يركز كثير من الناس أبصارهم على التخويف بجهنم وألوان عذابها فى الآخرة وعلى التدمير والتنكيل فى الدنيا ونحو ذلك، ولو أنهم أمعنوا التأمل فى صنوف الوعيد فى القرآن سواء فى الدنيا أو فى الآخرة لوجدوا أن ما ركزوا أبصارهم عليه هو أقل جوانب الوعيد عددًا. وقد يكون معظمه هو الأيسر شأنا فيما يتعلق بالتفنن فى صنوف الوعيد وتنويعه، ولو أعاد المتأمل إمعانه فقد يجد أن ما يبهره فى تأمله وإمعانه كان أيضا أيسر مما امتلأت به نفسه حين عاود التأمل والإمعان، وهذه ميزة القرآن عن أى أسلوب آخر، أو بمعنى أصح هذه درجة أسلوب القرآن فى تميزه عن أى أسلوب آخر، فمن الحق أن يقال إن من مزايا الأدب الجيد أن يزداد المتأمل فيه متعةً حين يعاود قراءته وتأمله؛ لأنه سيكتشف فى هذه المعاودة عمقًا أبعد فى معانيه وأهدافه وإشاراته، ولكن درجة أسلوب القرآن فى هذا المجال لا شك أنها ستكون فى تميزها سماءً عليا لا تُسامَى.

ومن أمثلة ذلك أسلوب الوعيد؛ فإن كثيراً من أساليب الأدب شعراً ونثراً يستخدم أسلوب الوعيد، ولكن هذا الوعيد كله يدور عادةً حول لون أو ألوان محددة معدودة من العقاب الذى يدور حول البطش والانتقام لذات الانتقام.

أما الوعيد فى القرآن فإن من أبرز ملامحه أمرين يتميز بهما عن سائر أساليب الوعيد فى غيره وهما:

أولاً: أنه يتنوع تنوعًا عجيبًا حسب اختلاف طبيعة النفوس، واختلاف البيئات، واختلاف كل شيء حتى المناخ؛ فكل نوعية من الناس لها وعيد يلائمها بحيث يكون أبلغ وأوجع فى إيلامها؛ فالعامة من الناس الذين يكتفون من الحياة بظاهرها وسطحها ولا يتخذون لأنفسهم وضعًا خاصًا يغلب على وعيدهم التخويف بالإيلام الجسدى كالأنواع العديدة التى يصطلونها من عذاب جهنم ولهيبها، أما الخاصة من الناس كالسادة وذوى الزعامة فإن وعيدهم يتميز بطابع الإذلال والإهانة، كهذا السيد الكبير ذى المال والبنين الذى يتحدى الله ورسوله وكتابه بجاهه وماله وتفوذه بين أتباعه، فإن كلَّ وعيده على كفره وتكذيبه وإفساده كان ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦] والخرطوم هو الأنف وتسمه

من الوسم وهو وضع العلامة لتكون سمةً لصاحبها، بمعنى أن هذا السيد البالغ العتوّ والشرك والإفساد بين الناس سيكون عقابه الكَيّ على أنفه ليكون ذلك سمةً وعلامةً له، ولو أن شخصًا عاديًا قيل له إن عقابك على كل ذلك سيكون الكى على أنفك أو فى أى موضع ما كان يأبه لذلك كثيرًا، وما كان ذلك ليصرفه عن شىء مما يفعل؛ فإن الكى لم يكن عندهم غريبًا، بل كثيرًا ما كانوا يطلبونه بأنفسهم للتداوى والعلاج، ومن أمثالهم المشهورة: «آخر الدواء الكَيّ»، ومثل هذا الشخص العادى قد لا يفرّق كثيرًا بين أن يكون الكى على الأنف، أو على موضع آخر، وقد لا يعنيه من الكى على الأنف إلا ما ينجم عنه من المساس بحسن المنظر، أما السيد صاحب الجاه والمنزلة بين الناس فإنه لا ينظر حينئذ إلى الكى على الأنف من زاوية حسن المظهر أو سوئه، وإنما ينظر إليه من زاوية المساس بعزته ومنزلته؛ فإن الأنف رمز العزة أو الذلة، ففى العزة يكون شموخ الأنف، وفى الذلة يكون رغم الأنف، وإذا كان خضوع الأنف معنويًا هو الذل ، فإن إخضاع الأنف حسيًا بالسيطرة والقهر، بل وبالكى، فيه أقصى الإذلال، ومثل هذا السيد الزعيم لو كان الوعيد له بالموت أو بأى عقاب ولو كان فى النار طالما احتفظ بكيانه وعزته حيًا أو ميتًا فإنه سيكون أيسر على نفسه من هذه الدرجة من الإذلال الذى لا يستطيع معه دفاعًا أو مقاومة، فإنهم كانوا يتفاخرون بأن الموت ولو فى أبشع صورة أهون عندهم من المساس بمنزلتهم بين قومهم، بل من المساس بمنزلة قومهم بين الأقوام الآخرين، أما الوعيد بجهنم وكل ما فيها فإنه يعلم إيلامها الشديد ولكنه ينظر أولاً إلى كيانه ومنزلته قبل كل شىء، ولو كان هذا الشىء جهنم، ومن عبارات أحد سفهاء المهرجين قوله: إننى أفضل المقام فى جهنم بين السادة وذوى السلطان على المقام فى الجنة بين الفقراء وعامة الناس.

وليس هذا مكان البسطة فى أى معنى، ولكن الهدف هو الإشارة إلى أن الوعيد فى القرآن يبلغ من دقته أن نجد لكل نوعية من الناس وعيدَها المناسب لحالها، والذى هو أبلغ فى التأثير فى نفوسها، وكذلك نلحظ أن البيئة تراعَى فى وعيد القرآن بوضوح: فالبيئة العربية مثلاً نجد مشاهدها واضحة فى الوعيد؛ فالجبال ستكون كالعهن المنفوش، والحجارة وقودًا لجهنم، ومن مشاهد الصحراء السراب الذى يتوعدهم القرآن بأن أعمالهم التى يتفاخرون بها سيجدونها سرابا مثله يوم القيامة، ومن مشاهد الصحراء موارد الماء التى يتنافس الرعاة وأصحاب الماشية على إيراد ماشيتهم إياها لتشرب، فالقرآن يتوعدهم بأنهم هم وآلهتهم التى يعبدونها سيكونون كالماشية التى تَرِدُ جهنم، ولكن لا لتشرب، وإنما لتصطلى من سعيرها فى مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]

ومن مشاهد البيئة العربية الإبل، ومن أمراض الإبل التى يعرفونها مرض الهيام، حيث يصاب البعير بخلل فى مسالكه البولية فلا يحتفظ بالماء فيظمأ ثم يشرب فلا يرتوى أبدًا، فالقرآن يتوعد كافريهم بأنهم سيصبحون كالإبل الهيم، فيشربون من حميم جهنم فلا يرتوون أبدًا، فى قوله تعالى: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۝ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤، ٥٥] وهكذا نجد كل معالم البيئة واضحة فى وعيد القرآن؛ لأن الشىء المشاهد المألوف أقرب إلى الأفهام وأوقع فى النفوس.

وكذلك المناخ نجده واضحًا فى وعيد القرآن وفى عقابه؛ فالريح الصرصر شديدة البرودة، والعواصف، والصواعق، وما يصاحب بعض ذلك من أمطار وسيول مدمرة وغير ذلك كان من وسائل العقاب التى يتوعد القرآن بأنها يمكن أن تتكرر على كل من يعاند الله ورسوله ويسلك مسلك السابقين من أعداء الله كقوم نوح وعاد وثمود.

بل يمكن أن نلحظ توافقًا فى العقاب بين مميزات حياة المعاقبين ونوع العقاب؛ فمثلاً حين جعل فرعون من أبرز ما يباهى به قوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] جعل الله هذه المياه نفسها هى مصدر هلاكه، حين أغرقه الله.

وكذلك «عاد» الذين عتوا وتجبروا واستكبروا وقالوا مَن أشد منا قوة، فإن الله أرسل إليهم أرقَّ خلقه وألينهم وهو الهواء، فأكسبه قوة جعلته أشد منهم قوة وعتوا فى صورة الريح المدمرة التى أهلكتهم.

وكذلك ثمود الذين اقترن كفرهم بالطغيان، والذين بلغوا من قوتهم أن سخروا الجبال لينحتوا فيها بيوتًا محكمة آمنة، فإن الله يرسل إليهم ومضة واحدة من ومضات غضبه فيدمرهم تدميرًا، ليُريهم ويرى أمثالهم من بعدهم أن كل ما صنعوه وأفنوا فيه أعمارهم وأجيالهم يمحقه الله ويمحقهم معه حين يشاء بومضة واحدة، قد تكون هذه الومضة رجفة تزلزل الأرض، وقد تكون عاصفة خاطفة كقذيفة من قذائف الهواء، ولكنها فى أى حال وأى صورة تصغر بجوارها أية قوة، ويذل أمامها أى جبروت.

وأما الأمر الثانى مما يتميز به وعيد القرآن عن غيره فهو أنه إنما يهدف إلى الإصلاح وإيقاظ العقول، وليس إلى محض الإذلال والانتقام، فكل وعيد فى غير القرآن إنما يهدف إلى التخويف أو إظهار الرغبة فى الانتقام، أما وعيد القرآن فإنه يعتمد أساسًا ودائمًا على إنذار المنحرفين عن طريق الله والمعاندين له ليعودوا إلى طريق الله، فإذا عادوا محى عنهم كل ما أسلفوه مهما يكن سوؤه، ومهما يكن من غضب الله عليه، وكأن شيئًا مما أسلفوه لم يكن.

وليس المهم فيما يترتب على الوعيد من استجابة له أو عدم استجابة، وإنما المهم أسلوب الوعيد نفسه، فإن أساليب الوعيد فى غير القرآن وإن كان بعضها يهدف إلى استجابة الخصم لهذا الوعيد، إلا أن الأسلوب نفسه إنما يعتمد فى العادة على أحدأمرين، إما على التخويف وإثارة الرهبة لدى الخصم كوعيد الانتقام والثأر، وإما على الإذلال وطلب نزول الخصم إلى درجة أدنى من درجته التى هو فيها كالوعيد الذى يطلب فيه من الخصم الاستسلام والرضوخ من مثل ما يحدث فى الحروب، فإن القوى يتوعد خصمه طالبًا خضوعه واستسلامه على أساس أن يظل بعد استسلامه خاضعًا ذليلاً، وهى درجة أدنى مما هو فيه قبل الاستسلام، أما وعيدالقرآن فإنه يدعو إلى العلو وليس إلى الهبوط، يدعو إلى منزلة أعلى وأكرم فى الدنيا بتصحيح العقيدة واستقامة السلوك، بدل إهدار العقول فى عبادة غير الله، والمساس بحقوق الناس وكرامتهم فى فساد السلوك، ويدعو إلى منزلة أعلى وأكرم فى الآخرة بالتمتع بالمقام الكريم فى الجنة بدل المقام المهين فى جهنم.

فالسمة الغالبة على كل وعيد القرآن هى الدعوة من خلال الوعيد إلى إيقاظ العقول واستخدام التفكير، ففى المثال السابق من قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾[الأنبياء: ٩٨] نجد الهدف ليس مجرد دفعهم إلى توقع العقاب والإذلال وإنما الهدف الأوضح هو دعوتهم إلى التفكير واستخدام العقول، وهذا فى صريح قوله تعالى: ﴿لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها﴾ عقب قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ حيث نجد المعنى والهدف معًا يتركزان فى دعوتهم فى آخر التعبير إلى التفكير فى: كيف تكون معبوداتهم آلهةً ومع ذلك ترغم على هذا الإذلال فى تصويرهم فى صورة الحجارة والحطب، وعلى هذا العقاب فى جهنم؟

ومما يزيد الأمر وضوحًا أنه حتى العقاب الدنيوى يجعله القرآن وسيلةً للإصلاح وليس غاية لذاته، ومن أمثلة ذلك عقوبة الإفساد فى الأرض التى أطلق القرآن فيها يدَ القاضى بين القتل والصلب وتقطيع الأيدى والأرجل من خلاف والنفى حسبما يقتضى نوع الإفساد، فإن القرآن يأمر بإلغاء كل هذه العقوبات مهما كان نوع الإفساد فى الأرض إذا جاء المفسد فى الأرض من تلقاء نفسه تائبًا مستقيمًا، فمع أنه حارب الله ورسولَه وسعَى فى الأرض فسادًا إلا أنه إذا تحقق الهدف وهو الصلاح فإن الوسيلة وهى العقاب تلغى، ويصبح هذا المفسد فى الأرض كالكافر الذى يسلم، فإن إسلامه يَجُبُّ ما قبله من الكفر وما صَاحَبَهُ.

ومما لا شك فيه أن حكمة الله أكبر وأوسع وأعمق من أن يحيط بها إدراك مخلوق، ولا إدراك المخلوقين مجتمعين؛ فالله خلق الكون بمفرده، وجعل له سننا وقواعد ونظمًا وحدودًا

لا تحيط بها المدارك مهما عظمت، وليس معنى ذلك أن حكمة الله محجوبة عن خلقه، وإنما معناه أن مدارك المخلوقين سواء من البشر ومن غيرهم أصغر من أن تتسامى وتتطاول للاطلاع على حكمة الخالق المدبر، وإنما يتاح لكل ذى إدراك أن يلمح شيئًا من حكمة الله بمقدار سعة إدراكه وعمقه، ولكن النتيجة فى نهاية الأمر أن هذه المدارك مهما تفاوتت فلن تبلغ من إدراك حكمة الله شيئًا كبيرًا، ولعل من أقرب الأمثلة إلى ذلك أن الشخص حينما يقف لينظر أمامه فى أية جهة، سواء إلى أمام أو فوق، فإنه يعتقد أنه رأى أمدًا بعيدًا وفضاء واسعًا بينما هو فى الحقيقة لم ير إلا مدى قصيرًا جدًا بالقياس إلى الفضاء الممتد أمامه، فالذى ينظر أمامه مثلاً فإن مساحة الأرض أمامه فى الواقع تعد بعشرات الآلاف بل ومئات الآلاف من الكيلو مترات ولكنه هو لم يتبين منها إلا كيلو مترًا واحدًا أو بضعة كيلو مترات على أحسن الفروض، ولكنه يخيل إليه أنه رأى فضاء شاسعًا وأمدًا بعيدًا، وكذلك المتأمل بعقله وفكره، والمطوف بخياله يخيل إليه أنه يدرك آفاقًا وآمادًا لا حدود لها، أو لها حدود مترامية متباعدة، بينما هو فى الحقيقة لا يتجاوز كثيرًا وضع الرائى ببصره فى أنه لا يدرك إلا مدى محدودًا جدًا، وإن خيل إليه أنه يدرك مدى بعيد الآفاق.

وكذلك كل مدارك الإنسان الحسية كالسمع والبصر، ومداركه الوجدانية كالعقل والخيال، خلقه الله فى وضع ينبغى أن يثير لدى العاقل التفكير والتأمل من ناحيتين، إحداهما المحدودية المشار إليها، حيث ينبغى مثلاً للرائى ببصره أن يفكر: إذا كنت لا أرى مما أمامى إلا أيسره، فكيف يكون ما لم أره؟ وما صفته؟ ومن الذى خلقه؟ ولماذا لم أره كله؟ وهكذا.

وكذلك ينبغى للمطوف بعقله بعد أن يوقن بأن ما أدركه وعرفه وفهمه ليس إلا أيسر ما فى الكون وأقله شأنًا، ينبغى حينئذ أن يفكر إذا كان الأمر كذلك فكيف يكون هذا الذى لم أدركه؟ وما صفته، وما حقيقته، وما هدفه؟ ومن الذى خلقه؟ ولماذا لم أدركه كله؟ وهكذا.

والناحية الأخرى التى تبدو فيها أيضًا الدعوة إلى التفكير والتأمل هى التفاوت بين الناس فى كل مداركهم الحسية والوجدانية العقلية، فمن الواضح أن الناس جميعًا يتفاوتون فى كل هذه المدارك على اختلاف فى درجات التفاوت، ولا شك أن لله فى ذلك حكمة يعلمها ويريدها، فما هى هذه الحكمة؟ ألا ينبغى أن يتساءل كل عاقل: لماذا لم يكن الناس فى درجة واحدة فى مداركهم، أو حتى فى درجات متقاربة كالتقارب الذى بين المخلوقات الأخرى فى كل مقوماتها؟ وماذا كان يحدث لو أن الناس جميعًا كانوا فى درجة واحدة؟ وقبل ذلك من الذى خلق هذا التفاوت؟ وما الحكمة فى ذلك؟

وليس هذا استطرادًا أو إبعادًا عن مسار الحديث، فإذا كان الهدف من هذه البسطة اليسيرة إيضاح أن حكمة الله أوسع وأعمق من أن تحيط بها المدارك والعقول، وأن هذه الحقيقة لن تدرك إلا باستخدام العقول، وإيقاظ كل عوامل الإدراك، فإن أسلوب الوعيد فى القرآن من أهم ما يستوجب استخدام العقول وتركيز التأمل لمحاولة استشفاف شئ من جوانب حكمة الله فى تنويعه واختلاف ألوانه، وذلك من جانبين، جانب الأهمية، وجانب التنويع:

١- فأما أهمية الوعيد نفسه فإنها تنبع من أنه أحد جناحى الأنبياء المرسلين من الله، فكل نبى يرسله الله يحمل الدعوة إلى الله، وكل دعوة إلى الله يلازمها جناحان، هما: جناح التبشير بالثواب لكل من ينحاز إلى جانب الله، وجناح الإنذار بالعقاب لكل من يتمرد على طاعة الله، وكذلك كان محمد ﷺ الذى يتكرر فى القرآن كثيرًا أنه بشير ونذير، والإنذار هو الوعيد، فالوعيد هو شق أية دعوة دينية أو أحد جناحيها، وليست هناك أهمية تعلو هذه الأهمية.

٢- وأما جانب التنويع فإن المتأمل يجده واضحًا فى كل ألوان الوعيد، ومن أمثلة ذلك أن كل نوعية من أعداء الله يأتيها الوعيد من الجوانب التى هى أوجع لها وأبلغ تأثيرًا فيها، فالعامة من الناس الذين يسيطر عليهم الانشغال بهموم أجسادهم من الطعام والشراب والملبس ونحو ذلك يجدون وعيدهم فى الآخرة بطعام أيضًا وشراب وملبس ومسكن، ولكن كل ذلك من النار، وأما الخاصة ذوو السيادة الذين يضعون همهم فى المحافظة على منزلتهم وعلو شأنهم بين الناس فإنهم يجدون وعيدهم إهانة وإذلالاً، وكذلك الذين يجعلون هدفهم فى حياتهم هو الكسب من كل شىء يجدون وعيدهم فى القرآن الخيبة والخسران.

وهكذا كلما تأمل المتأملون فى أسلوب القرآن وجدوا فيه الفيض والعمق الذى لا قرار له، والذى لا يستطيع أحد مهما يبلغ أن يقول إننى وصلت فيه إلى قرار.

وغاية ما يبلغه أى متأمل فى القرآن أن يقول كما أقول إننى أرجو ألا أكون قد عدت من طوفتى مع القرآن صفر اليدين، وقد يتفاوت ما يعود به المتأملون - إن وفقوا - كثرةً أو قلةً، ولكن القرآن كان دائمًا وسيبقى إلى ما شاء الله موردًا لا يغيض، ومعينا لا ينقص فضلاً عن أن ينضب.

وفى كل حال استغفر الله مما قد يكون من كبوة الفكر، أو زلة القلم، وأسأل الله حل علمه التوفيق.

د. عبد الحليم حفنى

الابتـلاء و العقـاب

يحدث لبس لدى كثير من الناس بين الابتلاء والعقاب حينما يكون الابتلاء لونا من الضر والألم ، فعندما يرون شخصا أصابه مس من مرض طويل، أو فقر ، أو حرمان مما يتطلع إليه الناس عادة ، يتبادر إلى أذهان الكثيرين من الناس أن ما أصاب هذا الشخص إنما هو انتقام وعقاب من الله ، فإذا وجدوا فى حياته سيئة قالوا إن هذا عقاب هذه السيئة ، وإذا لم يجدوا فى حياته سوءا يقولون لعله يحمل فى طويته وضميره شرا ، ولا يشفع له عندهم ما قد يعلمونه عنه من استقامة السلوك وحسن التدين ، وهذا ما آثار الخلط بين الابتلاء والعقاب ، هذا الخلط الذى يضلل ضعاف الإيمان ومرضى النفوس ، حيث يجدون المؤمنين وملتزمى الدين أشد عرضة لألوان الضرر ومختلف المكاره ، بينما يجدون أعداء الله وذوى الصلة الواهية بالدين أقرب إلى متع الحياة وطيبات الدنيا ، فيظنون بالإيمان وبالدين كله الظنون ، حتى يصل الأمر إلى ما وصلت إليه نزعات الإلحاد التى تخيم على معظم العالم اليوم من أن الدين هو طريق التخلف والفقر والجهل وسائر ما ينعتون به أصحاب الدين من مكاره .

ومما يزيد فى اللبس ، ومما يزيد فى ضلال أصحاب النفوس المريضة أن يروا الذين يمثلون الجانب الآخر وهم أعداء الله وذوو النفوس المريضة والسلوك المعوج راتعين فى النعم ، غارقين فى النعيم ، يعبون من متع الحياة وطيبات الدنيا ، فتكتمل فى نفوسهم حلقة الضلال ، حيث يقولون صراحة أو ضمنا : إذا كنتم قد رأيتم الدين كيف أصاب أصحابه بما أصابهم به فانظروا كيف وصل الذين طرحوا الدين وراء ظهورهم أو ألقوه تحت أقدامهم إلى ما وصلوا إليه ، والواقع أن هذا كله إنما ينبع من النظرة الواهمة القاصرة التى تركز بصرها على الحياة الدنيا منفصلة عن الآخرة ، باعتبار أن ما فى هذه الدنيا هو كل شىء بالقياس إلى الإنسان ، مع أن كل العقول على اختلاف مداركها ودرجاتها ومذاهبها لا تختلف فى أن كل ما يعرض للإنسان فى حياته الدنيا إنما هو عرض زائل مؤقت ، وأن كل ما يملكه الإنسان فى الدنيا مهما يكن شأنه فإن ملكيته مؤقتة مهما يطل به الزمان ، وإنها لابد منتقلة إلى غيره عند موته ، والملكية لا تعد ملكية حقيقية إلا إذا اكتسبت صفة الدوام ، أما كونها مؤقتة فإنها حينئذ لا تعدو

أن تشبه شخصا استعار أو اقترض مالا من شخص آخر ، فإنه حينئذ مدين بهذا المال لصاحبه ، والمدين لا يعد غنيا بما هو مدين به ، فضلا عن أن يوصف بأنه مالك لهذا المال

ومن ثم فالذين يفرحون بما يملكون من عرض الدنيا ، والذين يعجبون بمن يملكون هذا العرض واهمون ، يخدعون أنفسهم بالزيف والبريق الخادع المؤقت .

كما أن الذين يتشفون فيمن يصيبهم الضر من الصالحين ، ويحسبون هذا عقابا لهؤلاء الصالحين أو انتقاصا من أقدارهم أو من سعادتهم هم أيضا واهمون ، يخدعون أنفسهم عن محاولة رؤية الحقيقة أو استشفافها من وراء الضباب .

أما الحقيقة فإن من ينظر إليها من خلال الدين فمهما يكن بصره كليلا فإنه سيرى معالمها واضحة بارزة ، متمثلة فيما يلي .

أولاً : الابتــلاء :

جعل الله الابتلاء سنة ملازمة للإيمان ، والابتلاء هو الامتحان ، فكل من يدعى الإيمان بالله يتعرض للامتحان لاختبار مدى صدقه وثباته فى هذه الدعوى ، ولا غرابة فى ذلك ، بل هو المنطق والمنهج الذى يسير عليه الناس جميعا فى هذه الحياة ، فكل من يدعى دعوى يترتب عليها نفع للمدعى ، أو مطلب له ، لابد أن يمتحن لبيان صدقه أو كذبه فى دعواه ، فالطالب الذى يتقدم إلى الجهة التى تعلمه طالبا رفعه إلى مستوى أعلى ، مدعيا أنه أهل لذلك ، لابد أن يمتحن لبيان مدى صدقه ، ثم مدى استحقاقه لما يطلب ، وكذلك الذى يتقدم طالبا مزاولة أى عمل فى أية مهنة ، ولو كان نجارا أو حدادا أو بناء ، لابد أن يمتحن لبيان مدى إجادته لهذه المهنة ، أو أن تطلب منه شهادة تثبت أنه امتحن فى هذه المهنة أو زاولها بنجاح ، وكذلك من يدعى الإيمان لابد أن يمتحن لبيان مدى صدقه فى دعواه ، ومن ثم مدى استحقاقه لما يطلب أو ينتظر من ثواب الله ، والذى يتأمل أوامر الله وتكاليفه لعباده يجد أنها صورة من واقع حياتهم الذى يتعاملون به ويتعارفون عليه (١) ولذلك جعل الله الابتلاء ملازما للإيمان فى كل عصر وكل

(١) أنظر كتاب بين الدين والحياة للمؤلف طبع الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة

مكان ، وهذا صريح فى قوله تعالى (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) (١) ومن الملحوظ أن هذا الأسلوب سيق مساق الاستنكار ، بمعنى أن الله سبحانه ينكر على الذين يظنون ،ن الله يترك من يدعى الإيمان دون أن يمتحنه .

وحيث كانت الامتحانات فى عرف البشر جميعا يتحدد مستواها فى الصعوبة واليسر بمقدار المستوى الذى يكون فيه الطالب راغبا فى الانتقال إلى ما هو أعلى ، فكلما علا المستوى كان الامتحان أصعب ، فكذلك امتحان الإيمان ، كلما علت درجة صاحبه فيه كان امتحانه أشد وأصعب ، ومن هذا القبيل ما ورد فى الحديث النبوى (أشد الناس ابتلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل)(٢) ويضرب القرآن أمثلة للابتلاء الرهيب الذى تعرض له الأنبياء ، وكانوا فى درجة الابتلاء أيضا بمقدار درجاتهم عند الله ، فلما بلغت منزلة إبراهيم عليه السلام أن يتخذه الله خليلا ، كقوله تعالى (واتخذ الله إبراهيم خليلا) (٣) لأن إيمان إبراهيم كان إيمان أمة من الناس مجتمعة وليس إيمان فرد ، كما يقول تعالى (إن ابراهيم كان أمة . . . .) (٤) لذلك كان ابتلاؤه أشد ألوان البلاء ، ومن ذلك أن قومه من المشركين حكموا عليه بإلقائه حيا فى النار إذا لم يرجع عن إيمانه بالله الواحد ، فلم يتزعزع ، وأرادوا أن تكون النار التى يلقونه فيها بالغة الرهبة ، وبالغة الشدة فى حرارتها ، فلا تخبو ولا تضعف حرارتها من رياح تهب عليها ، فأخذوا يبنون بناء لتكون النار فى داخله ، وليكون الزمن الذى يستغرقونه فى البناء وفى إشعال النار زيادة فى إثارة الخوف والرعب فى نفس من ينتظر إلقاءه فيها وهو ابراهيم ، ولكن ابراهيم ازداد إصرارا وتشبثاً بإيمانه (قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم) (٥) ومن البلاء الرهيب لإبراهيم أن يؤمر بذبح فلذة كبده بيده ، فيرى يده وهى تزهق روح ابنه ، ويرى السكين وهى تغور فى عنق ابنه ، ويرى ابنه وهو يتجرع سكرات الموت من يد أبيه ، وفوق ذلك فهو لا يعلم سببا يدعوه إلى ذبح ابنه ، ولا جناية جناها ابنه ، ولا شىء إلا أن الله يأمره بهذا دون

---

(١) أول سورة العنكبوت .
(٢) رواه ابن حبان .
(٣) ١٢٥ سورة النساء .
(٤) ١٢٠ سورة النحل .
(٥) ٩٧ سورة الصافات .

بيان سبب أو حكمة ، بل دون أن يكون وحيا صريحا من الله ، وإنما هى رؤيا منام يؤمر فيها بذبح ابنه بيده ، وكل ذلك لم يزعزع إيمان ابراهيم قيد شعرة ، بل زاده إصرارا وثباتا وحرصا على تلبية أوامر الله مهما تكن صورتها ، فأسرع إلى ذبح ابنه لولا أن الله كف يده فى اللحظة الأخيرة ، ولكن الله سبحانه يشهد بأنه كان امتحانا بالغ الشدة حيث يقول (إن هذا لهو البلاء المبين) (١) .

وكذلك يتعرض نوح عليه السلام لامتحان رهيب ، حيث يرى فلذة كبده يغرق أمامه ، وهو يملك أن ينجيه ، ولكنه لا يستطيع لأن كفر ابنه يحول بينهما ، بل إن الله سبحانه يلوم نوحا على مجرد حرصه ورغبته فى نجاة ابنه مع علمه بكفره ، مشيرا إلى نوح بأن العلاقة عند الله ليست بالأنساب والأرحام ، وإنما هى بالإيمان ، أما علاقة الأنساب والأرحام فهى من أعراض الدنيا الزائلة ، ليعودوا بعد الموت وكل منهم كيان قائم بذاته ومسئول عن نفسه ، دون أنساب بينهم وأرحام ، كما فى القرآن (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) (٢) ولذلك يقول الله لنوح عن ابنه (إنه ليس من أهلك) (٣) أما الأنساب عند الله فهى أنساب الإيمان ، كقوله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) (٤) وهى التى ينبغى أن يترتب عليها ما يترتب على العلاقات من صلة فى الدنيا ، وهى أيضا الروابط فى الجنة ، فأهل الجنة على كثرة عددهم كأنهم أسرة واحدة ، ولكن أشدهم قربا إلى بعض من يجمعون بين صلة الإيمان وصلة القربى والرحم ، ولذلك يحدثنا القرآن فى أكثر من موضع عن اجتماع أهل الجنة بمن كانت تربطهم بهم فى الحياة روابط زوجية أو روابط قرابة إذا كانوا من المؤمنين ، والذين يؤمنون حق الإيمان ، ويستجيبون له حق الاستجابة ، يعلمون هذا حق العلم ، وينفذون مقتضياته حق التنفيذ ، مهما يبلغ ذلك من إيلامهم ، ومن هذا ما يروى من أن أحد أبناء أبى بكر الصديق كان مشركا يوم بدر ، وكان يقاتل مع المشركين ، فقال لأبيه بعد أن أسلم : والله لقد كنت فى متناول سيفى يوم بدر فحدت عنك ، فإذا أبوه يقول له : ولكنك والله لو كنت فى متناول سيفى يومئذ ما حدت عنك

---

(١) ١٠٦ سورة الصافات   (٢) ١٠١ سورة المؤمنون .

(٣) ٤٦ سورة هود .   (٤) ١٠ سورة الحجرات .

وكذلك يحدثنا القرآن عما أصيب به الأنبياء من بلاء شديد ، سواء فى أنفسهم ، أو فى الأعزاء عليهم من أولاد أو أزواج ، مما لا داعى للإفاضة فيه ، ولكنه تأييد واضح لقول النبى صلى الله عليه وسلم (أشد الناس ابتلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) بمعنى أنه كلما علت درجة المؤمن فى الإيمان كان ابتلاؤه وامتحانه أشق وأصعب ، ولا غرابة فى ذلك ، فهو منطق الحياة الذى يسير عليه الناس جميعا فى امتحان كل من يدعى دعوى يريد أن يحصل بها على ميزة ، والإيمان دعوى يريد منها صاحبها أن يحصل على رضا الله والجنة ، فلابد أن يتعرض للامتحان والابتلاء .

ومما يتوارد فى هذا المجال من تساؤل أن المؤمن قد يتعرض كما هو مشاهد لتكرار البلاء ، فلماذا لم يكن البلاء مرة واحدة ، أو في مرحلة واحدة كافيا ؟

والجواب أنه أيضا بمنطق الحياة الذى يتعارف عليه كل الناس ، أن الطالب للترقى كلما أراد أن يرتفع إلى درجة أو مرحلة أعلى يتعرض لامتحان ليتبين مدى صلاحيته لهذا الترقى ، كطالب العلم الذى يريد أن ينتقل إلى مرحلة أعلى فلابد أن يمتحن ، فكذلك المؤمن الذى يريد أن ترتفع درجته فى القرب من الله ، وفى الحرص على الإيمان ، يتعرض لتكرار الامتحان والابتلاء ، كلما رغب فى رفع درجته ، ولا يتوقف امتحانه إلا إذا توقف عن الرغبة فى الترقى .

ثانيا : العقاب :

الأصل فى الثواب والعقاب أن يكون فى الآخرة وليس فى الدنيا ، وليس صحيحا ما قد يتصوره بعض الناس من ربط ما يصيب الإنسان فى الدنيا من خير أو ضر بموقفه من الدين أو السلوك ، بمعنى أنه إذا أصابه خير يقال إن هذا جزاء خير قدمه ، وإذا أصابه مكروه قيل إنه جزاء شر اقترفه ، وإنما الصحيح أن الأصل فى الثواب والعقاب عند الله أن يكون فى الآخرة وليس فى الدنيا ، وأنه إذا وقع فى الدنيا شيء من ثواب أو عقاب فإنما يكون استثناء طارئا لسبب معين يرتبط بحكمة الله فى تنظيم شئون الدنيا ، وفى ربطها بالآخرة .

---

(١) رواه ابن حبان

ويمكن تقريب هذا المعنى إلى الأذهان إذا قيس على ما يتعارف عليه الناس فى حياتهم وفى شئونهم ، فمن المسلم به فى الدين أن حياة الفرد كلها منذ تكليفه إلى نهاية حياته بكل ما يعرض فيها ليست إلا امتحانا للفرد لبيان موقفه الدينى إزاء كل ما يعرض له فى حياته ، ومما يتعارف عليه الناس جميعا ولا يختلفون فيه أن من يدخل امتحانا يترك إلى نهاية الزمن المحدد لنهاية الامتحان ، ولا يحكم بنجاحه أو فشله ، ولا بدرجته فى النجاح أو الفشل إلا بعد نهاية الامتحان ، أما فى أثناء الامتحان فهو حر فى أن يحسن أو يسىء كيفما يشاء ، إلا إذا أحدث من السلوك ما يخل بنظام الامتحان فيمكن عندئذ أن يوقع عليه عقاب فورى فى أثناء الامتحان للمحافظة على نظام الامتحان الذى يشاركه فيه آخرون ، كما أنه يمكن أن يوجه إلى الطالب الذى يبدى حرصا واضحا ومتميزا على نظام الامتحان شىء من الثناء عليه وكأنه ثواب على حسن سلوكه .

وكذلك الحال فى أمر الدين ، فإن الثواب والعقاب إنما يكون منطقيا بعد انتهاء الحياة التى هى مدة الامتحان ، ولكن إذا صدر من فرد أو جماعة ما يخل بنظام الحياة التى جعلها الله مكانا وزمانا للاختبار ، فيمكن أن يوقع الله على هذا الفرد أو هذه الجماعة عقابا عاجلا للمحافظة على النظام الذى وضعه الله لهذه الحياة ، فعقابهم يكون ردعا لهم ، وعبرة لغيرهم ممن يحاولون التجرؤ على المساس بنظام الله فى الكون ، كما فى أحداث كثيرة سردها القرآن أنزل الله فيها عقابه الدنيوى العاجل بجماعات أو أفراد حاولوا أن يخرقوا نظام الله فى هذا الكون .

كما أنه يمكن أن يكرم الله بعض عباده من أفراد أو جماعات ممن يلتزمون طريق الله ويحافظون على نظامه بصورة متميزة ، كما سرد القرآن أحداثا ومواقف كثيرة عجل فيها نوعا من الثواب لبعض عباده هؤلاء ، وكما وعد فى القرآن وعودا محددة لمن يلتزمون طريقه التزاما متميزا من مثل قوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة . . .) (١) وقوله تعالى (ولينصرن الله من ينصره . . .) (٢)

---

(١) ٩٧ سورة النحل .   (٢) ٤٠ سورة الحج .

وأما نوعية خرق نظام الله ، أو كيفية هذا الخرق فإن الله سبحانه هو الذى يحدده ويقدر مدى استحقاقه لتعجيل العقاب فى الدنيا ، ولكننا نستطيع أن نلتمس فى القرآن كثيرا من أسباب العقاب الدنيوى ، حيث يرتبط كل عقاب دنيوى ذكره القرآن بالسبب فى تعجيل العقاب ، كما سنرى فيما نستقبل من الحديث فى بعض فصول الكتاب .

ثالثاً : الفرق بين الابتلاء والعقاب :

وكل ما سبق من الحديث لا ينفى اللبس الذى يتراءى لكثير من الناس بين الابتلاء والعقاب ، ولا يزال التساؤل قائما : كيف يمكن التفريق بينهما ، خصوصا إذا اتخذا صورة واحدة ؟

والجواب أن بين الابتلاء والعقاب فروقا كثيرة من أبرزها :

(١) أن الابتلاء عام فى كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر ، ومن نفع أو ضر ، فكل ما يعرض فى حياة الإنسان من شىء يسره ، أو شىء يكرهه إنما هو اختبار من الله ليستبين موقف المرء من هذا الذى يصيبه ، هل يشكر النعمة إذا عرضت فى حياته ، ويؤدى حقوق الله فيها ، موقنا بأنها من الله مهما يكن اجتهاده أو اجتهاد غيره فى وصولها إليه ؟ وهل يصبر على المكروه إذا أصابه ، موقنا بأنه من قدر الله ، وأنه اختبار لموقفه من هذا المكروه ؟

فكل ما يصيب الإنسان من خير أو شر إنما هو اختبار وامتحان له ، كما فى صريح القرآن (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) (١) ومن الخطأ تصور أن الابتلاء بالمكاره والشدائد أصعب من الابتلاء بالنعم والمسرات ، فإن الأمر بالعكس ، وهو أن الابتلاء بالنعم هو فى حقيقته أشر وأقسى من الابتلاء بالمكاره ، وذلك أن الإنسان فى حال المكاره والشدائد يكون

---

(١) ٣٥ سورة الأنبياء .

قريبا من الله ، مستغيثا به ، داعيا إياه ، أما فى حال النعم فإن الإنسان يشغل عادة بهذه النعم ، ويبعد قليلا أو كثيرا عن الشعور باللجوء إلى الله ، حيث لا يجد حاجة عاجلة أو ملحة تدعوه إلى اللجوء إلى الله ، وصدق الله حيث يقول (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) (١)

أما العقاب فلا يكون إلا ضررا ومكروها ، وقد تتعدد ألوان العقاب الدنيوى ، وتختلف أشكاله كما عرض القرآن نماذج كثيرة متعددة مختلفة الأنواع لما أنزله من عقاب دنيوى بالذين حاولوا أن يتحدوه ، أو أن يشاركوه فى خصائصه ، أو يخرقوا سنن الكون أو نظام الحياة التى أرادها ، أو غير ذلك مما عجل غضبه وانتقامه ، وفى كل هذه الأحوال كان عقاب الله بالغ الإيلام ، أو ما حق الدمار .

أما الذين لا يتخطون هذه الحدود التى تعجل بعقاب الله فى الدنيا ، فيقصرون شرهم على أنفسهم ، فهؤلاء مهما يبلغ كفرهم ، ومهما يكن عصيانهم فإن حلم الله عادة يسعهم حتى يلاقوا عقابهم فى الآخرة ، وقد بلغ حلم الله أن وسع إبليس ، فأمهله الله إلى يوم القيامة ، ومن هذا يتبين أنه إذا كان الابتلاء ملازما للإيمان كما سبق ، فإن العقاب الدنيوى غير ملازم للكفر أو العصيان .

(٢) ومن الفروق بين الابتلاء والعقاب أن الشأن فى الابتلاء أنه مؤقت ، ومهما يطل به الزمن فله نهاية ، سواء من حيث الحدث نفسه ، أو من آثاره ، فالحدث نفسه كالمرض مثلا ، فقد يكون المرض ابتلاء من الله كما حدث لنبى الله أيوب ، حيث ألم به مرض عنيف موجع كما يستشف من تعبير القرآن عنه ، ويبدو أن أمده لم يكن قصيرا ، ولكن حيث كان ابتلاء وامتحانا فقد كانت له نهاية ، وكانت نهاية طيبة سعيدة يسر الله لها سببا يسيرا ، هو أن فجر الله له عين ماء ، وأمره أن يغتسل منها ، فإذا هو صحيح سليم الجسد من المرض ، وسليم النفس من الهم والألم (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) (٢) فركضة من رجله فجرت العين التى اغتسل منها فبرأ جسده ، وشرب منها

---

(١) ٦ سورة العلق ، والطغيان مجاوزة الحد فى كل شىء ، ومنه (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) ١١ سورة الحاقة .

(٢) ٤٢ سورة ص .

فبرأت نفسه ، وأهم من كل ذلك أنه نجح فى الاختبار ، حيث صبر على هذا البلاء الأليم صبرا شهد له به ربه سبحانه حيث يقول (إنا وجدناه صابرا . . .) (١)

وأما آثار الابتلاء ، فمثاله الابتلاء بموت شخص عزيز كالولد ، فالحدث نفسه وهو الموت لا يرد ، وليست له نهاية ، ولكن آثاره وهى الحزن لا تدوم ، وانما يعين الله المبتلى بها على الصبر فتذهب رويدا رويدا حتى تزول أو تكاد ، وبهذا يكون جوهر البلاء وهو ألم الحزن قد زال .

وهكذا يكون الشأن فى الابتلاء أن يكون مؤقتا ، فيزول حقيقة كالمرض ، أو حكما كالحزن على فقد الأعزاء .

أما العقاب فإنه دائم ، ولا يمكن أن يزول ، وكذلك آثاره ، وذلك أن الشأن فى العقاب أن يكون له جانبان ، أحدهما أنه جزاء على فعل سيء ، والآخر أن يكون عبرة للآخرين حتى لا يقعوا فى مثل ما وقع فيه المعاقب ، وكلا الجانبين ثابت غير مؤقت ، لأن الفعل الذى عوقب عليه صاحبه وقع فعلا ، ولا يعقل تداركه ، فكذلك العقاب عليه يكون مماثلا له فى الثبات والدوام ، وكذلك جانب العبرة ، فإن الهدف منه أن يكون ماثلا بصفة دائمة حتى يتحقق الغرض منه .

ومن ناحية أخرى فإن الابتلاء فى حقيقته وسيلة وليس غاية ، وسيلة لبيان موقف المبتلى إزاء هذا الابتلاء ، أما العقاب فإنه غاية لذاته ، حيث يقصد منه أن يكون جزاء على فعل سيء وقع ممن وجه إليه العقاب ، وحيث كان العقاب من الله فلا يملك أحد أن يرده ، ولا أن يغير مساره ، كما يقول تعالى (ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) (٢) ولذلك كان من الملحوظ أن الأماكن التى دمرها الله لا زالت آثار الدمار فيها باقية رغم تباعد الزمان ، وستظل إلى يوم القيامة ، لتظل العبرة ماثلة واضحة .

والنبى صلى الله عليه وسلم يضرب مثلا رائعا لبيان الفرق بين الابتلاء والعقاب من حيث

(١) ٤٣ سورة ص .

(٢) ١١٠ سورة يوسف .

التوقيت والدوام فيقول (مثل المؤمن كالخامة من الزرع من حيث أتتها الريح كفأتها ، فإذا اعتدلت تكفأُ بالبلاء ، ومثل الفاجر كالأرزة الصماء لا تزال حتى يقصمها الله إذا شاء) (١) فالمؤمن فى موقفه من البلاء يشبه النبات الرطب الذى يكون عوده أنبوبا أجوف لينا مثل أعواد القمح والشعير ، فهذا النبات يظل عرضة للرياح تكفيه وتعدله ، وما إن يعتدل ويستقيم حتى تكفيه الريح مرة أخرى ثم تعدله ، وهكذا ينكفىء فيعتدل ، ويعتدل فينكفىء ، وفى كل مرة قد يلامس الأرض فى انكفائه أو يكاد ، ولكنه يعود معتدلا مستقيما كأنه لم ينكفىء قط ، وهكذا حال المؤمن ، مهما تواردت عليه مصادر الشدائد والآلام ، فإنه قد يميل معها فيمرض أو يحزن أو يفتقر ، ولكنه لا ينهار ولا يسقط ، وإنما يظل متماسكا صامدا فى أثناء ميله مع الأحداث ، ثم يعود شامخا بإيمانه ، صلبا بثقته فى ربه ، وهكذا شأنه مع الأحداث مع تكاثرت عليه ، ومهما توالت فى ترددها عليه ، وهذا مثله فى الحديث الشريف السابق .

وأما الفاجر المعادى لله ، فإن رياح الشدائد والأحزان غالبا ما تتحاشاه ، لأنه غير معرض للاختبار والابتلاء إلا فى زيادة الحجة عليه عند الله ، حيث لا تدعوه نعم الله عليه إلى الإيمان به فضلا عن شكره ، وحيث لا تدعوه الأحداث والشدائد إلى التفكير فى مصدرها ومصدر كل شىء وهو الله ، أما الاختبار من حيث هو فإن الفاجر غير مؤهل له ، لأن المؤهل للاختبار كما سبق هو الذى يريد الترقى فى الدين ، وزيادة القرب من الله ، فيمتحنه الله ليتبين مدى صدق رغبته ومدى استحقاقه للترقى ، كالطالب الذى يريد أن ينتقل من فرقة إلى فرقة أعلى ، أما الفاجر فإنه لا يريد الترقى ، ولا يريد الاختبار ، بل هو لا يصلح للاختبار ، لذلك يتركه الله عادة سادرا فى غيه ، مواصلا فجوره ، بل قد يهيئ له من الأسباب ما يدفعه إلى مزيد من الفجور ، ولا يناله عقاب فى الدنيا ، لأن الأصل فى الثواب والعقاب أن يكون فى الآخرة ، إلا إذا حاول أن يخل بنظام الله فى كونه ، فإن عقاب الله العاجل فى الدنيا يهوى عليه .

---

(١) رواه مسلم .

وفى كل الأحوال فإن الفاجر يظل شامخا متعاليا ، ولكنه لا يصمد ولا يستطيع أن يقاوم ، بل ينهار أمام أول معول من معاول القدر ، ويصبح مثله مثل شجر الأرز الذى يعلو مستقيما شاهقا فى الفضاء ، ولكنه لا يتحمل أن يميل مرة واحدة مع الريح ، فإذا هوت به الريح مرة فهى القاضية ، بخلاف المؤمن الذى يظل حياته يميل ثم يعتدل مع كل ريح تهب عليه .

وأيسر الفروق بين المؤمن وغير المؤمن فى المقاومة النفسية للأحداث أو عدم القدرة على المقاومة أن المؤمن يجد نفسه دائما عامرة بالأمل فى الله ، وفى رجاء أن يخرجه الله مما هو فيه من محنة أو شدة ، أو أن يكافئه على صبره بما هو خير له من الخروج من شدته ، فهذا الشعور القوى بالأمل خير سلاح للمقاومة ، ومن المعروف فى الطب أن قوة الأمل فى الشفاء من العناصر القوية فى مقاومة المرض ، وفى الوصول إلى مرحلة الشفاء منه .

(٣) الفرق كبير بين المؤمن وغيره من الناحية النفسية فى الشدائد والمكاره ، وذلك أن المؤمن يوقن بأن كل شىء بإرادة الله ، فالذى يصيبه لابد أن يكون قد أراده الله ، وهو يشعر بأن صلته بالله طيبة ، وبالتالى فإن بينه وبين الله ودا وحبا ، وليس من المتوقع أن يريد المحب بحبيبه شرا أو سوءا ، وإذن فلا يمكن أن يكون ما أصابه الله به هادفا إلى شر أو سوء ، بل لابد من أن تكون نتيجته خيرا وإن خفيت عليه الحكمة فى ظاهر الأمر ، أو استغلق عليه فهم هذه النتيجة ، ولذلك فهو يكل كل أموره إلى الله ، كما يشير القرآن إلى شعار المؤمنين الذى ساقه على لسان مؤمن آل فرعون ، وهو (وأفوض أمرى إلى الله) (١)

وفى هذا التوكل العميق على الله يجد المؤمن فى نفسه أمرين ذوى أهمية كبيرة فى مقاومته الأحداث والشدائد ، والصمود أمامها مهما تحاول العصف به ، وأحد الأمرين أنه يشعر شعورا مسيطرا على نفسه بأن له سندا بالغ القوة هو الله سبحانه ، والأمر الآخر أنه

---

(١) ٤٤ سورة غافر .

مهما قست عليه الظروف فإن نفسه مليئة بالأمل فى رحمة الله ، وفى أن ما بينه وبين الله من صلة وحب مما يزيد فى أمله ، ويقرب الأمانى فى خياله ، والأمل هو شريان الحياة ، واليسير من التأمل يبين لنا أن الذى يحرك حياة أى إنسان ، ويدفعه إلى أى عمل إنما هو أمله فى أن هذه الحركة أو هذا العمل سيحقق كذا أو كذا مما يهدف إليه ، وحين يفقد الأمل فى شىء فمن البداهة أنه لا يتحرك نحوه أدنى حركة ، وبالتالى فإنه لو فقد الأمل فى أنه سيحقق بحياته نفسها هدفا فإنه سيبغض الحياة ، ولا يجد لديه دافعا إلى أى عمل ، بل يفقد الرغبة فى الحياة نفسها ، وذلك بسبب فقدانه الأمل ، ولكن وجود الأمل هو الذى يدفع الإنسان إلى العمل وإلى الصراع وتخطى العقبات .

وقد جعل الله اليأس منافيا للإيمان وقرينا للكفر ، فى قوله تعالى (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) (١) ومفهوم التعبير أما المؤمنون فإنهم لا ييأسون .

وأوضح ما تتمخض عنه هذه المعانى التى تموج بها نفس المؤمن فى حال الابتلاء بالمكروه من أن له سندا بالغ القوة هو الله سبحانه ، ومن أنه لا يتوقع من جانب الله بحكم صلته الحسنة به إلا الخير مهما خفيت عليه الحكمة فيما يعانيه ، أو خفى عليه تصور خروجه مما هو فيه ، كل ذلك وغيره يتمخض عن راحة نفسية يحس بها المؤمن حتى وهو فى عمق المعاناة ، فلا يشعر بالتوتر والقلق ، ولا بالاكتئاب الذى يخيم على نفس اليائس .

وهى نتيجة بالغة الأهمية فى الحياة كلها ، حيث يجد المؤمن نفسه محصنة ضد الشعور بالتعاسة والشقاء ، هذا الشعور الذى يدمر نفسية الفرد ، ويفقده الإحساس بأية متعة مهما توافرت له أسبابها ، بل يفقده الإحساس بأن للحياة نفسها قيمة .

وقد يرى الملحدون فى هذا نوعا من الوهم أو الخيال أو تكلف غير الحقيقة ، ولكن المؤمن لا تعنيه أية نظرة غير النظرة التى يوقن هو بها ، والتى هى واقع نفسيته .

وإذا كانت المكاره والشدائد لا تستطيع أن تحطم نفسية المؤمن ولا أن توهنها ، بل تظل

---

(١) ٨٧ سورة يوسف .

نفسيته سوية ثابتة معتدلة ، فكذلك فى حال النعم ، لا تستطيع مظاهر الحياة ، ولا الدرجات التى يصعدها فى سلم الآمال مهما ترتفع أن تدفعه إلي الإعجاب بالنفس الذى يدفعه بالتالى فى طريق الغرور ، فمهما تحقق لديه من مختلف النعم ، ومهما علا فى درجات المال أو الجاه أو غير ذلك ، فإن شيئا من ذلك لا يدعوه إلى الإعجاب بالنفس الذى هو بداية الغرور ، وذلك لسبب يسير واضح ، هو أنه واضع فى نفسه مقدما ودائما أن كل ما ناله وما تحقق له إنما هو من عند الله وبقدر منه ، وليس من قدراته أو مواهبه هو ، وإذن فكيف يعجب بنفسه فى شىء هو فى حقيقته ليس من صنعها ، وإنما هو تفضل عليها .

وإذن فكما أن نفس المؤمن الحق محصنة ضد مشاعر التعاسة واليأس فى أية درجة من درجاته التى تبلغ حد التدمير للنفس ، فكذلك هى محصنة ضد مشاعر الزهو والغرور فى أية درجة من درجاته التى تبلغ أحيانا حد الجنون ، كالذى يعرف بجنون العظمة ، أو النرجسية التى تعنى تركيز مشاعر المرء فى الإعجاب بنفسه ، وهى أيضا نوع من أنواع الجنون النابع من الإعجاب بالنفس .

وإذن أيضا فليس من الشطط فى شىء أن يقال إن الإيمان خير وقاية من كل أنواع الأمراض النفسية ، سواء فى هبوطها فى الشعور بالنقص ، أو قفزها إلى أعلى فى مشاعر الزهو والغرور ، ومهما يكن رأى الملحدين فى هذا فإن المهم هنا هو شعور الفرد نفسه وواقعه مهما كان رأى الآخرين فيه ، ولو افترضنا جدلا أن طبيبا يريد علاج مريض ، فألقى فى نفسه شعورا زائفا واهما مثل الشعور بأنه برئ تماما من المرض والطبيب يعلم أنه شعور وهم ، ولكنه يفيد فى العلاج فلن يتردد فى أن يملأ نفس المريض بهذا الشعور ، لأنه وسيلة للعلاج .

ولكن شعور المؤمن ليس وهما ، ولا هو وسيلة ، وإنما هو حقيقة ، وهو أيضا غاية لا وسيلة .

وقد يقال حينئذ فإن نزعة مقاومة المكروه ، وكذلك مصاحبة الأمل لكل حركات الإنسان وخطواته فى الحياة كل ذلك ونحوه مركوز فى طبيعة الإنسان لأنه نابع من غريزة حب البقاء بصرف النظر عن أن يكون المرء مؤمنا أو غير مؤمن ، ولذلك يتحاشى المرء مصادر الألم

بغريزته ودون تفكير ، فإننا لو وخزنا يد نائم بإبرة فإنه بمجرد إحساسه بالألم يسحب يده دون أن يفكر ، بل قبل أن يستيقظ ، فمقاومة الإنسان إذن للمكاره ومصادر الألم غريزة وليست إيمانا ، كما أن مصاحبة الأمل لكل تحركاته غريزة أيضا كما هو واضح وليست إيمانا ، فما ميزة الإيمان فى هذا عن غيره ؟

ومثل هذا قد يقال عن الإعجاب بالنفس ، فقد يقال إن الرضا عن النفس أحيانا أمر طبعى ، حيث يشعر المرء بالرضا عن كل عمل موفق ، وبالتالى يكون راضيا عن نفسه ، ويكون هذا فارقا بين العمل الفاشل والعمل الناجح ، ومن ثم فينبغى أن يجعل المرء الرضا عن عمله وعن نفسه هدفا له بصفة دائمة ، فهل مقتضى الحديث السابق عن أثر الإيمان أن المؤمن اذا أراد أن يبعد الإعجاب بنفسه والزهو بها فعليه ألا يرضى عن عمله ولا عن نفسه ، فيختلط الفشل بالنجاح ، ويفقد المرء أهم دوافعه إلى العمل ، وإلى التوفيق والنجاح فى حياته ؟

والجواب أن كلا الأمرين المثارين فى التساؤل السابق إبعاد وشطط عن الهدف من الحديث ، فإن الهدف من كل ما سبق أن الإيمان يحفظ نفسية المؤمن فى درجة الاعتدال الذى يتمثل فى الفطرة السوية ، وفى الظروف والأحوال العادية ، ولكن إذا هبطت من حوله الظروف وساءت الأحوال فلا يترك نفسيته تهبط معها لتنزلق فى مدارج اليأس والقنوط المؤدى إلى التعاسة والشقاء ، وإذا ازدهرت من حوله الظروف وترعرعت الأحوال فلا يترك نفسيته تقفز معها لتتدرج إلى أعلى فى مدارج الزهو والغرور المؤدى إلى أمراض نفسية تصل أحيانا إلى حد الجنون ، والمقود الذى يتحكم به المؤمن فى كلا المجالين يتمثل فى شىء واحد هو من صلب الايمان وأسسه ، وهو يقينه بأن كل ما يصيبه من خير أو شر إنما هو قدر وإرادة من الله ، كما فى الحديث النبوى المشهور فى إجابة النبى حين سئل ما الإيمان ؟ فكان منه (أن تؤمن بالقدر ، خيره وشره)[1]

فكلا الأمرين الخير والشر فى حياة المرء امتحان وابتلاء له ، ودرجة نجاح المؤمن تكون فى مدى مقدرته على ضبط نفسيته وإلزامها حد الاعتدال فى كلا الحالين .

---

(١) رواه مسلم .

ومن الواضح أن المراد بالمؤمن هو الذى يلتزم جوهر الدين ومعنوياته قبل التزام مظاهره وحسياته ، بحيث يكون ظاهرا وباطنا صورة صادقة واضحة المعالم للإسلام ، وبمقدار بعده عن هذه الصورة أو نقصانه فى تمثلها يكون تقصيره فى آثارها ومقتضياتها ، ومن مقتضياتها ما نحن بصدد الحديث فيه من موقف المؤمن من الابتلاء خيره وشره .

وأما غير المؤمن فإن نفسيته إنما تكون معتدلة أو متزنة إذا كانت ظروفه وأحواله عادية لا تستدعى انفعالا زائدا عن التكوين الفطرى الذى خلق به ، وإذا استدعت انفعالا زائدا فإنه يقاوم بمقدار ما تتيح له قوة المقاومة المركوزة فى تكوينه والتى يتفاوت الناس فيها عادة ، فإذا اعترضته صعاب ، أو أحاطت به شدة مثلا قاومها بمقدار ما تحمل شخصيته من صلابة وعزم ، ولكن حين ينفد هذا العزم أو حين ينقطع الأمل يبدأ اليأس يخيم على نفسه ، ثم يتوالى عليه ما يتولد عن اليأس من مشاعر التعاسة والشقاء والقنوط ، ومثال ذلك أن يحل به أحد الأمراض الصعبة ، فإنه سيقاوم بعزيمته من جهة ، وبأمله فى الشفاء من جهة أخرى ، ولكن حين يؤكد له كل الأطباء أنه لا أمل فى الشفاء فإنه سينهار من سيطرة اليأس على نفسه ، لأنه لا يفكر حينئذ إلا فى نهاية حياته وفقدانه كل شىء فى الحياة ، وليس ينتظر شيئا بعد الموت ، فيصبح ممن يصف القرآن مثله بقوله (خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) (١) أما المؤمن الحق فلا يصل هذا الشعور إلى نفسه أبدا مهما كانت الظروف ، وذلك لأسباب من أهمها سببان ، أحدهما أنه ينسب كل شىء إلى الله ، وينتظر كل شىء من الله ، وليس شىء على الله بمستحيل أو مستبعد ، فالله قادر على شفائه وإن قال كل الناس وعلى رأسهم الأطباء إنه لا أمل فى الشفاء ، فلا شىء فى الدنيا يقطع أمل المؤمن ، ولا أن يبعث فى نفسه اليأس ، والسبب الثانى أن الأمل عنده لا ينتهى بانتهاء الحياة ، بل هو ممتد فيما بعد الموت ، وما لم يستطع تحقيقه فى حياته الدنيا فسيحقق ما هو خير منه بعد الموت ، والأمل العاجل عنده هو الشفاء ، فإذا لم يتحقق فإن رضاه بهذا المرض ، وصبره عليه سيحقق له فى الآخرة ما هو خير من الشفاء ، وهكذا فى كل مكروه يصيبه ، وكل عقبة تعترضه .

---

(١) ١١ سورة الحج .

وإذن فغير المؤمن لا يستطيع أن يحافظ على اعتدال نفسيته إلا فى حدود إمكانات ذاته ومقوماتها ، وفى حدود اعتدال الظروف والأحوال المحيطة به ، أما إذا تجاوزت هذه الظروف هذه الحدود إلى الهبوط فإن نفسيته لابد أن تهبط معها أو تنهار ، وكذلك إذا تجاوزتها إلى العلو والازدهار فإن نفسيته لابد أن تعلو معها درجات قليلة أو كثيرة فى درجات الإعجاب بالنفس وما يستتبعه مما سبقت الإشارة إليه من مراحل الزهو والغرور .

أحوال التمرد والعصيان

مما هو معروف لا يحتاج إلى بسطة فى توضيحه أن الإنسان خلق مطبوعا على الدين مفطورا على الإحساس الغريزى بوجود الله ، حيث يتمثله الإنسان البدائى دون أى توجيه أو تعليم فى صورة قوة كبرى تؤثر فى حياته ، وهو معنى الفطرة التى فطر الله الناس عليها كما ورد فى القرآن الكريم والحديث النبوى ورد فيه (كل مولود يولد على الفطرة ....)(١)

وقد كان مقتضى هذه الفطرة أن يدين الإنسان لله بالإيمان والعبادة ، وأن يلتزم كل مايشعر أنه يرضيه ، وأن يتجنب كل ما يشعر أنه يسخطه ويغضبه ، لأن هذا الإحساس الفطرى النابع من داخل نفسه يبعث فيه بصورة فطرية أيضاً أنه لايطيق غضب هذه القوة الكبرى التى يشعر بها شعورا واضحا ، وهذه الصورة البسيطة اليسيرة هى جوهر الإيمان بالله ، وهى محور كل رسالات الانبياء ، كما فى الحدث الشريف (خير ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله)(٢) ومهما أضافت إليها رسالات الانبياء ، فإن هذه الإضافات لاتعدو كثيرا أن تفصل الإجمال الذى تتضمنه هذه الصورة ، وذلك بالإجابة عن سؤالين ، أو سؤال ذى شقين ، هو : ما الذى يرضى هذه القوة الكبرى التى هى ذات الله سبحانه ؟ وما الذى يغضبه ؟ فتكون شرائع الأنبياء بكل تفاصيلها هى الإجابة عن هذا التساؤل .

ولكن مضمون ذلك أن الإيمان بالله ، أى الإحساس بوجوده مغروس فى طبيعة النفس البشرية حتى بدون الأنبياء ، ويترتب على ذلك أن الانسان مطالب بالإيمان بالله ومحاسب عليه حتى دون أن تبلغه رسالة نبى ، وهذا ما يقول به فريق من علماء الكلام ، ويفسرون الرسول فى قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) (٣) بأن الرسول هو العقل ، لأنه الرسول الذى أرسله الله الى كل فرد وغرسه فى نفسه وجعله محور حسابه .

فكان يمكن أن يحاسب الله الناس على مجرد عقولهم دون حاجة إلى أنبياء ، ولكن من مزيد رحمته سبحانه أرسل الأنبياء زيادة فى تيسير الدين لهم ، وهو أيضا زيادة فى الحجة

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الجنائز باب ما قيل فى أولاد المشركين (٢) رواه الترمذى عن ابن عمرو وقال حديث حسن

(٣) ١٥ سورة الإسراء .

عليهم ، وكانت الكتب السماوية زيادة فى هذه الزيادة من رحمة الله ، ففى القرآن الكريم عن محمد صلى الله عليه وسلم (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (١) وأيضا عن كتاب الله القرآن (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون) (٢) .

ولكن الإنسان يتجاهل ذلك كله ، يتجاهل الفطرة التى فطره الله عليها ، ويتجاهل العقل الذى حباه به ليتبين فيما يتبين معالم هذه الفطرة ، ويتجاهل رسل الله إليه ، ويتجاهل كتبه أيضا إليه ، ويتجاهل النعم التى لاتعد ولا تحصى ظاهرة وباطنة ، وثابتة ومتجددة فيما أفاض الله عليه ، يتجاهل كل ذلك ، فيجحد الله ، ويجحد نعمه عليه ، فاستحق وصف الله (إن الإنسان لكفور مبين) (٣) حيث يجحد أغلب الناس وجود الله أو وحدانيته فى عقيدتهم ، وكذلك يجحد أغلب الناس نعم الله عليهم ، كما يقول تعالى (وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) (٤) .

وجحود الإنسان لخالقه ، أو لوحدانية خالقه ، أو لنعمه عليه يتمثل فى صور شتى قد لايحيط بها الحصر ، ولكن أبرزها يمكن أن نراه فيما يلى :

أولاً : الشرك :

من المفهوم اللغوى للشرك يتضح أنه يتميز عن ألوان الكفر بكونه يعتمد على إشراك إله أو معبود آخر مع الله ، وهو بهذا يختلف من حيث الشكل عن الكفر الذى هو إنكار وجود الله ، أو رفض الإيمان به مع الاعتراف بوجوده ، أو نحو ذلك مما لايتفق مع أسس الإيمان بالله .

ومع أن كل خلل جوهرى فى العقيدة يوصف بأنه كفر ، سواء أكان إشراكا لغير الله معه فى العبادة أو إنكاراً لوجود الله أو نحوه ، والمؤدى لكل هذه الصور من الكفر واحد ، وهو أنهم جميعا من أعداء الله ، ومن الحزب المناهض لحزب الله ، وهو حزب المؤمنين ، إلا أن الصور تختلف فى المؤدى الواحد ، كما تختلف صور الموت من موت عادى ، إلى قتل ، أو إلى حريق ،

---

(١) ١٠٧ سورة الأنبياء .
(٢) ٥٢ سورة الأعراف .
(٣) ١٥ سورة الزخرف .
(٤) ٣٤ سورة ابراهيم .

أو إلى غرق ، أو إلى غير ذلك ، ولكن الصور جميعا مؤداها واحد وهو الموت ، ولايقال إنه مادام المؤدى واحدا وهو الكفر فينبغى أن يكون العقاب واحدا لكل حالاته ، فإن جرائم القتل مؤداها واحد وهو إزهاق روح القتيل ، ولكن عقابها يختلف باختلاف صورة القتل ومزاولة العدوان فيه ، من قتل عادى إلى بشاعة فى تنفيذه ، وإلى تفاوت فى هذه البشاعة ، وإذا كان الجزاء فى القتل ثابتا ومحددا ، فإن البشاعة فى تنفيذه تراعى فى تنفيذ العقاب وتشديده .

ومن هنا كان اختلاف صور العذاب فى جهنم ، وتفاوتها فى الشدة والبشاعة ، رغم أنهم يجمعهم الكفر ، إلا أن كل صورة من صور الكفر يختلف عقابها فى شدته تبعا لاختلاف صورة الكفر عن صوره الأخرى ، ومن صور اختلاف الشرك .

أولاً : الشرك المستتر : وليس المراد به الشرك الخفى الذى وردت الإشارة إليه فى الأحاديث النبوية ، وهو أن تشوب العقيدة الدينية شائبة غير مقصود بها الشرك أو الكفر ، وقد يزاولها صاحبها دون أن يشعر أو يقرر مدى خطورتها على نصاعة عقيدته ، ومدى مساسها بإخلاص العبادة لله ، كالذى يعتقد أن رزقه مرتبط بمخلوق أو بجهة معينة ، بينما الايمان الصحيح هو التفريق بين النتيجة والوسيلة ، فالنتيجة أو الغاية هى ما يقدره الله من رزق ، وهذه النتيجة هى التى لابد أن توجد ، أما ما عداها من كل ما يزاوله الإنسان من سعى على الرزق أو استعانة بأى أحد أو أية جهة ، فهو محض وسائل ، قد تؤدى الى النتيجة أو لاتؤدى ، فالذى يعتقد أن رزقه مرتبط بالوسيلة ومرهون بها ، وأن هذه الوسيلة تملك أن توجد له رزقه أو لاتوجده يكون قد أشرك هذه الوسيلة مع الله ، ومثل هذا هو الشرك الخفى الذى تشير إليه الأحاديث النبوية ، وأمره مفوض إلى الله ، إن شاء عفا عن صاحبه ، وإن شاء حاسبه .

أما الشرك المستتر الذى نعنيه هنا فهو عدم الايمان بالله أصلا ، أو عدم الايمان بوحدانيته ، كالذى يعبد شيئا غير الله أو مع الله ، فمثل هذا غير مؤمن بالله ، وهو يعلم ذلك ، ولكنه يضطر إلى إخفاء شركه وكفره لأية ظروف تحيط به ، أو ليحقق بهذا الإخفاء هدفا يهدف إليه ، وهو ما سماه الإسلام النفاق . ومن المعروف أن اصطلاح النفاق بمعنى إظهار الإيمان

وإخفاء الكفر لم يكن معروفا قبل الإسلام ، وأن القرآن هو الذى وضع هذا الوصف لهذه النوعية من الإلحاد ، وأن العلاقة اللغوية فى هذا الوصف هى اشتقاقه من نافقاء اليربوع ، وهى جحره ، فقد عرفوا اليربوع مخادعا مضللا ، يحفر جحره فيجعل له فتحتين من كلا طرفيه ، فتحة فى أوله وفتحة فى آخره ، فإذا هوجم من إحدى الفتحتين هرب من الأخرى ، فشبه به المنافق فى خداعه وتضليله ، ومن الواضح أن الدافع الأصلى إلى النفاق هو إحساس المنافق بأن الظروف من حوله لا تتيح له إعلان عقيدته الحقيقية ، وأن إعلان ما فى نفسه هو ضد مصلحته ، فإظهار ما فى نفسه أو إخفاؤه يدور مع الظروف المحيطة به ، وقد كانت حياة النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة أوضح مثال لذلك ، فحينما كان المشركون فى المدينة هم الكثرة والمسلمون قلة لم يكن أحد مضطرا إلى النفاق ، فلما أصبح المسلمون قوة يحسب حسابها ، وترتبط بهم أو ببعضهم فى الوقت نفسه مصالح ومنافع معينة لبعض الناس بدأ النفاق ينتشر بمقدار زيادة قوة المسلمين أو ارتباط المنافع بهم - ومن السذاجة بمكان أن يتصور أحد أن النفاق ظاهرة تاريخية ارتبطت ببدء الاسلام أو بمكان أو عصر معين ، بل هو موجود فى كل مجتمع وكل عصر ، وهو ليس قاصرا على مجال الدين ، بل لابد أن يكون موجودا فى كل مجالات الحياة طالما تهيأ المناخ الموجد له ، والمناخ الموجد له يتمثل فى عجز الشخص عن مواجهة المجتمع بما فى نفسه ، فى الوقت الذى يسيطر عليه الشعور بأن له مصلحة فى مخالفة الاتجاه الغالب على المجتمع من حوله ، ومن هنا يتضح أن كل مجالات الحياة لابد أن يكون فيها منافقون يخفون هدفهم الحقيقى حين يجدونه مصطدما بالاتجاه العام من حولهم فى الوقت الذى لا يستطيعون فيه مواجهة هذا المجتمع ، وليس من الحتم أن يكون هذا المجتمع هو المجتمع العام ، بل قد يكون المجتمع المحلى ، أو مجتمع العمل ، أو مجتمع الأصدقاء والمعارف أو الأقارب ، فالنفاق ليس له مجال معين ، بل قد يكون فى كل مجال كالسياسة أو المال أو العلاقات أو غير ذلك ، وليس الدين إلا أحد هذه المجالات ، كما أن النفاق ليس له مجتمع معين، بل قد يكون على مستوى كل المجتمعات صغيرها وكبيرها ، بل قد يكون حتى فى العلاقة بين شخصين ، حيث يحاول أحدهما خديعة الآخر ، فيظل يظهر له غير ما يبطن ليحقق هدفا أو مصلحة له ، ويجد أن هذه المصلحة مهددة بالضرر إذا اكتشف زميله

حقيقة ما فى نفسه .

وحديث النفاق واسع مستفيض (١) والذى يعنينا منه هنا أن بعض المشـــركين لم يستطيعوا إعلان شركهم وهم بين ظهرانى المسلمين فأخفوه فى صدورهم وأعلنوا بألسنتهم أنهم مسلمون ، وظلوا يؤدون شعائر الاسلام الظاهرة كاملة ، وهم يحملون فى نفوسهم عقيدة الشرك .

وينبغى التوقف هنا قليلا لتصحيح ما قد يوهمه التعبير بالماضى فى مثل (لم يستطيعوا أو أخفوا) مما قد يفهم منه أن هذا النفاق الدينى كان فى الماضى فحسب بينما هو اليوم أكثر انتشارا وأشد خطورة منه فى أى عصر مضى ، لأن المناخ الموجد للنفاق قائم منذ قيام المجتمع الاسلامى فى المدينة حتى اليوم ، وهو أن الفرد فى داخل هذا المجتمع الاسلامى لا يستطيع أن يجهر بالتخلى عن الإسلام أو معاداته فى الوقت الذى يخيل إليه خيالا مسيطرا أن له مصلحة فى التخلى عن الإسلام ومعاداته .

وقد انتشرت الآن فى كل المجتمعات الإسلامية جماعات كبيرة وخطيرة ، بعضها يجد أن مصلحته فى الولاء للغرب ، وبعضها يجد أن مصلحته فى الولاء للشرق أو لأية جهة معادية للإسلام ، ولكى يحقق الولاء فلابد أن يعتنق ما يرضى الجهة التى يواليها . وليس من الحتم أن يعتنق مذهبهم الدينى ، بل يكتفى من الناحية الدينية أن يعادى الإسلام الذى تتفق كل جهات العالم على أنه العدو الأول لهم . ويكفى أيضا أن يعتنق المذهب الثقافى والحضارى للجهة التى يواليها ، فيدعو بأى أسلوب من أساليب الدعوة ، وبما يتيحه له موقعه وعمله فى المجتمع إلى اعتناق المنهج الحضارى والثقافى للجهة التى يواليها ، والتى يعتقد أن إرضاءها أو تطبيق منهجها يحقق له مصلحة معينة ، ولكن الدعوة إلى تطبيق منهج جديد يستلزم تسفيه المنهج القائم وتخطيئه ، والمنهج القائم والمتوارث فى المجتمعات الإسلامية هو فى مجموعه أو طابعه العام هو المنهج الإسلامى ، الذى يتمثل بعضه فى تشريع نظرى ، وبعضه اتخذ طابع العادات

---

(١) انظر على سبيل المثال : كتاب أسلوب القرآن فى كشف النفاق للمؤلف طبع الهيئة العامة للكتاب .

والتقاليد والخلق الاجتماعى الذى صنع من النظام الإسلامى ، فالدعاة إلى جلب أى منهج جديد طارىء سواء من الغرب أو الشرق أو أى مصدر غير الإسلام لابد أن يعملوا أولا على تشويه المنهج الاسلامى وإلصاق العيوب والقبائح به ، حتى تمكن زحزحته أو تنحيته ليحل محله المنهج الحضارى والثقافى المراد إحلاله مكانه ، وهذا ما تتنافس كل جهات العالم اليوم وخصوصا دعاة العلمانية فى محاولة إبرازه ونشره فى المجتمعات الإسلامية بوسائل عديدة من أبرزها الاعتماد على الدعاة إلى هذا الهدف من أبناء المجتمعات الإسلامية بكل الأساليب وبمختلف الوسائل ، فمثلا دعاة العلمانية المتغلغلون فى الجامعات وفى كل مجالات التعليم يبذلون قصارى جهدهم فى محاولة تشويه التراث الإسلامى وتسفيه الثقافة الموروثة ووصمها بالتخلف والجهل والرجعة وإظلام العقول ، والذى بيدهم شىء من مقاليد التعليم يسعون بكل جهدهم إلى طمس التراث الإسلامى ، وإلغاء الثقافة الموروثة عن طريق الإسلام لتحل محلها الثقافة التى يراد الاتجاه إليها من ثقافات الشرق أو الغرب حسب اتجاه قادة المجتمع ومصالحهم أو رؤيتهم الخاصة ، وفى سبيل ذلك يبذلون كل جهدهم فى تشويه كل ماهو قديم ، ولكن من الطريف أن الثقافة أو الحضارة القديمة الوحيدة السيئة أو القبيحة عندهم هى ثقافة الإسلام وحضارته ، أما ما هو أقدم منها كالحضارة الفرعونية أو الإغريقية فهو شىء محمود يدعون إليه ليس لمجرد الاستفادة منه كما ينبغى أن يكون ، وإنما ليكون بديلا للحضارة والثقافة الاسلامية .

وكذلك المتغلغلون فى مجالات الثقافة والنشر من دعاة العلمانية فى المجتمعات الاسلامية يبذلون كل جهدهم لطمس كل ما يتعلق بالتراث الاسلامى وحجبه عن القراء والمشاهدين ليحل محله بديل من ثقافة الجهة المراد التوجه اليها .

وكذلك الحال فى كل وسائل الثقافة والإعلام سواء المقروء منها والمسموع والمرئى كالصحف والإذاعات المسموعة والمرئية والمسرح والسينما وغير ذلك ، يعمل المتغلغلون فى هذه الوسائل كل جهدهم وبمختلف الأساليب على تشويه التراث والثقافة الاسلامية ، ويزيدون عن إخوانهم من العلمانيين فى الجهات الأخرى أنهم يملكون أن يعملوا على تغيير العادات والتقاليد التى نشأت عن الطابع الإسلامى ، وذلك بأساليب عديدة كالسخرية والاستخفاف بهذه التقاليد

حتى يصل الاستخفاف إلى حد تسفيه طاعة الأولاد لآبائهم وأمهاتهم بحجة أن الآباء من أجيال غابرة والأولاد ينبغى أن يخلقوا لأنفسهم حياة جديدة ومنهجا جديدا ، وكالسخرية من التحفظ فى الخلوة والاختلاط بين الرجال والنساء ، وأشياء كثيرة من الواضح للمتأمل أنها مدروسة بعناية ودقة لتخضع لحرب واسعة تشمل كل ما يمثل الطابع الإسلامى فى ثقافته وحضارته وعاداته وتقاليده لتشويهه وتسفيهه والتنفير منه ، وما من مجال من مجالات الحياة إلا وقد تغلغل فيه هؤلاء الذين يطعنون فى الاسلام ويحاولون أن يلصقوا به كل ما يستطيعون من العيوب ووسائل التنفير ، وهم يحرصون كل الحرص على إخفاء هذه الحرب ، أو إخفاء أن ما يدعون إليه هو حرب ، بل نجدهم دائما يحرصون على أمرين :

١ - أحدهما أن يلبسوا كل محاولاتهم فى الهدم والتغيير ثوب الإصلاح بادعاء أن هذا التغيير هو خطوات فى سبيل تقدم المجتمع وحضارته بعد تأكيدهم أن التراث والتقاليد التى هى من الطابع الإسلامى هى وسائل تخلف حضارى ، وجهل ثقافى (واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون) ١١ سورة البقرة .

٢ - وثانيهما حرصهم على الانتساب إلى الإسلام وأنهم لا يقلون عن غيرهم إسلاما ، بل يزيدون فى ادعائهم أن إسلامهم هو الإسلام الصحيح الذى يتفق مع العقل ويحقق النهضة والتقدم ، بينما إسلام المتدينين تدينا تقليديا هو المنهج الضار الداعى إلى التخلف والجهل فى زعمهم .

وهم أعلم الناس بأن الهدف الأول من كل محاولاتهم فى التغيير هو الهدم فى الإسلام وتشويه معالمه ، ثم تاتى بعد ذلك مرحلة أن يعتقد بعضهم أن الهدف هو الإصلاح حقا أو أنه يكفى أن يكون الهدف هو تشويه الإسلام وسلخ المجتمع منه .

وهم أعلم الناس أيضا أنهم أعداء للإسلام ، وأن ما يفعلونه هو حرب حقيقية ضد الإسلام .

ولكنهم يجعلون موقفهم فى هذه الحرب هو التخفى والإخفاء ، التخفى فى عقيدتهم التى يتجاوزون فيها مرحلة الانسلاخ من الإسلام وعقيدته إلى مرحلة العداء والحرب ضده ، والإخفاء

هو إخفاء الهدف من كل محاولاتهم فى الهدم والطعن فى الاسلام .

وهنا نصل إلى الهدف من هذه البسطة فى الحديث التى تبدو كأنها استطراد بينما هى فى صلب الموضوع ، وهو كيف نحكم على هؤلاء ؟

هل نعدهم من المسلمين المؤمنين وهم أنفسهم يعلمون أنهم أعداء للإسلام بل ويبذلون جهدهم فى عداوته وحربه ومحاولة محوه ؟

وإذا لم يكونوا من المسلمين ففى أى فئة أو مذهب يوضعون ؟

وأحسب أن الإجابة لا تحتاج إلى إفاضة ، فإن مسلكهم ليس إلا صورة من موقف المنافقين الذين عاصروا النبى صلى الله عليه وسلم والذين أفاض القرآن فى وصفهم من الداخل ومن الخارج ، أى وصف نفسياتهم وما يدور فى عقولهم وقلوبهم ونظرتهم إلى المؤمنين ، وكذلك وصفهم من الخارج أى وصف ما يتميز به سلوكهم وأسلوبهم فى التعامل مع المؤمنين من جهة ، ومع إخوانهم المنافقين من جهة أخرى ، ولم يترك شيئا فى داخلهم أو خارجهم مما يميزهم عن غيرهم إلا وصفه وحدده بدقة بالغة ، حتى نظرات أعينهم حينما يكونون فى مواجهة القوة التى يخشونها ، وكذلك مظهرهم وأسلوب حديثهم ، وعندئذ قال قائل المسلمين لم يخف علينا منافق بعد ذلك .

فالنفاق إذن سواء فى السلوك وفى العقيدة ليس ظاهرة تاريخية انقضت ، وليس قاصرا على زمان أو مكان معين ، ولا على مجال خاص من مجالات الحياة ، والذى يواجهه الإسلام اليوم من هذه الحملة العلمانية ليس إلا موجة من موجات النفاق الدينى الذى ينبث أفراده فى كل مجال وكل موقع فى أنحاء الأمة الإسلامية على تفاوت غير كبير فى خطورتهم وفى أساليبهم فى الحرب والكيد ضد الإسلام ، ونعنى بإدراجهم فى الشرك الخفى أنهم لا يختلفون عن غيرهم من أعداء الإسلام فى انسلاخهم من العقيدة الدينية ، وكونهم فى حقيقتهم لا يؤمنون بالدين ، ولا يعبدون الله ، أو لا يعبدونه وحده ، وانما يعبدون مصالحهم ومنافعهم الدنيوية ، أو يعبدونها مع الله كما يفعل المشركون بالله الذين لا ينكرون وجود الله ولكن يعبدون معه أى

شيء آخر ويجعلون شعار عبادته ما ينقل عنهم القرآن في عبادتهم الأصنام من قولهم (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) (١) ومن الطريف أن حجة هؤلاء المنافقين المعاصرين تدور حول منطق هؤلاء المشركين الذين يدعون أنهم إنما يعبدون هذه الأصنام لتكون وسيلة لهم إلى الله وتقربا إليه ، وكذلك يدعى المنافقون المعاصرون أن كل ما يفعلونه في محاولة هدم الإسلام ومعالمه ليس إلا تجلية للصدأ الذى يعلو الإسلام من طول قدمه ، وليس إلا تنقية للإسلام في زعمهم مما يخالطه من جوانب الجهل والتخلف ومجافاة العقل ، ليبدو الإسلام بعد أن يهدموا معالمه ناصعا براقا يعجب الجهات التي يوالونها في الغرب أو في الشرق أو في أى مكان يعادى الإسلام ، ووصف موقف هؤلاء المنافقين المعاصرين بالشرك رغم ما يبدو من غرابة في هذا الوصف إنما يقوم على أن الدافع لهم إلى موقفهم هو مصلحة معينة لهم في هذا الموقف ، وقد تختلف هذه المصلحة من شخص إلى شخص ، أو من طائفة إلى طائفة ، ولكنها في كل حال مصلحة مسيطرة على نفوسهم ، إلى درجة تدفعهم إلى الوقوف ضد تيار الاتجاه العام في مجتمعهم وما قد يجره ذلك عليهم من ضرر ولو يوما ما ، وسيطرة هذه المصلحة على نفوسهم هي صورة العبادة ، وإذا كان تيار المجتمع تسيطر عليه العبادة لله ، فإن هؤلاء المنافقين المعاصرين تسيطر عليهم عبادة هذه المصلحة ، ولكنهم يزيدون عن هؤلاء المشركين إخفاء عقيدتهم في عبادة غير الله ، أو عبادة شيء مع الله ، ليبدوا في الظاهر كأنهم مسلمون من المسلمين ، ومؤمنون من المؤمنين .

ولكن هذه الزيادة وهى إخفاء حقيقتهم تجعلهم أخطر من أى عدو ظاهر للإسلام ، لأن المؤمن في أى دين يزداد تشبثا بدينه حينما يجد عدوا يناوئه ويناوشه ، ويجد نفسه متحفزا للدفاع عن دينه حينئذ بكل ما يتاح له من قوة أو وسيلة ، ولكن المنافق من هؤلاء لا يظهر مناوأة ولا مناوشة ولا عداوة للدين ، وإنما يظهر أنه مؤمن كغيره أو أحسن من غيره ، وأنه إنما يفعل ما يفعل خدمة للدين ورفعا من شأنه ، فيظل يطعن في الدين ما يشاء ، ويظل يهدم من جوانبه ومعالمه ما يستطيع ، وهو في مأمن من الإمساك به ، وهو في مأمن أيضا من انكشاف حقيقته

---

(١) ٣ سورة الزمر .

أمام الرأى العام ، لأنه كلما أحس أنه على وشك الانكشاف عاود إحكام رداء النفاق حول جسمه بالمبالغة فى إثبات صدقه فى الإيمان وفى الإخلاص لمصلحة الدين ، وهو واثق أن عقول العامة فى آذانهم كما يقول أحمد شوقى . ولا يخيفه كثيرا انكشافه للخاصة أو لأفراد منهم ، فهم قلة يستطيع أن يصب عليهم ما يشاء من تشويه وتسفيه حتى ينفر العامة منهم ، أو يجعل موقفهم على الأقل موضع الشك والتساؤل .

وتكون النتيجة أن هذا المنافق أو هذا العدو المتخفى أخطر على الإسلام من أى عدو ظاهر ، لأنه ينال من الإسلام ما لا يستطيع أن يناله أى عدو ظاهر ، لأن النصر والهزيمة ليست بالقوة المادية فى مظهر النصر ، ولا بالضعف الحسى فى مظهر الهزيمة ، ولكنهما أى النصر والهزيمة فى الدين هما فى ثبات العقيدة ، وفى قوة التمسك بها ، ولذلك كان السحرة فى قصة فرعون فى قمة النصر رغم أنهم كانوا الجانب الأضعف حسيا وماديا بالقياس إلى فرعون ، وكان فرعون فى أقصى الهزيمة رغم أنه كان فى الجانب الأقوى حسيا وماديا بالقياس إلى السحرة ، لأن الموقف لم يكن حربا عسكرية ولا صراعا بدنيا ، وانما كان صراعا حول العقيدة ، أيتهما الصحيحة ، عقيدة السحرة المؤمنين بالله أم عقيدة فرعون مدعى الألوهية ؟ وكل ما فعل بالسحرة من قتل وصلب وتشويه لم يكن هزيمة لهم ، وانما كان زيادة فى النصر بإثبات أن عقيدتهم بلغت من قوتها وثباتها أن جعلتهم يتحملون كل ما أريد بهم على بشاعته بل يستخفون به ويسخرون منه ، وكذلك الشأن فى كل دين ، وفى كل المؤمنين به عن صدق ويقين .

ومن هنا نستطيع أن نتبين أن العداوة الظاهرة للدين ليست خطراً عليه ولا انتقاصا منه ، مهما استطاع أعداء الدين أن يصلوا إليه من سيطرة على أرض للدين ، أو سيطرة على أتباع للدين ، بل إن ذلك من شأنه أن يدفع غالبية المؤمنين إلى التمسك بدينهم والتشبث بعقيدتهم ، ولكن الخطر الحقيقى على الدين نفسه بوصفه عقيدة وشريعة من حيث تمسك ابنائه به هو ما يفعله المنافقون من تشكيك فى الدين ، وتشويه لمعالمه ، وتنافس فى محاولة إثبات عدم صلاحيته للحياة ونحو ذلك ، فإن هذا التشكيك إن لم يصرف بعض الناس ولم ينفرهم منه فيكفى أن

يغرس فى نفوسهم بذور الشك فى الدين أو فى أى شىء من معالمه ، فحين يستقر فى نفوسهم هذا الشك دون مقاومة له يكون هذا هدما أو زعزعة لإيمانهم ، والإيمان لا يكون إيمانا صادقا إلا إذا توافر فيه اليقين والثبات ، أما الشك فى أية عقيدة ولو كانت عقيدة شرك أو إلحاد فإنه بداية الطريق إلى الانسلاخ منها .

ولعله من هذا القبيل جعل القرآن الكريم عقوبة المنافقين أشد عقوبات أعداء الله ودينه فى قوله تعالى (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) (١) ودرجة العقوبة إنما تحددها درجة الجريمة .

ثانيا : الشرك الظاهر :

ومن صنوف أعداء الدين المشركون بالله شركا ظاهرا بمعنى أنهم لا يتخفون تحت شعار أى دين سماوى ، وإنما يعلنون أنهم يعبدون أى شىء غير الله أو مع الله ، فالذين يعبدون شيئا مع الله شركهم ظاهر فى أنهم يشركون شيئا مع الله فى عبادته كالذين يعبدون الأصنام أو النار أو الشمس أو أى شىء غير الله ومع ذلك لا ينكرون وجود الله ، وانما يعترفون به ، ولكنهم يجعلون عبادتهم متجهة إلى غير الله ، أما الذين يعبدون غير الله ولا يعترفون بوجود الله فإنما وصفوا بالشرك بالله باعتبار أن أصل الإيمان مركوز فى طبيعة الانسان بوصفه فطرة فطر الله الناس عليها ، فمهما أنكر الإنسان وجود الله فإن إنكاره مغالطة لما يشعر به فى قرارة نفسه من وجود القوة العظمى التى تهيمن عليه وعلى كل شىء من حوله وهى قوة الله سبحانه .

وفى كل حال فالشعار المميز للمشركين عن غيرهم من الكافرين أو من أعداء الدين هو اتخاذهم معبودا غير الله ، ومن الواضح أن شعار الوحدانية فى الاسلام وهو (لا إله إلا الله) موجه أساسا ضد الشرك بالله .

---

(١) ١٤٥ سورة النساء .

ثالثا : بقية أنواع الكفر :

وهم صنوف عديدة قد تتعدد أشكالها وتختلف ألوانها ، ولكن يجمعها جميعا الخلل فى العقيدة الدينية من حيث الإيمان بالله وملائكته ورسله جميعا ، والتزام آخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ودينه الإسلام ، والتصديق بكل ما جاء به الإسلام من معالم الدين وأسسه بوصفه مصدقا لمن سبقوه من الأنبياء وأديانهم وكتبهم السماوية .

ويمكن الإفاضة فى تعديد الكثير من أصناف الكفر وتمييز بعضها عن بعض ، ولكن هذا التعدد والاختلاف بين ألوان الكفر ليس مقصودا لذاته ، ولا يفيد فى الموضوع جديدا باستثناء زاويتين يمكن النظر من خلالهما إلى هذه الألوان .

١ - وإحدى الزاويتين تتعلق أساسا بالخلل فى العقيدة ، وفى هذه الزاوية يبرز الشرك بالله بوصفه أسوأ ألوان الكفر ، لأنه امتهان وتسفيه للعقل حيث يحمل على ترك الخالق ، وعبادة أى مخلوق مما خلقه هذا الخالق سبحانه ، ولذلك حكم الله بأنه يمكن أن يعفو عن أى شيء إلا الشرك بـه ، فى مثل قوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك بـه ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (١)

٢ - وثانيتهما تتعلق بالعداوة للدين ، وإضمار الغل والحقد لكل المؤمنين ، وفى هذه الزاوية يبرز اليهود بوصفهم ألد أعداء كل الأنبياء وكل أديانهم وكل المؤمنين بهم ، وإذا كان من المعروف عن اليهود وفى كل مكان وكل عصر عداوتهم لكل من ليس يهوديا كما سجلوا هذا فى كتابهم الدينى الذى ينسبونه إلى الله ، فإنهم يركزون عداوتهم بصفة أخص للمؤمنين ، وقد سجل القرآن عنهم هذه النزعة فى قوله تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا)(٢) فهم على رأس قائمة الأعداء للمؤمنين ، ومع أن المراد بالمؤمنين فى السياق المسلمون فإن الدقة المألوفة فى أسلوب القرآن تشير إلى أن إطلاق وصف المؤمنين فى تعبير (الذين آمنوا) وعدم التصريح بتخصيصه بأتباع محمد صلى الله عليه وسلم يشير إلى

---

(١) ٤٨ سورة النساء .

(٢) ٨٢ سورة المائدة .

أن عداوة اليهود للمؤمنين ليست قاصرة على عداوتهم للمسلمين ، وإنما هى عامة لكل المؤمنين فى أى مكان وأى عصر ، وهذا ما يؤكده كل تاريخهم ، ولذلك تميزوا دون كل أعداء الأديان بقتلهم الأنبياء .

وكل صنوف الكفر تدور حول هاتين الزاويتين .

وقد ذكر القرآن كثيرا من صور الكفر ، منها إنكار وجود الله ، فهؤلاء لا يعترفون بوجود الله أصلا كما ينقل القرآن عنهم (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا) (١) وتساؤلهم هذا عن الرحمن ليس المراد به المعرفة بل هو استنكار لوجود الله ، ولذلك يردفون بسؤال آخر ساخر هو (أنسجد لما تأمرنا) ؟ ولو كانوا بأسئلتهم راغبين فى المعرفة والتماس الحقيقة لاتجهوا ولو مجرد اتجاه إلى الإيمان حينئذ ، أو لتولد لديهم الشك فى موقفهم وعقيدتهم ولو مجرد تولد ، ولكنها أسئلة أريد بها السخرية ولذلك كانت النتيجة (وزادهم نفورا) .

ويترتب على إنكارهم وجود الله أن ينكروا بداهة تأثير الله سبحانه فى شىء من شئونهم أو شئون الحياة عامة كما ينقل القرآن أيضا عنهم (وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) (٢)

ومن صور الكفر الإساءة إلى ذات الله سبحانه كإنكار صفة من صفاته ، أو نسبة صفة لا تليق بالألوهية والوحدانية كنسبة الولد إليه من بنين كالذين ادعوا أن لله ابنا ، أو بنات كالذين ادعوا أن الملائكة بنات الله ، وقد رد القرآن على كل منهما فى مواضع كثيرة منه ، ولكنه يبين مدى ضخامة هذا الجرم فى حق الله ، فإن الناس يرغبون فى الولد لامتداد حياتهم أو ذكرهم فى شخص الولد بعد موتهم هم أو ليكون الولد عونا لهم فى حياتهم والله غنى عن كل شىء من ذلك وغيره ، فنسبة الولد إلى الله هدم لمعنى الألوهية نفسها ، ولذلك كان فى القرآن

---

(١) ٦٠ سورة الفرقان .

(٢) ٢٤ سورة الجاثية .

مثل هذا التصوير لبشاعة هذا الجرم (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا) (١)

ومن صور الكفر الوقوف موقف التحدى لله سبحانه فى أى لون من ألوان التحدى ، أو تعمد الإساءة إليه سبحانه بأية صورة من صور الإساءة ، كما فعل إبليس فى الإصرار على تحدى أمر الله إياه بالسجود لآدم ، مع اعتراف إبليس ضمنا بالله وبكل صفاته ، بل وبعبوديته لله ، ومثل إنكار رسل الله ، أو تكذيبهم أو السخرية بهم ، ومن هذا القبيل ما يصفه فقهاء الإسلام بأنه إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة ، كإنكار الصلاة أو الزكاة أو إنكار تحريم الخمر أو نحو ذلك ، حيث يتفقون على أن هذا الموقف نوع من الكفر ، مع مراعاة الفارق الدقيق بين الإنكار والعصيان ، فإن الإنكار تكذيب للرسول ، أما العصيان فهو تصديق للرسول مصحوب بما يشبه الاعتراف الضمنى بالعجز عن تنفيذ الأمر والتكليف ، فقد يتفق السلوكان ، ولكن يختلف الحكم عليهما باختلاف الدافع النفسى ، بمعنى أن يكون هناك شخصان تاركان للصلاة ، فنحكم على أحدهما بأنه مؤمن ، وعلى الآخر بأنه كافر ، حيث يكون الأول معترفا بوجوب الصلاة عليه ولكنه مقصر فى أدائها ، ويكون الثانى منكرا أصلا للصلاة أو لوجوبها فيتضمن هذا الإنكار تكذيب الرسول ، وما أوهى الخيوط التى تفصل أحيانا بين الإيمان والكفر، أو بين الخير والشر ، فالعمل الواحد يمكن أن يتجه إلى الشيء وإلى ضده حسب القصد الذى يقصده به صاحبه ، فإذا قصد به الخير كان خيرا ، واذا قصد به الشر كان شرا .

والواقع أن كل صور الشرك والكفر تنتهى إلى غاية واحدة وإلى حكم واحد هو العداوة لله ورسله فى الدنيا ، وتنتهى أيضا إلى مصير واحد هو جهنم فى الآخرة ، والاختلاف بينها ليس إلا اختلافا فى الشكل أو فى الدرجة ، كما يحدث فى صور القتل ، فقد تتعدد صور القتل من الرفق إلى البشاعة والتشويه والتعذيب فى أثناء القتل ، ولكن النتيجة هى إزهاق الروح ، وكل

---

(١) ٨٨ وما بعدها سورة مريم .

الاختلاف إنما هو فى الأسلوب وطريقة القتل ، ولكن هذا الاختلاف رغم عدم تأثيره فى النتيجة إلا أنه يؤثر فى درجة العقوبة ، وكذلك اختلاف صور الكفر رغم أن نتيجتها واحدة إلا أن أسلوب مزاولتها يؤثر فى درجة الحكم عليها وعلى عقوبتها ، ولهذا كانت جهنم درجات فى بشاعة عذابها مراعاة لدرجات أسلوب الكفر .

وفيما يتعلق بالموازنة بين الشرك والكفر نجد بينهما عموما وخصوصا ، فالكفر أعم من الشرك ، لأن الشرك صورة أو صور محدودة من صور الكفر ، بينما الكفر عام فى كل خروج عن العقيدة الدينية الصحيحة ، فكل شرك يسمى كفرا ، بينما ليس كل كفر يسمى شركا ، لأن كثيرا من صور الكفر هى خروج عن العقيدة الصحيحة ولكنها لا تسمى شركا ، لأن الشرك كما يدل عليه معناه اللغوى لابد أن يقوم على أساس إشراك أحد أو شىء مع الله فى العبادة والعقيدة الدينية .

عقاب الدنيا وعقاب الآخرة

من تكرار القول أن حكمة الله فوق مدارك العقول ، فهو يقول فى محكم كتابه (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) (١) وحكمته فى الكون فى مجموعها من غيبه الذى لا يظهر أحدا عليه ، وكل ما يظهر لنا منها إنما هو بعض المشاهد أو الآثار التى تتعلق بحياتنا فى هذه الأرض ، والتى تتصل بسنن الله فى عمارة هذه الأرض لتكون فى نهاية الأمر إما دعوة إلى الله ، وإما حجة لله على الناس يوم الحساب فى تفاصيل لعل الإلمام بها فيما يلى يوضح شيئا غير جائر عن القصد والمراد .

وأول ما ينبغى الوقوف عنده فيما يتعلق بحساب الله وعقابه أن الأصل فى الجزاء والعقاب عند الله هو أن يكون فى الدار الآخرة وليس فى الدنيا ، على أساس أن الله لم يجعلها للجزاء على الأعمال ، وانما جعلها امتحانا واختبارا ، والامتحان حتى فى عرف الناس لا تظهر نتيجته فى أثناء الامتحان ، مهما يكن نوع هذا الامتحان ، نظريا أو عمليا ، دراسيا أو مهنيا ، وإنما تظهر بعد انتهاء الامتحان ، وكذلك الدنيا يكرر القرآن كثيرا جدا وبأساليب مختلفة أنها ليست إلا ابتلاء واختبارا ، وأن كل ما يصيب الناس فيها من مكاره أو نعم ليس إلا اختبارا وابتلاء لهم ، كما يقول تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) (٢) وما دامت حياة المرء كلها ليست إلا امتحانا فمن البدهى إذن أن نتيجة هذا الامتحان وهى الثواب والعقاب لن تكون فى أثناء هذه الحياة ، وإنما تكون بعد انتهائها أى بعد الموت .

ولأن الانسان خلق عجولا بطبعه ، فإنه يتصور أو يتوقع أن يقترن كل عمل بجزائه ثوابا أو عقابا ، أى أن يكون الثواب أو العقاب تاليا للعمل مباشرة بمعنى أنه يتصور أن يكون الثواب فى الدنيا قبل الآخرة حتى وان كان يعترف بأن فى الآخرة ثوابا وعقابا ، ولكن الله سبحانه يتعالى عن أن يكون عجولا ، لأن الزمن عنده يختلف اختلافا كاملا عن مفهومه عند البشر ، وفى إشارة رمزية إلى هذا الفارق نجد قوله تعالى(وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون)(٣)

---

(١) ٢٦ سورة الجن . (٢) ٣٥ سورة الأنبياء .

(٣) ٤٧ سورة الحج .

فاليوم عند الله ليس كألف يوم من أيام البشر ، وإنما كألف سنة ، وهى إشارة رمزية لأن السنة عند الله ليست أيضا كسنين البشر ، وإنما هى زمن بالقياس إلينا ليست له نهاية ولا حدود ، ولا توجد أرقام فى عرف البشر مهما تبلغ تعبر عن هذا الزمن ، لأن الأرقام متناهية أى تدل على نهاية ، فالألف سنة مثلا لها نهاية هى نهاية الألف ، أما الزمن عند الله فلا نهاية له ، وإذا كان الإنسان يستكثر تأجيل الثواب والعقاب إلى ما بعد نهاية حياته التى لا تتجاوز عادة العشرات من السنين ، أو إلى ما بعد يوم القيامة الذى لابد له من أجل محدد عند الله وإن طال ، فإن هذه الآجال لا تساوى فى زمن الله طرفة عين ، ولذلك لا يكون تأجيل الثواب والعقاب إلى ما بعد نهاية الحياة عند الله تأجيلا أو تأخيرا بمفهومنا نحن ، وإنما هى لحظات يبدأ بعدها الحساب والجزاء ، بل هو ليس تأجيلا أصلا كما سلفت الاشارة آنفا من أن حياة الإنسان كلها ليست إلا امتحانا واحدا وإن تعددت صور الاختبار واختلفت ألوان الامتحان فيه ، كما أن الامتحانات والاختبارات فى عرف كل البشر قد تتعدد فيها صور الأسئلة النظرية أو أنواع الاختبارات العملية ولكنها لا يحكم عليها ولا تتحدد نتيجتها إلا بعد انتهائها جميعا وإلا كان الحكم غير صحيح ، وكذلك عند الله ، حياة المرء بكل ما فيها من خير أو شر ، وبكل ما تشتمل عليه من نجاح أو فشل ، ومن نعم أو نقم ، كل ذلك ليس الا امتحانا واحدا مختلف الأنواع والألوان ، فمن البدهى إذن أن الحكم على هذا الامتحان لا يكون صحيحا أو عادلا إلا بعد انتهائه ، أى بعد انتهاء حياة صاحبه ، ليحاسب على موقفه الدينى فى كل حالة من حالات وأطوار حياته .

وإذن فالأصل فى الجزاء على العمل خيرا أو شرا أن يكون فى الآخرة وليس فى الدنيا ، أما ما يكون فى الدنيا مما يشبه الثواب والعقاب فقد يكون أحيانا ثوابا أو عقابا من باب الاستثناء وليس الأصل ، ويكون هذا لظروف معينة ، وأسباب حدد الله بعضها ، وأنذر الناس بها لتتحقق بها عمارة الأرض التى أرادها الله ، والتى لا يستطيع البشر استقصاءها لأنها تدخل فى حكمة الله ، وإنما يلتمس الناس منها ما هو ظاهر ومحدد ، ومن هذا الظاهر المحدد ما يلى :

أولا :

الأصل فى كل ما يصيب الإنسان فى حياته كلها من خير أو شر أن يكون ابتلاء وامتحانا ليتبين له هو ولغيره سلوكه وموقفه الدينى الحقيقى فى ظرف الاختبار ، فبعض الناس مثلا يظهرون فى حال النعمة وكأنهم يحملون إيماناً عميقا بالله لأنهم حينئذ راضون عنه أو عما منحهم من نعم ، ولكن الله العليم بخبايا النفوس يعلم أن مظهرهم هذا ليس إيمانا حقيقيا ، وإنما هو رضا عما لديهم من نعم ، فيبتليهم بالشدائد لتنكشف نفوسهم على حقيقتها ، فإذا إيمانهم منهار ساقط ، وإلى مثل هذا الابتلاء يشير قوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة)(١) ومن الناس من يكون قريبا من الله ظاهر الإيمان به حينما يكون فى الشدائد والمصائب ، لأنه لاجئ إلى الله ومستغيث به لينقذه مما هو فيه ، ولكن الله يعلم أن حاله هذه ليست إيمانا ، وإنما هى التماس مخرج مما هو فيه ، فإذا خرج مما يعانيه انكشف على حقيقته ، وظهر أنه لا يحمل إيمانا حقيقيا ، فيبتليه الله ويختبره بالنعم ، فإذا حاله فى النعمة والرخاء تختلف عنها فى حال الضيق والشدة ، والقرآن حافل بالأمثلة للنوعين والحالين ، كقوله تعالى (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) (٢) وكقوله تعالى (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفناعنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه) (٣) بل يحكى القرآن كثيرا من الأمثلة الواقعية لهذا ، كما حدث من قوم فرعون حين أرسل الله عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، فتحولت حياتهم إلى جحيم لا يطاق ، فلجأوا إلى موسى عليه السلام أن يدعو ربه ليكشف عنهم ما هم فيه ، وتعهدوا له مقابل ذلك أن يؤمنوا إيمانا يرضيه ، فلما كشف الله عنهم الضر إذا هم ينكثون بعهودهم ويزدادون كفرا وعصيانا .

ولذلك كان من الشطط الكبير الظن بأن ما يصيب بعض الناس من ضر لابد أن يكون

---

(١) ١١ سورة الحج .

(٢)٦،٧ سورة العلق .

(٣) ١٢ سورة يونس .

عقابا أو غضبا من الله ، وأن ما يصيب بعضهم من نعم وخير لابد أن يكون رضا من الله عليهم ، والقرآن يؤكد خطأ هذا الظن فى مثل قوله تعالى (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن كلا . .) (١) فهذا القول وهذا الظن خطأ مرفوض بتعبير (كلا) وأما الصواب فهو ما حدده لفظ القرآن فى الحالين ، حال النعمة ، وحال الشدة فى تقدير وتقتير الرزق من أنه اختبار وامتحان بلفظ (ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه) وأيضا (ابتلاه فقدر عليه رزقه) .

فالحقيقة أن الأصل فى كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر إنما هو ابتلاء واختبار ليتبين الموقف الدينى الحقيقى للإنسان فى كل موقف ، وهذا ما يؤكده القرآن فى مثل قوله تعالى بأسلوب الاستنكار واللوم لمن يغفل عن هذه الحقيقة (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) (٢)

ثانيا :

يترتب على ما سبق أن كل ما يتعلق بذات الله سبحانه فى مخالفة العباد إياه أو عصيانهم من شرك أو كفر به أو عصيان إياه لا يدعو إلى تعجيل العقاب فى الدنيا ، لأن حسابهم وجزاءهم سيكون بعد انتهاء حياتهم التى لا تساوى عند الله غمضة عين مهما تطل هذه الحياة ، وما أكثر المشركين والكافرين والعاصين الذين يقضون حياتهم لا ينالهم فيها عقاب على ما صدر نحو ذات الله سبحانه منهم .

بل إن القرآن يتحدث كثيرا وبأساليب مختلفة عن أن الذين لا يريد الله أن يرضى عنهم من هؤلاء لا يعاقبه فى الدنيا بل يزيده من نعمه ، وييسر له كل ما يتمناه فى حياته ليكون هذا زيادة فى نسيانه جانب الله وفى بعده عنه ، ويصف القرآن مثل هذا بأنه استدراج من الله لهذا

---

(١)١٥،١٧سورة الفجر .

(٢)٢،٤سورة العنكبوت .

الكافر ليزداد كفرا وبعدا عن الإيمان ، ويزداد فى الوقت نفسه إيغالاً فى مغاضبة الله وقربا من عقابه فى الآخرة كقوله تعالى (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين) (١) ويتكرر هذا التعبير ، ويتكرر وصفه بأنه يشبه كيد بعض الناس لبعض ومكر بعضهم ببعض ، كقوله تعالى (والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين) (٢)

ويضع القرآن قاعدة فيما يتعلق بالمعنى السابق ، وهو أن الله ييسر لكل إنسان ما يهدف إليه ويسعى له ، سواء أكان الهدف هو الدنيا أم الآخرة ، كقوله تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب)(٣) فواضح من تعبير القرآن أن من يركز همه فى طلب الدنيا معرضا عن الآخرة لا يعاقبه الله فى الدنيا ، بل ولا يرفض أن يستجيب لحرصه على الدنيا بل يؤتيه منها أحيانا ما يريد ، وأحيانا أكثر وأكبر مما يريد ، ولكن ليس له فى الآخرة أى نصيب من عطاء الله ، لأن ما يناله من الله حينئذ لن يكون إلا عقابا وعذابا أليما ، ومن جهة أخرى فإن من يركز همه وهدفه فى طلب الآخرة والسعى لها ، فإن الله سيمنحه ما يريد وييسره له من كل ما يؤهله لخير الآخرة ، بل إن الله سبحانه يتعهد بأن يزيده فوق ما يطلب ، وهذه الزيادة قد تكون زيادة فى توفيق الله إياه لما يؤهله لخير الآخرة ويزيد من نصيبه فيها ، وقد تكون هذه الزيادة من خير الدنيا يعطيه الله إياه فوق عطائه من التأهيل لخير الآخرة ، ومن باب قوله تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) (٤) فالجزاء بأحسن ما كانوا يعملون يكون فى الآخرة ، أما الحياة الطيبة فتكون فى الدنيا وهى زيادة على الأجر الحقيقى الذى مكانه الآخرة ، ولذلك نلحظ فى آية حرث الدنيا والآخرة أن صاحب حرث الدنيا ليس له نصيب فى الآخرة بينما لم تذكر الآية أن صاحب حرث الآخرة

---

(١) سورة القلم .٤٤، ٤٥

(٢) سورة الأعراف ١٨٢، ١٨٣

(٣) ٢٠ سورة الشورى .

(٤) ٩٧ سورة النحل .

ليس له نصيب فى الدنيا ، بل ذكرت ما يشير إلى العكس وهو الزيادة .

والتعبير بحرف (فى) يجعل الزيادة مطلقة ، فالزيادة فى (نزد له فى حرثه) تشمل أى نوع من خير الآخرة أو خير الدنيا ، بخلاف ما لو كان التعبير نزد له من حرثه ، فإن الزيادة حينئذ لابد أن تكون من حرث الآخرة وحدها لأن حرف (من) يفيد التبعيض ، فيكون المعنى نزد له بعضا من حرثه أى من نوع حرثه وهو حرث الآخرة .

وننتهى من هذا إلى أن كل أنواع الشرك والكفر والمخالفة لله أو العداوة له لا تستوجب عقاب الله فى الدنيا طالما كان ذلك فى حدود الصلة بالله لذاتها ، فهذه الصلة مهما بلغت من السوء لا تستنزل عقاب الدنيا إلا إذا تجاوزت ذلك إلى إفساد حياة الناس أو محاولة تغيير سنة الله فى الكون أو محاولة طمس حجة الله على الناس أو غير ذلك مما أراد الله أن تكون عمارة الأرض قائمة عليه ، أما أن يحصر المشرك أو الكافر عداوته لله فى صلته به فإن الله سبحانه لا يكتفى أحيانا بعدم معاقبته فى الدنيا ، بل يحقق له ما يريد وأكثر مما يريد من متاع الدنيا كقوله تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا وإن كل ذلك إلا متاع الحياة الدنيا . . . .) (١) وكموقف إبليس الذى تجاوز عدم عقابه فى الدنيا إلى أن يستجيب الله له حين طلب من الله أن يمهله إلى يوم القيامة حيث (قال أنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين) (٢)

ولعلنا نجد كل ما سبق من هذا العنصر واضحا فى قوله تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) (٣) فلو أن الله يعجل الحساب والجزاء فى الدنيا لأهلك بنى آدم جميعا وأهلك معهم كل ما يدب على الأرض من باب أن البلاء يعم ، كقوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) (٤) فعقاب

---

(١) ٣٣، ٣٥سورة الزخرف .

(٢)١٤، ١٥سورة الأعراف .

(٣) ٤٥ سورة فاطر .

(٤) ٢٥ سورة الأنفال .

الدنيا قد يصيب المذنب وغير المذنب ، باعتبار أن غير المذنب لم يؤد واجبه فى منع المذنب من الإصرار على مزاولة المنكر ، فيكون تقصيره فى النهى عن المنكر ذنبا يستحق العقاب وغضب الله ، وقد كان من أسباب لعنة الله التى صبها على طائفة من الناس هم اليهود تقصيرهم فى النهى عن المنكر حيث يقول تعالى (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) (١)

ثالثا :

مما هو ملحوظ فى أسباب عقاب الدنيا شيوع الفساد والمنكر فى المجتمع ، وليس السبب هو الفساد أو المنكر لذاته ، وإنما لشيوعه ، وليس شيوعه أيضا لذاته ، وإنما لأن شيوع أمر فى مجتمع بحيث يتفشى هذا الأمر فى غالبية المجتمع يجعل هذا الأمر شيئا مألوفا لدى أفراد المجتمع بحيث لا يجدون فيه غرابة ، ولا يحملون لمزاوله نفورا منه أو سخطا عليه ، ولا يجد أحد حينئذ غضاضة فى مزاولته مهما كان نوع هذا الأمر من الفحش ، ومهما كانت درجته من السوء .

وموضع الخطورة فى شيوع الفساد فى مجتمع لا تكمن فى الفساد ذاته وانما فى مساسه بالقاعدة التى ينبنى عليها حساب الله لعباده ، فإن الفساد لذاته لا يدعو إلى تعجيل العقاب ، واذا كان الشرك أو الكفر لا يدعو أحدهما إلى تعجيل العقاب فمن باب أولى ما هو دونهما .

وإنما الخطورة التى تدعو إلى تعجيل العقاب حينئذ تكمن فى التباس الحق بالباطل والخير بالشر فلا تكون حجة الله على عباده واضحة أو محددة ، ووضوح هذه الحجة هو كل مهمة الرسل وأديانهم جميعا .

فليست مهمة أى دين وأى رسول أن يجعل الناس مؤمنين ، ولا أن يدخل الإيمان إلى

---

(١) سورة المائدة ٧٨-٧٩

قلوب الناس وعقولهم ، فهذا شأن الله سبحانه يهب الهداية أو يمنعها كما يشاء ، وهو العليم بصدق الرغبة فى الإيمان وبالمخادعه أو الرياء فيها أو الاعراض عنها ، والقرآن يفيض بالأمثلة من هذا القبيل بما لا يحتاج إلى تمثيل .

أما المهمة الوحيدة التى أرسل الله بها الرسل وأنزل بها الأديان فهى أن يبينوا للناس الإيمان من الكفر ، والخير من الشر ، ومقتضيات ذلك بصورة واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، ثم ليس على الرسل ولا على المؤمنين بعد ذلك مسئولية أن يؤمن الناس أو يكفروا بل كما يوضح القرآن (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (١) لأن الأصل فى الحساب كما سبق أن يكون فى الآخرة وليس فى الدنيا .

ولكن الله سبحانه وهو العدل المطلق جعل أساسا لحساب عباده وعقابهم وهو أن يكون الحق واضحا أمامهم فيتعمدوا اجتنابه إلى الباطل ، فإذا لم يكن الحق واضحا أمامهم فلا يعاقبهم على اجتنابه ، وكان من هذا القبيل قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)(٢) وعماد مهمة المرسلين هو توضيح الحق من الباطل ليكون كلاهما ظاهرا أمام الناس دون لبس أو غموض .

ويترتب على ذلك شىء كبير الأهمية ، وهو أنه حينما يكون الحق واضحا فإن الحائد عنه يعلم هو قبل غيره أنه جائر عن الحق ومخالف إياه ، وحينما يكون الباطل واضحا فإن الخائض فيه يعلم قبل غيره أنه مخطئ وسالك ما لا ينبغى أن يسلكه ، وحينما يحاسبه الله يكون هو مهيأ من تلقاء نفسه للاعتراف بأنه تعمد ترك الحق وسلوك الباطل والضلال ، ولعل هذا من مفهوم أن كل عضو فى الإنسان يشهد على صاحبه بما زاوله من جرم كقوله تعالى (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) (٣)

---

(١) ٢٩ سورة الكهف .

(٢) ١٥ سورة الإسراء .

(٣) ٦٥ سورة يس .

وإذن فأساس العقاب عند الله أن يعلم الإنسان أن ما هو مقدم عليه ممنوع من الله ومع ذلك يزاوله عامدا مختارا ، فيكون موقنا بأنه ترك الخير وزاول الشر ، وكلاهما كان واضحا فى نفسه .

وهنا تأتى خطورة شيوع الفساد ، وانتشار المنكر ، فإن الذى يفعل الشر وحوله الخير ، والذى يسير فى الباطل ويجانبه الحق يكون واضحا له ولغيره أنه شاذ عما حوله ، وأنه مخالف للاتجاه السائد أو الغالب فى مجتمعه ، وشعوره بالشذوذ والمخالفة لابد أن يوجد فى نفسه وضميره حينئذ نوعا من الشعور بالذنب ، أو الإحساس باللوم والتأنيب لنفسه ، ولو من باب الشعور باستنكار المجتمع عليه لمخالفته إياه .

أما الذى يفعل الشر ويجد المجتمع كله أو غالبه من حوله يفعل مثل ما يفعل ، أو يسير فى الطريق نفسها ، فإنه حتى وإن كان يدرك بعقله أو علمه أن ما يزاوله شر فإنه لا يجد فى نفسه الشعور بالشذوذ والمخالفة للمجتمع ، وبالتالى لا يتوقع استنكارا من أحد ، ومن ثم فلا داعى لديه لأن يلوم نفسه أو يؤنبها ، بل يستمر فى مزاولة منكره وفساده حتى يصبح المنكر والفساد هو الأصل فى حياته وحياة المجتمع ، ويكون الخير والصلاح حينئذ هو الشذوذ والمخالفة ، فيبدأ الصالحون والخيرون فى الاحساس بالشذوذ ومعاناة الشعور باستنكار المجتمع وسخطه عليهم ونفوره منهم ، فيبدأون أو يبدأ بعضهم فى التسلل إلى تيار الفساد والشر ، وهكذا يتناقص الخير ويتسع الشر ويزداد حتى يعم حتى يصبح الخير والصلاح هو الغريب المنكر ، والشر والفساد هو السلوك الذى يتنافس فيه المجتمع ، وقد وصل مجتمع قوم لوط إلى هذا الوضع حيث انتشر الفساد بينهم حتى عم المجتمع ، ولم يبق على الاستقامة إلا آل لوط وهم أفراد ، فرأوا طهر آل لوط شذوذا منكرا يجب أن يغيروه حتى يصبح فسادا مثلهم ، فقالوا (أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) (١)

وانقلاب الوضع بين الخير والشر بمثل هذا الشكل من عوامل استحقاق غضب الله وحلول عقابه فى الدنيا ، ليس لوجود الفساد والشر أو لانتشاره لذات ذلك ، وإنما لأن هذا

---

(١) ٥٦ سورة النحل .

الوضع قد يشوش على حجة الله على عباده أو يطمسها .

فحساب الله عباده وعقابه يوم القيامة مبنى على أن مزاول الشر يعلم علم اليقين أنه يزاول الشر الذى نهى الله عنه ، فيعلم من تلقاء نفسه أنه يستحق العقاب ، ولكن شيوع الفساد والشر قد يشكك كثيرا من مزاوليه فى أن هذا فساد وشر ، بل قد يخيل إلى بعضهم حينئذ أن تفوقهم فى مزاولة الشر ميزة تتيح لهم أن يفخروا بها ، وأن يغبطهم غيرهم عليها ، وحينئذ تختلط مفاهيم الخير والشر أمام المجتمع أو أمام كثير منه ، وفى هذا تشويش على حجة الله على عباده ، وحجب لمعالمها عن أعين بعض الناس .

وهنا بالذات يكون المجتمع فى حاجة إلى رسول من الله ليزيل عن أعين الناس الغشاوة فى تمييزهم بين الحق والباطل ، وبين الصلاح والفساد ، فيعيد إليهم النظرة الصحيحة إلى الأمور ، والحكم الصحيح على السلوك ، حتى يوضح للناس فى غير لبس أو التواء ما الحق ، وما الباطل ، فى العقيدة والفكر ، وما الصلاح وما الفساد فى السلوك ، وحينئذ تعود إلى حجة الله على عباده نصاعتها ووضوحها وعدم التشويش عليها ، وحين يفعل أى رسول من الله هذا يكون قد أدى رسالته ومهمته الأصلية ، وكل جهاد أو كفاح له بعد ذلك يكون زيادة فوق أداء رسالته والقرآن يؤكد هذه الحقيقة عن طبيعة مهمة الرسل ورسالتهم فى مواضع بالغة الكثرة ، كقوله تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) (١) فكل رسول مهمته أن يبين للناس طريق الهداية وطريق الضلال ، وحين تكون كل طريق واضحة متميزة عن الأخرى يحاسب الله ويجزى أصحاب كل طريق على ما اختاروه وسلكوه ، فالبيان والتوضيح هو مهمة الرسل جميعا ، وهو فى الوقت نفسه حجة الله على العباد ، ولذلك تتوالى فى القرآن مشتقات البيان والتبيين والبينة والمبين وكلها تدور حول الظهور والوضوح وعدم اللبس بين الحق والباطل ، وكلها مقترن برسل الله ورسالاتهم لتكون النتيجة كما يقول تعالى (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (٢)

---

(١) ٤ سورة ابراهيم .

(٢) ١٦٥ سورة النساء .

وقد يقال : فهل معنى ذلك أن كل شيوع للفساد فى مجتمع يستدعى غضب الله وحلول عقابه فى الدنيا ؟ والجواب أن الملحوظ فى حلول عقاب الدنيا فى هذه الحالة أن يكون مقترنا بتوضيح الحق من الباطل والهداية من الضلال ، بمعنى أن سنة الله اقتضت أنه حينما يشيع الفساد والضلال فى مجتمع فإن الله يرسل إلى هذا المجتمع رسولا أو تابعا لرسول من رسله فيبين لهم الهداية من الضلال واضحين ، فإذا اختاروا فى مجموعهم طريق الضلال ، وأقروا شيوع الفساد فإن عليهم حينئذ أن ينتظروا حلول غضب الله العاجل ، وعقابه الدنيوى ، كما حدث فى قوم لوط مع لوط ، وفى ثمود مع صالح ، وفى عاد مع هود .

ومن الواضح أنه لا يلزم أن يكون الشخص المرسل إليهم نبياً ، بل يمكن أن يكون أى منذر ، تابعا لنبى ، أو مصلحا داعيا إلى الخير والصلاح ، لأن الأمر المهم حينئذ هو وضوح الحق والخير وإصرارهم فى الوقت نفسه على التحدى وطمس الحق والخير .

ويستوقفنا فى هذا المجال قوله تعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) (١) والذى يلفت النظر فى هذه الصورة أن التعبير يوحى بأنها أساس من أسس العقاب الدنيوى ، مع أن الفاسقين فيها ليسوا كل أهل القرية ، وإنما هم الفئة القليلة فيها ، لأن المترفين هم السادة والأغنياء ، وهم فى العادة قله قليلة ، بل فى الغالب هم أفراد بين جموع كثيرة ، فكيف تؤخذ الكثرة الكبيرة بفساد القلة القليلة ؟ ولا أظن أن فى الإجابة التواء وغموضا ، فإن القوة فى أى مجتمع لا تقاس بالكم ، وإنما بالكيف ، والقيادة فى المجتمع سواء أكانت قيادة سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية هى القوة المحركة والموجهة للمجتمع مهما قل عددها ، ومهما كثر أفراد المجتمع ، فالقيادة هى التى تقبض على زمام المجتمع وتوجهه الوجهة التى تريد ، وتغير سلوكه إلى الاتجاه الذى تسلكه ، ولكن الغريب أن انقياد المجتمع لهذه القيادة لا ينبع من قوة القيادة وتأثيرها فحسب ، وإنما ينبع مع ذلك من ذات المجتمع ، فيلتقى تأثير القيادة بتأثر المجتمع فيكتمل أثر القيادة فى صبغ المجتمع بصبغتها ، ولتوضيح ذلك قليلا يمكن أن يقال :

---

(١) ١٦ سورة الإسراء .

١ - تأثير القيادة بسلطانها سواء أكان سلطانا سياسيا أم سلطانا اجتماعيا كسلطان السادة والزعماء الاجتماعيين ، أم سلطانا اقتصاديا كسلطان أصحاب المال والأعمال أمر واضح حيث يستطيعون أن يفرضوا وينشروا بسلطانهم ما يشاءون ، ويظهر أثر ذلك فى المجتمع فى مدى يطول ويقصر ، وفى نطاق يتسع أو يضيق حسب قوة السلطة ، وحسب طبيعة الأسلوب الذى تفرض به السلطة إرادتها .

٢ - المجتمع نفسه لديه نزعة التأثر بالقوة التى تؤثر فى حياته ، وذلك من سنة الله فى خلقه ، حيث لحظ علماء الاجتماع أن الزعامة نزعة فطرية فى كل المجتمعات ، فكل مجتمع لابد أن تبرز فيه زعامة تقوده وتؤثر فيه . وليس هذا فى المجتمعات البشرية فحسب ، وإنما هو فى كل مجتعات الحياة سواء أكانت إنسانية أم حيوانية عامة ، حيث نجد كل تجمع من الحيوانات له قائد يوجهه ويقوده ، ويظهر فى الحياة الفطرية كالغابات والصحراوات التى تكون الحياة فيها على فطرتها لم تتدخل فيها يد البشر لتغير من طبيعة الأشياء فيها ، فنجد كل قطيع من الحيوان أو سرب من الطيور لابد أن يكون له قائد ، وكذلك كل تجمع بشرى لابد أن يبرز فيه زعيم يقوده ويوجهه .

وصنع الله متقن ولابد أن يكون متكاملا ، ومن تكامل تأثير القيادة فى المجتمعات ما هو ملحوظ من الاستعداد الفطرى أيضا لتأثر المجتمعات تلقائيا بقادتها وبمصادر التأثير فيها ، ولذلك نجد أن الأفراد ينزعون إلى تقليد القادة والسادة وذى النفوذ والتأثير ، فيقلدونهم فى زيهم وعاداتهم وفى كل ما يمكن تقليده فيهم ، فكثير من أفراد الشعوب يحاولون تقليد الحكام فى زيهم وعاداتهم وغير ذلك ، كما تحدثت وسائل الإعلام منذ قريب بأن (تسريحة) شعر رئيس أمريكا بدأت تنتشر فى العالم ، وكما نلحظ فى محاولة تقليد العمال رؤساءهم وأصحاب أعمالهم فى زيهم وفى تسمية بعض أولادهم بأسمائهم ، وكما نلحظ فى محاولة تقليد الشباب من يعجبون بهم من الممثلين أو المغنين أو نجوم الرياضة .

وابن خلدون يبسط هذا المعنى فى مقدمته بدقة وسعة إدراك ، بل يخصص له فصلا كاملا يجعل عنوانه أن المغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب ، وهو لا يعنى الدلالة الحرفية للغالب

والمغلوب ، وإنما يعنى أن من يكون فى منزلة الأدنى والأضعف يجد نفسه ميالا إلى تقليد من هم فى المنزلة الأعلى والأقوى .

ومن هنا نستطيع أن نفهم مدى أهمية سلوك القادة وأصحاب القدوة فى المجتمع بمن فيهم الآباء ، فإنهم فى الواقع لا يكونون مسئولين عن سلوكهم الشخصى فحسب ، وإنما يكونون مسئولين عن سلوكهم وسلوك الذين سيتأثرون بهم ، ولابد أن يكون لهم تأثير واسع النطاق كما وكيفا .

ومن هنا أيضا نستطيع أن نفهم بصورة أوضح مدلول الآية الكريمة التى نحن معها ، وهى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)[١] وبصرف النظر عن القراءة الأخرى التى تشدد الميم فى (أمرنا) أى جعلنا مترفيها أمراء فيها ومع أن التأثير الاجتماعى يكون أقوى وأوضح حينما يأتى من جانب السلطة إلا أن المهم هو المعنى العام ، وهو أن المترفين فى المجتمع عادة هم أصحاب القوة المادية أو المعنوية ، وهم دائما القدوة وموضع إعجاب العامة من الناس ، فإذا صلحوا صلحت بهم الأغلبية ، وإذا فسدوا فسدت بهم أيضا الأغلبية ، ولذلك حينما يريد الله إهلاك مجتمع فإن قادته وذوى التأثير فيه يتسابقون إلى الفساد ، ويتنافسون فى الفسوق ، فيبدأ الناس فى تقليدهم ، ويأخذ الفساد بالتالى فى الانتشار حتى يعم المجتمع ، وحتى يلتبس الفساد بالصلاح ، والخير بالشر أو يكاد ، وحتى يحدث التشويش واللبس حول نصاعة حجة الله على عبادة فى الحساب والعقاب كما سبق ، فعندئذ يحل عقاب الله على هذا المجتمع (فدمرناها تدميرا) .

ومن هنا أيضا يزداد الوضوح لدينا فى فهم أسباب الحملة العنيفة التى يصبها القرآن على قادة الشرك ، وأئمة الكفر ، وزعماء الفساد بأساليب مختلفة وصور متنوعة (٢) لأن خطورتهم ليست فى سلوكهم الشخصى وحده ، وإنما فى تأثيرهم فى العامة ، وفى ولع العامة

---

(١) ١٦ سورة الإسراء

(٢) انظر على سبيل المثال كتاب أسلوب السخرية فى القرآن ، وكتاب التصوير الساخر فى القرآن للمؤلف طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

بالانقياد لهم والاقتداء بهم ، ولأن هذه الطبقة من المجتمع هم أصحاب المصالح وأصحاب النفوذ ، فهم حريصون على بقاء مصالحهم ونفوذهم ، ولذلك فإن هذه الطبقة دائما هى التى تقف حجر عثرة أمام دعوات الأنبياء ودعوات الإصلاح بصفة عامة ، والقرآن يؤكد هذه الحقيقة فى مثل قوله تعالى (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) (١)

رابعاً :

مما هو ملحوظ من أسباب العقاب الدنيوى محاولة بعض الناس مشاركة الله سبحانه فى بعض صفاته بصورة تدعو إلى الفتنة واللبس لدى عامة الناس ، كادعاء القوة والقدرة المطلقة ، فإن القدرة درجات لا حدود لها ، وتوجد لدى الأحياء مقادير ودرجات منها ، ولكنها مهما تبلغ ، ومهما تكن درجاتها فى التفاوت فإنها محدودة ، أما القدرة المطلقة بغير حدود فلا تكون إلا لله وحده ، وهذا الإطلاق بغير حدود هو من صفات الألوهية التى ينفرد بها الله سبحانه ، وهذا الانفراد هو مما يدعو إلى الايمان بالله ، ويكون حجة له عليهم فى الحساب والجزاء ، وقد قرب القرآن إلى عامة العرب مثالا من بيئتهم وعاداتهم ، وهو عادة الجوار وحماية الضعيف ، فقد كان من العادات الحسنة لدى العرب أن الضعيف حين يحتاج الى حماية يلجأ إلى شخص قوى ليحميه ، وعلى القوى فى عرفهم ألا يرفض حماية من يستجير به ، بل يعلن أن فلانا فى جوارى أى فى حمايتى ، فكل مساس بعد ذلك بهذا الضعيف يكون مساسا بمجيره نفسه ، وكان هؤلاء السادة الأقوياء الذين يملكون أن يجيروا الضعفاء يملأون نفوس العامة إكباراً لهم وإعجابا بهم ، فالقرآن يقرب فهم قدرة الله إلى أذهان العامة بهذه العادة التى يعرفونها ، فكأنه يقول لهم إذا كنتم تكبرون من يملك من القوة أن يجير الضعفاء ويحميهم فإن هناك من هو أقوى وأقدر من ذلك بكثير ، حيث يملك أن يجير كل من يلجأ إليه ، وفى الوقت نفسه يملك فوق ذلك أنه لا يستطيع أحد مهما يبلغ من القوة أن يحمى أحدا منه ، أو يجير أحدا عليه ، وهو الله سبحانه حيث يقول (قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ..) (٢)

---

(١) ٣٤ سورة سبأ .

(٢) ٨٨ سورة المؤمنون .

والقدرة تنبع من القوة ، وتنبع منهما صفات أخرى كالعزة والكبرياء ، وكل هذه الصفات قد يتاح للبشر منها صفات وأقدار يختلفون فيها ويتفاوتون ، ولكنها فى كل الأحوال محدودة ، أما الصفات المطلقة التى لاتحدها حدود فهى صفات الله ، وانفراده سبحانه بهذا الإطلاق هو مصدر الايمان به ، وهو أيضا من حجته على عباده .

وقد سبق القول آنفا بأن المساس بحجة الله على عباده من أخطر ما يقع فيه أحد ، ومكمن الخطورة فيه أنه يتضمن تضليلا لبعض الناس ، بطمس معالم الطريق التى توصلهم إلى الإيمان ، وحينئذ لاتكون حجة الله عليهم واضحة كل الوضوح ، حيث يمكن أن يقولوا عند الحساب : يا ربنا إننا لم نر الطريق إليك ، أو لم تكن واضحة أو محددة أمامنا ، فقد كنا نعلم أو نشعر بأنك أنت الأقوى والأعز ، فإذا الأمور تلتبس علينا وإذا نحن نرى أمامنا فلانا بسلطانه أو جاهه هو الأقوى والأعز ، أو فلانا بماله يدعى أنه مصدر الرزق ، وهكذا ، فيصبح هؤلاء الذين يحاولون أن ينافسوا الله سبحانه فى بعض صفاته مصدرا للغواية والإخلال لكثير من العامة الذين هم هدف الأديان ، ووجهة الأنبياء ، وقد سبق القول بأن الشرك والكفر والعصيان والضلال كل ذلك لذاته ليس مستنزلاً عقاب الله الدنيوى ، لأن اصحابه فى قبضة الله ، وهم قاب قوسين من الآخرة أو أدنى ، ولكن الخطر يكمن فى المساس بوضوح حجة الله على عباده ، ومحاولة منافسة الله سبحانه فى بعض صفاته مساس بوضوحها .

ومن مظاهر هذه الخطورة موقف الملك الطاغية الذى بلغ من طغيانه أن حاول منافسة الله فى بعض خصائصه ، حتى أصبح يمثل دعوة مضادة لدعوة ابراهيم عليه السلام ، بحيث تثير قوته لبسا فى أذهان بعض العامة فى الموازنة بينها وين قوة الله سبحانه ، فإبراهيم يقول للناس إن من صفات الله أنه يحيى ويميت ، وإذا هذا الملك الطاغية الذى يعرف بالنمرود يقول وأنا أيضا أحيى بأن أترك قتل المحكوم عليه بالموت ، وأنا أيضا أميت بأن أحكم على من أريد بالموت ، فأنا إذن أحيى وأميت فأنا الإله وليس الذى تدعو إليه ، والقرآن بإيجازه وأسلوبه المعجز يأتى بخلاصة المعانى والمواقف دون أن يضيع من جوهرها شىء ، فمن البدهى أن أسلوب البشر فى محاورة هذا الملك الطاغية كانت أطول ، وأن عناصرها كانت أكثر تفصيلا ، ومن التفاصيل المحتملة أن يقول الملك الطاغية مثلا لإبراهيم عليه السلام أنت تدعو إلى إله

لانراه ولانعرفه وتزعم أنه يحيي ويميت ، وهأنذا أريتك أننى أحيى وأميت علانية ومشاهدة وليس غيبة مثل إلهك الذى تزعم ، فأنا إذن مساو له فى القدرة إن كان إلها حقا ، ولكنى أزيد أننى ماثل موجود أمام الناس وليس وهما كإلهك الذى تزعم ، فأنا إذن أولى بأن يؤمن بى الناس ويخضعوا لى ، ولكن ابراهيم صاحب الحجة التى لاتقارع ولا تنافس يفاجىء الملك الطاغية بما لم يكن له فى حسبان ، فيقول له ولكن الحياة والموت ليسا إلا مظهرا واحدا من مظاهرة قدرة الله الذى أدعو إليه ، ولم يشأ إبراهيم أن يناقش بطلان قياس الحياة والموت لدى الطاغية على الحياة والموت فى صنع الله لأنه يريد ألا يترك أدنى ثغرة فى الحجة تحدث أدنى لبس فى أى عقل من عقول السامعين فى الموازنة بين الله سبحانه وهذا الطاغية ، فيقول : إن الله الذى أدعو إليه يأتى بالشمس من المشرق كما نراها بأعيننا كل يوم ، فإذا كنت إلها حقا فاجعل الشمس تأتى من المغرب وليس من المشرق ، وإذا المفاجأة تبهت الطاغية ، فتعقد لسانه ، وتشل تفكيره ، وإذا السامعون والمشاهدون يرون ما حل بالطاغية ويتبين لهم بصورة لا لبس فيها ولا غموض صدق إبراهيم وكذب طاغيتهم ، وليس المهم حينئذ أن يستجيبوا للحق فيؤمنوا أو يظلوا على كفرهم ، وإنما المهم أن تبقى حجة الله عليهم قائمة واضحة فى غير لبس أو التواء ليحاسبهم بها يوم القيامة . وهى أن الحق كان واضحا أمامهم .

وهنا قد يثور سؤال مهم ، وهو أن الله قد حدثنا عن أن فرعون ادعى الألوهية فعاقبه الله فى الدنيا وأهلكه ، وبينما لم يعاقب كذلك من كان مثله فى ادعاء الألوهية وهو النمروذ ، فكيف ذلك ؟ والجواب أن ابراهيم عليه السلام استطاع بقوة حجته وعبقريته التى وهبه الله إياها فى الحوار وسطوع الحجة كما يقول تعالى (وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ...) (١) استطاع بهذه العبقرية الفريدة أن يزيل كل لبس أو غموض عن حجة الله على الناس ، فبقيت الحجة واضحة ساطعة ، والحجة هى المحور المهم فى كل الأديان ورسالات الأنبياء ، أما الإيمان والكفر فقد ترك الله للناس الخيار بينهما طالما كان الحق واضحا امامهم : كما يقول تعالى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (٢) أما فى حال فرعون فإن الحجة لم تكن واضحة كل الوضوح الذى كان فى موقف النمروذ من ابراهيم كما ورد فى قوله تعالى

(١) ٨٣ سورة الأنعام .

(٢) ٢٩ سورة الكهف .

(ألــم تر إلى الذى حاج ابراهيم فى ربه ...) (١) .

ولكن قد يقال حينئذ فإن موسى عليه السلام ومعه السحرة قد استطاع أن يخزى فرعون أمام حشود قومه بمعجزته فى العصا التى التقمت كل ما صنعه السحرة من سحر فابتلعته فأيقن السحرة بصدق موسى وأنه ليس ساحرا فخروا ساجدين لله إيمانا به وتصديقا لرسوله ، وحدث هذا أمام فرعون وكل المشاهدين من حشوده التى حشدها ، وإذن فقد استطاع موسى أن يجعل الحق واضحا والحجة ساطعة كما فعل ابراهيم ، فلماذا عوقب فرعون فى الدنيا ولم يعاقب النمروذ ؟

والجواب أن فرعون استطاع بحجة خبيثة مضللة أن يلقى ظلالا على حجة الله بعد سطوعها فيذهب بشىء غير يسير من وضوحها وسطوعها ، خصوصا وأن الموقف كان أمام حشود من العامة والدهماء ، هذا الحشد الذى يصف أحمد شوقى مثله بأنه ببغاء عقله فى أذنيه (٢) بمعنى أنه ينقاد بما يسمع أكثر من انقياده بعقله وتفكيره ، وهو تأييد لما يصفه علم النفس الاجتماعى بالعقل الجمعى ، الذى يعنى أن الجماعة المجتمعة يكون لها عقل يختلف عن عقل كل فرد منها على حدة ، ولذلك يمكن لشخص أن يوجه حشدا أو مظاهرة إلى تخريب أو تصرف معين فيستجيبوا له فى حماس وتنافس بوصفهم جمعا ، بينما يرفضونه ولايرضون عنه حينما يكونون فرادى ، وفرعون استغل هذا العقل الجمعى فى هذا الحشد الهائل الذى جمعه قصدا وعمدا ليثبت لهم بحجة عملية قاطعة ما كان يتصوره من أن موسى ليس إلا ساحرا ماهرا ، وفى هذا الحشد وأمام هذا العقل الجمعى يكرر إعلان ألوهيته ليزيدها ثباتا ورسوخا ، فبعد أن سطعت حجة الله على يد موسى ، وخر السحرة ساجدين معلنين أن ما صنعه موسى يستحيل أن يكون سحرا ، ولابد أن يكون هو صادقا فى أنه رسول من الله ، ومضمون ذلك أن فرعون هو الكاذب فى ادعائه الألوهية ، وكان المتوقع أن تكون هذه الشهادة من أصحاب الخبرة بالسحر كافية لأفحام فرعون وإخراس لسانه كما حدث للنمروذ بصرف النظر عن الإيمان أو عدمه ، وكان المفروض أيضا أن تظل حجة موسى وهى حجة الله واضحة ناصعة ،

---

(١) ٢٥٨ سورة البقرة .

(٢) مطلع مسرحية مصرع كليوباترا .

ولكن فرعون يستغل العقل الجمعى لهذا الحشد الذى حشده ، فيلجأ إلى حجته الخبيثة ، قائلا للسحرة إن ما حدث يزيده اقتناعا بأن موسى ليس إلا ساحرا ماهرا ، فهو كبيركم الذى علمكم السحر ، وأنتم تلاميذ صغار له (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) (١) .

ولو أنه قال ذلك أمام الخاصة لكان تصديقه محدودا ، ولكان المكذبون له فى داخل نفوسهم هم الكثرة الغالبة لأن لهم عقولا يستخدمونها فرادى ، فتبقى حجة موسى ظاهرة ساطعة ، كما بقيت حجة ابراهيم أمام النمروذ واضحة ساطعة لأن السياق يدل على أن الحوار كان أمام الخاصة وليس العامة ، أما حشد فرعون من العامة والدهماء فإنهم بفكرهم المحدود بطبيعته ، ثم بعقلهم الجمعى بحكم الوضع الحاشد ستنطلى عليهم أو على غالبيتهم حجة فرعون المضللة ، فيكون هذا تشويها لحجة موسى وطمسا لأهم معالمها ، ويكفى أن يستطيع فرعون نقل حجة موسى فى نفوس المشاهدين من اليقين إلى الظن والشك ، وحيث عمد فرعون إلى المساس بحجة الله على عباده فإنه يستحق العقاب الدنيوى قبل عذاب الآخرة ، ومضمون ماسبق يشير اليه قوله تعالى عن فرعون (فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) (٢) .

وإذا كان علماء النفس والاجتماع قد أدركوا الظواهر النفسية والاجتماعية كالعقل الجمعى وحدودها فى مسار علمى ، فليس معنى ذلك أن ذوى العقول والخبرة فى العصور السابقة لم يلحظوا هذه الظواهر ، بل إن روايات التاريخ تؤكد أن كل الفارق بين السابقين والمحدثين ، هو أن هؤلاء السابقين فى كل العصور كانوا يلحظون ويدركون مايدركون بصورة فردية ، ومن خلال مواقف طارئة متفرقة ، وأن المحدثين استطاعوا ضم مدارك بعضهم إلى بعض ، ثم صوغها فى نسق علمى .

وفرعون لم يكن ينقصه الذكاء الشديد ، ولا الخبرة الواسعة ، ولا الشخصية القوية ، ومما لاريب فيه أن القرآن لايهتم بشخص إلا إذا كانت لهذا الشخص مقومات وقدرات غير

---

(١) ٧١ سورة طه .

(٢) ٢٣ - ٢٥ سورة النازعات .

عادية تجعل له تأثيرا وخطورة غير عادية ، كحديثه عن ملكة سبأ ، وحديثه عن الزعيم القرشى الذى كرر القرآن التعجب من تفكيره وتقديره (١) ، وعلى سبيل المثال فإن عمرو بن هشام الذى كنى فى الاسلام بأبى جهل ، قد يتصور بعض الناس من اقتران لفظ الجهل به أنه كان غبيا أو محدود الإدراك والذكاء ، ولكن الواقع عكس ذلك حيث بلغ من تفوق شخصيته فى كل مقوماتها أن أصبح عضو فى نادى قريش المقصور دخوله على الشيب المتميزين من السادة ومازال هو غلاما لم يطر شاربه ولم تنبت لحيته ، وقد أوجز الباحثون وصف شخصيته بأنه كان أحد ثلاثة أندادا متكافئين ، هم عمر بن الخطاب ، وعمرو بن هشام ، وخالد بن الوليد (٢) ، وكان هذا التكافؤ أوضح ما يكون فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم أن يكون عمرو بن هشام أحد رجلين يعز الله بهما الإسلام حيث قال (اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين ، عمر بن الخطاب ، عمرو بن هشام)(٣) ولفظ الجهل الذى كنى به أصل دلالته فى اللغة السفه ومنه قوله تعالى فى بعض صفات المؤمنين . (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) (٤) أى إذا خاطبهم السفهاء واستفزوهم إلى الشر .

وإذن فالغضب الشديد الذى صبه القرآن على فرعون لا ينفى أن يكون فرعون متمتعا بأقصى ما يتمتع به الإنسان فى فكره أو إرادته أو خبرته أو غير ذلك ، بل العكس هو الصحيح ، وهو أن زيادة اهتمام القرآن به تعنى زيادة أهمية شخصيته وخطورتها ، وكان موقفه من موسى والسحرة من مظاهر هذه الخطورة فى التفكير وعمق التدبير ، فحين أحسن بنجاح دعوة موسى ، وأن هذا النجاح سيجعلها تنتشر بين شعبه ، فينتشر الإيمان بإله موسى ويتناقص الإيمان به هو عمد الى الحشود الشعبية التى تصفق لكل ما تسمعه من ذى سلطة ، هذه الحشود التى تعمد جمعها من كل الأنحاء (فأرسل فى المدائن حاشرين) (٥) وحين احتشدت هذه الحشود التى جاء بها من كل المدائن ، لم يكن حينذاك صوت أو وسيلة تجعل الصوت

---

(١) ١٩ - ٢١ سورة المدثر - ويروى أنه الوليد بن المغيرة .

(٢) انظر عبقرية خالد بن الوليد - عباس محمود العقاد .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام جـ ١ ص ٢٣٥ .

(٤) ٦٣ سورة الفرقان .

(٥) ٥٣ سورة الشعراء .

يصل إلى الجميع ، فأمر المنادين أن ينادوا بين الحشود أن ما بلغكم من انتصار موسى على السحرة كذب وتضليل ، وأن الحقيقة أنها كانت مؤامرة دبرها كبير السحرة موسى مع تلاميذه السحرة ليفسدوا عليكم عقيدتكم ، ويثيروا غضب إلهكم فرعون عليكم ، وقد نال السحرة جزاءهم على خيانتهم للإله الأعلى فرعون ، وكل ما فعله فرعون فى هذه الخطة يوجزه القرآن فى قوله تعالى (فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى) (١) وحيث كان حشد الحشود خطة مقصودة ، فمعنى ذلك أن فرعون كان يدرك ما يعبر عنه بالعقل الجمعى ، من حيث إن التأثير فى الجمع يختلف عنه فى أفراد الجمع نفسه ، وإلا فإن فرعون كان يستطيع أن يبعث المنادين لينادوا هناك فى المدائن بما يريد تبليغه .

وكل الهدف من هذه البسطة هو توضح الفارق بين موقفى فرعون من موسى والنمروذ من ابراهيم ، من حيث التساؤل لماذا عاقب الله فرعون فى الدنيا ولم يعاقب النمروذ فيها مع أن جريمتهما واحدة ؟ ولعل الجواب يكون قد اتضح من هذه البسطة وما قبلها من أن الهدف الجوهرى لكل الأديان والأنبياء هو توضيح الحق من الباطل ليكون وضوح الحق حجة الله على الناس عند الحساب يوم القيامة ، وما دام الحق واضحا أمام الانسان فلا داعى لتعجيل العقاب ، ولكن من يحاول المساس بوضوح الحق والتشكيك فى حجة الله على عباده ينزل الله به العقاب العاجل فى الدنيا ، والنمروذ لم يستطع أن يشوه وجه الحق ، ولا أن يشكك فى حجة الله لأن ابراهيم أفحمه وأخرسه ، فبطلت حجته ، وبقيت حجة الله واضحة أمام الجميع فلم يكن حينئذ داع لنزول عقاب الله الدنيوى ، أما فرعون فإنه استطاع بحجته الخبيثة المضللة أن يشوه وجه الحق ، وأن يخفى كثيرا من معالم حجة الله فاستحق حلول غضب الله العاجل وعقابه الدنيوى فى سنة من سنن الله التى لا تختلف ، والتى يعبر عنها القرآن فى قوله تعالى (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) (٢) .

---

(١) ٢٣ ، ٢٤ سورة النازعات .

(٢) ٤٣ سورة فاطر .

خامساً : الإخلال بعمارة الأرض ودعوة المظلوم :

فقد اقتضت مشيئة الله أن يختم حياة هذه الأرض أو وجودها فى الكون بإسناد عمارتها إلى بنى آدم ، وأصبح من بدهيات المعرفة أن الإنسان أحدث مخلوق على ظهرها ، فالأرض بكل ما فيها من مخلوقات كانت موجودة قبل آدم بما لا يعلمه من عمر الزمن إلا الله ، كما أن من بدهيات الدين أن القيامة ستقوم مع وجود بنى آدم فى الأرض أو على أيديهم ، والقيامة هى نهاية وجود الأرض ، وإذن فآدم هو آخر مخلوقات الله فى هذه الأرض .

ولكن الله لم يجعل آدم مجرد مخلوق فى الأرض ، وإنما جعله خليفة له فيها ، كما يقول تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . . .) (١) والخلافة منصبة على الملكية ، فكأن الله جعل آدم وبنيه خلفاء له فى ملكية الأرض وإدارتها ، ولذلك سخر لهم كل ما فى الأرض ليصرفوه ويستفيدوا به ، وبهذا جعلهم كالنواب عنه فى تملك الأرض وإدارتها .

ولكن ينبغى أن يكون الفرق الكبير واضحا بين الملكية والإنابة أو الوكالة ، فالمالك هو الذى له حق التصرف فى ملكه كيف يشاء ، أما النائب أو الوكيل فإنه محكوم بإرادة المالك الذى أنابه أو وكله عنه ، فلا يملك التصرف إلا فيما تنص عليه الوكالة وما يحدده له المالك ليتصرف فى دائرته .

ولكن كثيرا من الوكلاء والنواب قد يتجاوزون قليلا أو كثيرا حدود ما تتيحه لهم الإنابة ، والمالك قد يحتمل هذا التجاوز طالما لم يخل بوضوح ملكيته ، وطالما لم يصل هذا التجاوز إلى إفساد الشىء الذى هو موضوع الوكالة ، وهذا واضح فى عرف الناس وفى دائرة حياتهم المألوفة .

وحيث كان من رحمة الله بالناس أن جعل تشريعه الدينى لهم يسير فى طابعه العام على منهج حياتهم ومألوف سلوكهم (٢) فإنه أتاح لهم الحرية فى أن يلتزموا منهج الله فى سلوكهم لتكون خلافتهم له فى الأرض أمينة كما يكون الوكيل أمينا فى أداء وكالته كما أمره الموكل

---

(١) ٣٠ سورة البقرة .

(٢) انظر كتاب بين الدين والحياة للمؤلف طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ورخص له فيها ، أو أن يخرجوا عن منهج الله الذى حدده لهم كما يخرج الوكيل الذى لا يلتزم الأمانة فى وكالته ، ولكن الله لا يبيح لهم الحرية فى طمس وضوح ملكية الله كما رأينا فى بعض ما سبق من منافسة الله فى الألوهية بصورة تثير لبسا أو غموضا أو شكا لدى بعض الناس فى صدق هذا الذى يدعى أنه منافس لله فى ألوهيته أو فى بعض صفاته التى خص نفسه سبحانه بالانفراد بها كما ادعى فرعون الذى استخف قومه فأطاعوه .

وكذلك لا يبيح الله سبحانه إفساد الأسس التى تقوم عليها عمارة الأرض ، أو تنتظم بها حياة بنى آدم ، أو تختل بها مقاييس الحساب والجزاء عند الله .

وعمارة الأرض مرتبطة بأن كل أحوال الأرض كانت منتظمة صالحة كسائر أحوال الكون منذ خلقها الله ، فكل مخلوق فى السموات والأرض ، وكل حيوان يدب على وجه الأرض ، أو يسبح فى مائها أو فضائها يؤدى دوره الذى خلق من أجله كاملا دون خلل أو مخالفة أو تمرد ، لأنه محكوم بالتوجيه المباشر من الله ، وليست له حرية أو اختيار فيما يفعل ، فلما خلق الله آدم وبنيه بدأ الخلل والفساد فى حياتهم وفى الأرض منذ خلقوا ، فآدم نفسه كان أول من بدأ الخلل ، وليس يعنينا الحديث عن إبليس ، وإن كان عصيانه ظهر بسبب آدم ، وإنما يعنينا هنا الحديث عن آدم وعلاقته بالأرض ، فقد بدأ آدم الخلل دون سائر مخلوقات الأرض بعصيانه الله (وعصى آدم ربه فغوى) (١) ثم الجيل التالى بسفك الدم بين ابنيه ، ثم توالى الفساد والخلل من كل جنس ولون ، وما يزال يتزايد حتى يعم الأرض ، وحينئذ يكون دمارها .

ولا شك أن الله يريد لحياة بنى آدم أن تكون منتظمة مع سائر الكون دون خلل أو فساد ، حيث إن فساد بنى آدم طارئ على الأرض ، ولذلك فزع الملائكة حين أطلعهم الله على مستقبل بنى آدم فقالوا فزعين مستنكرين (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . . .) (٢)

ومع أن فساد بنى آدم أو إفسادهم فى الأرض خيانه لأمانة الاستخلاف والإنابة التى أولاهم الله إياها ، وهذه الخيانه سيعاقبون عليها كل بمقدار نصيبه منها ، والخيانة واضحة فى

---

(١) ١٢١ سورة طـه .

(٢) ٣٠ سورة البقرة .

أن الله خلق الأرض منتظمة صالحة ، وهو سبحانه يديرها كذلك ، فلما أنابهم بإتاحة قدر من الحرية والاختيار فى إدارة الأرض ، كان ينبغى عليهم أن يسيروا على خطة الله ومنهجه فى الصلاح والاستقامة ، خصوصا وأنه أكد لهم هذا المنهج ، وأكد لهم ضرورة أن يسيروا عليه وذلك على ألسنة أنبيائه المرسلين إلى البشر ، ولكن البشر رغم علمهم أنهم وحدهم الذين يخرقون سنن الصلاح والانتظام فى الأرض ، وكذلك رغم علمهم بما يأمرهم به الله وما ينهاهم عنه على ألسنة رسله إلا أنهم يصرون على العصيان والتمرد ويلتزمون الفساد والإفساد .

وفيما يتعلق بتعجيل عقاب الله فى الدنيا فقد سبق القول بأننا نلحظ أن الله لا يعجل عقابه لمجرد الفساد أو العصيان أو حتى الكفر والشرك ، فإن الأصل فى الحساب والجزاء أن يكون بعد طى صفحة الامتحان وانتهاء مدته المحددة بالموت ، ولكن الإخلال بسنن الله ، أو بوضوح حجته على عباده هو الذى يستدعى تعجيل العقاب .

وإذا كانت حجة الله واضحة يمكن تحديدها فإن سنن الله فى خلق الأرض وإدارتها ليس من المستطاع حصرها أو تحديدها .

وذلك أن حجة الله يسيرة ومحددة ، وهى أن الله يريد أن يكون الحق واضحا ومتميزا عن الباطل ، ليعرف السائر فى طريق الحق أنه على الحق ، ويعرف السائر فى طريق الباطل أنه على الباطل ، فلا يدعى عند الحساب أنه لم يتبين الحق من الباطل ، وهذا التوضيح والتمييز بين الحق والباطل هو كل مهمة رسل الله ومن يحملون أمانة الدعوة إلى الله من أتباعهم ، وما زاد عن ذلك فى دعوتهم إلى الله فهو زيادة فضل يتنافسون ويتفاضلون فيه ، ولكنهم لا يحاسبون عليه إلا إذا كان تكليفا من الله ، والقرآن حافل بتكرار هذا المعنى فى أساليب متعددة متنوعة .

وقد سبق الحديث عن أن مما يستدعى تعجيل عقاب الله إلى الدنيا المساس بوضوح حجة الله على عباده كما كان فى موقف فرعون من ادعائه الألوهية واستخفافه عقول قومه .

وأما سنن الله فى عمارة الأرض وصلاح شئونها فليس فى مقدور العقل البشرى حصرها ، لأن الله لم يشرك أحدا معه فى خلق ما خلق ، ولم يشهد أحدا ذلك كما يقول تعالى

(ما أشهدتهم خلق السموات والأرض) (١) فلم يشهد هؤلاء أو غيرهم ، وحين يخلق الله شيئا يخلق معه السنن التى تحفظ له بقاءه وتنظم وجوده فيما بين أفراده ، وفيما بين أفراده وغيرهم .

ولكن الناس وإن لم يستطيعوا إدراك كل هذه السنن أو حصرها فإنهم بلا شك يستطيعون أن يدركوا ويلحظوا كثيرا منها .

ومما هو ملحوظ بوضوح من هذه السنن أن الله خلق الناس مختلفين ومتفاوتين فى كل شىء فى ألوانهم وأشكالهم وعقولهم وأرزاقهم وأقدارهم ، حتى إنه لا يوجد شخصان يتطابقان تطابقا كاملا منذ آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وفى جانب من جوانب هذا التفاوت يوجد الفقر والغنى ، والقوة والضعف ، وقد جعل الله كل ذلك ابتلاء واختبارا ، ليمتحن القوى بالقوة ، ويمتحن الضعيف بالضعف ، ويمتحن الغنى بالغنى والفقير بالفقر ، ومع أن الله خلق النقائض متجاورة إلا أنه جعل لكل شىء حدودا لا ينبغى أن يتجاوزها ، فالغنى من حقه أن يستمتع بغناه ولكن ليس من حقه أن يستذل الفقير بهذا الغنى ، والقوى من حقه أن يستمتع بقوته ، ولكن ليس من حقه أن يطغى بهذه القوة على الضعيف ، فكل منهما له حقوق وعليه واجبات ، وكذلك الفقير والضعيف ، من حق كل منهما أن يشعر بالمحافظة على كرامته ، وبالحد الأدنى مما يحفظ عليه بقاءه وكيانه ، ولكن ليس من حق أحدهما مزاحمة الغنى فى غناه ، أو القوى فى قوته ، بأن يستلب شيئا ليس من حقه ، ولكن هذا لا ينفى أن ينافسه المنافسة المشروعة ، إنما المحظور بصفة عامة هو العدوان على حق الغير ، وهنا نصل إلى النقطة الفاصلة ، وهى أن يكون الحق والباطل واضحا لكليهما ، فإذا بغى أحدهما على الآخر ، وسيكون الباغى بطبيعة الحال هو القوى سواء بجاهه أو ماله فإن الله جعل للضعيف سواء فى جاهه أو ماله ما يحميه ، وأبرز ما شرعه الله للإشراف عمليا على تنظيم المجتمع ومنه حماية الضعيف من القوى أمران ، أحدهما يتمثل فى السلطة ، والآخر يتمثل فى المجتمع نفسه ، فالذى تختاره الأمة ليكون خليفة لله ورسوله فى تطبيق شريعة الله نصا وروحا فتسند إليه السلطة مسئول أمام الله وأمام الناس فيما يسأل عنه عن حماية الضعيف من القوى ، كما قال

---

(١) ٥١ سورة الكهف .

أبو بكر رضى الله عنه فى أول خطبة له حين أسندت إليه الخلافة : إن القوى فيكم عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له ، فالسلطان أحد الجهتين اللتين أناط الله بهما الإشراف على تنظيم المجتمع .

وأما الجهة الأخرى فهى المجتمع نفسه ، فمن المزايا الحضارية التى شرعها الإسلام ، والتى يهمل المسلمون أهم جوانبها الحضارية رغم معرفتهم إياها هى واجبات المجتمع ، حيث أوجب الإسلام على المجتمع الإسلامى بوصفه كلاً كثيرا من الواجبات ، بعضها محدد معروف فى التشريع كالصلاة على الميت ، ورد السلام ، وإغاثة الملهوف ، وحماية المظلوم ، وإطعام الجائع ، والدفاع عن الدين ، وحماية أرض المسلمين وحقوقهم من أعداء الإسلام ، وغير ذلك ، وبعض الواجبات على المجتمع غير محدد وإنما هو متروك للظروف حسب مستجدات الحياة ، كالتعاون على كل ما فيه نفع ونهضة ، وخير للمسلمين ، ودفع كل ما فيه شر أو فساد أو ضرر ، فيما يعرف بصفة عامة بالأمر المعروف والنهى عن المنكر الذى جعله الله أبرز صفة من صفات تميز الأمم وتفاضلها ، وكانت أمة المسلمين فى جيل أصحاب رسول الله هى القمة بين الأمم كما يقول تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)(١) والله لا يحابى أحدا على أحد لذاته ، ولا أمة على أمة لذاتها ، وإنما بين السبب فى أنهم كانوا خير أمة ، والسبب تمثل فى أمرين ، أحدهما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والآخر الإيمان بالله ، ومن الدقة البالغة دائما فى أسلوب القرآن أنه هنا يقدم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان بالله ، مع أن الإيمان بالله مقدم بداهة على كل شىء وقد التزمته كل الآيات التى تجمع بين الإيمان والسلوك ، نحو (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) (٢) .

وذلك أن الإيمان مقدم بداهة على السلوك بالقياس إلى الأفراد ، بحيث لا يقبل سلوك عند الله مهما كان حسنا فى ذاته إلا إذا سبقه الإيمان بالله ، ولكن الوضع بالقياس إلى الأمم مختلف ، فإن عمارة الأرض هدف من أهداف إرادة الله ، وعمارة الأرض تتحقق بالعمل والسلوك الصالح وليس بالإيمان الروحى ، فالأمة التى تحقق ارادة الله فى عمارة الأرض

---

(١) ١١٠ سورة آل عمران .

(٢) ٢٩ سورة الرعد .

بتنافس أفرادها فيما من شأنه أن يحقق هذا الهدف هى أولى بالسيادة ورفعة الشأن فى الدنيا من الأمة التى ينشغل أفرادها بالإيمان والعبادة الروحية عن العمل والكفاح فى الدنيا ، ولذلك رأى بعض المفسرين فى قوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ، إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين) (١) أن المراد بالصلاح ليس الصلاح الدينى ، وإنما الصلاح لعمارة الأرض ، وكأن الله سبحانه يجعل هذا تنبيها ولفتا لأنظار الذين يلتزمون العبادة الروحية والإيمان السلبى دون سعى فى الأرض وعمل فيها بقوله (إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين) حتى لا يتعجبوا من أن يورث الله الأرض من هم أدنى منهم درجة فى مراتب الإيمان ، ومن هذا القبيل ما يروى من أن عمر بن الخطاب وجد رجلا عابدا يلازم المسجد فسأله من يعولك ؟ قال : أخى ، قال : أخوك خير منك .

ونريد من كل هذه البسطة القول بأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر صورة من صور الواجبات الاجتماعية التى يتميز بها التشريع الإسلامى ، والتى تعد من أهم عوامل الحضارة للأمم ، والمسلمون يعرفونها لأنها واضحة فى التشريع الإسلامى ، وتعرف فى الفقه الإسلامى بفروض الكفاية التى إذا أداها البعض من المسلمين أجزأت عن الكل ، فإذا لم يؤدها أحد أثم الجميع (٢)

ومن هذه الواجبات حماية الضعيف بالمحافظة على حقوقه ، ونصرة المظلوم ، وإذن فالضعيف سواء فى جاهه أو ماله جعل الله له وسيلتين واضحتين لحماية حقوقه ، هما السلطان المنفذ للتشريع ، والمجتمع نفسه ، والنتيجة العملية لذلك أن القوى سواء بماله أو جاهه إذا حاول البغى والطغيان على الضعيف فسيجد أكثر من وسيلة لردعه ورده إلى حدوده ، وهذا الوضع ليس خاصا بالدين والإيمان ، وإنما هو مرتبط بعمارة الأرض وتنظيم الحياة كما سبقت الإشارة فى آية توريث الأرض للصالحين ، بمعنى أن هذا الضعيف المظلوم إذا كان كافرا يعيش بين المؤمنين فله كل حقوق المؤمنين فيما يتعلق بحماية حقوقه من بغى الأقوياء وطغيانهم ، ولم يكن ما فعله الخليفة عمر بن الخطاب فى حماية القبطى من ابن عمرو بن العاص سلوكا

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٥،١٠٦ .

(٢) أنظر كتاب جوهر الإسلام للمؤلف فصل التشريع الحضارى طبع الهيئة العامة للكتاب .

شخصيا منه ، وانما كان تنفيذاً لتشريع الإسلام ، وذلك فى القصة المشهورة وهى أنه فى ولاية عمرو بن العاص على مصر ، سابق ابنه شابا قبطيا ، فكان القبطى هو السابق ، فغضب ابن عمرو وأخذ يضربه ويقول أتسبق ابن الأكرمين ؟ فأصر الشاب القبطى على أن يشكو هذا البغى إلى الخليفة ابن الخطاب ، فما إن سمع عمر هذه الشكوى حتى استدعى عمرو بن العاص وابنه على عجل ، وحين تحقق من صدق القبطى ناوله عصاه المشهورة بالدرة ، وقال له : اضرب ابن الأكرمين كما ضربك ، فأخذ القبطى يضربه حتى اشتفت نفسه وأعاد الدرة إلى عمر ، ولكن عمر لم يكتف بذلك ، بل قدم إليه العصا مرة أخرى وقال له : أجلها أى اجعلها تتجول على صلعة أبيه ، فإنما ضربك ابنه بسلطانه (1) ولكن الشاب القبطى اعتذر مكتفيا بأنه أخذ حقه ، فالذى فعله عمر بن الخطاب لم يكن ميزة شخصية له ، وإنما كان تطبيقا للإسلام ، غاية الأمر أنه كان فى قمة الحرص على تنفيذ الإسلام نصا وروحا .

ونعود فنقول إن القوى حين يحاول الطغيان على الضعيف سيجد فى الإسلام أكثر من وسيلة لردعه ورده إلى حدوده ، ولكن الواقع أنه كثيرا مالا يجد من يردعه لتقصير المسلمين حكاما وشعوبا فى الالتزام الأمثل لتطبيق الاسلام ، وحين لا يجد القوى من يردعه عن الظلم من خارج نفسه تبقى قوة الضمير الداخلى له أو النفس اللوامة حين يشعر بأن البغى على الضعيف ينكره الدين وينفر منه الخلق القويم ، فيبدأ فى داخله صراع نفسى بين هذا الشعور ونزوع نفسه إلى البغى والعدوان فإذا انتصرت نفسه الأمارة بالسوء استمرأت هذا النزوع إلى الظلم الذى هو من شيم النفوس كما يقول الشاعر العربى القديم :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد .:. ذا عفة فلعلة لا يظلم

فإذا انعدمت أو ضعفت علة المنع يبدأ الظالم فى استمراء الظلم ، ويبدأ المظلوم فى الشعور بالهوان لفقدان النصير وانعدام الحماية ، ولا يجد حينئذ ملجأ إلا الله ، وكلما تكرر الظلم ازداد الظالم استمراء للظلم حتى يكاد يشعر أن مزاولة الظلم حق له وليس منكرا منه ، وفى الوقت نفسه يشعر المظلوم كأن وقوع الظلم عليه مما ينبغى أن يتقبله وكأنه ليس ظلما أو منكرا ، وحينئذ يحدث اللبس والخلط بين الحق والباطل ، فلم يعد ظلم الظالم منكرا واضحا ، ولم يعد حق المظلوم حقا واضحا ، فلا الباطل واضح كل الوضوح ، ولا الحق واضح كل

---

(1) أضواء على تاريخ الخلفاء د/ على الرماحى نعمة الله ص ١٧٦ نقلاً عن الطبقات وعبقرية عمر للعقاد

الوضـوح ، ومن سنن الله التى تقـوم عليـها حـجـة الله على عـبـاده كـمـا سبق وضـوح الحق من الباطل ، فإذا حدث اللبس والخلط بينهما حل عقاب الله فى الدنيا .

هذا فضلا عن أن هذا المظلوم مهما يكن وضعه من الدين فهو عبد من عباد الله ، ولم يجد نصيرا من السلطة التى كلفت أن تحمى حقه ، ولا من المجتمع المطالب بأن يدافع عنه ، ولا من ضمير الظالم الذى ينبغى أن يزجره عن الظلم ، وإذا كان الجميع قد تخلوا عنه فإن خالقه لن يتـخلى عنه ، بل إن تخلى الجـمـيع عنه هو من أشـد مـا يدعو إلى غضب الله ، ويسـتـعـجل عقابـه .

وهذا كله فضـلا عن أن الله حين خلق التناقض والتـفـاوت بين القـوة والضـعف ، والغنى والفقر وغير ذلك لم يتركه همـلا ، وإنما جعل لكل شىء مسارا محددا لا ينبغى أن يحيد عنه ، وجعل بين الشىء ونقيضه حدودا لا ينبغى لأحدهما أن يتخطاها حتى تتحقق عمارة الأرض وانتظام الحياة فيها ، والقوى حين يلجأ إلى ظلم الضعيف يكون قد تخطى الحدود التى جعلها الله فاصلة بينهما .

فلكل هذه الاعتبارات كان الظلم مما يستنزل عقاب الله الدنيوى ، ولهذا أفاض القرآن ، وأفـاضت الأحـاديث النبـوية بأسـاليب عـديدة متنوعـة فى بيـان مـدى سـخـط الله على الظلم ، واستجابة الله لدعوة المظلوم .

ومن الواضح أن المقصود بالظلم هنا ظلم الغير ، وليس ظلم النفس ، فإن الظلم مـعنى واسع ، استخدمه القرآن فى الدلالة على كل مخالفة لله من شرك أو كفر أو عصيان .

ولكن ظلم النفس ولو كان شركا بالله أو كفراً به لا يستعجل عقاب الله إلى الدنيا ، وإنما يتركه الله فى ضلاله حتى يلقى مصيره فى الآخرة ، لأن ظلم النفس فى أحد جوانبه لا يمس عمارة الأرض ، طالما كان الحق واضحـا متميزا عن الباطل ، بحيث يكون الحق واضحا لهذا الظالم لنفسه فحاد عنه ، أو كان يمكنه أن يستوضحه أو يتبينه فلم يفعل ، فهذا ظالم لنفسه لأنه أوردها مورد الهلكة وسلك بها مسلك الضلال ، ولكن ضرره واقع عليه هو دون غيره ، فإذا مس بهذا الظلم غيره أو مس عمارة الأرض وانتظام شئونها كان من باب ظلم الغير الذى هو

موضوع هذا الحديث .

وبهذا تنتفى الغرابة بين أن يترك الله كافرا أو مشركا به لا يعاقبه فى الدنيا ، بل قد يفيض عليه من كل ما يريد من الدنيا ، بينما يدمر ظالما ولو كان مؤمنا ، لأن الكافر ظلمه لنفسه لا يتضرر به أحد سواه ، أما الظالم لغيره فقد تعدى حدود نفسه ليتعدى على حدود وحقوق غيره ، ومن المشاهد أن الله حينئذ يتركه مرة ، بل ومرات ، حتى يستمرىء ذلك ، حينئذ يأخذه الله فلا يفلته ، ولا تستطيع قوة فى الدنيا أن تنقذه منه ، ولذلك كان من الملحوظ المشاهد حلول الخراب والدمار بنوعين من الظلم ، أحدهما استمراء البغى والعدوان على الغير ، والآخر استمراء هتك أعراض الغير ، فالذين يلتزمون أحد المسلكين لابد أن يحل بديارهم الخراب والدمار فى الدنيا إن عاجلا وإن آجلا ، وكلما كان صبر الله عليهم أطول كان الدمار أشد وقعا وأطول أمدا ، ومن هذا القبيل قوله تعالى (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) (١)

وسياق الآية يدل على أن هذا الظلم الذى كان سببا مباشرا فى تدمير بيوتهم هو ظلم للغير ، فالسياق حديث عن صالح عليه السلام والذين آمنوا معه ، حيث تآمر نفر من قادة الكفر فى قومه على مباغتة صالح وأهله ليلا وقتلهم جميعا ، وحين صمموا على ذلك وشرعوا فى التنفيذ كان عقاب الله أسرع منهم فحل الدمار بهم وبقومهم الكافرين ، وذلك فى قوله تعالى (. . . . وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ، ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ، وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) (٢) فهؤلاء الذين دمرهم الله كانوا ظالمى أنفسهم بالكفر وعقر الناقة ، وقد يكون هذا من الأسباب غير المباشرة ، أما السبب المباشر فيمكن أن نلمحه فى الآيات السابقة فى مرحلتين ، أولاهما المساس بعمارة الأرض وتنظيم شئونها كما يشير إليه تعبير (يفسدون فى الأرض ولا

---

(١) ٥٢ سورة النمل .

(١) الآيات ٤٨ - ٥٣ سورة النمل ، ولفظ لنبيتنه من البيات وهو مباغتة ومهاجمة العدو ليلا ، ولفظ وليه أى قرابته التى تغضب له ، والمكر هو التدبير الخفى .

يصلحون) والمرحلة الثانية هى محاولة ظلم الغير بالعدوان والقتل كما يدل عليه تعبير (تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله) فكانت النتيجة حلول العقاب الدنيوى بالدمار وخراب البيوت ، ونلحظ أن القرآن ينبه إلى أن هذا ليس خاصا بثمود وإنما هى نتيجة ينبغى أن ينتظرها كل من يسلك مسلكهم ، وهذا التنبيه يشير إليه تعبير (إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون) بمعنى أن فى هذا الذى حل بثمود عبرة وموعظة لكل من يسلك سلوكهم ويعلم نتيجة ذلك السلوك .

ومن الواضح أن الدمار تعدى هؤلاء النفر إلى قومهم جميعا لأن القوم كانوا مشتركين ضمنا فى الجرم حيث لم ينكروا على النفر ما هم مقدمون عليه ، كما لم ينكروا على عاقر الناقة ما فعله ، هذا بالإضافة إلى كفرهم بصالح عليه السلام ودعوته إياهم إلى الله .

نوعية عقاب الدنيا

الذين أهلكهم الله فى الدنيا كانوا جميعا من الكافرين به ، ولكن أسلوب هلاكهم كان مختلفا ، وعندئذ يمكن أن يثار سؤال : إذا كانوا جميعا مشتركين فى صفة واحدة هى الكفر فلماذا لم يكن عقابهم الذى حل بهم نوعا واحدا ؟

وشىء واحد يجب أن يكون فى الإجابة مستبعدا ، وهو أن يكون اختلاف نوع العقاب جاء عفوا أو مصادفة ، فالعفوية أو المصادفة مستحيلة بالقياس إلى الله سبحانه ، فكل شىء صغر أو كبر من صنع الله لابد أن تكون له غاية وحكمة ، سواء أظهرت لنا هذه الحكمة أم خفيت علينا .

ولكن الإجابة تبدأ من أنه ينبغى تعديل السؤال نفسه ، فلا يعقل أن تكون الجريمة واحدة والعقاب مختلف ، وإذا جاز هذا عند بعض البشر فلا يجوز عند العدل المطلق وهو حكم الله سبحانه ، فإذا كان العقاب مختلفا فلابد أن يكون الكفر مختلفا ، أعنى أسلوب الكفر ، لأن الكفر من حيث العقيدة واحد مهما تعددت ألوانه ، ولكن الذى يختلف هو الأسلوب الذى يزاول به الكافر كفره .

والذين اختلفت أنواع عقابهم كانت أساليب كفرهم مختلفة .

ومن تكرار القول أن حكمة الله فوق عقول البشر ومداركهم وإنما يتاح لهم اليسير الذى يرتبط بحياتهم ، والذى ييسر لهم إيمانهم بالله عن يقين ، ومما يمكن أن يلتمس من حكمة فى اختلاف أنواع العقاب لمن أهلكهم الله أن كلا منهم كان لكفره أسلوب وطابع معين ، فكان عقاب الله مبنيا على ملاءمته لأسلوب كفره ، ليكون أبلغ فى الإهانة له ، وأيضا ليكون أبلغ فى اتعاظ الآخرين به ، وتحذيرهم من أن الله بالمرصاد .

وذلك أن المتأمل فى هذا المجال يمكن أن يلحظ بوضوح أن عقاب الله يكون عادة هدما للقاعدة التى بنى عليها الكافر كفره ، فالشىء الذى اعتز به الكافر حتى دفعه إلى الكفر هو الذى ينصب عليه أو على نوعه عقاب الله .

ولتوضيح ذلك يمكن أن نضرب أمثلة من القرآن الكريم دون مراعاة لترتيب زمنى ، لأن ذلك لا يضيف إلى الموضوع جديدا .

١ - عـــــاد :

هم شعب ممن يعرفون فى التاريخ بالعرب البائدة ، أى التى بادت وهلكت ولم يبق من معالمهم بوصفهم مجتمعا شىء ، بمعنى أن موطنهم الذى كانوا فيه دمر ولم يبق منه كسائر الأقوام المهلكين إلا ما يدل على أنه كان فى هذا المكان قوم يعيشون ، كما بقى من آثار ثمود فى شمال الجزيرة العربية بقية من مساكنهم التى نحتوها فى الجبال وشىء من آثار معيشتهم التى يعيشونها ليكون ذلك عبرة وموعظة لمن بعدهم ، وهذا لا يمنع بقاء أفراد ينزحون إلى أماكن أخرى ليحكوا للناس صورة العقاب الذى حل بهم ، ولكن الموطن المعاقب أهله لابد أن يظل خرابا ودماراً لتظل العبرة به ماثلة .

وموطن عاد كان فى الأحقاف جنوب الحجاز وشمال اليمن ويعتقد أنه كان فيما يعرف الآن بالربع الخالى ، وهو إقليم شاسع لا توجد فيه حياة بشرية ، والأحقاف هى المرتفعات المستوية المنبسطة من الرمال .

والقرآن الكريم يحدثنا عن شعب عاد فى مواضع عديدة منه ، وفى أساليب متنوعة ، وأبرز ما يميزهم هو الاعتداد بالقوة الشديدة التى لم يكن أحد ينافسهم فيها ، فقد تميزوا بتكوين جسمى يتيح لهم قوة غير عادية ، حتى إن الرجل منهم كما تروى الروايات كان يستطيع أن ينزع بيديه الصخرة من الجبل ، وليس المهم فى حرفية صدق هذه الروايات ، وإنما المهم أنهم كانوا يتمتعون بقوة غير عادية تميزهم عن غيرهم من الناس .

وهذه القوة ملأتهم غرورا وتجبرا وكبرياء ، حتى سيطر عليهم الشعور بأنه لا شىء يعجزهم ، ولا شىء يغلبهم ، ولا أحد يهزمهم ، وحين أرسل الله إليهم نبيه هودا استخفوا به واحتقروه ، وحين أنذرهم وخوفهم من عقاب الله استخفوا بهذا الوعيد ، وتحدوا بطبيعة الحال هودا أن يأتيهم بمن هو أو من هم أقوى منهم ، وحين حدثهم بأن الله الذى خلقهم هو أقوى

منهم سخروا منه ومن الله وقوته ، ولعله كان فى حسبانهم أن الله الذى يحدثهم عنه هود فرد ، ومهما تكن صفات هذا الفرد ، ومهما تكن قوته فلا يعقل فى وهمهم أن يهزمهم أو يواجههم أو يتحداهم أيا كان شأنه ، ومما لا شك فيه أن دعوة هود عليه السلام وانذاره إياهم لم يكن فى يوم أو سنة أو سنوات ، كما أن كفرهم وتحديهم الله ورسوله لم يكن أيضا فى أمد قصير ، وإنما كان كشأن الله سبحانه فى الصبر على أعدائه فى زمن طويل ، هود يكرر دعوته ملحا بها ، ويكرر تحذيرهم وإنذارهم محاولا أن يفتح عقولهم وتفكيرهم ، ولكن اعتدادهم بقوتهم لا يزيدهم إلا عتوا وتجبرا واستخفافا بهود ودعوته .

وعقاب الله لا يحل إلا حينما يفقد الأمل ويتحقق اليأس من هداية أعداء الله ، وقد تحقق اليأس لدى هود عليه السلام من هداية قومه ، فحل بهم العقاب ، فكيف كان نوع هذا العقاب ؟

لقد كان العقاب عكس ما قام عليه كفرهم وتحديهم الله ورسوله ، والذى قام عليه كفرهم وتحديهم هو القوة التى دفعتهم إلى الغرور والتحدى ، فيرسل الله عليهم ما يضرب به المثل فى الرقة واللطف وهو الهواء ، حيث يحول الله أرق خلقه وأضعفه إلى قوة عاتية ، أقوى وأشد من قوتهم ليدمر بها هذه القوة التى دفعتهم إلى الغرور والتحدى ، فى صورة رياح ثلجية عاصفة عاتية ، تقتلع كل شىء ، وتدمر أمامها كل شىء ، وتظل هكذا أياما متواصلة تلاحق كل ما يبقى سليما أو حيا منهم ومن معيشتهم ومساكنهم ، كما يقول تعالى (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية أيام حسوماً فترىٰ القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية) ؟ (١)

فكان إهلاكهم عبرة ، ولكن طريقة إهلاكهم عبرة أخرى قد تكون أبلغ من هلاكهم نفسه ، فإن الهلاك لذاته مفهوم ولا يحتاج إلى تأمل وتفكير عميق ، فحينما يقال أهلك الله فلانا فأيسر ما يرتسم فى الذهن من ذلك أن الله قضى على حياته فأصبح فى عداد الأموات ، وهذا المعنى قائم فى كل النفوس سواء أكان الهلاك عقابا من الله أم موتا طبعيا ، أما وسيلة الهلاك فهى التى تحتاج إلى عميق تدبر وتأمل ، فعاد الذين عتوا وتجبروا واستكبروا كما يصفهم القرآن

---

(١) ٦-٨ سورة الحاقة .

(فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة . . .) ؟ (١) فهم يتحدون الناس جميعا أن يكون فيهم من هم أشد منهم قوة ، ولكن الذى يلفت النظر هو رد القرآن على تحديهم هذا ، حيث كان الرد عليهم هو (أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة) ؟ فإن هذا يتضمن إشارة ولو بعيدة إلى نوع من التسليم لهم ولو جدلا بأنهم أقوى الناس جميعا على وجه الأرض ، ولكن هذا لا يقتضى أنه لا يوجد من هو أشد منهم قوة كما يدعون ، لأن الله الذى خلقهم وصنع لهم هذه القوة هو بالضرورة أقوى منهم ، ولولا التسليم الجدلى لهم بأنهم أقوى من على وجه الأرض لكان الاحتمال الأقرب أن يقال لهم بل إن الله خلق من هم أقوى منكم .

ومما يقوى التسليم الجدلى لهم بتفوقهم فى شدة القوة على كل من سواهم أننا نلحظ أن التفوق فى القوة يكون عادة فى المجتمعات ليس فى عامة الأفراد ، وإنما فى فئة أو أفراد متميزين ، يوصفون بأنهم ذوو القوة ، أو الفرسان ، أو السادة والقادة ، أما سائر الأفراد فلا تنطبق عليهم صفة التفوق أو التميز فى القوة ، أما فى عاد فقد كان التعبير عنهم يوحى بأن الوضع فيهم مختلف ، فإن التفوق والتميز بشدة القوة كان صفة العامة فيهم ، بحيث ينطبق هذا الوصف على كل الأفراد ، أما الخاصة منهم فقد حظوا بما هو فوق شدة القوة ، أو أنهم تجاوزوا ما بلغه قومهم من شدة القوة إلى صفة أبعد ، وهى الجبروت ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى (وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد) (٢) فهذا صريح فى أن خاصتهم الذين يتولون السيادة والقيادة والتوجيه فيهم كان كل منهم يوصف بأنه جبار عنيد .

ومن هنا تبدو أهمية التسليم الجدلى لهم بأنهم أقوى من على وجه الأرض ، وأهمية العبرة فى الوسيلة التى أراد الله إهلاكهم بها ، فكأن الله سبحانه يقول لهم مع كل ما بلغتموه من شدة القوة ، ومن الجبروت والعناد فلم يكن ينبغى أن تتحدوا الله ورسوله ، وإذ قد تحديتم

---

(١) ١٥ سورة فصلت .

(٢) ٥٩ سورة هود .

بقوتكم فإن الله لن يرسل عليكم ما هو أقوى منكم ومن كل الناس كالجبال التى يمكن أن تنهار عليكم من زلزال أو رجفة أرضية ، وكالسيول التى يمكن أن تندفع نحوكم فلا يثبت أمامها شىء ، ولا يستطيع أن يصدها شىء ، وإنما سيرسل عليكم أضعف وأرق خلقه وهو الهواء لتروا أأنتم أشد قوة أم هو ؟

ولا شك أنهم سيعلمون ويتعظون ولكن بعد فوات الأوان ، فمن المعروف فى الدين أنه حينما يحل أجل الله ، سواء بالشعور بالموت ، أو بنزول الهلاك ، أو بحلول القيامة فلن تقبل توبة تائب ولا إيمان كافر ، فحينئذ يغلق باب التوبة ، ويقال للراغب فى التوبة أو الإيمان كما قيل لفرعون حين أراد أن يؤمن بعد إحساسه بحلول الهلاك (حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ، آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) ؟ (١)

ولكن أول من يتعظ ويستفيد من هذه العبرة هم هود والذين آمنوا معه ، فسيوازنون بعد أن نجاهم الله بين آثار رضا الله من النجاة والسلامة والفوز وآثار غضب الله مما حل بقومهم ، وهذه الموازنة واضحة فى قوله تعالى (ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ، وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هـــود) (٢)

وفى آيتين اثنتين من سورة الأحقاف نجد وصفا دقيقا لما حل بعاد مع ما تهدف إليه القصة من وعظ وتحذير ، هما (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى المجرمين) (٣) فالعناصر الأصلية فى الموقف أن العذاب لم يكن مفاجئا

---

(١) سورة يونس ٩٠، ٩١

(٢) سورة هود ٥٨-٦٠

(٣) ٢٤ – ٢٥ سورة الأحقاف .

لهم أى لم يدهمهم على حين غرة ، وإنما كانت هناك فرصة ولو يسيرة أو قصيرة ليروا فيها العذاب قبل أن يحل بهم ، ولم تكن هذه اللحظات إلا جزءا مقصودا من العذاب ، ولكنه عذاب نفسى يتمثل فى امتلاء نفوسهم بالأمل والسعادة حين رأوا العذاب قادما فى صورة ريح كثيفة محملة بأتربة سوداء أو رمال بيضاء ، فلم يشكوا فى أنها سحاب ممطر ، فغمرتهم البهجة بهذا الغيث الذى سيملأ واديهم حياة وخصبا ، وبينما هم فى ذروة الأمل وقمة السعادة يفاجأون بأن ما رأوه ليس سحابا ولا أملا ، وإنما هو العواصف والرياح المدمرة ، وهنا تتحقق الصدمة النفسية المتمثلة فى الإحباط الذى اصطدم به أملهم البهيج ، وهذا الإحباط هو المرحلة الأولى من العذاب ، وهى مرحلة العذاب النفسى ، وعنصرها فى التعبير (قالوا هذا عارض ممطرنا) .

ثم تتكشف لهم الحقيقة وهى أن ما رأوه كان ريحا عاتية مدمرة تروى الروايات من مشاهدها أنها كانت تقتلع الخيمة وفيها امرأة فتطيرها فى الفضاء كأنها جرادة ، وتظل تقتلع وتصرع وتسفى بما تهيله من الأتربة والرمال سبع ليال وثمانية أيام حسوما متواصلة ، وحينئذ لابد أن يكون كل الأحياء مطمورين تحت الرمال التى تسفيها الرياح طوال هذه الأيام ، فكان هذا الوصف فى القرآن (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) ثم تأتى العبرة وهى أن ما حدث لعاد ليس خاصا بهم ، وإنما هو مصير ينبغى أن ينتظره كل من يسلك مسلك عاد (كذلك نجزى القوم المجرمين) .

٢ - أصحاب الفيل :

وقصة أصحاب الفيل لم تكن من الأخبار الموغلة فى التاريخ مثل قصة عاد وثمود وفرعون وغيرهم ، وإنما كانت بالقياس إلى بدء الإسلام من القصص والأحداث المعاصرة التى أدركها كل أبناء الجيل فى مكة حين أعلن محمد صلى الله عليه وسلم دعوة الإسلام حيث حدثت فى العام الذى ولد فيه النبى ، فكل الذين بلغوا الخمسين فى بدأ الإسلام أدركوا حادث الفيل ، على أساس أنهم كانوا فى العاشرة من عمرهم حين حدث .

ومضمون القصة يدور حول الصراع الدينى فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، فقد كانت الديانة السائدة فيها حينذاك هى عبادة الأصنام ، أو عبادة الشمس فى بعض أقاليم جنوب الجزيرة ، ثم تسللت اليهودية والنصرانية إلى بعض أنحاء متفرقة فى الجزيرة ، وكانت معظم البقاع التى تسللت إليها اليهودية مركزة فى شمال الجزيرة تأثرا بمركز اليهودية فى فلسطين ، كما كانت معظم البقاع التى تسللت إليها النصرانية مركزة فى الجنوب تأثرا بمركز قوى من مراكز النصرانية فى الحبشة ، ولكن بعض رجال الدين اليهود استطاعوا أن ينشروا اليهودية فى بعض اليمن ، وأن يجعلوا ذا نواس ملك اليمن يعتنق اليهودية ، ثم أغروه باضطهاد النصارى لتخلص اليمن لليهودية ، فاستغل ذو نواس بعض الأحداث الفردية ليتخذ منها حجة للتنكيل بالنصارى حتى يصرفهم عن النصرانية إلى اليهودية ، فأحدث مشهد الأخدود البالغ البشاعة ، وهو شق فى الأرض ملأوه نارا مشتعلة ، وأخذوا يلقون فيه النصارى ، والملك والملأ من حوله يستمتعون بهذا المشهد الرهيب ، كما ورد فى القرآن الكريم (قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) (١)

ولكن هذه البشاعة أثارت ثائرة نصارى الحبشة القريبين من اليمن فأعدوا جيشا غزوا به اليمن واستولوا على حكمه وأخمدوا صوت اليهودية فيه بطبيعة الحال .

ولكنهم لم يكتفوا بإعلاء صوت المسيحية ورايتها فى اليمن ، بل لجأوا كما لجأ اليهود من قبلهم إلى الطغيان فأرادوا أن يخمدوا أى صوت دينى غير المسيحية ، بل أن يمحوا أى مظهر دينى غير ديانتهم ، وكانت الكعبة فى مكة تمثل المركز الدينى للعرب ، حيث يتجه كل العرب إليها بالتبجيل والتعظيم الدينى ، ويحجون إليها كل عام ، ويتخذون من ساحتها مقرا لأصنامهم التى يعبدونها ، فعزم الحاكم الحبشى المسيحى أبرهة الأشرم على هدم هذه الكعبة ، واتخذ من بعض الأحداث الفردية وسيلة وحجة لمهاجمة الكعبة ، فأعد جيشا لهذا الهجوم ، وجعل عماد هذا الجيش أداة ترهب العرب حيث لا يوجد لديهم شىء منها ، هذه الأداة هى الفيل الذى لا يوجد فى أرض العرب ، ولا يوجد لديهم حيوان أو أى أداة تقاومه ، فاستقدم أبرهة أعدادا من

---

(١) ٤ - ٧ سورة البروج .

الفيلة من إفريقيا إلى اليمن ، وجعلها عماد قوة جيشه المتجه إلى هدم الكعبة فى مكة .

وليست تعنينا هنا التفاصيل المشهورة فى أحداث هذه القصة ، وإنما يعنينا موضع العبرة فيها ، ومن أهم مواضع العبرة فيها هذه الحكمة الواضحة فى أسلوب عقاب أصحاب الفيل على طغيانهم ، فإن أصحاب الفيل اغتروا بقوة أفيالهم وضخامتها ويقينهم بأنه لا توجد فى أرض العرب قوة تقاومها أو تمنعها من فعل ما تريد وهو هدم الكعبة ، ولم يدر بخلدهم أو لم يصدقوا أن الكعبة ليست بيت العرب ، وإنما هى بيت الله ، ولم يدر بخلدهم أو لم يصدقوا أنه إذا عجز العرب عن مقاومتهم أو منعهم مما يريدون فإن هناك قوة هى أقوى منهم ومن أفيالهم هى قوة الله القادر على كل شىء ، والذى بيده كل شىء ، والذى يصغر عنده كل شىء وكل قوة .

ولكن الطريف أن الله سبحانه حين يتصدى لأصحاب الفيل وأفيالهم لا يتصدى لهم بمنطق القوة المادية المحسوسة التى جعلوها مصدر طغيانهم ، ولكن بعكس هذه القوة ، فقد كان يمكن أن يسلط الله عليهم قوة أقوى من أفيالهم تدحرهم وتدمرهم ، وإن يعجز الله سبحانه شىء ولكن كأن الله يقول لهم إذا كان طغيانكم اعتمد على ما تتصورون أنه أضخم وأقوى ما يعرفه الناس وهو الفيلة فإن الله سيدمركم بأضعف ما تراه العين ، وهو حجارة صغيرة يروى أنها بين حجم حبة العدس وحبة الحمص ، بل هناك من يقول إن ما دمرهم به الله أصغر وأضعف من ذلك بكثير ، بل مما لا تراه العين ، وهو الجراثيم التى نشرت بينهم الوباء الفتاك ، وليس هذا القول بغريب فإن الجراثيم أو نحوها إذا كانت غير مرئية لأعيننا نحن فإنها عند الله مرئية ومجسدة كالحجارة بالقياس إلينا ، وكل جرثومة حين تنطلق إلى جسد فإنها تشبه الحجر حين يرمى به جسد ، وسواء أكان هذا أم ذاك فإن موضع العبرة لا يتغير ، وهو أن الله يستطيع أن يدمر أقوى قوة بأضعف شىء ليرى الناس أن الجهل الشديد ، والسفه الكبير أن يتصور أحد أن هناك قوة مهما تكن تستطيع أن تغالب قوة الله ، وأن أيه قوة مهما يغتر بها أصحابها ، ومهما يرهبها الناس فإنها عند الله ليست بقوة ولا تحتاج إلى مقاومة ، بل يملك سبحانه أن يدمرها بمحض إرادته ولو بدون وسيلة أو سبب ، ولكن لأن سنة الله فى خلقه

اقتضت أن يكون لكل شيء سبب ، فإنه يجعل أضعف شيء سببا في تدمير أقوى شيء ، كما فعل بأصحاب الفيل المغترين بقوتهم وقوة أفيالهم غرورا دفعهم إلى تحدى الله سبحانه ومحاوله هدم بيته ، فأرسل على كل منهم جرما بالغ الضآله والضعف مرئيا أو غير مرئى ، ولكنه مخصص لشخص معين من أصحاب الفيل ، لابد أن يدخل جسده ، وحين يدخله فإنه هالك لا محالة ولا منجى له .

وقد خصص الله لهذه القصة سورة معينة من قصار السور فى القرآن ، سميت بالفيل ، فى قوله تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف ماكول) .

ويذهب العجب ، ويذهب كل سبب حين تبرز الحقيقة من خلال أسلوب القرآن فى إسناد الفعل ليس إلى الحجارة ولا إلى أى شيء غير الله ذاته فى قوله (فعل ربك . . .) فالذى فعل كل شيء هو الله ، وكذلك تبرز العبرة واضحة وهى أن هؤلاء المغرورين بقوتهم جاءوا يريدون أن يروا بيت الله حطاما مدمرا بأيديهم ، فإذا هم أنفسهم الحطام المدمر الذى يصفه القرآن بهذه الصورة المجسدة (كعصف مأكول) أى كالنفايات المطروحة من بقايا الطعام التى لا ينتفع بها كالنوى الذى يلقى على الأرض بعد أكل الثمر ، أو كقشر الفاكهة الذى يطرح بعد أكلها أو نحو ذلك ، وهكذا كان منظر جثثهم المتناثرة على الأرض بعد هلاكهم .

٣ - أصحاب جنة الدنيا :

ويضرب الله هذا المثل الذى يستشف منه أن عقاب الدنيا غير مرتبط بالضرورة بعذاب الآخرة ، بمعنى أن ما يبدو فى ظاهر الأمر ، أو فى أغلب الأحوال هو ارتباط عقاب الدنيا بعذاب الآخرة ، أى أن من يعاقبه الله فى الدنيا سيعاقب فى الآخرة ، ولكن هذه القصة عن أصحاب جنة الدنيا تنبئ عن أن عقاب الدنيا قد يكون للمؤمنين أو لمجرد إصلاح نظام الحياة الدنيا ، فإن الله أراد إعمار هذه الحياة ، فجعل لها سننا ومناهج لتستقيم أمورها ، فالذى يحاول أن يخل بهذه المناهج ولو كان من المؤمنين فإن الله يعلن عقابه ليكون عبرة لمن يحاولون أن يسلكوا مسلكه .

وملخص هذه القصة أن رجلا مؤمنا من أهل الخير فى الأمم السابقة كانت له حديقة تشبه الجنة ، حافلة بأنوع الثمر ، وقد تعود أن يسبغ من خير هذه الجنة على الفقراء والمحرومين ، فيمنحهم أشياء منها ويغض الطرف عما يتخلف من وراء الحصاد والثمر فلا يتشدد فى جمعه ، بل يتعمد أن يجعل الفقراء يستفيدون به ، كالسنابل التى تتناثر على الأرض بعد جمع الحصيد ، أو الثمار التى تتناثر أيضا من قطف الثمار أو تبقى مختفية وراء الأوراق ، فيأتى المساكين والمحرومون يفتشون عنها فى الأرض أو خلال الأشجار فيتجمع لهم خير غير قليل ، وقد مات هذا الرجل راضيا عن نفسه وعما يفعل ، مؤملا أن تستمر هذه السنة فى ورثته ، ولكن ورثته سيطر عليهم الشح ، وآثروا خير الدنيا على خير الآخرة ، فعزموا على أن يبطلوا هذه العادة التى تعودها أبوهم ، وأن يحرموا الفقراء من أن ينالوا من جنتهم هذه أى خير ، وتدارسوا فيما بينهم كيف يدبرون الوسيلة التى تحقق لهم ما يريدون ، وأداروا أمرهم فيما بينهم ، وأعرضوا عن أى رأى يثبط من عزمهم هذا ، أو يترك ثغرة ولو صغيرة ينفذ منها الفقراء إلى نيل أى شىء من جنتهم ، وقد انتهى تفكيرهم إلى الاتفاق على أن يغيروا موعد الحصاد والقطاف ، فيبكروا به قبل الوقت المألوف فى كل حصاد وقطاف ، ليتخذوا من هذا الوقت الذى يختلط فيه النور بالظلام ، والذى يكون فيه أغلب الناس نائمين ستارا يخفيهم ويخفى عملهم ، وأهم ما أجمعوا عليه أمرهم أن يحولوا بكل الوسائل بين الفقراء ودخول جنتهم ، فلا يستطيع أحد منهم البتة أن يتسلل إليها .

وسعدوا بإبرام أمرهم هذا ، وقدروا أنهم أبرموا خطة عبقرية يخدعون بها المتلهفين فى انتظار موسم الحصاد من الفقراء والمساكين ، ولا شك أن خيالهم كان شديد البهجة بتصور ما يصيب هؤلاء الفقراء من خيبة أمل حين يستيقظون ويتجهون إلى مكان الحصاد والقطاف فإذا هو بلقع أجرد ، لا زرع فيه ولا ثمر ، حيث يكون أصحاب الجنة قد جمعوا كل شىء ، ولم يبقوا لهؤلاء البائسين شيئا .

ولكن هذه الخطة التى أبرمها أصحاب الجنة وأقسموا على تنفيذها تتضمن محاولة الإخلال بسنن الله فى إعمار الأرض ، فإن الله يريد للأغنياء الغنى ، ولكنه لا يريد للفقراء أن

يموتوا جوعا وحرمانا ، بل يجعل حرمانهم ابتلاء للأغنياء وامتحانا لمن يملكون حمايتهم من الجوع والحرمان الشديد ، وقد كان أصحاب هذه الجنة ممن يملكون هذا ، وممن امتحنهم الله بهذا ، ولكنهم فشلوا فى الامتحان فشلا ذريعا لا عن عجز أو غفلة ، وإنما عن عمد وتصميم أكدوه بما أقسموا من أيمان ألا يجعلوا مسكينا ينال من جنتهم شيئا ، بل ولا أن يدخلها ، معرضين عن كل ناصح يحذرهم مما ينوون .

وكما يمكر الذين يمكرون السوء وهو غافلون عن أن الله مطلع على مكرهم ، وعن أنه أشد مكرا من مكرهم ، فكذلك كان أصحاب هذه الجنة ، وكذلك كان رد الله سبحانه على مكرهم ، وإذا كان مكرهم قدر أن يتخذ من بقية الظلام وأواخره ستارا فإن الله جعل الظلام كله ستارا ، وإذا كان مكرهم قدر أن يصاب البائسون بخيبة الأمل حين يفاجأون بحرمانهم من أن ينالوا من هذه الجنة شيئا بعد أن تعودوا أن ينالهم منها فى كل موسم خير ، فإن الله جعل أصحاب الجنة أنفسهم يصابون بخيبة الأمل قبل أن يصاب بها البائسون .

فإذا الله فى جوف الليل ، وقبل أن يستيقظ أصحاب الجنة يرسل على هذه الجنة صاعقة أو عاصفة تدمرها تدميرا كاملا ، وكأنها لم تكن جنة ولم تكن شيئا ، وكل ذلك لا يستغرق لحظات أو ومضات .

ويستيقظ أصحاب الجنة فى الوقت المتفق عليه من التبكير ، وينادى بعضهم على بعض بأخفت صوت مسموع ، حتى لا يستيقظ النائمون من الفقراء أو يسمع المستيقظون منهم ، وانطلقوا إلى جنتهم مبتهجين بمكرهم وتقديرهم وتصميمهم على حرمان البائسين ، وما إن وصلوا إلى مكان الجنة حتى أصيبوا بذهول ، فإنهم لم يجدوا هذه الجنة ، وإنما وجدوا حطاما وآثارا لا علاقة لها بجنتهم ، فأين ذهبت الجنة ، بل أين هم الآن ؟ لعلهم ضلوا الطريق فاتجهوا إلى مكان غير جنتهم ، ولم يطل الحوار بينهم بطبيعة الحال ، فإن الحقيقة غير خافية ، وهى أن هذا المكان هو مكان جنتهم ، وأن هذه الآثار هى آثار جنتهم ، فكيف أصابها ما أصابها ، وكيف حدث ما حدث ولم يفارقوها إلا ساعات من سواد الليل ؟ ولم يطل بهم التفكير ، فإن مكر السوء الذى مكروه ماثل فى نفوسهم ، ومن فطرة الله التى فطر عليها النفوس أن أودع فى

النفوس السوية الإحساس بالخير والاطمئنان إليه ، والإحساس بالشر والنفور منه ، وكل مخالفة لهذا فإنما هى مجافية للفطرة السوية وعدوان عليها ، ولا شك أن ما بيتوه وتآمروا عليه من حرمان الفقراء ومنعهم مما تعودوه من نيلهم بعض الخير من هذه الجنة كان يبعث وخزا فى ضمائرهم ، وإحساسا بأنهم سلكوا مسلك شر ، وقد غالبوا هذا الإحساس وكبتوه فى نفوسهم ، ولكن المفاجأة التى أذهلتهم بدمار جنتهم أعادت إلى بعضهم الإحساس السريع بأن ما أصاب جنتهم إنما كان انتقاما من الله لما دبروه من شر وسوء ، وأعادت إلى بعض هذا البعض التذكر السريع لما قدموه إلى الآخرين من نصح بألا يقدموا على ما هم عازمون عليه من حرمان المساكين ، بينما كان هؤلاء الآخرون غارقين فى ذهولهم من هول المفاجأة ، وفداحة الصدمة ، لا يكادون فى أغلب الظن يدركون غير ترديد سوء حظهم ، ولكن أولئك البعض يخرجونهم من ذهولهم ومن ندبهم سوء طالعهم بتذكيرهم بأن ما حدث ليس سوء طالع ، ولا سواد حظ ، وإنما هو جزاء ما حذروهم منه من الإقدام على منع المحرومين من حقهم فى هذه الجنة كسائر حقوق الفقراء فى أموال الأغنياء ، عندئذ أفاقوا ، وتقبلوا لوم اللائمين ، واعترفوا بأنهم أخطأوا فى حق الله وحق الفقراء ، وفى أنهم رفضوا نصح الناصحين فى هذه السبيل ، ولم يغن ندمهم حينئذ شيئا عن جنتهم بعد أن أصبحت أثرا بعد عين ، وعدما بعد ازدهار ، غير أن هذا الندم بعث فى نفوسهم أملا فى أن يقبل الله توبتهم ، وأن يعوضهم عن جنتهم المفقودة خيرا منها .

وقد ضرب الله هذه القصة مثلا للذين ينسون حقوق الله وحقوق عباده فيما رزقهم ، وينسون أن الرزق من عند الله ، وليس من جهد الإنسان أو علمه أو تدبيره ، مهما يبلغ جهده أو علمه أو تدبيره ، ويسوق الله سبحانه هذا المثل فى قوله تعالى (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ، ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ، أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون ، قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا يا

ويلنا إنا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبد لنا خيرا منها إنا إلى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) (١)

٤ - فرعـــون :

كان فرعون من ألد أعداء الله ، وأكثرهم عنادا ، وأشدهم تجبرا وطغيانا ، وإذا كان أعداء الله يعادون الله وهم يعلمون أو يعترفون بأنهم بشر كسائر البشر فى طبيعتهم فإن فرعون تجاوز هذا إلى حد ادعاء أنه إله ، وإذا كان نفر معدود من أعداء الله ادعوا الألوهية فإنهم كانوا يحاولون منافسة الله أو مشاركته فى الألوهية ، فإن فرعون تجاوز هذا إلى ادعاء انفراده بالألوهية ، منكرا على الله سبحانه أن يكون حتى مجرد شريك له فى الألوهية على مصـر بما فيها ومن فيها ، والقرآن ينقل عنه قوله (وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى . . . .) (٢)

وتطبيقا لقوله تعالى (ولا يجـرمنكـم شنآن قـوم على ألا تعدلـوا اعـدلـوا هـو أقـرب للتقوى . . .) (٣) ينبغى أن يقال إن فرعون رغم أنه كان من ألد أعداء الله إن لم يكن ألدهم على الإطلاق فإنه بوصفه حاكما كان يتمتع بقدر كبير من الذكاء ، ومن حسن السياسة ، ومن بعد التقدير وعمق التفكير ، بالإضافة إلى ما وصل إليه من قوة ، ومن علو حضارى ، ومن تقدم عمرانى ، كل ذلك وغيره شهد له به القرآن صراحة أو ضمنا فى المواضع العديدة التى ساق ذكره فيها (٤)

ومما شهد له به القرآن صراحة أو ضمنا ما يلى :

أولا : لا شك أن فرعون كان طاغية ، وكان يملك من القوة والسلطان ما يدمر به شعبا ، فضلا عن جماعة أو فرد ، ولا شك أيضا أن موسى عليه السلام ، كان ألد أعدائه وأخطر

---

(١) ١٧ - ٢٣ سورة القلم .

(٢) ٣٨ سورة القصص .

(٣) ٨ سورة المائدة .

(٤) انظر كتاب إنصاف الخصم فى القرآن للمؤلف ، طبع الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة .

خصومه ، لأن موسى كان يكذبه فى الصفة التى يقوم عليها سلطانه وهى الألوهية ، وفرعون يعلم أن هذا التكذيب يمكن أن يكون خطرا عليه وعلى سلطانه ، بل هو يتوقع ذلك ويصرح به ، وقد كان المتوقع من فرعون حينئذ أن يسارع إلى الأمر بقتل موسى أو سجنه أو تعذيبه وهو قادر على ذلك ولا يتوقع لذلك أثرا على شخصه أو سلطانه ، فإنه يوقن بأن قوم موسى وأقرب الأقربين إليه خاضعون لسلطان فرعون ، بل يصفهم فرعون بأنهم يعبدونه وليسوا خاضعين فحسب ، كما فى القرآن (ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وملأه فاستكبروا وكانوا قوما عالين ، فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) (١) فقد كان المتوقع أن يأمر فرعون بقتل موسى كما أمر الملك النمروذ بقتل إبراهيم عليه السلام حرقا بالنار ، وكما قتل اليهود أنبياء كثيرين ، وأيسر ما كان ينتظر من غضب فرعون على عدوه اللدود موسى أن يأمر بسجنه ، ولكن فرعون لم يأمر بقتله ولا بسجنه ولا بإيذائه ، وإنما لجأ حينئذ إلى الوسيلة المثلى التى ينبغى أن يلجأ إليها العقلاء وكل من ينشأ بينهم خلاف أو خصومة وهى الحوار ، بينما يعمد كثير من طغاة الحكام الذين يدينون بالإسلام ، بل ويدعون أنهم ينفذون تعاليم الإسلام إلى البطش بخصومهم دون أن يخطر لهم الحوار مع خصومهم على بال ، وإذا خطر فإن غرور السلطان وكبرياءه يصم آذانهم عنه ، أما فرعون على كفره وطغيانه فإنه حين جاء موسى وهارون يعرضان الدعوة إلى وحدانية الله صراحة وإلى تكذيب ألوهية فرعون ضمنا على ما فى هذه الدعوة من خطورة مدمرة على سلطان فرعون فإن فرعون يلجأ إلى حوار هادئ مستفيض معهما حول وجود الله سبحانه ووحدانيته فى الألوهية .

ورغم أن فرعون ازداد إحساسا بخطورة موسى ودعوته ، وخوفا على سلطانه بل وعلى سلطان المصريين من أن يكون لموسى أتباع يصل بهم إلى الحكم والسلطة منتزعا إياها من فرعون وملأه من المصريين ، كما يصرح بذلك فى قوله (أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى) (٢) ؟ وكما يصرح أتباع فرعون ومستشاروه بقولهم (. . . إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى) (٣) .

---

(١) ٤٥ سورة المؤمنون ٤٥-٤٧ (٢) ٥٧ سورة طه .

(٣) ٦٣ سورة طه .

ومع هذا كله ، ومع تلك الخطورة كلها لم يستفز الغضب فرعون ، ولم ينل موسى بأى أذى فضلا عن أن يأمر بقتله أو سجنه ، بل لجأ إلى لون آخر من الحوار والمناظرة العملية ، وهو أن يقيم مباراة عملية بين موسى والسحرة ، فيقول لموسى فى غير غضب أو انفعال أو استخفاف ، بل فى أسلوب الإنصاف والمساواة (فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى) (١) .

هذا مع أن الذى يستفز طغاة الحكام المحدثين ويدفعهم إلى البطش والطغيان وسفك الدماء هو عين المعنى الذى كان يتخوفه فرعون ويحذر وقوعه وهو انتزاع السلطة والحكم منه كما صرح بذلك أكثر من مرة .

فأما الحوار النظرى الذى لجأ إليه فرعون مع الداعى إلى الإيمان بالله موسى عليه السلام ، فيبدو أنه كان حوارا طويلا مستفيضا كما تشير إليه المعانى التى أوردها القرآن ، ولكن القرآن يوجزها فى أسلوبه المعروف بالإيجاز الشديد المعبر فيما يحكيه من هذه المحاورة ومع أن موسى وهارون يتوعدان فرعون بعذاب الله إلا أن ذلك أيضا لم يدفع فرعون إلى الغضب أو البطش ، فيحكى القرآن (إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ، قال فمن ربكما يا موسى ، قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى ، قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء) (٢)

وأما الحوار العملى فقد جعله فرعون مناظرة بين موسى والسحرة ، ففى القرآن على لسان فرعون (قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى ، قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ، فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ، قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى) (٣)

---

(١) ٥٨ سورة طه .　　　(٢)٤٨-٥٣سورة طه

(٢)٥٧-٦١سورة طه

ثانيا :

ومما شهد به القرآن لفرعون صراحة أو ضمنا التزامه أسلوب الشورى فى حكمه ، وتقديره لدور المعارضين لرأيه ، بل واستجابته لرأيهم حتى مع مخالفتهم رأيه ولو فى أهم الأمور عنده ، مما يمثل ما يعرف اليوم فى أرقى أساليب الحكم بالديمقراطية .

وقد يكون هذا غريبا بل متناقضا مع الصورة المرتسمة لفرعون فى أذهان المؤمنين ، فهذه الصورة عن فرعون هى صورة طاغية شديد الطغيان ، وكافر شديد الكفر ، يبلغ من طغيانه وعتو كفره أن يدعى الألوهية ، بل أن يدعى انفراده بها ، ومقتضى هذه الصورة أن يكون فرعون حاكما مستبدا برأيه ، لا يقبل أن يشير عليه أحد ، ولا أن يشاركه أحد فى رأى ، ولا أن يراجعه فى أمره أحد ، ولا يفكر إلا بمنطق القوة ، ولا يستجيب إلا لرأيه إن رأى ، ولانفعاله إن انفعل أو غضب ، دون حساب للعواقب والآثار ، لأنه لا يخشى مراجعة أو لوما أو تمردا من أحد .

ولكنا نفاجأ بأن القرآن يعرض لنا سلوك فرعون ومواقفه فى صورة تختلف عن هذه الصورة المرتسمة عنه فى أذهاننا ، ففرعون الذى يقدر مؤرخو الآثار أنه عاش قبل أربعة آلاف سنة يحكم مصر وتوابعها على أنه إله مطلق السلطة ، غير منازع فى حكمه أو رأيه أو ألوهيته نجده يسلك أرقى ما وصلت إليه أساليب الحكم فى الشعوب المتحضرة ، ففرعون أحس بل صرح فى أكثر من موقف بأنه يشعر بالخطر على سلطانه ، وعلى استقرار حكمه من موسى عليه السلام ودعوته إلى الإيمان ، ومن البدهى أن يملأه هذا الشعور غضبا وانفعالا واتجاها إلى البطش بموسى ، وقد اتجه فعلا وأراد أن يأمر بقتل موسى ولكن (المعارضة) رفضت ذلك ، وقد تزعم هذه المعارضة (رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) فإذا فرعون ينزل على رأى المعارضين متخليا عن رأيه واتجاهه ، ، مع أنه يملك أن يضرب برأى المعارضين عرض الحائط ، ولكنه ينزل على رأى المعارضين مع وجود الرغبة فى نفسه فى أن يقتل موسى ، ويعبر القرآن عن هذا الموقف بقوله تعالى (وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد)[1] فتعبير (ذرونى أقتل موسى) واضح فى الدلالة على

---

(١) ٢٦ سورة غافر

أن الذى يمنع فرعون من تنفيذ عزمه هو مخالفة المعارضين له مع أنه لا يخاف الله ، بل يتحداه بقوله (وليدع ربه) فموسى يعلن أنه يحتمى بربه ، ولكن فرعون يؤكد أنه لا يخاف هذا الرب وإنما ينزل على رأى المعارضين لرأيه ، مع أن فرعون لم يبن رغبته فى قتل موسى على غضبه أو انفعاله ، وإنما بناها فى حواره مع المعارضين على خوفه على الدين الذى يدينون به ، والذى يقدسونه كما يقدس كل ذى دين دينه ، وبناها على خوفه من انتشار دعوة موسى فيكون أتباعه مصدرا للقلاقل بالقياس إلى السلطة ، حيث يقول فرعون للمعارضين فى حواره معهم (إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) (١) .

والقرآن ينقل حوار المعارضين لفرعون معه ، وكان زعيم المعارضة حينئذ (رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) وقد أفاض هذا المعارض فى تخطئ الاتجاه إلى قتل موسى ، وهو الاتجاه الذى يتبناه فرعون نفسه ، وأفاض المعارض فى سرد الأسباب التى تدعوه إلى تخطئ الاتجاه إلى قتل موسى ، أى تخطئ فرعون ذاته ، وكانت هذه الإفاضة أمام فرعون والملأ من حوله ، ويبدو أنه كان حشدا كبيرا من وجوه القوم وساستهم وعلى رأسهم فرعون ، لأن المعارض يخاطبهم بلفظ (يا قوم) مكررا هذا الوصف ، ولم ينقل القرآن أن فرعون أبدى غضبا أو استياء من موقف المعارضة ، ولم يوجه إلى المعارضة لوما أو إنذارا أو عقابا أو أى شىء مما يفعله طغاة الحاكمين المحدثين بالمعارضين لهم ، خصوصا حينما تكون المعارضة فى موقف يمس السلطة واستقرار الحكم ، ولكن الغريب أن معارض فرعون هو الذى كان يوجه إلى فرعون ومن معه اللوم والإنذار والتخويف من عقاب الله ، ولم يبد من فرعون فيما نقله القرآن أى غضب أو استياء أو اتجاه إلى عقاب المعارضة مع أنه لا شك كان قديرا على كل ما يريد ، بل إن ما نقله القرآن يتضمن أن فرعون كان منصتا للمعارضة بكل وعيه وعقله وهدوئه ، ولذلك انتهى فى هذا الموقف إلى خير ما ينتظر من صاحب سلطة متمثلا فى ثلاث نتائج انتهى إليها فرعون حينئذ ، وهى : أولا استجاب لرأى المعارضين فكف عن الاتجاه إلى قتل موسى ، وثانيا فرعون اتخذ موقف الدفاع عن نفسه ، وليس الهجوم على المعارضة ، فإذا هو يؤكد

---

(١) ٢٦ سورة غافر .

للمعارضين وغيرهم أنه لم يفكر فى قتل موسى لمجرد أنه صاحب السلطة أو استخفافا بقتل موسى ، وإنما فكر فى ذلك لأنه أيقن بعد تفكير وتقدير أن قتل موسى هو الحل الوحيد للمحافظة على الدين الموروث ، كما قال فى موضع آخر (إنى أخاف أن يبدل دينكم) وأيضا قتل موسى هو الحل الوحيد لتجنيب البلاد ما يتوقع من انتشار دعوة موسى ثم ما يترتب على ذلك من قلاقل وانقلابات وأساليب تمرد يثيرها أتباعه كلما قويت شوكتهم وازداد عددهم ، كما قال فى موضع آخر عن خوفه من موسى (أن يظهر فى الأرض الفساد) وقد ركز فرعون فى دفاعه عن موقفه على معنى بالغ الأهمية بالقياس إليه بصرف النظر عن رأى الآخرين فيه ، وهو أنه لا يضلل شعبه ، ولا يدفعهم إلى سلوك لا يوقن بأنه خير لهم ، ولا يورطهم فى مسلك يدفعه إليه هواه ، أو مصلحته الشخصية ، فيقول للمعارضة ولكل الملأ من حوله (ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) (١) والنتيجة الثالثة التى انتهى إليها فرعون واستفادها من حواره مع المعارضة أنه خطا خطوة سليمة نحو الإيمان الصحيح ولكنه توقف عندها ولم يتابع سيره إلى الأمام ، وكانت هذه الخطوة هى انتقاله فى عقيدته الدينية من مرحلة التكذيب بوجود الله أصلا إلى مرحلة الشك هل هو موجود أو غير موجود ؟ ومما يشهد له به أن هذه الخطوة لم تكن وهما أو خيالا عارضا فى نفسه ، بل كانت فكرا أخذ يراوده بقوة حتى أوشك أن يكلفه ويكلف قومه جهدا وعناء شديدين ، حيث أمر وزيره أن يبنى له صرحا يناطح فى ارتفاعه السحاب وكانت إمكاناتهم المعمارية تسمح بذلك .

ففرعون كان موقنا فى بدء الأمر بكذب موسى فى ادعاء إله موجود هو الله ، وحيث وضع فى نفسه أن موسى كاذب لم تستطع كل معجزات موسى وكل حججه أن تغير يقين فرعون بأن موسى مجرد ساحر كاذب فى ادعاء وجود إله أرسله ، ولكن إنصات فرعون إلى زعيم المعارضة ، وحواره معه لم يثر غضبه ، ولم يدفعه إلى إلحاق ضرر به على خطورة ما يدعوه إليه زعيم المعارضة ، بل كان الأمر بالعكس ، فإن فرعون أتاح لزعيم المعارضة أن يفيض فى عرض كل ما يريد ، وأن يبسط دعوته ودفاعه كيفما يشاء ، وواضح من خلال سرد القرآن هذا

---

(١) ٢٩ سورة غافر .

الموقف أن فرعون كان منصتا بكل وعيه واستيعابه ، وأن ما عرضه زعيم المعارضه الذى كان فى الحقيقة مؤمنا بموسى ودعوته وأن ما عرضه فى هذا الموقف كان هو مضمون دعوة موسى، واضح أن ما عرضه كان شديد الوقع فى نفس فرعون ، حتى إن فرعون اتخذ موقف الدفاع عن نفسه ، وعن اتجاهه إلى قتل موسى مؤكدا لزعيم المعارضة وللملأ من حوله أن اتجاهه لم يكن نابعا إلا من حرصه على دين الدولة وعلى استقرار الأمن فى البلاد ، حيث قال (... ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) ولكنه يترك زعيم المعارضة يفيض فى عرض دعوته ، بل ويفيض فى إنذار فرعون وملأه وتخويفهم مما حل بالأمم السابقة التى استخفت برسل الله وأعرضت عن دينه ، ولكن ما يعنينا الآن هو أن فرعون تجاوز الغضب على معارضيه وتجاوز إيذاءهم بأى شىء مما يفعله طغاة الحكام إلى التأثر بموقفهم والاستفادة من معارضتهم ، فإن فرعون انتقل من اليقين بكذب موسى إلى احتمال صدقه ، وبالتالى احتمال وجود الإله الذى يتحدث عنه موسى ، وهى خطوة صحيحة صادقة إلى الإيمان بالله ، ولكنه توقف عندها ولم يتابع سيره فى طريق الإيمان ، ومما يدل على أن هذا الاحتمال الذى تولد من خلال المعارضة كان احتمالا قويا فى نفس فرعون أنه عمد إلى مشروع ضخم ليتحقق من مدى صدق هذا الاحتمال ، وهو إقامة صرح شاهق العلو ليبحث عن الله فى السماء ، وقد أمر وزيره فعلا بأن يبنى له هذا الصرح مهما يكلفه ذلك من جهد أو وقت ، حيث نجد فى سرد القرآن لهذا الموقف أن فرعون يقطع حديث زعيم المعارضة بما ينقله القرآن (وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا . . .) (١) فبعد اليقين بكذب موسى أصبح يظن ظنا ، وقد تخيل أن الإله الذى يدعو إليه موسى موجود فى السماء ، وأغلب الظن أن الذى صرفه عن إقامة الصرح الذى يبلغ به عنان السماء هو أن زعيم المعارضة أقنعه أن الله ليس فى مكان معين ، وبالتالى فإنه لو أقام هذا الصرح فلن يجد الله فى المكان الذى يتخيله ، لأنه موجود فى كل مكان (وسع كرسيه السموات والأرض) ولكن تعبير فرعون (فأطلع إلى إله موسى) يوحى كأنه اعتراف بوجود الله .

---

(١) ٣٦ ، ٣٧ سورة غافر .

والقرآن يسرد هذه الخطبة التى ألقاها زعيم المعارضة على فرعون ومعه الملأ من السادة والقادة والكبراء ممن يعتمد عليهم فى سلطته وإدارته ، وقد بلغت من الطول ما لم تبلغه خطبة أو دعوة فى موضع واحد من القرآن ، فقد بلغت بما صاحبها من تعقيب أو حوار ثمانى عشرة آية طويلة من سورة غافر بخلاف السياق الذى سيقت فيه ، ومن هذا السياق (وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ، وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) ثم يواصل القرآن سرد الخطبة عقب هذا السياق مباشرة ، حيث يقول تعالى (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ، وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد ، ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ، . . .) (٢) ويواصل مؤمن آل فرعون ، ومعارض فرعون دعوته وخطبته الطويلة الحافلة بمعانى الإقناع والتذكير والوعيد مما استطاع به أن يدفع فرعون إلى أن يخطو نحو الإيمان خطوة قوية واسعة ، ولكن شقوته حالت بينه وبين أن يتبعها بأية خطوة أخرى .

وخلاصة القول أن القرآن كشأنه فى إنصاف خصومه بذكر مزاياهم صراحة أو إشارة وتطبيقا لمبادئه التى من بينها (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) (٣) فإنه يذكر لفرعون صراحة أو ضمنا مزايا عديدة رغم أنه من أشد الكافرين كفرا وأطغاهم طغيانا مع بعض رعيته ، ومن أبرز هذه المزايا بإيجاز :

أولا :

التعقل والروية ، وعدم المبادرة إلى البطش بدعاة الدين رغم يقينه وتصريحه بخطورة

---

(١) ٢٦ -٢٧ سورة غافر . (٢) ٢٨-٣٢ سورة غافر (٣) ٨ سورة المائدة

دعوتهم عليه وعلى ملكه ، بل لجأ إلى الوسيلة المثلى وهي الحوار الذى أتاح له فرعون كامل الحرية ، كما أتاح لموسى عليه السلام وللمؤمن الداعية كامل الحرية فى عرض دعوتهما بما تتضمنه من خطورة عليه ، بل ومن إنذار ووعيد ، هذا مع قدرته الكاملة على البطش والتنكيل .

ثانيا :

الاعتماد على أسلوب الشورى الحقيقية وليست الصورية ، والاستفادة من نصح المشيرين ، وإن كان نصحهم متعارضا مع هوى السلطان ، ومخالفا لما يفكر فيه وينادى به ، بل وما يراه ضرورة لا محيص عنها ، وأبرز مثال لذلك أن فرعون أيقن بخطورة دعوة موسى ، وأنها لو تركت فلابد أن يترتب عليها تغيير الدين الذى يقدسونه أو زعزعته وأيضا إثارة القلاقل والاضطرابات من أتباع هذه الدعوة إذا تركت لتستفحل ، وأيقن فرعون تبعا لذلك أن المخرج الوحيد لتلافى هذه المخاوف هو قتل موسى منبع هذه الدعوة ، وإذا جف المنبع لم تجد الدعوة موردا يمدها ، ولكن فرعون مع هذا اليقين يجد مستشاريه بالإضافة إلى معارضيه ينصحونه بعدم قتل موسى ، وكأنه حاول أن يغريهم بموافقته حيث يقول (ذرونى أقتل موسى . . .) ولكنهم لا يوافقونه ، فينزل على رأيهم ونصيحتهم محتفظا بأن رأيه هو الصواب ، وأن اتجاهه هو الأصلح ، وحتى حينما استقر الرأى على محاسبة موسى على قتل المصرى الذى وكزه موسى فقضى عليه لم يتول فرعون بحث الموضوع واتخاذ حكم فيه وانما فوض بحث الأمر إلى مجمع الشورى وهم الملأ الذين قال عنهم الناصح لموسى (إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين) (١) أى انج بنفسك ، والملأ هم سادة القوم وأصحاب الرأى فيهم ، ومعنى ذلك أن فرعون مع ألوهيته كان يلتزم الشورى فى ادارة ملكه ، وكان هذا باختياره لأن أحدا لم يكن يملك أن يخالفه أو يعصيه أو أما احتفاظه بصحة رأيه .

فهو حيث يقول لهم (. . . ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) (٢).

---

(١) سورة القصص الآية ٢٠ (٢) ٢٩ سورة غافر

ثالثا :

إتاحة الحرية الكاملة للمعارضين ، مهما يبلغ خلافهم مع السلطة ، ومهما يظن من خطورة موقفهم ، بل والاستفادة مما يبدو معقولا وصادقا فى موقفهم ، كما فعل فرعون فى موقفه ممن يوصف بأنه زعيم المعارضة ، الذى أفاض فى تخطئ موقف فرعون وملأه ، وأفاض فى إنذارهم وتخويفهم ، ولم يكن حديثه سرا أو أمام نفر محدود ، وإنما كان أمام ملأ يخاطبهم بلفظ القوم ، ومع ذلك لم يبد فرعون غضبا أو استياء أو إنكارا ، بل كان واضحا من خلال القصة أنه مستمع جيد ، وأنه وعى كل ما قيل وعيا عميقا وموضوعيا ، بعيدا عن الهوى والمصلحة الشخصية ، حتى إن فرعون حين أحس بصدق المعارضة تراجع إلى موقف الدفاع ، بل وإلى تغيير موقفه من تكذيب موسى وتكذيب وجود الله .

ولا شك أن القرآن لا يسوق ما يسوق من قصص وأخبار للتسلية أو لمجرد التاريخ ، وإنما يسوق كل شيء للعظة والتدبر والاعتبار ، وفى جانب من جوانب العبرة فى هذه الأخبار كأن الله سبحانه يقول للطغاة من الحكام فى كل عصر وكل مكان إذا لم تتعلموا من الدين كيف تتعاملون مع الدعاة إلى الله فتعلموا من فرعون رغم أنه أعدى أعدائى .

وقد يقال فكيف يسوغ الثناء على فرعون مع أن الله سبحانه جعله عنوانا للكفر والطغيان ومعاداة الله ؟ والجواب من أكثر من وجه ، ومن هذه الوجوه أن هذا ليس ثناء على فرعون من خيال أو اجتهاد أو هوى ، وإنما هو توضيح وتقريب لصريح معانى القرآن وألفاظه ، بل إن ما سبق هو أوجز ما يقال عن مزايا فرعون الدنيوية مما ساقه القرآن عنه صراحة أو ضمنا ، وإن فى مواضع أخرى من القرآن ما يمكن أن يضيف إلى فرعون مزايا دنيوية أخرى ، ومن هذه الوجـوه أن فى الإشارة إلى هذه المزايا لفرعون إبرازاً لمنهج واضح فى القرآن ومبدأ مـن مبادئه ، وهو إنصاف كل خصم يتحدث عنه القرآن ، حيث يبرز مزاياه بجانب مساوئه ليعلمنا القرآن أمانة العرض حين نتحدث عن خصم أو عدو من باب ما سبق الاستشهاد به من نحو قوله تعالى (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) [1].

---

(١) ٨ سورة المائدة

ومن هذه الوجوه أن هذا الثناء أو غيره على فرعون لا ينفى ولا يتعارض فى شىء مما ذكره القرآن وحكم به على فرعون من الناحية الدينية ، وذلك أن فرعون ارتكب جريمتين ، إحداهما فى العقيدة ، والأخرى فى السلوك ، وكل منهما هى كبرى الجرائم فى مجالها .

فأما جريمة العقيدة فهى الكفر بالله ، ومن بدهيات مبادئ الدين أن الكفر يمحو كل ميزة أو فضيلة ، فالكافر فى عقيدته لا قيمة لأى عمل صالح يأتى به ، ولا لأى صفة حسنة يتصف بها لأنه لا يقبل أى عمل بدون إيمان بالله ، كقوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . . .) (١) وقد كان بعض الناس يتساءلون عن الذين كانوا يتصفون بالفضائل والأعمال الصالحة فى الجاهلية ثم ماتوا على الكفر ، كالذين كانوا يضرب بهم المثل فى الجود ، والذين كانوا يفتدون الوليدات الصغيرات لحمايتهن من الوأد ، والذين حرموا على أنفسهم الخمر فى الجاهلية ونحو ذلك ، فكان فى مثل التصوير الذى ساقته الآية السابقة من تشبيه هذه الفضائل بسراب يتوهمه الظمآن ماء فإذا هو وهم لا وجود ولا نفع لشىء فيه ، وكذلك أمر فرعون ، مهما تكن فيه من مزايا فى عقله أو خلقه أو سياسته فإن الكفر يمحو كل هذه المزايا ولا تبقى فيه إلا سيئة الكفر التى تطغى على كل سيئة وكل حسنة .

ولكن فرعون لم يكتف فى عقيدته بالكفر العادى ، وإنما تجاوز ذلك إلى ادعاء أنه إله ، ولم يكتف فى ادعاء الألوهية أن يكون مجرد شريك لله ، وإنما تجاوز ذلك إلى ادعاء أنه الإله الوحيد الذى لا شريك له ، حيث يقول (يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى . . .) (٢) ومن هنا كان كفر فرعون أشد ألوان الكفر .

وأما جريمة السلوك فى فرعون فهى تفريقه فى التعامل بين قومه من المصريين وبنى إسرائيل بوصفهم فى الأصل غرباء عن مصر ، وصب كل بطشه وطغيانه عليهم ، وركز هذا البطش والطغيان على أطفالهم بالذات ، بسبب ما يروى من أن الكهنة استنتجوا فى تنجيمهم

---

(١) ٣٩ سورة النور .

(٢) ٣٨ سورة القصص

أنه سيولد من بنى اسرائيل طفل يكون هلاك فرعون على يديه ، وحين أخبروا فرعون بذلك انهال على كل أطفال بنى اسرائيل ذبحا وتقتيلا ، بل عمد إلى بطون كل الحوامل من نسائهم فشقها وأخرج ما فيها من أجنة ليقتلها ، وتوالى الإذلال والتنكيل ببنى اسرائيل على يد فرعون دون ذنب محدد جنوه إلا هذا الوهم الذى أوحى به الكهنة إلى فرعون ، والذى لم يكن لبنى اسرائيل فيه جرم أو جريرة ، وهو أنه سيولد منهم طفل يكون هلاك فرعون على يديه ، ومع أن هذه النبوءة كانت صادقة كبعض ما يوحى به الكهان والمتصلون بعالم الجن والأرواح ، إلا أنها لم تكن لتبيح ظلم الأبرياء ، ولا هذه البشاعة التى كان فرعون يبطش بها بالضعفاء من الأطفال والنساء .

ومما يزيد هذه الجرائم سوءا أن فرعون لم يكن يعممها على رعيته ، وإنما كان يخص بها هؤلاء المستضعفين من بنى اسرائيل ، ومما يتردد على ألسنة العامة قولهم إن المساواة فى الظلم عدل ، وهو منطق وإن كان ينافى الدين إلا أنه يتضمن تمجيد العدل فى أية صورة ، وتقبيح مجافاة العدل فى أية صورة أيضا ، ومن هنا كان طغيان فرعون أقبح صورة للطغيان ، ولو أنه كان يعمم هذا الطغيان على كل رعيته لكان طغيانه أقل قبحا وأخف جرما .

ففرعون إذن كان أشد الكافرين كفرا وأسوأ الطاغين طغيانا ، وقد أفسد بهذا كل ميزة ، وشوه فى نفسه كل فضيلة ، بل إنه حاول أن ينافس الله جل جلاله فى ألوهيته ووحدانيته ، وحاول أن يطمس حجة الله على عباده كما سبق ، فإن الله أرسل نبيه موسى بمعجزات لتكون حجة ودليلا على صدق موسى ، فإذا فرعون يحاول طمس هذه الحجة بصنع سحر يريد أن ينافس به معجزات موسى ليظن الناس أن موسى مجرد ساحر كهؤلاء السحرة ، وقد يخدع بعض العامة بهذا التلبيس بين الحق والباطل فيدعى بعضهم عند الحساب أنه لم يتبين صدق موسى بل ظنه ساحرا كسائر السحرة الذين جندهم فرعون ، وهذه أيضا جريمة كبرى عند الله ، وكذلك فإن فرعون حاول أن يخرق أكثر من سنة من سنن الله فى الأرض ، ومن هذه السنن أن الله تعهد بنصر رسله ومن معهم من المؤمنين ، ولكن فرعون كان يريد إذلال موسى ومن معه من المؤمنين ، ومن هذه السنن أنه إذا كان الأغنياء يعتمدون على غناهم فإن

الله تكفل برزق الفقراء حتى لا يهلكهم الفقر ، وإذا كان الأقوياء يعتمدون على قوتهم فإن الله تكفل بحماية الضعفاء حتى لا يصبحوا فريسة للأقوياء ، ولكن فرعون كان يريد أن يصبح قوم موسى فريسة له .

وحقا إن اليهود فى طول تاريخهم لم يحلوا فى مكان على وجه الأرض إلا وأثاروا كراهية من يحلون بينهم وأثاروا غضبهم وسخطهم عليهم لما عرف به اليهود طوال تاريخهم من صفات عديدة سيئة تلازمهم ، وهى صفات معروفة عنهم وملازمة لهم ولا داعى للإفاضة فيها ، ومن ذلك ما تتحدث عنه كتبهم نفسها من أنهم حين قرروا الرحيل عن مصر طلبوا من نسائهم أن يستعرن من نساء المصريين كل ما يستطعن الوصول إليه من حلى وذهب وزينة ثم رحلوا بهذا كله فى ظلام الليل .

ولكن فرعون فيما يسرده القرآن من قصته معهم لم يبن نقمته عليهم على مساوئ أو جرائم صدرت منهم ، وإنما فعل ما فعل طغيانا منه إضافة إلى استضعافه إياهم ، كما فى القرآن الكريم (إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين) (١) .

وحتى إذا افترضنا أن الكهان والمنجمين هم الذين دفعوه إلى التنكيل ببنى اسرائيل بتخويفه من أنه سيولد منهم مولود يكون زوال ملك فرعون وهلاكه بسببه فإن ذلك لم يكن ليبيح لفرعون أن يسلك مسلك البشاعة الذى سلكه بأن يذبح كل أطفالهم ، وأن يبقر بطون كل حواملهم ، وكل أولئك أبرياء .

وإذن فقد كان كفر فرعون كفرا طاغيا تجاوز كل حدود الكفر التى ألفها الناس ، حيث لا يكتفى بادعاء أنه إله ، ولا بادعاء أنه شريك لله ، وإنما يصر على أنه هو الإله ولا إله غيره ، كما ينقل القرآن عنه (وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) (٢)

---

(١) ٤ سورة القصص .

(٢) ٣٨ سورة القصص .

وكذلك كان طغيان فرعون متجاوزا حدود كل طغيان معروف ، حيث يذبح من طائفة كاملة كل أطفالهم ، ويستحيى منهم نساءهم ، وإذا كان وأد مولودة ولو واحدة يثير غضب السماء والأرض حتى يصور الله سبحانه غضبه فى هذا الأسلوب البالغ الإنكار والتأنيب (وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) ؟ (١) فكيف بوأد مواليد طائفة كاملة ؟ ولم يكن طغيان فرعون فى كفره وفى البغى على المستضعفين من رعيته فحسب ، وإنما ارتكب جرائم مما يستوجب غضب الله العاجل فى الدنيا ، وكما سبق فإن الأصل فى عقاب الله أن يكون فى الآخرة ، وقد يمد الله لأعدائه فى الدنيا فيفيض عليهم من كل النعم ، ومن كل ما يشتهون ليزيدهم ضلالا وطغيانا ، ولكن هناك أشياء تعجل غضب الله وانتقامه ، وأهم هذه الأشياء المساس بحجة الله على عباده ، بأن يحاسبهم فى الآخرة فتكون حجته عليهم ظاهرة واضحة فى أنهم عصوا الله وعادوه ، وكل من يمس هذه الحجة بتضليل الناس أو تشكيكهم فى حجة الله عليهم كأنه يستعجل عقاب الله فى الدنيا لتزداد حجة الله وضوحا .

وفرعون حاول جاهداً المساس بحجة الله فى أكثر من صورة ، ومن ذلك ادعاؤه الألوهية فى صورة قد تثير اللبس فى نفوس بعض العامة بين ألوهية الله وألوهية فرعون ، ومن ذلك البغى على المستضعفين حتى يبدو للناس أنهم لا حامى لهم ، بينما جميع الخلق عباد الله وفى حماية الله ، سواء كانوا مؤمنين أم غير مؤمنين ، ومن ذلك أن الله تعهد بأن ينصر رسله والذين آمنوا معهم ، ولا يلزم أن يكون النصر ماديا محسوسا كالنصر العسكرى فى الحروب ، بل يكفى أن يظل النصر معنويا بظهور أن رسول الله ومن معه على الحق ، وأن من يعاديهم هو على الباطل ، ليكون هذا حجة لله على أعداء رسله عند الحساب يوم القيامة ، ولكن من مكر فرعون وخطورة تدبيره أنه أراد أن يشوه هذه الحجة أو يطمسها فأكد لشعبه أن موسى ساحر وليس رسولا من عند إله ، واجتهد فى أن يقيم دليلا عمليا على ذلك فجمع أمهر السحرة وأقام مباراة بينهم وبين موسى ليؤكد لشعبه عمليا أن موسى ليس إلا ساحرا ، وحين انتصر موسى واعترف السحرة بأن موسى لا يمكن أن يكون ساحرا ، بل لابد أن يكون صادقا فى ادعائه أنه رسول من عند الله ، عندئذ واصل فرعون محاولة طمس حجة الله فأكد لشعبه أن موسى كبير

---

(١) ٩ سورة التكوير .

السحرة ، وأن هؤلاء السحرة ليسوا إلا تلاميذه الذين تعلموا منه ، والذين هم حريصون على تعظيمه وإبراز تفوقه بوصفه سيدا وكبيرا لهم ، كما فى القرآن على لسان فرعون (إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) (١)

وبهذا يحدث لبس فى نفوس بعض العامة ، هل موسى رسول من الإله حقا كما يقول أم أنه محض ساحر كما يقول فرعون ؟ وعندئذ لا تكون حجة الله على هؤلاء العامة واضحة كل الوضوح ، بينما الهدف من كل الأديان السماوية ، وكل رسل الله إلى الناس ليس أن يجعلوا الناس مؤمنين بالله وإنما الهدف أن يقيموا حجة الله على عباده واضحة فى غير لبس وحينئذ من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وكل أولئك وهؤلاء جزاؤهم ينتظرهم يوم القيامة .

ولكن فرعون حاول أن يطمس حجة الله أو أن يشوش على وضوحها فى أكثر من وجه .

ولذلك عاجله عقاب الله فى الدنيا قبل الآخرة ، ليكون عقابه فى الدنيا توضيحا لحجة الله ، ومحواً لتشويشه عليها .

وكما هو ملحوظ فى طبيعة عقاب الله فى الدنيا من حيث أن يكون لكل نوع من الكفر أو من مغاضبة الله لون من العقاب يلائمه من حيث الأسلوب والهدف ، أعنى ليكون أبلغ فى الرد على مغاضبة الله ، وإظهار عجز أعداء الله وضعف مكرهم بجوار قوة الله وكيده .

وكذلك كان الشأن فى عقاب فرعون ، فأما تفكيره فى أن يذبح كل أطفال بنى اسرائيل ويبقر بطون حواملهم للتخلص من مولود سيكون هلاكه وزوال ملكه على يديه ، فإن كيد الله جعل هذا المولود المخوف يتربى فى قصر فرعون وتحت بصره وبين يديه وهو لا يدرى أن هذا المولود هو الذى ارتكب كل ما ارتكب من جرائم وبشاعة ليتخلص منه ، ليريه الله ويرى غيره أن كيد الله أعظم من كل كيد ومكر وتدبير .

وكذلك كيد فرعون ودهاؤه وبعد نظره فى إدراكه أن قتل موسى أو سجنه أو نفيه من مصر لن يحل الإشكال بالقياس إليه وهو المحافظة على ألوهيته فى شعبه والخوف على زوال

---

(١) ٧١ سورة طه .

هذه الصفة ، حيث أيقن فرعون بما لم يدركه الطغاة الآخرون ، وهو أن الخطر فى الدعوة نفسها ، وليس فى أشخاص القائمين ، فما دامت الدعوة إلى الله قد وضحت معالمها فى نفوس الناس فلن يحول بينهم وبينها إبعاد القائمين عليها أو التنكيل بهم ، لأن هذه الدعوة تصبح فى داخل النفوس والعقول وليس فى أشخاص القائمين عليها ، بل إن المساس بالقائمين عليها أو التنكيل بهم مما يعطف قلوب الناس على هؤلاء القائمين عليها فيزيد الدعوة إلى الله رسوخا وانتشارا حتى إن لم يستطيعوا الدفاع عن القائمين عليها ، ولكن فرعون كان من أخطر الطغاة ومن أعمقهم فكرا حيث أراد أن يبطل دعوة موسى من أساسها ويثبت للناس أن موسى ليس داعيا إلى إله حقا كما يقول وإنما هو محض ساحر كاذب فتموت دعوة موسى وكأنها لم توجد ، وبالتالى لن يكون لموسى أتباع فى دعوته ، ومن قبيل هذه الخطورة فى كيد فرعون وتدبيره كانت خطورة تقدير هذا الزعيم القرشى ضد محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته إلى الله حيث يتعجب القرآن ، بل يكرر تعجبه من عمق تفكير هذا الزعيم القرشى وخطورة تدبيره فى قوله تعالى عنه (ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر) (١)

وتعبير (قتل كيف قدر) يعرف علماء اللغة وعلماء التفسير أنه تعجب ، وتكراره تكرار للتعجب من (إنه فكر وقدر) والتفكير هو إعمال الفكر وبعد النظر ، والتقدير هو اتخاذ موقف عملى بناء على ما ينتهى إليه التفكير وإدراك العواقب فيما يعبر عنه اليوم بالتخطيط أى وضع خطة ، فقد أدرك هذا الزعيم القرشى بعمق فكره وادراكه العواقب أن كل ما تريد أن تفعله قريش ضد محمد مما يقول عنه القرآن من تفكير قريش فى سجن محمد أو قتله أو نفيه (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك) (٢)

---

(١)١١-٢٥ سورة المدثر .

(٢) ٣٠ سورة الأنفال .

كل ذلك لن يحل الإشكال بالقياس إلى المشركين طالما الدعوة إلى الله نفسها حية فى نفوس الناس وعقولهم ، سواء فى نفوس المؤمنين بها وغير المؤمنين ، ولذلك انتهت خطة هذا الزعيم القرشى إلى محاولة قتل الدعوة نفسها باقناع الناس أنها ليست دعوة إلى الله كما يقول محمد ، وإنما هى سحر يزاوله محمد كسائر السحرة الذين يستطيع الواحد منهم أن يؤثر فى عقل من يسحره ، وفى علاقته بغيره ، وكذلك محمد يؤثر فى عقل من يحدثه فى الدين فيغير تفكير بعضهم وعقيدته ، ويقطع علاقة هؤلاء بذويهم وأقرب الأرحام إليهم حيث يكون كل منهما معتنقاً عقيدة غير عقيدة الآخر ، وكل ذلك تهدف فيه خطة الزعيم القرشى إلى إقناع الناس أنه سحر من محمد وليس دعوة دينية كما يقول ، وبهذا تكون دعوة محمد قد قبرت إلى الأبد .

وهذا هو عين ما انتهى إليه تفكير فرعون وتقديره ، فبعد أن فكر فى قتل موسى وجد أن قتله لا يبعد الخطر ، لأن الخطر ليس فى شخص موسى ، وإنما فى دعوته ، وطالما دعوته وصلت إلى نفوس الناس وعقولهم فالخطر يظل قائما بصرف النظر عن وجود موسى أو عدم وجوده ، ولذلك رسم خطته الخطيرة فى أن يقتل دعوة موسى نفسها بإقامة مباراة بينه وبين السحرة ، وفى تقديره أن السحرة لابد أن ينتصروا على موسى ، وحتى إذا لم ينتصروا فسيرى الناس موسى محض ساحر بين سحرة ، وليس نبيا مرسلا من إله كما يقول .

فكان الرد من الله على هذا الكيد الخطير من فرعون أن قلب له خطته رأسا على عقب ، فجعل كل ما توقعه فرعون نافعا له ولموقفه ضارا به وبموقفه ، وجعل كل ما توقعه ضارا بموسى ودعوته نافعا لموسى ودعوته ، بل جعل دعوة موسى ترتفع فى الاقتناع بصدقها إلى عنان السماء وجعل ألوهية فرعون المدعاة تنحط فى نفوس كل العقلاء إلى الحضيض ، وذلك بأن جعل السحرة الذين جمعهم فرعون لتشهد الحشود انتصارهم ومحوهم دعوة موسى هم أنفسهم يمتلئون انفعالا ويقينا بصدق موسى فيعلنون هذا على رءوس الأشهاد مؤكدين صدق موسى فى أنه نبى مرسل من الله صراحة ومكذبين فرعون ضمنا فى ادعاء أنه إله ، وحينئذ يعود العقلاء إلى بيوتهم ونفوسهم ملأى باليقين بالحقيقة ، أما العامة الذين لا يحسنون استخدام عقولهم ، والدهماء الذين لا عقول لهم ممن يصدقون كل ما يسمعون من السلطان دون تفكير فقد ادخر الله لهم ما يرونه بأعينهم من آيات الله وخوارقه دون حاجة إلى استخدام

العقول كشق البحر لموسى وهلاك الإله الذى كانوا يعبدونه ويقدسون كل ما يسمعونه منه وهو فرعون .

وكذلك كيد فرعون فى خديعته شعبه وادعائه لهم أنه إله ، واستغلاله طاعة شعبه حين استخف بعقولهم فصدقوا دعواه وصدقوا كل ما يقول لهم كقوله تعالى (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين) (١) وكان من نتيجة هذه الطاعة أن امتلأ فرعون غروراوعتوا وطغيانا وعلوا كبيرا ، وأخذ يعلن فى أسلوب التحدى ما ينقله عنه القرآن (قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) (٢) ويعنى بالذى هو مهين ولا يكاد يبين موسى ، لأنه من قوم كانوا دخلاء على مصر مستضعفين فيها ، ويعنى بأن موسى لا يكاد يبين ما كان فى موسى من لثغة فى لسانه تحول دون طلاقة لسانه بالوضع العادى فى النطق السليم .

فكان الرد من الله سبحانه على كل ذلك وغيره من فرعون أن قلب له كل دعاواه وأوضاعه رأسا على عقب ، وذلك حين أمر الله موسى وقومه بالخروج من مصر وتكفل لهم بالنجاة من إذلال فرعون إياهم ، وكان هذا من قبيل وعد الله أن ينصر رسله والذين آمنوا معهم فأراد فرعون أن يخل بهذا الوعد وأن يعاكس سنة من سنن الله ، فلاحق موسى وقومه ليعيدهم إلى أرضه بعد أن أوشكوا على الوصول إلى سيناء (٣) فإذا غضب الله وانتقامه يحل بفرعون

---

(١) ٥٤ سورة الزخرف .

(٢)٥١-٥٢سورة الزخرف .

(٣) الإسلام لم يتعرض فيما أعلم لتحديد الطريق التى سلكها موسى وقومه من مصر إلى سيناء ولكن علماء اليهود يحددون فى كتبهم أنهم اتجهوا شرقا جنوب مدينة السويس الحالية وأن الله شق لهم البحر المعروف الآن بالبحر الاحمر فاجتازوه إلى سيناء ومع أن من القواعد فى الإسلام أن ما لم يرد فيه نص يمكن ان يرجع فيه إلى ما ورد فى الأديان السماوية الأخرى ما لم يتعارض مع مبادىء الإسلام إلا أنه لا أدرى ما الذى جعل بنى اسرائيل يتجهون الى البحر لعبوره مع أن الارض اليابسة قبل شق قناة السويس كانت متصلة بين سيناء ومصر ومع أنهم لم يكونوا يملكون حينئذ سفنا يفكرون فى العبور بها قبل أن يعرفوا معجزة الله فى شق البحر ، ولماذا لايكون المراد بالبحر هو نهر النيل خصوصا وأنه كان يسمى البحر ولازال طريق شاطئه يسمى شارع البحر الأعظم ، ولاتختلف المعجزة فى شق النهر عنها فى شق البحر .

ومعاونيه فى جرمه ، فيطبق عليهم البحر الذى شقه الله لموسى وقومه فاجتازوه ، فجاء فرعون ليجتاز وراهم وفى حسبانه أن هذا الشق أصبح طريقا لكل سالك ، ولم يدر أنه طريق مخصوص نشأ لغرض مخصوص ، ، هو تحقيق سنة الله فى نصر رسوله والمؤمنين معه ، فلا يتعدى هذا الغرض ليجتازه أحد غير من أنشىء من أجلهم ، وإذا فرعون ومن معه هالكون فى هذا الشق ، واذا الذين أراد الله نصرهم هم الناجون .

وإذا كان فرعون قد علا فى الأرض علوا كبيرا ، وهو يقول لشعبه أنا ربكم الأعلى ، ويقول لكل سامع (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى) فإذا الله يقلب له كل غروره رأسا على عقب ، وينكس له كل دعاواه فى العلو والملك ، فإذا هو نازل من علوه إلى قاع البحر ، وإذا المياه التى كان يتيه غرورا بأنها تجرى من تحته يجعلها الله أو يجعل مياها مثلها تجرى من فوقه وليس من تحته فتغرقه .

وهكذا نكس الله لفرعون كل مكره وتدبيره السىء ، لأن من سنن الله (ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله) (١) وكذلك قلب على رأسه كل الدعائم التى قام عليها كفره وطغيانه ، ليكون انتقاما عاجلا له ، وليكون عبرة لغيره من الطغاة الذين يتصورون أن مكرهم وتخطيطهم يعصمهم من الله ، ويحقق لهم ما يريدون ، ولو أحسنوا التقدير لأيقنوا أنهم فى النهاية هم الخاسرون .

٥ - قـــارون :

والقرآن يعرض نموذجا آخر من نماذج عقاب الله فى الدنيا ، وكان هذا النموذج متمثلا فى قارون وما أحاط به .

على أنه ينبغى أن يكون واضحا أن ما ساقه القرآن من نماذج عقاب الله فى الدنيا لم يكن هو كل أحداث العقاب ، بل ولا كل أنواع العقاب وألوانه ، وإنما هى نماذج متنوعة يعرضها القرآن لتكون تحذيرا ووعيدا لكل من تسول له نفسه أو يسول له الشيطان أن يعترض

---

(١) ٤٣ سورة فاطر .

طريق الله ورسله ، أو يعترض سنن الله محاولا أن يمس أقدس وأرسخ ما تحرص عليه الشرائع السماوية وهو وضوح حجة الله على عباده فى أى وجه من الوجوه .

وقد كان قارون ممن حاولوا اعتراض طريق الله ورسوله ، وأن يعترضوا سنن الله فى الكون .

وكما رأينا فى النماذج السابقة فإن كل لون من تحدى الله وتحدى سننه يجعل الله له لونا خاصا من عقابه فى الدنيا يلائم طبيعة هذا الاعتراض ، أى يكون أبلغ فى الرد عليه ، وفى التحذير من الوقوع فى مثله ، فكذلك كان عقاب الله لقارون .

والقرآن حين يسوق خبرا أو قصة فإنه لا يولى اهتماما كبيرا للتفاصيل ، وإنما يولى كل الاهتمام لموضع العبرة والهدف من سوق الخبر ، ولذلك لم تكن التفاصيل فى قصة قارون مهتمة إلا بما يتصل بموضع العبرة فى قصته ، وأوضح ما فى القصة أن قارون كان من بنى اسرائيل ، فتعبير القرآن (إن قارون كان من قوم موسى ...) (١) فهذا يؤكد أنه يهودى ، وهذا الانتماء يوحى بالنزعة المعروفة عن اليهود فى كل تاريخهم وفى كل مكان تطأه أقدامهم من سيطرة حب المال عليهم ، ومن أن أعينهم دائما ترتكز عليه قبل كل شىء ، ومن ثم فإنهم يجيدون الوسائل التى توصلهم إليه ، أو توصله إليهم ، وكذلك كان قارون ، غير أنه يتفوق عليهم فى اصطناع كل الوسائل التى تجلب إليه المال ، وتعبير القرآن يشير ضمنا إلى أنه كان يملك موهبة وقدرة غير عادية فى هذا المجال حتى تدفقت عليه الأموال أنهارا ، وحتى تكدست خزائنه بكم هائل من الكنوز التى لم تعرف فى حجمها لأحد من الناس ، حيث يصور القرآن أن مفاتيح خزائن كنوزه كان يعيى بحملها الجماعة الأشداء من الرجال ، كقوله تعالى (وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) (٢) .

ويستشف من تعبير القرآن أن قارون كان من أتباع موسى المؤمنين قبل أن يفاض عليه المال ، وأن هذا المال أطغاه فأخرجه من تبعية موسى ومن الإيمان ، فإن تعبير (كان من قوم موسى فبغى عليهم) يشير إلى أنه كان فى وضع صالح قبل الغنى ، وأن الغنى أطغاه كشأن

---

(١) ٧٦ سورة القصص . (٢) ٧٦ سورة القصص

الشعور بالغنى ، حيث من شأنه أن يدفع صاحبه إلى التطرف ومجاوزة الاعتدال فى فكره وسلوكه وعلاقاته من باب قوله تعالى (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) (١) ولكن قارون تجاوز التأثير المألوف للغنى فى نفوس الأغنياء إلى الزهو والتعالى والعدوان على قومه بما يعنيه وصف البغى من قوله تعالى (فبغى عليهم) .

وقد كان مقتضى طغيانه وبغيه عليهم أن ينفروا منه أو أن يحملوا له بغضا واستياء ، ولكن من عجائب الله فى تكوين نفوس البشر أن نجد الأمر بالعكس ، حيث يكون الطغاة موضع الإعجاب من المستضعفين ، حيث ينظر المستضعفون إلى الأقوياء المتحكمين فيهم نظرة الإكبار والخضوع ، بل وأن يروهم القدوة والأمنية التى يتمنون لأنفسهم وأولادهم أن يبلغوا شيئا منها ، كما يؤكد ابن خلدون هذا المعنى فى فصل كامل من مقدمة تاريخه بعنوان (فصل فى أن المغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب) (٢) وهذا الحكم كسائر الأحكام يسرى على الغالبية من باب أن للأكثر حكم الكل .

ولكن قارون كما كان متفوقا تفوقا غير عادى فى غناه وكنوزه ، وفى اغتراره وزهوه بذلك ، فكذلك كان تأثيره السىء فى المجتمع كان غير عادى ، فقد شغل كل طبقات المجتمع ، وأصبح فتنة وهما لكل منهم ، كل طائفة تنظر إليه وتتعامل معه بما يلائم طبيعتها واتجاهها ، وقد انقسم المجتمع من حول قارون ثلاث طوائف ، لكل منها موقف معين منه ومما صار إليه ، هى موقف المؤمنين ، وموقف العامة ، وموقف العلماء :

١ - موقف المؤمنين :

حين سيطر على قارون الغرور والزهو ، واتجه إلى التطاول على الناس والبغى عليهم تصدى له المؤمنون بالنصح والتحذير من سيطرة الغرور والزهو والكبرياء ، وما يجره ذلك على صاحبه من وبال ، وقد فصلوا له فى نصيحتهم ما ينبغى له وما يجب عليه أن يلتزمه متمثلا فيما يلى :

---

(١) ٦ سورة العلق ، والطغيان مجاوزة الحد فى كل شىء ومنه (إنا لما طغى الماء ...) .

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون .

أ - أولا أن يترك بل يتحاشى الزهو والخيلاء بماله وكنوزه ، وذلك فى تعبير (لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين)[١] وقد يجد بعض الناس لبسا فى فهم الفرح ، وهل هو محرم مع أنه من غرائز البشر حينما تتهيأ أسبابه التى تدعو إليه ؟ وكيف أن الله لا يحبه مع أنه سبحانه جعله نعمة ومنة على عباده المؤمنين فى بعض المواقف كقوله تعالى (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله)[٢] ؟

والجــواب أن الأمــر لا يدعـو إلى لبـس ، فإن الفـــرح انفعال طبعى يعبر عن الرضا عن الواقع ، وهو كسائر الانفعالات والصفات البشرية يتفاوت فى درجات بعضها يوصف بالحسن ، وبعضها يوصف بالقبح ، أو من هذا القبيل أن الفلاسفة يعرفون الفضائل بأنها وسط بين رذيلتين ، فالجود مثلا وسط بين البخل والتبذير ، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، وكذلك الفرح من حيث كونه الرضا عن الواقع ، يمكن أن ينزل إلى درجة السخط على الحال الواقع فيكون يأسا وقنوطا ، ويمكن أن يزيد إلى درجة الزهو بهذا الواقع والاختيال به على الناس ، وكلتا الحالتـين رذيلـة ، وكلتاهما مما لا يحبه اللـه ، فأما اليأس والقنوط فقد جعلهما الله من مشاعر الكافرين والضالين وصفاتهم كقوله تعالى (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافـرون) (٣) وكذلك (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) (٤) وأما الإفراط فى الرضا عن الواقع حتى يتحول إلى زهو واختيال وكبرياء فهو الفرح الذى يبغضه الله كما قال قوم قارون لقارون (إن الله لا يحب الفرحين) وإذن فالفرح المقبول والذى يمكن أن يكون موضع رضا من الله ومن الناس فهو الفرح الوسط الذى يمثل الاعتدال فى ظهور أثر المشاعر والانفعال ، وهو الفرح الذى ذكره الله فى سياق الرضا عنه فى قوله (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) (٥)

ولكن قارون أطلق لرضاه عن نفسه وواقعه العنان ، فجمح به جموحا شديدا فى زهو وخيلاء وبغى على الناس ، ومن هنا كانت نصيحة المؤمنين إياه أن يتخلى عن هذه الدرجة من الفرح الذى لا يحبه الله .

---

(١) ٧٦ سور القصص . (٢) ٤ سورة الروم . (٣) ٨٧ سورة يوسف .
(٤) ٥٦ سورة الحجر . (٥) ٤ سورة الروم .

ب - ثانيا أن يؤدى حقوق الله فيما آتاه من نعم ، ومع أن كل نعمة لله فيها حقوق يجب أن تؤدى ، سواء أكانت نعما فى الحواس ، أم من نعم الدنيا ، وأدنى هذه الحقوق توجيه هذه النعم نحو الخير وعدم استخدامها فى الشر ، إلا أن حقوق الله فى نعمة المال بالذات لها نصيب محدد يجب على الغنى أن يؤديه ، وقد يتفاوت هذا النصيب من تشريع إلى تشريع ، ولكنه فى كل الأحوال نصيب محدد بوصفه الحد الأدنى الذى يعفى صاحبه من الحساب والعقاب على عدم أدائه .

ومن هنا كان طلب المؤمنين من قارون أن يؤدى حقوق الله فيما أنعم عليه لينجو من الحساب والعقاب يوم القيامة ، وذلك بتعبير (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة) ٧٧ سورة القصص

جـ - ثالثا أن يتمتع بما أنعم الله عليه فى حد الاعتدال أيضا دون تقتير أو تبذير ، فليس من الدين ولا مما يرضى الله أن يحرم الإنسان نفسه مما أنعم عليه ، كما فى الحديث الشريف إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، ولذلك يتكرر التعبير فى القرآن كثيرا جدا بنحو (كلوا من طيبات ما رزقناكم) (١) بلفظ الأمر مع أنه كان يمكن أن يكون التعبير بلفظ الجواز والإباحة أى بنحو لا حرج عليكم أن تاكلوا من طيبات ما رزقناكم ، ولكن هذا الأمر كغيره مقيد أيضا بالاعتدال دون تقتير أو إسراف ، فكلا الطرفين منهى عنه بنحو قوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) (٢) فالطرفان وهما البخل والتبذير كل منهما رذيلة ، أما الفضيلة فهى كما سبق الاعتدال فى كل شىء .

وإذن فحرمان المرء مما أنعم الله عليه به ليس فضيلة دينية كما قد يتوهم بعض الناس من الزهد فى الدنيا ، بل هو منهى عنه لأنه من قبيل البخل والشح على النفس ، وفى القرآن وفى كثير من الأحاديث النبوية ما يؤكد ذلك ، ولا داعى للافاضة فيه فإنه ليس من صلب الحديث .

ولذلك نصح المؤمنون قارون بألا يحرم نفسه من نعم الله عليه بقولهم (ولا تنس نصيبك

---

(١) ١٦٠ سورة الأعراف .

(٢) ٢٩ سورة الإسراء .

من الدنيا) . ٧٧ سورة القصص

د - رابعا ينصح المؤمنون قارون بأن عليه أيضا أن يراعى الفارق بينه وبين غيره ممن أنعم الله عليهم ، بحيث تكون درجة شكره لله متناسبة مع هذا الفارق ، فكما أن الله جعل وضعه فى النعم أحسن من وضع غيره ، فكذلك ينبغى أن يكون ما يقدمه من خير أكثر مما يقدمه غيره بمقدار الفارق بينهما فى النعم ، حيث يقولون لقارون (وأحسن كما أحسن الله إليك) والإحسان يتضمن المفاضلة فى الحسن كقوله تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن ....) (١) بمعنى أن رد السيئة حق للمعتدى عليه ، ولكن هذا الرد فى ظاهره يشبه السيئة التى يرد عليها ولذلك يوصف الرد على السيئة ظاهريا بأنه سيئة من باب (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (٢) فالأولى سيئة ولكن جزاءها فى الحقيقة جائز وليس سيئة ، وإنما عبر عنه بلفظ السيئة من باب التنفير من القصاص والترغيب فيما هو أحسن وهو العفو ، وكذلك (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) (٣) فالأول عدوان ، ولكن القصاص منه ليس عدوانا وإنما وصف بالعدوان من باب التنفير منه والترغيب فى العفو ، فالعفو أفضل عند الله من القصاص ، ولكن هناك درجة أفضل من العفو وهى الإحسان إلى المعتدى بعد العفو عنه ، وهذه الدرجة هى الإحسان فى تعبير (ادفع بالتى هى أحسن) أى اجعل موقفك وسلوكك فى أفضل الأوضاع .

ومن هنا يزداد وضوح نصيحة المؤمنين لقارون فى قولهم (وأحسن كما أحسن الله إليك)(٤) فكما أن الله جعل إحسانه إليك فى أفضل الأوضاع فكذلك ينبغى أن يكون شكرك لله وتقديمك الخير فى أحسن الصور .

هـ - خامسا يا قارون لا تجعل ما أنعم الله به عليك من مال وكنوز سبيلا إلى مغاضبة من أنعم عليك به بالإفساد فى الأرض والبغى على عباد الله وغير ذلك مما تفعله ومما تعلم أنه يغضب الله ، فليس من الدين ولا من الخلق الكريم فى شىء أن يرد المرء البر به جحودا

(١) ٣٤ سورة فصلت .
(٢) ٤٠ سورة الشورى .
(٣) ١٩٤ سورة البقرة . (٤) ٧٧ سورة القصص

ونكرانا ، والإحسان إليه إساءة وعدوانا ، فيقولون له (ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) ٧٧ سورة القصص

وقد يكون قارون لا يؤذيه وصفه بسوء موقفه من الدين ، ولكن يؤذيه وصفه بسوء الخلق الذى دعاه إلى جحود فضل الله عليه ، لأنه يشعر بأن موقفه الدينى موقف من جهة غائبة بالقياس إليه وهى جهة الله سبحانه ، أما الخلق فهو موقف من جهة حاضرة يريد أن يبهرها ويملأ نفوسها إعجابا به وبما لديه ، وهى جهة الناس ، فوصفه بسوء الخلق مما يقلل من قدره فى أعين الناس ، ولذلك عمد قارون إلى تأكيد أنه لا فضل لأحد عليه إطلاقا فيما حصل عليه من مال وكنوز ، وهذا الإطلاق يسرى فى زعمه على الله سبحانه ، حيث يقولون له (وأحسن كما أحسن الله إليك) فيكون جوابه أن الله ليس له ولا لغيره فضل عليه ، لانه كما يدعى إنما جمع ما جمع ، وبلغ ما بلغ بما يملك من علم ومواهب لم تكن متاحة لغيره .

وكانت هذه إحدى السقطات الكبرى التى من شأنها أن تعجل غضب الله وعقابه فى الدنيا ، ولو أن قارون كفر فى أى لون من الكفر المألوف لكان يمكن أن يمهله الله كما يمهل ما لا يحصى من الكافرين إلى يوم القيامة ، ولكن قارون بهذا الموقف يعترض حجة من حجج الله على عباده ، فإنكار وجود الله سبحانه نفسه لا يخل بحجة الله ، لأن وجوده وآثاره أوضح من جحد العقول ، أما إنكار مصدر الرزق وهو الله فهذا يثير لبسا وتشكيكا فى النفوس الضعيفة ، ومصدر اللبس أن يقال كما قال قارون إن المرء لا يكسب إلا من جهده وخبرته ومهارته وليس من شىء آخر مهما يكن هذا الشىء ولو كان هو الدين أو هو الله ، ومن الغريب أن هذا هو اتجاه المذاهب الإلحادية الحديثة كالعلمانية التى لا تنكر وجود الله ، ولا تنكر الدين بوصفه عنوانا وشعارا فحسب ، ولكن تنكر أن يكون للدين أى له أثر فى حركة الحياة إطلاقا ، فلا ينبغى للإنسان فى عقيدتهم أن يربط حصوله على شىء أو عدم حصوله عليه بالدين أو بالله أو بأى شىء غيبى ، وإنما يجب أن يربطه بعمله وبالقانون الذى يسير عليه مجتمعه ، وهو عين ما قاله قارون (إنما أوتيته على علم عندى) وبهذا يمكن لقائل أن يقول إن قارون مؤسس العلمانية فى التاريخ ، فهو أول من نادى بأن مصدر الرزق هو العلم وليس الدين أو الله ، والعلاقة بين قارون والعلمانية الحديثة ليست منفصمة ، فقارون يهودى ، ومؤسسو العلمانية

الحديثة ، سواء فى الثورة الفرنسية ، وفى الشيوعية الروسية هم يهود ، وواضح فى صياغة شعار (العلمانية) ربط الحياة بالعلم أى وليس بأى شىء آخر كما ربط قارون حياته بالعلم وحده وهكذا كان موقف المؤمنين من قارون .

ومما يدل على أنهم المؤمنون رغم أن القرآن يتحدث عنهم بأنهم قوم قارون فى تعبير (إذ قال له قومه ...) أن حديثهم منصب على التذكير بالله وبالآخرة ، ولا يقول هذا صادقا إلا مؤمن ، كما أن لفظ القوم يشير أيضا إلى أن قارون قبل أن يطغيه المال كان من المؤمنين حيث كان التعبير (إن قارون كان من قوم موسى) فهؤلاء القوم أنفسهم هم الذين نصحوا قارون بالتمسك بالإيمان ، وحيث كان منهم ، فهذا يعنى أنه كان أولا من المؤمنين ، ولكن المال أطغاه فجعله ينزع عن نفسه لباس الإيمان ، ولا يكتفى بأن يقصر كفره على نفسه ، وإنما عمد إلى التشكيك فى صلة الناس بربهم فى أرزاقهم ومعاشهم لينشر بينهم أن الرزق مرتبط بالعلم والعمل فحسب ، ، وليس بأى شىء آخر مما يدعيه المؤمنون من ربطهم كل شىء بالله ، فكان هذا التشكيك واللبس مما يشوش على وضوح حجة الله على عباده عند الحساب ، ولذلك قرن الله هذه السقطة الكبرى من قارون بتعجيل عقاب الله مباشرة حيث يقول تعالى (قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ...) (١) ؟ فالله سبحانه يجعل من أبرز وسائل الدعوة إلى الإيمان تذكير الناس بنعمه عليهم ، ويتكرر هذا كثيرا فى كلام الله سبحانه ، على أساس أن نعمه حجة عليهم فحين يأتى من يشكك فى أن هذه النعم من الله كما فعل قارون فإنه يتعجل عقاب الله ، بينما الذى يجعل كفره أو عصيانه فى محيط نفسه ، أو لا يمس به سنن الله أو حجته على عباده فإن الله يمهله عادة إلى الآخرة ، ومن هذا القبيل كان كفر مشركى العرب الذين قصروا كفرهم على عقيدتهم داخل نفوسهم ، ولكنهم لم يجحدوا سنن الله فى الكون ، ولا نعمه العامة ، والقرآن ينقل عنهم نحو (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ...) (٢) وكذلك لا يجحدون ولا يشككون فى مصدر الرزق ، ومن ذلك (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) (٣) فالشمس والقمر وما يترتب عليهما من

---

(١) ٧٨ سورة القصص

(٢) ٦١ سورة العنكبوت .

(٣) ٦٣ سورة العنكبوت .

وجود الليل والنهار وحساب الزمن وغير ذلك ، وكذلك المطر وما يترتب عليه من حياة النبات ووجود الآبار والأنهار ، هذا فى مجموعه يكون حياة الناس ومعيشتهم ، واعترافهم بأن الله خالق هذا اعتراف ضمنى بأنه مصدر الحياة ومصدر الرزق ، ثم كفرهم وشركهم بعد ذلك لا يعترض سنن الله فى خلقه ، ولا يثير لبسا فى حجة الله على عباده ، فلا ضير أن يؤجل عقابهم إلى حين .

٢ - موقف العامة :

(فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) (١) فكان من آثار سيطرة الخيلاء والغرور على قارون أن أخذ يباهى الناس ويتعالى عليهم بما آتاه الله من نعم ، والزينة هى كل ما من شأنه أن يجعل مظهر المرء حسنا ، ومنه زينة المرأة ، بحيث يكون المظهر بعد استخدام الزينة خيرا مما كان عليه قبلها ، وهى درجات تبدأ من اللباس الذى يستر العورة ، فإنه زينة لأنه يجعل مظهر الإنسان خيرا مما لو كان مكشوف العورة ثم تتدرج الزينة فى درجات لا حدود لها حسب ما لدى الإنسان من نعم يحيط بها نفسه بحيث تكون جزءا من مظهره العام حتى يصدق عليها أنها زينة له ، فالحد الأدنى من الزينة هو ستر العورة ، والعورة يمكن أن ينظر إليها فى صورتين أو مرحلتين ، إحداهما العورة الشرعية ، وهى السوءتان وما يتصل بهما أو يحيط بهما ، والاتجاه الغالب لدى الفقهاء تحديدها فيما بين السرة والركبة ، فهذه عورة شرعية لأن التشريع الدينى يوجب سترها ، ومنه فى القرآن (.... يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) (٢) فلا تصح الصلاة إلا مع ستر العورة المتعلقة بالسوءتين القبل والدبر ، ويكون مفهوم المسجد حينئذ هو موضع سجود المرء ولو فى بيته منفردا ، ولكن يمكن أن يكون للعورة مفهوم آخر اجتماعى وليس شرعيا ، وهو بقية الجسد ، بمعنى أن المرء حينما يكون فى مجتمع تعود أفراده ألا يخرج أحدهم من بيته إلا وهو كاس جسده كله وليس عورته فقط ، فإن جسمه كله يصبح حينئذ عورة اجتماعية أى فى عرف المجتمع ، فيجب عليه حينئذ ألا يصلى مع الناس إلا وجسمه مكسو ،

---

(١) ٧٩ سورة القصص .

(٢) ٣١ سورة الأعراف .

وعندئذ يكون مفهوم المسجد هو المسجد الجامع فى قوله تعالى (خذوا زينتكم عند كل مسجد) ومن دقة تعبير القرآن أن الخطاب ليس موجها إلى المؤمنين فحسب ، مع أن ارتياد المسجد للمؤمنين فحسب ، حيث تتضمن هذه الدقة أن ستر العورة ، مطلوب من الناس جميعا بصرف النظر عن دينهم وعقيدتهم ، فكان التعبير (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) فالمخاطبون بنوا آدم وليس المؤمنين .

ولم تكن هذه البسطة فى الحديث إبعادا عن صلب الموضوع ، وإنما اقتضاها توضيح مفهوم الزينة التى خرج بها قارون على قومه ، وأنها لم تكن زينة يسيرة أو عادية ، وإلا لكان التعبير مثلا فخرج على قومه فى زينة أو فى الزينة ، ولكن التعبير كان بلفظ (زينته) أى فى الزينـة التى تناسب حاله وهو يملك من كنوز مفاتيحها تثقل كواهل العصبة الأشداء من الرجال ، ويملك بطبيعة الحال كل ما يقتضيه هذا الثراء الفاحش من قصور وعبيد ومستخدمين ودواب وأنعام وغير ذلك ، وحشد ما تفيض روايات التفسير فى وصفه فى موكب مذهل لم يرد به إظهار نعم الله عليه ، وإنما أراد به المباهاة والتعالى على سائر مجتمعه ، وهذه المباهاة هى مضمون تعبير (على قومه) من قوله تعالى (فخرج على قومه فى زينته) ولو كان قصده الفخر والمباهاة والتعالى على قومه لكان يكفى فى التعبير أن يكون نحو فخرج فى زينته .

ومن هنا كان افتتان العامة بقارون وزينته ، فرغم أنهم يعلمون أن هذا تعال واختيال عليهم ، فكان هذا يقتضى نفورهم منه ، وتحاشيهم إياه ، إلا أنه كان مصدر الاعجاب والتمنى منهم أن يكون لهم شىء مما له ، وفى طبائع البشر أشياء تحير العقول ، فلا غروره وكبرياؤه ، ولا كفره وانسلاخه من دينه وادعاؤه أن ما أوتيه لم يكن لله ولا لأحد أو شىء فيه فضل إلا علمه ومواهبه ، ولا طغيانه وبغيه عليهم ، كل ذلك لم يصدهم عن الاعجاب به وعن تمنيهم أن يتاح لهم ما أتيح له ، وقد كان موقفهم هذا من قبيل ما يؤكده ابن خلدون من (أن المغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب) [١]

وإذن فقد أصبح قارون فتنة للغالبية العظمى فى المجتمع ، فإن العامة هم السواد الأعظم فى كل مجتمع ، ومركز الفتنة متصل بالعقيدة ، ومتصل بحجة الله على عباده كما سبق ، فأما

---

(١) هذا فصل فى مقدمة ابن خلدون كما سبق .

فى العقيدة فإنهم معجبون بقارون رغم ادعائه أن ما أوتيه كان من علمه وليس من الله ، وأما عن حجة الله على عباده فالمفترض أن الله سيحاسب الناس فى الآخرة فيما يحاسبهم عليه على نعمه عليهم من باب نحو قوله تعالى (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) (١)

ولكن فتنة قارون تشيع فى الناس أن العلم هو مصدر هذه النعم وليس الله ، وقد يقتنع كثير من الذين لا يستخدمون عقولهم بهذا المنطق ، كما يقتنع معتقدو العلمانية اليوم ، فيكون هذا الاعتقاد تلبيسا وتشويشا على حجة الله ، حيث يمكن تصور أن يقول هؤلاء المعتقدون عند الحساب فى الآخرة لم نكن نعلم أن الله هو مصدر هذه النعم ، أو كنا نعتقد أن العلم والعمل هما مصدر هذه النعم وليس الله كما كان يقول لنا سادتنا وقادتنا ، سواء من قادة السياسة أو قادة العلم والثقافة .

والمساس بالعقيدة ليس مما يعجل عقاب الله ، ولكن المساس بحجة الله على عباده هو من أهم ما يستعجل غضب الله وعقابه ، حيث إن عدل الله سبحانه لا يريد أن يعاقب عدوا ومعه حجة رغم أنها باطلة ، أو أن حجة الله عليه ليست ساطعة ، من باب قوله تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) (٢) فكان لابد أن يزول مصدر التشكيك فى حجة الله وهو قارون .

٣ - موقف العلماء :

(وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون) (٣) ومما يلفت النظر أن هؤلاء الذين أوتوا العلم ليسوا هم المؤمنين الذين كانوا ينصحون قارون منذ بداية القصة بالتزام سبيل الإيمان ، وإلا لكان المتوقع أن يواصل المؤمنون موقفهم ، ويعيد القرآن الحديث عنهم ، ولكن المؤمنين أفرغوا كل ما فى جعبتهم لقارون نفسه فلم يعد لديهم مزيد ، ولم يعد لهم أمل فى الإصلاح فسكتوا وكفوا ، أما هؤلاء العلماء فكأنهم يوافقون المتحدثين باسم الإيمان على أنه لا أمل فى قارون ، ولذلك لا يوجهون حديثا إليه ، وإنما يوجهون حديثهم إلى العامة من القوم ، وذلك أنهم فزعوا من موقف العامة ، حيث رأوا

---

(١) آخر سورة التكاثر .

(٢) ١٥ سورة الإسراء .

(٣) ٨٠ سورة القصص .

فى هذا الموقف اتجاها إلى دمار المجتمع ، واستعجالا لحلول الهلاك به ، ولم تكن نظرتهم هذه نابعة من الإيمان وحده ، وإنما كانت نابعة قبل كل شيء من صفتهم وهى العلم ، فمقتضى كونهم علماء أن يكون لديهم إلمام بالتاريخ ، وما مر به من أحداث وعبر ، وأن يكون لديهم بصر بما يمكن أن تنهض به الشعوب ، وما يمكن أن يكون فيه دمارها ونحو ذلك مما يميز العلماء ، سواء فى معلوماتهم أو فى عقولهم ونفاذ بصيرتهم ، فقد تملك الفزع هؤلاء العلماء حين رأوا سيطرة حب المظاهر على هذا المجتمع تأثرا بحال قارون ، والعلماء يعرفون أن تهافت أى مجتمع على المظاهر هو بدايه طريق الانهيار ، وأننا حين نلقى نظرة على تاريخ الشعوب نجد أنه ما من شعب حل به الدمار والانهيار إلا كان التهالك على المظاهر والتنافس فى الترف أبرز معالمه ، وقد رأى العلماء أن مجتمعهم هذا تناسى عيوب قارون الظاهرة فى عقيدته ، وفى خلقه وسلوكه ولم يعد ينظر إلا الى مظهره الذى رأى فيه قدوة وأملا وهدفا ، ومعنى ذلك أنه لا يفكر إلا فى المظاهر ، ولا يسيطر عليه إلا حب الترف فى غير جهد أو سعى إلى ما يجلبه ، فهم لم يتمنوا أن يعملوا عملا أو يبذلوا جهدا يوصلهم إلى ما وصل إليه قارون ، وإنما كأنهم يتمنون أن مثل ما لدى قارون هو الذى يأتيهم ويسعى إليهم ، وليسوا هم الذين يسعون إليه ، فكانت نتيجة ما يتمناه هذا المجتمع واضحة فى بصائر العلماء وأمام أبصارهم وهى الاندفاع نحو الدمار والانهيار ، ومن هذا القبيل قوله تعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) (١) فالمترفون سينشرون فيها الترف وما ينتج منه عادة من ألوان الفساد والفسوق ، وحينئذ يحل الدمار .

وواضح أن علماء قوم قارون كانوا من المؤمنين ، ولكنهم هنا لا يتحدثون بنظرة الإيمان ، أو بها وحدها ، وإنما يتحدثون بنظرة العلم وتجاربه فى التاريخ والأمم ، وهى النظرة هى التى أفزعتهم حين رأوا موقف القوم ، فعبروا عن هذا الفزع بما أوجزه القرآن فى كلمة واحدة هى (ويلكم) (٢) بمعنى أنكم أصبحتم فى موقف الهلاك أو متجهين إلى الهلاك ، وهى سنة الله فى كل مجتمع يسلك ما أنتم فيه اليوم ، وهذا ما يؤكده لنا علمنا بالتاريخ ، وعلمنا بما يدفع الشعوب إلى الهلاك والدمار وتعجيل غضب الله وعقابه .

---

(١) ١٦ سورة الإسراء .

(٢) من الآية ٨٠ سورة القصص .

وكان هذا التحذير من العلماء لقومهم يمثل النهى عن المنكر .

والعلماء يضيفون إلى النهى عن المنكر الأمر بالمعروف ليكون أداؤهم لواجب العلماء كاملا ، وقد تمثل هذا فى موازنتهم بين نعيم الدنيا وترفها الزائل ، والذى لابد أن يفارقه الانسان بالموت ، أو يفارق هو الانسان بأى سبب يمنع المرء من التمتع به كالمرض أو الهموم والمصائب ، حيث قد تكون لدى المرء كل وسائل المتعة ، ولكن لا يتمتع بها ، بل يزهد فيها بسبب جسدى كالمرض العضوى ، أو سبب نفسى كالذى يحل أحيانا فى النفوس من الهموم والآلام ، فنعيم الدنيا إذن وترفها زائل مؤقت ، أما النعيم الدائم الممتع فهو نعيم الآخرة المتمثل فى ثواب الله لمن يرضى عنهم وهم المؤمنون الذين يجمعون بين صلاح العقيدة وصلاح السلوك ، وقد صاغ القرآن ذلك كله فى تعبير (ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا) بمعنى أن ثواب الله بما يتضمنه من رضاه فى الدنيا ونعيمه فى الآخرة خير مما تتمنونه من مثل مال قارون وزينته ومظاهره ، فانظروا ما هو خير واسعوا إليه .

ولكن العلماء يلفتون نظر قومهم إلى شىء مهم وهو أن تحقيق هذه الخيرية ، والوصول إلى هذه النتيجة من نيل ثواب الله ليست طريقا سهلة تنال باللسان أو بالادعاء ، وانما هى طريق صعبة تحتاج إلى مجاهدة للنفس ، ومقاومة للأهواء والشهوات ، ورياضة النفس على التزام طريق الخير وإن كان صعبا ، ومن لم يجد فى نفسه القدرة والاحتمال لهذه الطريق فلن يحظى بتلك النتيجة ، فيصوغون ذلك لقومهم فى تعبير (ولا يلقاها إلا الصابرون) .

وبهذا يكون العلماء قد أدوا أبرز واجب عليهم ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لأنهم بحكم علمهم أعرف بجوانب المعروف وعناصره ، وأعرف بمزاياه وآثاره فى المجتمع فضلا عن الفرد ، وكذلك هم أعرف بجوانب المنكر ، وأعرف بآثاره وعواقبه ، خصوصا بالقياس إلى المجتمع .

ومن هنا ندرك مدى أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الإسلام ، فإن الإسلام تميز عن سائر الأديان بأنه يهدف أساسا إلى تكوين مجتمع ودولة ، فتشريعه لا يقتصر على الفرد كما هو فى الأديان الأخرى ، وإنما يشمل الفرد ويشمل الدولة والمجتمع ، وكان من أهم التشريعات للمحافظة على سلامة كيان المجتمع وحمايته من عوامل الانهيار تشريع الأمر

بالمعروف والنهى عن المنكر الذى جعله القرآن أول عوامل السمو والنهوض بالمجتمع فى مثل (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (١) فقد جعل الله هذين العنصرين كأنهما السبب فى كونها خير أمة ، ومما ينبغى أن نلحظه أنه قدم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هنا على الإيمان بالله ، مع أن المفهوم بداهة أن الإيمان بالله لا يسبقه شىء البتة فى الأهمية ، لأن الحديث هنا عن صلاح المجتمع ، وهو فى مقاييسه يختلف عن صلاح الفرد ، فاللبنة الأولى فى صلاح الفرد وخيريته هى الإيمان بالله ، والايمان هو الذى يضمن له الاستقامة ، أما المجتمع فإن صلاحه فى علاقاته ومعاملاته وحياته الدنيوية إنما يعتمد أولا على وجود الضوابط التى تضمن بعده عن الانحراف ، وتحقق فيه ما يصلحه ، وهذه الضوابط تتمثل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى أية صورة فعالة ومؤثرة ، ولو كانت فى صورة قوانين يلتزمها الأفراد ، وتجد أيضا من أفراد المجتمع من يراقب تنفيذها فيصبح هؤلاء المراقبون كأنهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر .

على أننا نلحظ أيضا نوعا من التفرقة بين الأمر بالمعروف من جهة ، والنهى عن المنكر من جهة أخرى ، فإن شيوع المنكر فى مجتمع هو من أهم ما يستعجل اندفاع هذا المجتمع إلى التحلل والانهيار ، ولذلك كان النهى عن المنكر واجبا على كل فرد ، كما فى الحديث النبوى المشهور (من رأى منكم منكرا فليغيره ....) (٢) الى آخر الحديث ، ولا يعذر فرد بالجهل فى هذا لأن المنكر دائما معروف ، فكل فرد مطالب بالنهى عن المنكر فور الإحساس به ، وتظل مسئوليته قائمة حتى يتغير المنكر إلى الخير ، ولا يكفى مجرد النهى ، ولذلك لم يكن التعبير من رأى منكم منكرا فلينه عنه ، بينما لم يتعرض الحديث للأمر بالمعروف ، لأن عدم تحقيق المعروف فى المجتمع ليست له خطورة شيوع المنكر فيه ، ومن القواعد الشرعية أن دفع المكاره مقدم على جلب المنافع ، ومن هذا القبيل قوله تعالى (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ....) (٣) فكان من أسباب لعنهم عدم تناهيهم عن المنكر ، ولم يكن منها عدم أمرهم بالمعروف على أن

---

(١) ١١ سورة آل عمران .

(٢) رواه مسلم .

(٣) ٧٨ سورة المائدة .

هذه التفرقة فى الأهمية بين الأمر بالمعروف من جهة والنهى عن المنكر من جهة أخرى نلمح شيئا منها فى موقف علماء قوم قارون ، فإن نهيهم عن المنكر كان فى أعنف صورة هى قولهم (ويلكم) بينما كان أمرهم بالمعروف فى صورة نصيحة تبين المفاضلة بين ما عند الله من ثواب وما فى الدنيا من مظاهر وزخارف .

خطورة قارون وماله :

وإذن فقد أصبح قارون وماله مصدرى فتنة لعامة المجتمع ، وإذا كان الغنى من طبيعته أن يدفع الإنسان عادة إلى الطغيان من باب قوله تعالى (إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى)(١)

وحيث كان غنى قارون متجاوزا كل الحدود فلابد أن يكون طغيانه أيضا متجاوزا كل طغيان مألوف من الأغنياء ، ومن هذا التجاوز أن طغيانه أصبح ذا شقين ، شق فيه شخصه ، بمعنى أنه هو أصبح مصدر فتنة للناس ، وشق فيه ماله ، حيث أصبح ماله لذاته فتنة للمجتمع ، وقد تمثلت فتنة قارون ذاته فيما يلى :

١ - أصبح قارون بما يملك من مال وجاه هو القوة الأولى فى مجتمعه إن لم يكن القوة الوحيدة ، وهذه القوة هى التى تحرك المجتمع وتوجهه ، إما بطريق مباشر كنفوذه على من يملك من عبيد وخدم وعمال ، وعلى المستفيدين منه والمحتاجين إليه أو إلى التعامل معه ، ولابد أن يكونوا هم الغالبية العظمى فى المجتمع ، وإما بطريق غير مباشر كالذين يرونه مثلا أعلى يحتذى ويقتدى به سواء فى أسلوب جمعه المال أو فى سلوكه العادى ، وحيث أصبح قارون فاسدا بل مصدرا للفساد فى عقيدته وفى بغيه وسلوكه فلابد أن يتأثر كل هؤلاء الذين هم فى دائرة نفوذه المباشر وغير المباشر بفساده فى العقيدة وفى السلوك ، سواء أكان تأثرهم أيضا مباشرا بتقليده أم غير مباشر بالرضا عنه والإعجاب به ، وكل هذا التأثر فى كل صوره فساد ، لأن أساسه أنه أصبح فسادا نفسيا ، فبعضه يتحول إلى فساد عملى فى العقيدة أو السلوك ، وبعضه يبقى فسادا فى النفس ، وليس بينهما كبير فارق ، فإن أساس الصلاح أو الفساد إنما

---

(١)٦-٧ سورة العلق .

يكون فى النفوس والقلوب ، فإذا صلحت صلح كل شىء ، وإذا فسدت فسد كل شىء ، ولو ترك الله قارون وشأنه فيصبح مجتمع قارون بمنطق الحكم على الأغلبية مجتمعا فاسدا ، فلا يصلح للحياة ولا للإسهام فى عمارة الأرض التى أراد الله عمارتها ، بل سيكون مجتمع قارون أسوأ من القرية التى يقول الله عنها (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) (١) فكان من رحمة الله بهذا المجتمع أن نزع الله منه مصدر الفساد ليكون هذا إنقاذاً له من دمار محقق .

٢ - أصبح موقف قارون كأنه يتضمن محاولة لطمس حجة الله على عباده عند الحساب كما سبق ، وهذا أخطر ما يستعجل غضب الله وعقابه ، فإن القرآن يؤكد فى العديد من مواضعه ما يتضمن أن كل مهمة رسل الله إلى الناس ليس أن يجعلوا الناس مؤمنين ، وإنما أن يبينوا لهم بصورة واضحة العقيدة الصحيحة ، والسلوك القويم ، بحيث لا يكون هناك لبس لدى الناس فى الأمرين ، وعندئذ تنتهى المهمة الأصلية للرسل بعد أن يعرف الناس ما يجب عليهم أن يفعلوه فى عقيدتهم وسلوكهم وجزاء هذا عند الله ، وما يجب عليهم أن يتحاشوه فى عقيدتهم وسلوكهم وجزاء هذا عند الله .

وبعد ذلك يتحمل كل فرد مسئولية نفسه ، وله أن يختار طريق الخير أو طريق الشر مع علمه ويقينه بطبيعة الطريق التى يسلكها ، كما فى القرآن (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)(٢) وفى العادة يترك الله أعداءه ومخالفيه من الكافرين والعصاة طالما كفرهم أو شرهم مقصور على أشخاصهم ويمهلهم إلى يوم القيامة التى يكون فيها الحساب ، ولكن المهم أنهم يموتون وهم يعلمون أنهم أعداء لله ومخالفون له كما بلغتهم شرائع السماء ، فحين يعاقبهم الله يكون معلوما لهم ولغيرهم موقفهم المعادى لله ، وتكون حجة الله عليهم هى بلوغ شريعة السماء إليهم بصورة واضحة .

ولكن قارون يريد أن يطمس حجة الله أو يشوش عليها بادعائه أن كل ما لديه من النعم إنما هو من علمه وجهده ، وليس من الله ، وقد وجد قارون أن واقعه يساعد على تصديق الناس

---

(١) ١٦ سورة الإسراء .

(٢) ٢٩ سورة الكهف .

إياه ، وواقعه هو أن لديه علما ومواهب حقا ، وهذا ما يثير اللبس ويبعث على التصديق عند عامة الناس وعند ضعاف العقيدة من خاصتهم ، حيث يتحولون بالتدريج إلى تصديق أن ما لدى قارون كان من علمه ومواهبه واجتهاده ، وليس من مصدر آخر ، ويمكن افتراض أن يقولوا يوم القيامة عند الحساب إننا اعتقدنا وصدقنا ما قاله قارون عن مصدر ما أوتيه ، لأننا رأينا علمه ظاهرا أمامنا ، فظننا أن هذا العلم هو مصدر رزقه ، ولم ندرك أنه كان محض سبب .

ورغم بطلان حجتهم إلا أنها تصبح شبهة ، وعقوبات الله الدنيوية فى الحدود تدرأها الشبهات وتعفى منها كما فى الحديث النبوى (ادرأوا الحدود بالشبهات)(١) ، ولكن عقوبات الحدود الشرعية فى الدنيا محض وسيلة لإصلاح المجتمع ، وليست غاية وهدفا ، أما عقوبة الآخرة فهى الهدف والغاية لذاتها ، فلا ينبغى أن تشوب موقف المعاقب بها شائبة .

لذلك كان لابد أن يزول مصدر هذه الفتنة ، ومصدر هذه الشبهات وهو قارون .

وأما فتنة مال قارون لذات المال ، فالحقيقة هى أنه ليس قارون هو المصدر الأصلى للفتنة ، ولكن المال هو مصدرها الأصلى ، بدليل أن قارون لم يكن فاسدا أو مفسدا قبل المال ، فلما تجمع ما تجمع لديه من أسباب الغنى فسد وأفسد ، سواء فى عقيدته وفى سلوكه ، وهو ما يدل عليه قوله تعالى (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم)(٢) فلم يكن بغيه إلا بعد الغنى ، ويمكن إجمال خطورة مال قارون فيما يلى :

١ - كان هذا المال هو مصدر فساد قارون ودفعه إلى الغرور الذى أدى به إلى الانسلاخ من عقيدته الدينية وإيمانه بالله ، وأدى به أيضا إلى فساد سلوكه ومنه بغيه على قومه .

٢ - كان هذا المال مصدر فتنة للعامة من قوم قارون ، حيث أصبح تملك مثل هذا المال أمنية مسيطرة على أفراد المجتمع ، وبالتالى أصبحت المظاهر المصاحبة لهذا والناجمة عن تملكه أمنية لدى عامة المجتمع وكذلك ما يترتب عليه من سلوك بطبيعة الحال ، فإن السلوك القبيح من عامة الناس حينما يصدر من الغنى ذى النفوذ لا يراه العامة قبيحا ، بل يرونه سلوكا حسنا أو عاديا ، بل قد يراه كثير منهم نموذجا ينبغى أن يحتذى ، ويتمنون لو كان لهم من المال وسلطانه ما يجعلهم يسلكون هذا السلوك ، وكثير من الشعراء والحكماء فى القديم

---

(١) رواه ابن عدى وسكت عنه السيوطى وروى مرفوعاً عن ابن مسعود فى الصحيح ورواه ابن ماجه والترمذى بلفظ آخر (٢) ٧٦ سورة القصص .

والحديث عبروا كثيرا عن هذا المعنى فى معان طريفة ، من أن ما يصدر من الفقير من سىء الأفعال وقبيح الكلام ، قد لا يكون سيئا ولا قبيحا لذاته ، ولكن مصدر سوئه وقبحه مجرد أنه صدر من فقير ، فحينما تصدر هذه الأفعال نفسها ، وحينما يصدر هذا الكلام نفسه من غنى يصبح حسنا فى أعين الناس ، ويحظى بالتقريظ والإعجاب منهم ، بينما كان الفقير يسفه به ويزجر من أجله ، فيشيع السلوك السىء فى المجتمع حيث يصبح سلوكا عاديا إن لم يروه حسنا ، وهذا المعنى نفسه هو مضمون قوله تعالى (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا)[1] لأن الغنى سيدفع المترفين إلى الفساد ، والمجتمع يقلد هذا الفساد من باب نظرية ابن خلدون (المغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب) وحين يشيع السلوك القبيح يفقد قبحه فى أعين المجتمع ، وفى هذا طمس لحجة الله على هذا المجتمع أو تشويش عليها عند الحساب يوم القيامة ، حيث قد يحتج العامة يومئذ بحجة رغم بطلانها فيقولون من مثل ما ينقله القرآن عن مثلهم (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) (٢) وقد يقولون حجة أخرى رغم بطلانها أيضا ، وهى أننا رأينا هذا السلوك شائعا فى كل مجتمعنا فحسبناه سلوكا مباحا غير محرم .

وحيث كان هذا المال بما ينجم عنه وما يترتب عليه مصدر فتنة فى المجتمع ، ومصدر مساس بحجة الله على عباده فلابد إذن أن يزول .

عقاب قارون وماله :

وقد يجد بعض الناس غرابة فى إضافة العقاب إلى المال ، أى يجدون غرابة فى أن يوجه العقاب إلى المال ، لا لأنه لم يصدر منه فعل ، فقد صدر منه فعل غير مباشر ، وهو أنه كان مصدر فتنة للمجتمع ، ومصدر مساس بحجة الله على عباده ، ولكن لأن مصدر غرابتهم أن المال جماد لا تتعلق به الحياة ولا تكليف ولا ثواب ولا عقاب ، والواقع أن هذه المقاييس هى بالقياس إلينا نحن وليست بالقياس إلى الله سبحانه ، فلا يوجد بالقياس إلى الله جماد ، فالجماد فى عرفنا هو ما يفقد الحياة والحركة والإدراك ، ولكن لا شىء فى الكون على الإطلاق يفقد شيئا يريده الله ، فقد انبعثت الحياة فيما نراه جمادا كعصا موسى حين أراد الله ذلك ،

(١) ١٦ سورة الإسراء
(٢) ٦٧ سورة الأحزاب .

وقد استجابت استجابة الإدراك أشياء كثيرة فى الكون ، كنار إبراهيم التى أمرها الله أن تكون بردا وسلاما فأدركت أمر الله واستجابت له ، وكان يمكن أن يكون التعبير نحو فجعلناها بردا وسلاما ، فيكون هذا من مجرد قدرة الله ، ولكن الله يخاطبها خطاب المدرك العاقل بقوله (قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم) فاستجابت له ، وكذلك الريح التى سخرها الله مع سليمان ، والجبال التى سخرها الله مع داود ، وكاستجابة السماء والأرض عن ادراك لأمر الله فى مثل قوله تعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) (١) ولم يكن مصادفة أن توصف السماء والأرض بجمع المذكر الذى يعرف علماء اللغة أنه مقصور على العقلاء ، وهو (طائعين) فلو كانت السموات والأرض غير عاقلة لما يصدره الله إليها من أمر لكان التعبير نحو أتينا طائعتين أو طائعات ، ولكن الوصف الخاص بالعقلاء وهو (طائعين) يقتضى أن إتيان السماء والأرض لم يكن بمحض قدرة الله القادر على كل شىء على الاطلاق ، وإنما كان إتيانهما استجابة لله عن إدراك وعقل وفهم لأمر الله ، غاية الأمر أن إدراك هذه المخلوقات يختلف عن إدراك البشر .

وهذه البسطة اليسيرة إنما دعا إليها تعبير القرآن فى قوله تعالى عن قارون وماله (فخسفنا به وبداره الأرض) فالخسف بالقياس إلى قارون بوصفه عقابا دنيويا له واضح ومفهوم ، ولكن إسناد هذا الخسف إلى داره قد يقال إنه ليس عقابا للدار لأنها غير مكلفة ولم يصدر منها جرم مباشر وهذا حق ، وقد يقال إن استجابة الدار للخسف لم تكن لمجرد أن الله قادر على خسفها فخسفها ، وإنما لأن الله أمرها أن تكون مخسوفة فأدركت أمر الله واستجابت له ، وقد يقال إن خسف دار قارون كان مجرد إزالة لها من الوجود ولا علاقة لهذا بشىء من الاحتمالات السابقة ، وليس شىء من هذه الاحتمالات مستبعدا ولا مستغربا طالما تعلق بالله سبحانه ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه أن قارون وماله كان كل منهما كما سبق مصدر فتنة ، ومصدر مساس بحجة الله على ذلك المجتمع .

لذلك قضى الله عليهما معا بالخسف ، فإذا الأرض تهبط ، وتهبط معها دار قارون كلها ومعها قارون نفسه ، وأصبح كل ذلك فى جوف الأرض ، وقد يقال فلماذا لم يكن التعبير نحو

---

(١) ١١ سورة فصلت .

فخسفنا به وبماله الأرض باعتبار أن المال هو النقد المتمثل عادة فى الذهب والفضة ، وهذا يوصف بأنه كنز ، وهو ما كان يملك منه قارون مخازن يصف القرآن أن مفاتيحها كانت تحتاج إلى العصبة القوية من الرجال الأشداء ليستطيعوا حملها ، والنوع الثانى من المال هو العــروض ، سواء أكانت منقولة كالخيل وسائر الدواب والماشية ، وكالغلال والحبوب ، وسائر السلع التى يمكن نقلها ، أم كانت من العقارات الثابته كالقصور والدور والأرض الزراعية ونحو ذلك .

والزينة التى خرج بها على قومه ، والتى كانت مصدر فتنة لهم لم تكن الكنوز ، وإنما كانت بطبيعة الحال العروض المنقولة كالخيل والدواب والملابس والعبيد والخدم ، فهذه الزينة بكل ما تحويه أضافها القوم إلى ماله وكنوزه فى أمنياتهم حيث قالوا (يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم)[1] ومن الواضح أنه ليس المقصود بداره الدار التى يسكنها والتى تحوى كنوزه فحسب ، وانما الدار التى تحوى أملاكه المنقولة كالعبيد والخدم والدواب والماشية ومخازن الحبوب ومخازن السلع المختلفة ونحو ذلك ، وهى حينئذ لابد أن تكون شاسعة المساحة .

وكل هذه الدار بكل مساحاتها الشاسعة وكل ما فيها ومن فيها وأولهم قارون أصبحت فى جوف الأرض ، لأن الله لم يخبرنا أنه نجى أحدا منها كما أخبرنا أنه نجى المؤمنين مما حل بقومهم من الهلاك ، وكما نجى بعض أسرة فقط ، هى آل لوط دون أن ينجى امرأته لأنها لم تكن مؤمنة .

وقد يقال فما ذنب من كانوا فى دار قارون من العبيد والخدم حتى يهلكهم الله ؟ والجواب أن سنة الله اقتضت أن البلاء يعم من باب قوله تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) (٢) وقد كانت الدار وكل ما فيها ومن فيها فتنة للمجتمع ، فخسف الله بكل ذلك .

---

(١) ٧٩ سورة القصص
(٢) ٢٥ سورة الأنفال .

ومن جوانب الحكمة فى عموم الفتنة وآثارها على المسىء وغير المسىء أن يكون هذا وعيدا وتحذيرا لكل افراد المجتمع ليضربوا على يد المسىء بينهم حتى لا يؤخذوا بجريرته .

العبرة :

ولاشك أن كل عقاب يصيب الله به أحدا فى الدنيا لا بد أن يكون من جوانب الحكمة فيه أن يكون عبرة ووعيدا لكل من تسول له نفسه أن يصنع مثل الصنيع الذى كان سببا فى هذا العقاب ، ومن جوانب العبرة فيما أصاب الله به قارون من عقاب دنيوى ما يلى :

أولاً :

أن قارون اغتر بماله وما ترتب على هذا المال من جاه ونفوذ ، حتى وصل به الغرور أن يتخلى عن إيمانه ، ومعنى ذلك أنه رأى أن المال يغنيه عن الإيمان ، فكأن الله يقول له وهو يخسف به الأرض : هل لازلت ترى أن المال يغنيك عن الإيمان ؟ وقد طغيت وبغيت بمالك فهل ينفعك اليوم مالك ؟

ثانياً :

كان يمكن أن يهلك الله دار قارون وما فيها بوسيلة تفنيها ولا تبقى لها وجودا كالحريق ، أو كما فعل بجنة الدنيا التى سبق الحديث عنها ، ولكن حكمة الله اقتضت أن تبقى دار قارون وما فيها رغم دمارها ، ولكن تحت الأرض ، وكأن الله يقول له عند خسفها لقد كنت تقول إنك جمعت كل ما فى هذه الدار بعلم عندك ، فهل يستطيع علمك اليوم أن ينقذ دارك وما فيها ؟ وإذا كان هناك من أصبحوا تلاميذ لعلمانيتك ، وأصبحوا معجبين بفكرك وادعائك أن العلم وليس الدين أو الله هو مصدر كل شىء يحصل عليه الإنسان ، فهل يستطيع أحد منهم بعلمه أن ينقذك أو ينقذ دارك ؟ (فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين)[1] فلا هو يستطيع أن يدفع شيئا من عقاب الله ، ولا أحد من انصاره أو أتباعه يستطيع شيئا من ذلك .

---

(١) ٨١ سورة القصص

ثالثاً :

الذين فتنوا بقارون وماله وعروضه وزينته رغم انسلاخ قارون من دينه ، ورغم ادعائه أن كل ما أوتيه إنما حصل عليه بعلمه وليس بأى شيء آخر ، هؤلاء أفاقوا ورجعوا إلى صوابهم حين حل بقارون وبداره الدمار ، فامتلأت نفوسهم يقينا بالإيمان بالله ، وبأنه سبحانه هو مصدر كل شيء وكل رزق ، وأن كل ما ينخدع به الملحدون أو السذج من علم أو جهد أو غير ذلك إنما هو أسباب ظاهرية جعلها الله سنة للوصول إلى الرزق ولكن الذى يملك الرزق عطاء أو سلبا على وجه الحقيقية هو الله وحده ، كما سيطر عليهم الندم على ما انساقوا فيه من هذه الفتنة بقارون وماله ، وإذا موقفهم ينقلب إلى النقيض حيث يقولون كما فى القرآن (وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون)[1] فعادوا إلى اليقين بأن الله هو الذى يبسط الرزق إن شاء ويقدر ، وأن من يؤمن بأن أحدا أو شيئا غير الله هو الذى يملك الرزق أو أى شيء من مقدرات الخلق فهو كافر ، والكفر مهما علا شأنه فى الدنيا فهو الفاشل الخاسر (ويكأنه لايفلح الكافرون) .

ويبقى الحديث عن تحديد مكان دار قارون التى خسف الله بها الأرض ، فالواقع أنه لم يرد قط فيما أعلم نص دينى أو تاريخى يحدد مكان هذه الدار ، ومعنى ذلك أن أى حديث عن مكانها إنما هو رجم بالغيب ، ولكن الروايات الشعبية المتوارثة تذكر أن مكان هذه الدار هو البحيرة التى تعرف حتى اليوم ببحيرة قارون فى الفيوم ، وهو الإقليم الذى يقع فى مصر فى الجنوب الغربى من القاهرة ، ومساحة البحيرة كبيرة نسبياً ، وهذه الضخامة فى المساحة لا تلائم الملحقات لدار شخص انفرد بدرجة من الغنى لم يذكرها التاريخ لشخص سواه .

ومع أنه لايوجد دليل يؤكد صحة أن هذه البحيرة هى مكان دار قارون ، إلا أنه لايوجد أيضا ما ينفى أن تكون فعلا مكان دار قارون ، بل إن كل الملابسات ترجح صدق هذا الاحتمال، فهذه البحيرة ليست قريبة من بحر أو نهر يغذيها بالماء ، ومياهها لاترتفع وتنخفض تبعا لارتفاع وانخفاض المصدر الذى يغذيها لو كان لها مصدر ، وحيث لم يكن لها مصدر معروف يمدها بالماء فقد كان المفروض أن تجف إما بالتبخر وإما بتشرب الأرض لمياهها ، ولكن

---

(١) ٨٢ سورة القصص

مياهها بهذه الصورة منذ التاريخ المعروف ، أى منذ آلاف السنين ، وكذلك لو افترضنا أن البحيرة محاطة بطبيعة معينة من الأرض تمنع امتصاص الأرض لمياهها ، ورغم أنه افتراض غير واقعى إلا أنه لو كان موجودا لترتب عليه أن تكون مياه البحيرة راكدة عفنة خصوصا بعد مضى آلاف السنين ، ولكنها ليست كذلك ، بل كأنها جزء من البحر ، لاتختلف عنه إلا فى درجة الملوحة ، ودرجة صفاء لون المياه حيث لاتميل إلى الزرقة كمياه البحر ، وإنما تميل إلى البياض نتيجة للأملاح التى تكتسبها من جوف الأرض .

والحديث عن تحديد مكان دار قارون ليس مقصودا لذاته ، فإن العبرة والموعظة تتركز فى الحدث نفسه وهو خسفها وليس فى تحديد مكانها ، ولكن المقصود من هذا الحديث هو أننا لو انتهينا إلى ترجيح أن بحيرة قارون هى فعلا مكان دار قارون التى خسفت بها الأرض ، وأن البحيرة تكونت مياهها فوق حطام دار قارون فإن هذا يضيف الى العبرة عناصر جديدة ، منها أن الله لو خسف الأرض بالدار وظل مكان الخسف يابسا جافا لحاول بعض الناس فى بعض الأجيال أن ينقبوا عن كنوز قارون تحت الأنقاض ، وأن يحاولوا تعمير هذه الأرض اليابسة ، ولكن وجود المياه فوقها يحول دون تعميرها ، ودون معرفة مكان كنوز قارون منها ، وبهذا تتحقق سنة الله فى العقاب الدنيوى ، فمن جوانب هذه السنة أن المكان الذى يحل به عقاب الله وانتقامه بالتدمير لايستطيع أحد ، ولاتستطيع قوة أن تعمره ، بل يظل إلى ما شاء الله وآثار التدمير ماثلة فيه ليظل عبرة واضحة لكل معتبر ، كما هو مشاهد فى كل الأماكن التى حل بها غضب الله ودماره .

ومن جوانب العبرة كأن هذا الدمار الماثل يقول لكل من اقتدوا بقارون واعتنقوا علمانيته فى أى عصر وأى جيل إذا كنتم تعتقدون صدق ما ادعاه قارون من أن العلم وليس الله هو الذى جلب له كل ما يملك ، فإن الله دمر كل ما يملك فهاتوا أنتم علمكم أو علمانيتكم وغيروا ما صنع الله ، فأعيدوا دار قارون كما كانت ، أو استعيدوا كنوز قارون ، أو اعرفوا حتى مكانها رغم كل ما لديكم من علوم وقدرات .

وقد سيقت قصة قارون فى سورة القصص ، فى هذه الآيات (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه

لاتفرح إن الله لايحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين ، قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ، فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون ، فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون) (١) .

---

(١) ٧٦ - ٨٢ سورة القصص .

وعيد الإصلاح

ولئن كان الهدف من هذا العنوان الحديث عن نوع معين من الوعيد ، هو الوعيد المنصب بصفة مباشرة على تقويم السلوك وتنظيم الصلات والروابط بين الناس ونحو ذلك مما تصلح به حياتهم ، فالواقع أن كل أنواع الوعيد فى القرآن على الإطلاق إنما يكون الهدف النهائى لها هو الإصلاح ، وهذا فارق جوهرى بين وعيد الله ووعيد البشر بعضهم لبعض ، فإن وعيد البشر يهدف عادة إما إلى مجرد إظهار قوة المتوعد ومقدرته على البطش ، وإما إلى إظهار ضعف من يوجه إليه الوعيد وعدم مقدرته على المقاومة أو نحو ذلك ، ولكن الله سبحانه أقوى وأعظم من أن يجعل المباهاة بقوته هدفا لذاتها ، كما أن المخلوقات بالقياس إليه أضعف من أن يجعل إظهار ضعفها عنده هدفا لذاته ، إنما الهدف من كل أساليب الوعيد وألوانه هو إصلاح أمور يترتب بعضها على بعض ، هى إصلاح العقيدة فيترتب عليه إصلاح السلوك ، فيترتب عليهما صلاح المجتمع والحياة كلها ، فالوعيد يبين للناس عاقبة الفساد فى أى مجال من هذه المجالات ، حتى يحذره الناس ويتجنبوه .

ولكن الهدف من هذا الحديث الآن هو الإلمام بنماذج من الوعيد الذى يعالج انحرافات السلوك بصفة مباشرة ، وما قد يرتبط بذلك أو يترتب على ذلك من أمور غير مباشرة ، أو ما يؤدى إلى الفساد المباشر ، ومن ذلك :

١ - قضية إنفاق المال :

فحيث كان المال هو الشاغل الأكبر لبنى آدم ، وكان حبهم الأول الذى يتنافسون فيه ويتصارعون حوله إذ جعل الله فى مقدمة ما هو مركوز فى طبائعهم ، كما يقول تعالى (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) (١) وكقوله تعالى (وتحبون المال حبا جما) (٢) حيث كان المال بهذا التغلغل فى طبيعة البشر وغرائزهم فلابد أن يكون هو المحرك الأكبر لحياتهم من كل جوانبها ، وهذا هو واقع الحياة ، فإن الغالبية العظمى من أسباب الصراع فى الحياة ، سواء بين الأفراد أو الجماعات أو الأمم لابد أن تكون متصلة بالمال ، بطريق مباشر أو غير مباشر ،

---

(١) ٤٦ سورة الكهف .   (٢) ٢٠ سورة الفجر .

كما أن الغالبية العظمى من أسباب أنحراف السلوك لابد أن تكون متصلة أيضا بالمال بسبب من الأسباب .

والإسلام فى كل تشريعه لا يحارب الغرائز ، ولا يصادم ما جبلت عليه الطبائع ، وإنما يوجهها نحو الخير ، وما يلزمها طريق التشريع . وفيما يتعلق بالإنفاق فإن القرآن يلزم الإنسان عن طريق الاعتدال الذى هو صورة الفضيلة فى كل الأمور ، فيجعل القرآن صورة الاعتدال متمثلة فى قوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) (١) والغل هو القيد ، وغل اليد إمساكها عن الانفاق كأنها مقيدة ، وهو كناية عن الشح والبخل ، وبسطها كناية عن البذل والانفاق ، وكل البسط كناية عن التبذير والإسراف ، واذن فبسط اليد بالإنفاق هو الاعتدال والوسط ، وهو الذى يعد فضيلة فى الخلق ، فإذا نقص عن حده تحول إلى رذيلة ،هى البخل المعبر عنه فى الآية بغل اليد ، واذا زاد عن حده تحول أيضا إلى رذيلة وهى الإسراف المعبر عنه فى الآية بكل البسط ، والنتيجة التى تمثل الوعيد للرذيلتين هى (فتقعد ملوما محسورا) حيث روعى فيها الترتيب فى ذكر الرذيلتين ، فلما ذكر البخل أولا جاء وصف اللوم أولا فإن البخيل موضع لوم الناس ومقتهم ، ولما ذكر التبذير تاليا كا وصف الحسرة ثانيا ، فإن عاقبة التبذير المنتظرة هى الفقر ، والمبذر لايشعر بهذه العاقبة ولايتوقعها فى أثناء تبذيره لأنه لو توقعها ما صدر منه التبذير ، ولكنه يفاجأ بهذه النهاية بعد وقوعها أو بعد أن يكون لا مفر من وقوعها ، فيسيطر عليه الندم الذى يبلغ حد الحسرة على ما ضاع منه سفها ، وعلى أنه أصبح فى حاجة إلى ما فى أيدى الناس ، بعد أن كانوا يتطلعون إلى ما فى يديه ، ولفظ (تقعد) مع أنه يبدو كأنه مجرد سياق للصفة الأخيرة وهى (محسورا) أو للصفتين معا (ملوما محسورا) إلا أنه يلقى فى التعبير إيحاء عميقا بما يصل إليه حال الذى يفتقر بعد غنى وخصوصا إذا كان بسبب التبذير ، من شعور بالعجز وقلة الحيلة فى مقاومة الظروف ، والفراغ حيث لايجد عملا يؤديه أو يرتزق منه ، فيصبح وكأنه (قعيد البيت) عاجزا يجتر ندمه وحسرته ، وكذلك يجد أصدقاءه والملتفين حوله قد انفضوا عنه ، حيث لم يبق فيه نفع لهم ، فهم اليوم يتحاشونه خشية أن يحتاج أو يطلب منهم عونا ، وقد لايخجل بعضهم من أن

---

(١) ٢٩ سورة الإسراء .

يظهروا الشماتة فيه ، واللوم له ، والتسفيه لسلوكه ، كالمشاهد عادة فى واقع الحياة ، ثم إن نفسيته هو حين تمتلىء بالندم واللوم لنفسه على مسلكه الذى أدى به إلى هذا المصير فإنه سيخيل إليه أن كل الناس يحملون له هذا الشعور ، فتسيطر على مثله عادةً الرغبة فى الانزواء والانطواء وتحاشى الناس ، فيصبح (قعيد البيت) ملوما من نفسه ومن الآخرين على سفهه وتبذيره ، متحسرا على ما فرط فيه دون داع أو ضرورة ، ويصبح حاله هو وصف القرآن (فتقعد ملوما محسورا) .

وكذلك هذا التصوير فى الآية للبخيل ، فإنه لم يكن مجرد نهى أو تخدير من البخل وعاقبته ، وإنما كان صورة تكاد تكون مجسدة مرئية للبخيل وقد شدت يده إلى عنقه وربطت معها ، وهى يمشى بين الناس أو يظهر لهم وهو دائما بهذه الصورة الملازمة ، وهى صورة واضحة السخرية ، فليس المراد مجرد تقييد يده التى هى أداة الإنفاق ، وإلا لكان يمكن أن يكون التعبير تقييد يده بربطها إلى اليد الأخرى أو إلى جسمه ، فإنها لو كانت كذلك فستكون مدلاة إلى أسفل ، وتكون فى وضع التقييد العادى الذى لايثير السخرية ، وإنما يثير فى العادة الإشفاق على المقيد ، ولكن القصد من التصوير هنا هو السخرية من البخيل ، ومن ثم التنفير من البخل ، فرسمت الآية صورته ويده مرفوعة إلى أعلى ليراها كل راء وهى مربوطة إلى عنقه فى هذا المنظر المضحك ، وكل عناصر الصورة كشأن تصوير القرآن مأخوذ من الواقع ، وملتزم الصدق مهما كانت المبالغة ، فرفع اليد إلى أعلى بحيث يراها كل الناس هو واقع البخل من حيث إنه صفة اجتماعية وليست شخصية يستطيع صاحبها إخفاءها ، فلابد أن يرى الناس بخل البخيل لأن البخل مرتبط بموقف اجتماعى فى علاقته بغيره ، بحيث يقتضيه الموقف أن يقدم بعض ما يملك ، ولكنه يبخل بتقديمه ، كذلك عنصر الغل الذى لايستطيع معه المقيد فى يده تحريك هذه اليد ، والبخيل إنما يكون البخل متأصلا فى طبعه لايستطيع مغالبته ، فلايستطيع أن يبسط يده بالإنفاق ، والبخل فى العادة يسخر منه الناس ويتندرون بطرائفه ، حتى إن الجاحظ له كتاب كامل عن نوادر البخل وطرائفه وغرائبه يحمل عنوان (البخلاء) ومن هذا القبيل كانت صورة البخيل فى الآية مثيرة للسخرية والضحك ، ومن دقة التعبير فى هذه الصورة أن اليد وهى مغلولة إلى العنق أو إلى أى شىء يصبح كل منهما مقيدا إلى الآخر ، ويمكن أن يكون التعبير نحو ولاتجعل يدك وعنقك فى غل ، ولكن تعبير الآية كأنه يجعل اليد

وحدها فى غل ، حيث يصفها وحدها بالغل (مغلولة) لأن الحديث منصب على اليد وحدها فعلا من حيث إنها هى أداة الإنفاق - وفى البخل هى وحدها المقبوضة عن الإنفاق ، وهو المنهى عنه صراحة فى تعبير (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك) .

وأما الحد الوسط المباح ، وهو الاعتدال فى الإنفاق ، فلم يذكر صراحة فى الآية ، وإنما هو مفهوم التعبير ومضمونه فى قوله تعالى (ولا تبسطها كل البسط) فالمنهى عنه صراحة هو كل البسط فيكون المفهوم أن بعض البسط غير منهى عنه ، وهو البسط العادى المتوسط بين البخل والتبذير .

وحيث كان الأمران ، البخل والتبذير هما أبرز مظاهر السلوك المعوج فيما يتعلق بالمال فإننا نجد القرآن يكرر التحذير منهما ومن عاقبتهما فى صور متعددة ، وأساليب مختلفة ، منها ما يلى :

أ - فيما يتعلق بالبخل نجد من صور التحذير والوعيد له ولعاقبته قوله تعالى (ولاتحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير) (١) ومن جوانب التصوير فى هذه الآية أن القرآن يذكر الذين يبخلون بأداء حقوق الله وحقوق الناس فى أموالهم بأنه ينبغى ألا ينسوا أن هذا المال فى الحقيقة ملك لله وليس لهم ، فالله هو الذى منحهم إياه (يبخلون بما آتاهم الله ...) وهذا يتضمن لوما خلقيا حيث كان الله يقول لهم كيف ترفضون أن تمنحونى شيئا من مالى الذى استودعتكم إياه ؟ ويذكرهم بأنهم مخطئون حينما تسيطر عليهم متعة المال فيظنون أن احتجازهم حقوق الله وحقوق الناس كسب وزيادة فى مالهم فالواقع أن ما يفعلونه شر وليس خيرا ، وهو شر يحيط بهم هم وليس بغيرهم (... خيرا لهم بل هو شر لهم . . .) وكما أن الله يذكر البخيل بأنه سبحانه هو المالك الحقيقى لما فى يده ، فكذلك يذكره بأن هذا المال وغيره مهما تداوله الناس فسيعود فى النهاية إلى الله بعد أن يهلك البخيل ويهلك كل شىء (ولله ميراث السوات والأرض) ويذكره أيضا بأنه يجب أن يضع فى

---

(١) ١٨٠ سورة آل عمران .

حسبانه دائما أن الله عالم ومطلع على كل ما يصدر منه ومن غيره ، بل حتى على ما تخفيه الصدور (والله بما تعلمون خبير) وهذا وعيد ضمنى للبخلاء وغيرهم من أصحاب السلوك المعوج ، أما الوعيد الصريح ففى قوله تعالى (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) أى سيتحول ما بخلوا به إلى عذاب لهم ، وليس عذابا يأتيهم من جانب واحد ، وإنما يحيط بهم من كل جانب إحاطة الطوق بالجسم .

ومن صور البخل وما يرتبط به فى القرآن أن القرآن كما ينعى كثيرا على البخلاء فإنه ينعى على الذين يحرضون الناس على البخل ، ومع أن هذا معنى عام ينطبق على كل من يحرض غيره على البخل إلا أن القرآن يشير فى أكثر من موضع إلى اليهود وقد كانوا معروفين فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم بتشويه كل تشريعات الإسلام ومنها الزكاة ، وحينما نزل ترغيب المسلمين فى الانفاق فى سبيل الله بمثل قوله تعالى (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له) (١) فإن اليهود ليحرضوا المسلمين على عدم أداء الزكاة أشاعوا أن الله سبحانه أصابه الفقر حتى إنه بدأ يقترض ، وقد تكرر فى القرآن النعى على الذين يأمرون الناس بالبخل فضلا عن بخلهم هم ، فكان المسلمون يدركون أن فى هذا إشارة إلى اليهود فضلا عن عموم المعنى ، ومن هذا النعى قوله تعالى (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا) (٢) وذلك عقب قوله تعالى مباشرة (إن الله لايحب من كان مختالا فخورا) فقد سلكهم الله ضمن من يبغضهم لاختيالهم وفخرهم بما آتاهم الله من مال وما يترتب عليه من جاه ، وذلك أن البخيل لابد أن يكون ذا مال حتى يوصف بالبخل به ، والذى يأمر الناس بالبخل لابد أيضا أن يكون من ذوى المال ولو كان فقيرا لكان أولى أن يرغب الأغنياء فى الإنفاق ليستفيد هو من إنفاقهم ، والمال وجاهه يدعوان عادة إلى الزهو والخيلاء إلا من يحملون إيمانا يعصمهم . وإذا كان الله قد سلكهم صراحة فيمن يبغضهم أو من لايحبهم فإنه سلكهم ضمنا وتلميحا فى الكفر الذى أعد له عذابا مهينا ، ولم يصرح بالكفر بالقياس إليهم لأن بعضهم قد يكون مؤمنا ولكنه بخيل أو يحرص على البخل ، حيث إن البخل لا يتنافى مع الإيمان .

---

(١) ٢٤٥ سورة البقرة وأيضا ١١ سورة الحديد .

(٢) ٣٧ سورة النساء .

ولكن الإطار العام يعنى إشارة إلى أن هذا الخلق لا ينبغى أن يكون خلق المؤمنين ، بل خلق الكافرين الذين يعد الله لهم العذاب ، ونلحظ أن التعبير جعل العذاب (مهينا) وليس (أليما) فحسب ، وهذا يعنى الاشارة إلى من سبق وصفهم بالاختيال والفخر ، فإننا نلحظ أن القرآن غالبا ما يجعل وصف العذاب بالإيلام وهو الإيلام البدنى فى سياق الحديث عن العامة ، أما وصف العذاب بالإهانة فإنما يأتى عادة فى سياق الحديث عن الخاصة ، والذين يوصفون بالاختيال والفخر إنما يكونون عادة من الخاصة وليس من العامة .

وجوهر المعنى السابق بما فيه السياق عن الاختيال والفخر ، وبما فيه من التلميح بالكفر فى التعقيب نجده فى قوله تعالى (... والله لا يحب كل مختال فخور ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) (١) غير أن التعبير عن الكفر جاء بلفظ التولى ، والذى يتولى عن الله أى يولى ظهره لله لايكون مؤمنا .

وكما كان اليهود يحرضون على عدم الإنفاق فى سبيل الله تحريضا صريحا فإن المنافقين كانوا يحرضون بأساليب منها السخرية من الذين ينفقون سواء أكثر ما ينفقون أم قل ، وفى أحد مواقفهم نزل قرآن يتلى ، وذلك فيما يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا المسلمين إلى التصدق فى مناسبة معينة ، فجاء عبدالرحمن بن عوف وكان من كبار الأغنياء بمال كثير فتصدق به ، وجاء أحد الأنصار وكان فقيرا بصاع من تمر فتصدق به ، فأخذ المنافقون ينشرون السخرية من الشخصين قائلين ما أنفق عبدالرحمن إلا رياء وفخرا ، والله غنى عن هذا الصاع من الفقير ، فنزل فيما نزل قوله تعالى (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ، الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لايجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب إليم) (٢) والحديث عن السر والنجوى اشارة واضحة إلى المنافقين ، لأنهم هم الذين يديرون حياتهم على الأسرار والتناجى فى الخفاء ، والحديث عن المطوعين فى الصدقات وهم الأغنياء ، والذين لايجدون إلا جهدهم وهم الفقراء تصديق للرواية السابقة عن عبدالرحمن بن عوف القرشى وأبى عقيل الأنصارى ، والحديث عن السخرية هو بيان للأسلوب الذى سلكه المنافقون حينذاك للتنفير من الانفاق فى

---

(١) ٢٣، ٢٤ سورة الحديد . (٢) ٧٨، ٧٩ سورة التوبة .

سبيل الله ، وهو أسلوب السخرية الذى هو أخطر الأساليب وأبلغها فى التنفير من السلوك الذى أريدت السخرية منه .

ب - وفيما يتعلق بمجاوزة الحد الوسط المقبول فى الانفاق يعرض القرآن صورا من هذا التجاوز من أبرزها صورة التبذير المشار إليها سابقا . ومن هذه الصور ايضا أن بعض الناس ينفقون ، ولكنهم يفسدون إنفاقهم بإلباسه ثوبا بغيضا إلى الله ، فيتحول الانفاق من الخير إلى الشر ، وذلك أن الانفاق لايكون مقبولا ولا مرضيا من الله إلا إذا كان خالصا لوجه الله ومرادا به الخير .

ومن أسوأ ما يصاحب الانفاق هو إيذاء نفسية الفقير بأية صورة من صور الإيذاء النفسى ، ومن أبرز هذه الصور المن بالانفاق ، وهو أكثرها شيوعا ، فبعض الأغنياء يتخذون من إحسانهم إلى الفقير ومن معاونتهم للمحتاج والمأزوم وسيلة لتسخيره واستخدامه فى مصالحهم ، أو تعمد إشعاره بفضلهم عليه ، أو التعالى عليه وتحقيره فى صلتهم به أو غير ذلك من صور الإيذاء النفسى ، فإنهم حينئذ إذا كانوا قد رقعوا ثغرة فى حياة هذا الفقير وهى الفقر والحاجة فإنهم خرقوا بالمن والإيذاء خرقا هو أشد فى نفسية الفقير إيلاما من الخرق الأول ، فاحتمال الفقر والحاجة أيسر فى نفس الكريم من احتمال الإهانة والإذلال ، والدين يفترض فى كل آدمى الكرامة كما يقول تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) (١) ولذلك يكرر القرآن التنفير والتحذير من المن والإيذاء بالأنفاق والصدقة عدة مرات فى موضع واحد ، فى قوله تعالى (الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم ، يأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لايقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين) (٢) فهذه الآيات تتضمن صورتين ملتويتين من صور الإنفاق ، وكلتاهما تحتاج إلى تأمل :

---

(١) ٧٠ سورة الإسراء .

(٢) سورة البقرة ٢٦٢-٢٦٤

(١) صورة المن بالصدقة أو الانفاق عامة على من يتلقون هذا الانفاق ، ونلحظ أن هذا المعنى وهو المن والإيذاء وإن كان بغيضا إلى الله الا أنه لا يتعارض مع الإيمان ، حيث يخاطب الله به المؤمنين على أنه من سلوك بعضهم غاية الأمر أنهم يبطلون الصدقة ويضيعون ثوابها ، وذلك فى قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) وذلك بعد أن بين لهم هذا المعنى الخلقى الرائع ، وهو (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم) بمعنى أن المواساة النفسية التى تحفظ على الفقير والمحتاج كرامته وعزة نفسه ولو دون مساعدته ماديا خير من إهانته والمساس بكرامته ، ونجد فى الآية تعقيبا بالغ العقاب واللوم ، وهو (والله غنى حليم) حيث يتضمن هذا التعقيب إشارة إلى المن بإحسانه بأن الله غنى عن إحسانك وإنفاقك إذا كنت تتخذه وسيلة للمن على المحتاج وايذاء نفسيته .

(٢) والصورة الثانية هى صورة الرياء والمباهاة بالإنفاق ، حيث يتخذ المرائى إنفاقه وسيلة للتعالى والفخر والخيلاء على الناس كما كان يفعل بعض سادة القبائل فى الجاهلية حيث يتنافسون فى الإنفاق ببذخ واسراف أحيانا ليس حبا فى الخير ، ولا فى مساعدة المحتاجين ، وإنما ليصبح هذا مفخرة لهم ، تلهج بها ألسنة الشعراء والمتحدثين ، وقد حدث فى خلافة على رضى الله عنه أن حدثت مجاعة فنحر أحد الأغنياء من السادة لقومه مائة من الإبل ، فأراد سيد آخر أن ينافسه ويزيد عليه ، فنحر ثلثمائة ناقة ، فنهى علىّ الناس عن أن يأكلوا منها ، وقال إن هذا مما (أهل به لغير الله) (١) ولكن اللافت للنظر أن القرآن يربط الرياء بالكفر فى إشارة وإن لم تكن صريحة إلا أنها ضمنية فى أن الرياء من خلق الكافرين ، فعلى المؤمنين أن يتحاشوه حتى لايتخلقوا بخلق الكافرين ، فالمن بالإنفاق لايخرجهم من حيز الإيمان وإن كان يشبههم بالكافرين ، ولكن الرياء هو الذى يوصلهم إلى ذلك فى قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لايقدرون على شىء مما كسبوا والله لايهدى القوم الكافرين) (٢) فالجمع بين الرياء والكفر بأسلوب العطف (... ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله) هذا وإن لم يكن نصا فى الحكم على الرياء بالكفر إلا أنه يصبح قرينا له أو

---

(١) من الآية ١٧٣ سورة البقرة . (٢) ٢٦٤ سورة البقرة .

مؤديا إلى حيزه ، وذلك أن الرياء فى العادة إنما ينبع من الكبرياء وما يتصل بها من الصفات ، والله سبحانه يجعل الكبرياء مشاركة له فى خصائصه ، ولذلك لاترد فى القرآن - على كثرة ورودها فيه - إلا صفة للكافرين .

فالمن والإيذاء للمتصدق عليه إنما ينبع من خلق اجتماعى سيء ، ولا يتصل بالعقيدة ، أما الرياء فإنه وإن لم يكن فى ذاته كفرا بالله إلا أنه دائما إما مصاحب للكفر ، أو نابع منه ، أو مؤد إليه ، حيث يؤدى إلى صفات أخرى هى فى العادة من صفات الكفر ، مثل الكبرياء ، وكل هذا من خلق المنافقين .

وقد سبق التعقيب على تشبيه المن والأذى فى الإنفاق بالرياء مع الكفر ، وينبغى أن يكون واضحا أن وجه الشبه ليس الكفر ، وانما ضياع الثواب . فالذى يمن ويؤذى بإحسانه يضيع ثوابه ويبطل صدقته ، ويصبح فى هذا شبيها بالكافر فى أن الكافر مهما قدم من أعمال الخير فلن يجد لها أى ثواب لأنه لو اتجه بها إلى الله لوجد ثوابها عنده ، ولكنه اتجه بها إلى غير الله فعليه أن يطلب الثواب والأجر من هذا الغير . وهذا هو حال المرائى بانفاقه أو بأى عمل خير ، لأنه اتجه بعمله إلى غير الله فليبحث عن الثواب عند هذا الغير ، من باب قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ..) (١) فوجه الشبه بين من يمن ومن يرائى هو إبطال العمل وضياع الثواب ، وهذا واضح فى قوله تعالى (... لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لايقدرون على شيء مما كسبوا) فالذى يمن ويؤذى يبطل صدقته ويضيع ثوابها والمرائى الكافر وهو عادة المنافق يضيع أيضا ثواب عمله ، ويأتى يوم القيامة فلا يجد له أى ثواب ، وهو فى هذا شبيه بحجر أملس (صفوان) عليه تراب ، فنزل على هذا الحجر مطر غزير ، فلاشك أنه سيزيل عنه كل ما كان فوقه من تراب ليعود أملساً براقا ، والتراب فوق الحجر هو فى التشبيه كل أعمال الكافرين التى ينتظرون عليها أجرا وثوابا ، والمطر هو فى التشبيه الكفر ، فالكفر يمحق كل الاعمال وكل ما يترتب عليها من ثواب كما يمحو المطر الغبار أو التراب من فوق الحجر الأملس ، فيجد الكافر نفسه

---

(١) ٣٩ سورة النور .

خاوى الوفاض من أية حسنة يستفيد بها ، وكذلك الذى يمن ويؤذى يضيع ثواب صدقته فلا يجد لها أية حسنة عند الله ، ولكن السياق يوحى بأن هناك فارقا بين الاثنين ، فالذى يمن ويؤذى يضيع ثواب صدقته فحسب ، ويبقى له ثواب أعماله الصالحة الأخرى ، أما المرائى الكافر فإنه لن يجد ثوابا لأى شىء ، لأن كفره محق كل شىء .

وفيما يتعلق بالانفاق فمن الواضح أن الاسلام مع تكراره الدعوة كثيرا إلى الانفاق فى سبيل الله بمختلف أساليب الدعوة والترغيب إلا أنه يحرص على التوسط والاعتدال ، ولايرضى بتبديد كل المال ولو كان فى سبيل الله ، ومن آثار ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم رفض فى الحديث المشهور الموافقة على الوصية بكل المال فى سبيل الله ، وحين عرض الموصى أن يوصى بالثلثين رفض أيضا ، وحين عرض الوصية بالنصف كذلك رفض ، ولم يوافق إلا على الوصية بالثلث قائلا (والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس)(١) ، بل يبلغ حرص الإسلام على حماية الفرد من سوء المعيشة ، ومن معاناة الفقر أن يحذره من الانسياق وراء غريزته أو عواطفه دون تبصر .

ومن ذلك أن كثيرا من الناس ما إن يشعروا بالغنى حتى يكون أول تفكيرهم متجها إلى تكرار الزواج ، فالاسلام يدعوهم إلى التفكير فى العاقبة ، وليس فى الرغبة العاجلة ، فإن عاقبه تكرار الزواج كثرة الأولاد وتعدد تبعات الانفاق وثقلها ، وهذا من شأنه أن يؤدى إلى الفقر ، وهذا صريح فى قوله تعالى فى سياق الحديث عن تعدد الزوجات (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا) (٢) وكلمة تعولوا من العالة وهى الفقر ، ومنه (ووجدك عائلا فأغنى) (٣) أى وجدك فقيرا فأغناك ، ولكن بعض الناس يأخذون معانى من القرآن مبتورة من سياقها ، فيغيرون بذلك مسار المعنى ، وقد يتغير المعنى نفسه ، ومن ذلك فى هذا السياق تعبير (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) باعتبار أن هذه إباحة مطلقة ، بل قد يفهمها بعضهم على أنه ترغيب من الإسلام فى تعدد الزوجات ، ولكنهم يغضون أبصارهم عن السياق الذى سيق فيه هذا المعنى هو (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا ، وإن خفتم ألا تقسطوا فى

---

(١) متفق عليه (٢) ٣ سورة النساء . (٣) ٨ سورة الضحى .

اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ...) (١) فالسياق مرتكز على الحديث عن اليتامى ، وكان وجود اليتامى فى أية قبيلة ظاهرة شائعة ، حيث حياتهم كلها غارات متواصلة لبعض القبائل على بعض ، وحروب غير منقطعة لأخذ الثأر والتنافس ، وضحايا الحروب هم الرجال ، ففى أعقاب كل حرب فى كل مكان وكل زمان يكثر عدد النساء زائدا عن عدد الرجال ، ويكثر عدد اليتامى الذين فقدوا آباءهم ، سواء أكانوا بنين أم بنات ، ورعاية اليتامى عبء ثقيل ومعاناة نفسية لمن يراعون جانب الله وجانب الخلق ، ورعاية أموال اليتامى عبء قد يكون أثقل ، لأنهم إن رعوها بدون مقابل فهذا حمل ثقيل تضيق به النفوس عادة ، وإن رعوها بمقابل وأجر فما حدود هذا الأجر ؟ وهكذا مما يثقل على نفوس من يريدون الله والخلق الكريم ، ولكن مشكلة اليتامى البنين أيسر عبئا ، لأنهم حينما يكبرون يعتمدون على أنفسهم فى معيشتهم وفى رعاية أموالهم ، أما مشكلة اليتامى البنات فهى العبء الأثقل ، لأنهن لايستطعن الاعتماد على أنفسهن فى معيشتهن ولا فى رعاية أموالهن مهما كبرن ، ثم إن رعايتهن وهن أطفال إذا كانت محتملة نفسيا ومقبولة اجتماعيا فإنهن حين يكبرن تصبح مخالطتهن بحكم الرعاية لهن ولأموالهن تثير الخوف من الله دينيا وتثير الريبة اجتماعيا ، فأتقياء الناس دينيا ، وكرامهم خلقيا يتحاشون حينئذ رعايتهن ورعاية أموالهن فيصبحن مضطرات إلى التعامل مع الأشرار ، وهنا يوجد الله للأخيار المخرج ، وهو الزواج بهن مثنى وثلاث ورباع ، ولكن الهدف الأول حينئذ ليس الزواج لذاته ، وإنما حل إشكال رعاية هؤلاء اليتامى من النساء ورعاية اموالهن ، فتصبح مخالطتهن بالزواج مشروعة ، وكذلك أموالهن لايصبح فيها حرج على الأزواج مادمن راضيات ، من باب قوله تعالى (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئا) (٢) .فأموالهن حلال وهن أزواج إذا طابت نفوسهن لأنهن لم يعدن يتامى ، أما إذا كن يتامى فلا وجه لاستحلال أموالهن وأن طابت نفوسهن .

ومع أنه من المعروف فى قواعد التشريع الاسلامى أن العبرة فى أحكام القرآن بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب ، بمعنى أن عموم اللفظ ما دام يقتضى إباحة تعدد الزوجات كما

---

(١) ٢ سورة النساء .　　(٢) ٤ سورة النساء .

هو الحال هنا فيصبح هو الحكم ، أما السبب فى نزول الحكم وهو المحدد فى السياق (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ...) بمعنى إن خفتم التحرز من مخالطتهن أو المساس بأموالهن فانكحوا منهن حتى هذا العدد إن طبن لكم ، هذا السبب وإن لم يكن مؤثرا فى الحكم بإباحة التعدد إلا أنه يصبح قيدا نفسيا فيما بين المؤمن وربه ، بمعنى أن المؤمن ينبغى أن يراعى أن إباحة تعدد الزوجات فى القرآن قد ربطها القرآن بسبب كان مثاله الحديث السابق عن يتامى النساء اللاتى تكرر الاهتمام بشأنهن فى القرآن كقوله تعالى فى موضع آخر (ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء ...) (١) الآية وتعبير (يستفتونك) صريح فى أن يتامى النساء كن مشكلا فى موقف بعض المسلمين منهن ، فهم يسألون النبى عن فتوى أو مخرج يخرجهم من الحيرة بين الشعور بواجب رعايتهن ، وبين الخوف من الريبة فى مخالطتهن أو الظلم فى رعاية أموالهن ، وهو مضمون الخوف فى قوله تعالى (وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى) أى يتامى النساء ، فكان التوجيه إلى الزواج بهن من مضمون الفتوى التى يستفتونها ، والتعميم الذى يقتضيه تعبير (من النساء) فى قوله تعالى (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) هو الذى بنى عليه حكم إباحة تعدد الزوجات ، وإلا لو كان التعبير وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم منهن ... لكان حكماً خاصاً بهذه الحالة ، ولايقتضى إباحة التعدد على إطلاقه ، فحيث كان الله سبحانه يريد الحكم بإباحة تعدد الزوجات حدث الانتقال من الحديث عن يتامى النساء إلى النساء عامة فيما يعرف فى علم البلاغة بالالتفات .

ونعود إلى القول بأنه وإن كان الحكم عاما إلا أن المؤمن ينبغى ألا يهمل فى نفسه الملابسات التى أحاط بها القرآن هذا الحكم ، وهى ملابسات عديدة ، منها أن هذا الحكم كان حلا لقضية اجتماعية يتساءل بعض الناس عن موقفهم منها ، وهى قضية رعاية اليتامى ، ومن هذه الملابسات تقييد تعدد الزوجات بالمقدرة على العدل (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة) وهذا يقتضى أن المؤمن إذا اعتقد أنه لن يستطيع العدل فيما يملك أن يعدل فيه فلا يباح له فيما بينه وبين الله أن يتزوج بأخرى وإن أفتاه الناس بالإباحة . وهى قضية واسعة ، والحديث فيها

---

(١) ١٢٧ سورة النساء .

متشعب ، وإنما نكتفى منها بما ارتبط بأصل الحديث وهو أن الإسلام مع حرصه على الترغيب فى الانفاق فى سبيل الله إلا أنه يحذر من وجوه الانفاق التى تؤدى إلى ضرر ، ومن هذه الوجوه تعدد الزوجات بدون داع حيث يحذر منه القرآن بمراعاة الخوف من الفقر بتعبير (ذلك أدنى ألا تعولوا) .

(٢) قضية العدوان على مال الغير :

وحيث كان المال محور معيشة الناس ، ومحور آمالهم ، متغلغلا فى أعماق نفوسهم ، وكل سعيهم فى الحياة هدفه النهائى المال ، لذلك لم يكن غريبا أن يستخدم الناس كل أساليبهم ، وكل ما تمليه عليه أفكارهم وجهودهم فى الحصول عليه ، وحيث كانت طبائع الناس مختلفة كاختلافهم فى كل شىء ، منها طبائع الخير ، ومنها طبائع الشر ، ومنها أساليب الاستقامة ، ومنها أساليب الالتواء ، وكل هؤلاء يستخدمون طبائعهم واساليبهم على اختلافها فى الحصول على المال ، والاساليب الملتوية لا تنبع إلا من طبائع الشر .

وأساليب الشر تستسهل الضعفاء فتسرع إلى ابتزاز أموالهم . ومن أضعف الضعفاء اليتامى ، فأموالهم مطمع لذوى النفوس المريضة ، ولذلك فإن القرآن يحذر ويتوعد من يطمع فى أموالهم فى مواضع عديدة من القرآن ، وبأساليب مختلفة منها قوله تعالى (وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم انه كان حوبا كبيرا) (١) . والحوب هو الذنب العظيم ، وكذلك قوله تعالى (وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن أنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبداراً ...) (٢) واسرافا وصف لواقع الطامعين فى أموال اليتامى حيث يأخذون منها فى العادة بجشع ونهم ، وبدارا وصف أيضا للواقع أى مبادرة وتعجلا قبل أن يكبر اليتيم ، ولكن من أبلغ صور الوعيد ما سبق فى قوله تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) (٣) .

---

(١) ٢ سورة النساء .

(٢) ٦ سورة النساء .

(٣) ١٠ سورة النساء .

ومن مواطن الضعف التى تتجه إليها نفوس الطامعين فى أموال غيرهم أموال النساء ، وذوو النفوس المريضة يصطنعون أية وسيلة ولو كانت شريرة أو ملتوية للوصول إلى هذا المال الذى لايجد حارسا قويا بل هو فى حوزة امرأة ضعيفة ، فيحذر القرآن ويتوعد من يسلك هذه السبل بمثل قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لايحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ...) (١) وميراث النساء كرها هو اصطناع أية وسيلة أو حيلة ليصبح الاستيلاء على مال المرأة مشروعا فى ظاهره ، ومثال ذلك ما يشاهد من أن بعض الناس يحول دون زواج أخته التى فى ولايته حتى تظل عانسا ويظل مالها فى يده ، وكذلك أية امرأة تكون فى ولايته ، ومن ذلك ما يشاهد أيضا من أن بعض الناس يتزوجون من نساء لارغبة فيهن ، وإنما لمجرد الاستيلاء على أموالهن فيظللن حبيسات عندهم لاهن زوجات ولاهن مسرحات ، والمثال الأول من باب إرث النساء كرها ، والمثال الثانى من باب (ولا تعضلوهن) لأن العضل هو الحبس .

ومن صور الطمع فى أموال النساء أن يريد شخص الزواج بامرأة فيغلى لها ويزيد فى المهر لتيسير زواجه منها أو ليجعل هذا فخرا له ، ولكنه ما إن يتم الزواج حتى يضيق عليها الخناق لتتنازل له عن هذا المال وهى كارهة ، ونحو هذا نجده فى هذا التحذير المصحوب بالوعيد فى الآخرة ، وبالعتاب واللوم والتأنيب فى الدنيا فى قوله تعالى (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا) (٢) وإفضاء بعضهم إلى بعض إشارة إلى المعاشرة الزوجية ، والميثاق الغليظ هو ميثاق الزواج حيث يتضمن عهدا على الزوج أن يكون زواجه على كتاب الله وسنة رسوله ، وكتاب الله يتضمن فى هذا (فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) (٣) ومما ورد فى شأنهن فى القرآن أيضا (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل فيه خيرا كثيرا) (٤) .

---

(١) ١٩ سورة النساء .

(٢) ١٩ سورة النساء .

(٣) ٢٠ سورة النساء .

(٤) ٢٣١ سورة البقرة .

وكذلك يتتبع الإسلام كل وسائل المساس بمال الغير بدون حق فيحذر منها تحذيرا مصحوبا بالوعيد والتهديد ، ولكنه يفرق بين ما يعد حادثا فرديا وبين ما يخل بأمن المجتمع :

(١) فأما الأحداث الفردية أو الشخصية فأنواعها لاتكاد تحصى ، وأساليب الباطل فيها أيضا لاتكاد تحصى ، ولكن القرآن يكاد يستقصى كل الاتجاهات الغالبة فى هذه الأنواع وهذه الأساليب ثم يحصر أهم صورها فى مسلكين :

(أ) وأحد المسلكين يتم بالتراضى بين طرفين ، ولكن الطرفين غير متكافئين ، فأحدهما جعلته الظروف مغلوبا على أمره ، والآخر جعلته الظروف غالبا مستغلا ضعف الآخر وحاجته وهو مسلك الربا الذى يضطر فيه المحتاج إلى ما يمليه عليه المرابى ، فهذا المسلك بغيض إلى الله وقد توعد المرابى بأن يخيب آماله وأمانيه ، فهو بالربا إنما يهدف إلى الإسراع فى زيادة ماله ، ولكن الله يتوعده بأن يمحق هذا المال ويمحوه محوا إن عاجلا وإن آجلا ، مرشدا إياه إلى أنه لو كان يبغى زيادة مضمونة لماله وكسبه فعليه بالانفاق فى سبيل الله بأن يجعل مساعدة هذه المحتاج المضطر إلى الربا صدقة وليست ربا كقوله تعالى (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) (١) ويؤكد القرآن فى عدة مواضع منه حرمة الربا بصورة لاتترك مجالا للاجتهاد أو التحايل .

(ب) والمسلك الآخر ما يكون فيه طمع من طرف فى مال طرف آخر ممن يكون منهم تعامل أو شركة فى شيء ، فالإسلام يضع للحد من الأطماع فى التعامل بالديون أساسا مهما وهو أن يسجل الدين كتابه حتى لايحدث طمع من أحد الطرفين ، وذلك فى قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا ..)(٢) ويجعل القرآن هذه الآية وهى أطول آية فى القرآن منصبة على التداين مرشدة إلى الوسائل التى تضمن تضييق نطاق الطمع فيه وذلك بالاعتماد على وسيلتين ، إحداهما توثيق الدين كتابة على يد كاتب أمين عارف بأسلوب التوثيق ، والأخرى إشهاد العدول من الناس على هذا الدين.

---

(١) ٢٧٦ سورة البقرة .

(٢) ٢٨٢ سورة البقرة .

ولكن التوثيق قد لايوجد فيكون الطامعون أقدر على الطمع فيحذرهم الله بمثل قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) (١) فلايجوز لأحد أن ينال مال أحد إلا بالحق ، ولايجوز أن يتحايل ليجعل استيلاءه على مال غيره يبدو للناس كأنه حق ، ومن ذلك أن يستطيع طامع أن يستميل قاضيا أو حكما فيحكم لصالحه إما تواطؤا وإما انخداعا بكذب الطامع أو إجادته لتلفيق الحجة وبراعة الأدلة ، ومن هذا القبيل الحديث النبوى الذى يتضمن قول النبى (إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى بنحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقتطع له قطعة من نار)(٢)، وهو مضمون قوله تعالى (ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) (٣) .

(٢) وأما ما يخل بأمن المجتمع من الطمع فى أموال الناس فقد جعل الله عقوبات دنيوية محددة ، وقد حصره القرآن فى نوعين :

(أ) السرقة وقد جعل لها الله عقوبة صارمة هى قطع اليد التى سرقت وهى اليمنى من الكف ، وقد جعلها التشريع الإسلامى حدا ، ومعنى ذلك أن أحدا لايملك إسقاط العقوبة إذا ثبتت السرقة لأنها من حدود الله ، وحدود الله حق لله لايملك أحد التصرف فيه حتى وان تنازل المسروق منه عن السارق ، لأن خطورة السرقة أنها ليست عدوان شخص على شخص ولو كانت كذلك لكانت عقوبتها قصاصا يملك المجنى عليه فيها أن يعفو عن الجانى ، ولو كانت من باب أكل أموال الناس بالباطل لخضعت للأحكام السابقة ، ولكن خطورتها أن شيوعها يفقد الناس الأمن على أموالهم ويجعلهم يعيشون فى قلق وخوف ، والأمن حاجة نفسية للإنسان تبلغ من أهميتها أن الله جعلها قرينة للطعام الذى تقوم به الحياة فى قوله تعالى فى المن على قريش (... فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) (٤) وذلك لأن الطعام تقوم به حياة الجسد ، والأمن تقوم به حياة النفس ، وانعدام الأمن معناه اضطراب الحياة النفسية للمجتمع كله .

---

(١) ٢٧٦ سورة البقرة .
(٢) متفق عليه .
(٣) ٢٨٢ سورة البقرة .
(٤) ٣ سورة قريش .

وهذه العقوبة فى قوله تعالى (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم) [١] .

(ب) والنوع الثانى مما يخل بأمن المجتمع قطع الطريق ، ومن الواضح أن الهدف فى قطع الطريق هو المال ، وإذا حدث عدوان من قاطع الطريق فإنما هو وسيلة إلى هذا الهدف .

وقطع الطريق من أخطر الوسائل التى تخل بأمن المجتمع ، وتهدد اقتصاده وتجارته فضلا عما يصيب المعتدى عليهم من عدوان عليهم كثيرا ما تكون نتيجته الموت .

ولذلك جعل له القرآن حدا صارما من حدود الله ، ولكن لما كانت آثار قطع الطريق غير ثابتة ولا محددة فإن القرآن وضع لها عدة عقوبات ، وفوض ولى الأمر فى أن يختار منها ما يناسب كل حالة . وذلك فى قوله تعالى (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم) [٢] والفقهاء يرون أن القتل عقوبة لقاطع الطريق إذا قتل أحدا ولم يتمكن من أخذ مال ، وأن القتل والصلب عقوبة قاطع الطريق إذا قتل واستولى على شىء من المال ، وأن عقوبة قطع الأيدى والأرجل من خلاف لقاطع الطريق إذا أخذ مالا ولم يقتل ، فتقطع يده التى أخذ بها وهى اليمنى ، وتقطع رجله حتى لايزاول قطع الطريق مرة أخرى ، ولكن من عدم الاجحاف به أن تقطع رجله اليسرى من القدم ، فيتحقق بذلك الهدف وهو عدم مقدرته على قطع الطريق فى العادة مرة أخرى ولكن للمحافظة على توازنه تقطع رجله من خلاف وهى اليسرى ، وإذا زاول قاطع الطريق فعل هذا ولم يقتل ولم يتمكن أن يأخذ مالا يحكم بنفيه إلى مكان آخر ، ولكن خطورة شخصية قاطع الطريق تؤخذ فى الاعتبار ، والذى يدل على أن الهدف هو المحافظة على أمن المجتمع حينئذ وليس العقاب أن قاطع الطريق إذا تاب من تلقاء نفسه فمن حقه العفو عنه كما تنص الآية الثانية (إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم) ومعنى ذلك أنه لايعاقب على ما صدر منه فى قطع الطريق قبل

---

(١) ٣٨ سورة المائدة .

(٢) ٣٣،٣٤ سورة المائدة .

ذلك أى قبل توبته ، والتوبة لاتلغى العقوبة فى حدود الله إذا ثبتت ، وهذا حد من حدود الله ، ولكنه استثنى لضرورة الحاجة إلى أمن الناس فى أخطر ما يهدد الأمن وهو قطع الطريق ، فالسرقة مثلا رغم أنها إخلال بالأمن إلا أنها لاتبلغ خطورة قطع الطريق ، لأن السارق عادة إنما يكون متخفيا ، ويفزعه أن يجد أحدا متنبها ، ثم إن صاحب البيت يجد فى العادة حوله من يستغيث به ، أما فى قطع الطريق فالأمر مختلف من كل الوجوه ، لذلك كانت الأولوية فى العلاج هى تلمس الوسيلة لمنع خطورة هذا الأسلوب من الإخلال بالأمن قبل العقاب .

٢ - قضية الأعراض :

كما أن الإسلام عالج قضية المال من كل جوانبها ليحقق للناس الأمن على أموالهم وعلى معيشتهم ، فحذرهم من المساس بأموال الغير ، وحذرهم أيضا من سوء التصرف فى أموالهم هم ، فكذلك عنى الإسلام عناية واضحة بالحفاظ على الأعراض حتى يكون الناس فى أمن على أعراضهم .

ولسنا فى حاجة إلى الموازنة بين ما يحققه التشريع الإسلامى من أمن على الأموال والأعراض ، وبين ما كان يعانيه الناس من خوف على أموالهم وأعراضهم قبل الإسلام فى حياة العرب التى يصف القرآن خوف الناس فيها على أنفسهم وأموالهم فى هذه الصورة البالغة التعبير خلال المن على قريش بنعمة أمنهم داخل الحرم بينما الناس من حولهم كما يصف القرآن حالهم (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) (١) ومن دقة تعبير القرآن أن الكلام فى سياق المن على قريش بأنهم دون غيرهم آمنون بسبب الحرم ، فكان السياق يقتضى أن يكون التعبير جعلنا لهم حرما آمنا ولكن تعبير القرآن كان (جعلنا حرما آمنا) لأن حرمة الحرم ليست خاصة بقريش أو بأى أحد ، بل حرمته لذاته فكل من يدخله من أى جنس أو لون فهو آمن كقوله تعالى (ومن دخله كان آمنا) (٢) ولكن الذى يعنينا هنا (ويتخطف الناس من حولهم) وصفا لمدى اختلال الأمن قبل الإسلام .

---

(١) ٦٧ سورة العنكبوت .

(٢) ٩٧ سورة آل عمران .

وكذلك فيما يتعلق بالأعراض ، حيث كانت الأعراض مباحة لكل طاعن أو قاذف فيها سواء بالشتم أو بالشعر أو أى أسلوب ، ونعود إلى القول بأننا لسنا فى حاجة إلى الموازنة بين الإسلام وما قبله من حياة العرب ، لأن الإسلام لم ينزل لجنس معين ولا لعصر معين ، وإنما هو شريعة الله لكل الأزمنة فينبغى ألا تزيد عن الإلماح إلى الفرق بين أثر الإسلام وعدمه فيما تعرض له التشريع الاسلامى .

وفيما يتعلق بقضية الأعراض ينبغى تحديد مفهوم الأعراض أولا فإن العرف العامى أو العرف الحديث ضيق مدلول العرض حتى حصره فيما يتعلق بسمعة النساء فى سلوكهن بينما المدلول الحقيقى للعرض هو كل ما يمثل كرامة الإنسان ومروءته بين الناس ، وما يعد المساس به إساءة إليه وانتقاصا من قدره وشرفه بين الناس ، فوصف الإنسان بأية صفة مذمومة كالجبن أو البخل أو نحو ذلك يعد مساسا بعرضه ، وما يتعلق بسمعة النساء ليس إلا نوعا من أنواع العرض ، وإن كان أشدها حساسية وإيلاما بين الناس .

ويكاد القرآن يستقصى كل ألوان الإساءة إلى العرض بمعناه الواسع ، فكل ما يسىء أو يؤذى فهو بغيض إلى الله ومنهى عنه ومتوعد عليه ، سواء أكان فى أسلوب سخرية ، أو أسلوب غمز ولمز ، وانتقاص بلقب قبيح كقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولاتلمزوا أنفسكم ولاتنابزوا بالألقاب بئس الإسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) (١) وينبغى أن نلحظ الوعيد الرهيب الذى يوجهه الله سبحانه إلى من يزاول المساس بعرض أحد أو الانتقاص منه وهو أن من يمنحه الله شرفا عظيما وهو الإيمان فلا ينبغى أن يرتد عنه إلى منزله دنيا ، وإن كان أحد يرتد من الإيمان إلى الكفر فإن هناك ردة أخرى من الإيمان إلى الفسق وبئست هذه الردة ، ومن يزاول شيئا من الأساليب التى تضمنتها الآية يكن قد ارتد إلى درجة من درجات الفسوق كما تعبر الآية (بئس الإسم الفسوق بعد الايمان) .

بل إننا نجد القرآن يتتبع الإساءة إلى العرض من منبتها أو من جذورها ، وأكثر ما تكون الإساءة إلى العرض تكون غيبة ، فإن عدم المواجهة يشجع على ذكر مساوئ الناس ، بينما فى

(١) ١١ سورة الحجرات .

مواجهتهم يحاولون غالبا إرضاءهم أو على الأقل عدم الإساءة إليهم ، فلا يكتفى القرآن بالتحذير من الغيبة ، وإنما يتتبع جذورها ، لأن الغيبة هى ذكر الإنسان بما يسىء إليه ، ومعرفة المسىء بهذه الإساءة تمر بأكثر من مرحلة ، وأولى المراحل عادة الظن ، حيث توجد ملابسات تجعلنا نظن أن هذا الشخص يفعل شيئا غير مرض ، أو يخفى شيئاً ليس من مصلحته إظهاره ، وهذا الظن يجعل بعض الناس يشغلون أنفسهم بمحاولة معرفة ما يخفيه هذا الشخص بأى أسلوب من أساليب الوصول إلى معرفة شىء كأسلوب التجسس ، فينهى القرآن عن ذلك كما سيلى .

ولكن القرآن يَجعل الاساءة إلى العرض بالغيبة أمرا بالغ السوء ، ولذلك يصوره فى أقبح صورة يزاولها إنسان ، ويعبر القرآن عنها بهذه الدرجة من التنفير ، والتى تشبه فيها الغيبة لشخص غائب لايملك الدفاع عن نفسه بصورة شخص يأكل لحم آدمى ميت ، فأكل لحم الآدمى فى غاية البشاعة ، ولكن أكله ميتا أشد بشاعة ونكرا ، ولكن القرآن كما سبق يتتبع الأمر من جذوره ، وجذوره الظن ، ثم طريقة التجسس ، ثم ثمرته ونتيجته الغيبة ، وذلك فى قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن إثم ولاتجسسوا ولايغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم) (١) ومن الواضح أن القرآن يحذر وينهى عن هذه المساوىء لذاتها بصرف النظر عن ارتباط بعضها ببعض أو عدم ارتباطه ، وهى سوء الظن والتجسس لكشف أسرار الناس وعوراتهم ، ثم الغيبة ، لأن الغيبة هى الحديث عن شخص بعيب حقيقى فيه ، فإذا لم يكن هذا العيب فيه كان افتراء عليه ، وقد سأل سائل النبى صلى الله عليه وسلم هل يكون مغتابا إذا تحدث عن شخص بما هو فيه ؟ فقال (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته) (٢) أى افتريت عليه بهتانا .

أما عرض النساء فقد جعل الإسلام الإساءة إليه من كبائر الإثم ، ويتوعد القرآن من يطيب لهم شيوع الفحش بين المؤمنين بالعذاب الأليم ، كقوله تعالى (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم) (٣) وإذا تأملنا دقة تعبير الآية نجد أن هذا العذاب

---

(١) ١٢ سورة الحجرات .   (٢) رواه مسلم .   (٣) ١٩ سورة النور .

الأليم المتوعد به ليس لأنه صدر منهم مساس بعرض ، أو اساءة إلى عرض ، وإنما لمجرد أن نفوسهم ترضى بشيوع الفحش وتطيب له ولو دون مشاركة فيه ، فكل ما هو منسوب إليهم أنهم (يحبون ...) هذا الشيوع ، ومن آثار هذا الحب إطلاق الألسنة فى الأعراض .

ولكن حينما تنطلق الألسنة إلى المساس بالأعراض ينتقل الحكم إلى صورة أخرى ، هى العقاب الدنيوى إضافة إلى العقاب فى الآخرة ، وذلك حينما يتهم شخصا رجلا أو أمرأة بالوقوع فى الزنا دون أن تكون لديه وسائل الإثبات الشرعى لذلك ، والعقاب الدنيوى هو الجلد ثمانين جلدة وعدم قبول شهادتهم مدى حياتهم ، فإذا تابوا وأظهروا الندم والاستقامة فيمكن أن يرفع الله عنهم عذاب الآخرة ، أما عذاب الدنيا من الجلد وعدم قبول شهادتهم مدى حياتهم فلا يملك أحد إعفاءهم منه إذا ثبت القذف وشهد الشهود أو اعترف القاذف ولم يتراجع عن اعترافه لأن حدود الله لايملك أحد العفو فيها حين تثبت ، وفى ذلك قوله الله (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولاتقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم) (١) .

ولكننا من الناحية الواقعية سنجد أن كل من يقذف أحدا بالزنا لابد أن يقام عليه حد القذف إذا ثبت أنه صدر منه القذف ، لأن إثبات واقعة الزنا مستحيل عمليا وواقعيا ، وذلك أن الإسلام فى سبيل حماية اعراض المسلمين خصها بأحكام استثنائة تخالف كل قوانين التشريع الاسلامى ، ومن ذلك أن القاعدة فى إثبات أى شىء سواء فى الحدود أو القصاص أو الحقوق عامة يكون بشهادة اثنين من الرجال العدول ، ويرخص فى قبول شهادة امرأتين موثوق فيهما مكان أحد الرجلين ، ولكن الزنا وحده لابد فى إثباته من شهادة أربعة رجال عدول ، ولاتقبل فيه شهادة النساء ، ثم إن شهادة الشهود لايكفى فيها اثبات المواقعة بين الرجل والمرأة من الظاهر ، بل لابد أن يؤكد كل واحد من الشهود الأربعة بأنه رأى تداخل عضوى التناسل كما يشبهه الفقهاء بدخول الميل فى المكحلة ، ومن الواضح استحالة إثبات هذا بهذه الصورة واقعيا ، ولذلك لم يثبت الزنا فى تاريخ الاسلام قط عن طريق الشهادة ، وإنما يثبت بالاعتراف ، ولاشك فى أن كثيرا جدا من دعاوى الزنا أى من القذف به صحيح وأنه كان ينبغى أن ينال طرفا الزنا فيه

---

(١)٤ـ٥ سورة النور ، وفى قبول شهادتهم بعد التوبة خلاف .

العقاب ، ولكن من الواضح حينئذ أن الاسلام يؤثر حماية الأعراض من الألسنة على إنزال العقاب بالجناة وهم الزناة ، لأن إثبات الزنا على امرأة أو رجل يلحق بأهلهما وخصوصا الاقربين ، وعلى وجه أخص أولادهما ضررا نفسيا بين المجتمع ، وقد يلاحقهم هذا الضرر إلى أكثر من جيل وهم أبرياء ، فيصيبهم هذا الضرر المعنوى دون ذنب جنوه ، ولذلك وضع الله لإثبات الزنا حكما يخرق قواعد التشريع .

وعرض المرأة أشد حساسية من عرض الرجل ، والمساس بسمعتها أسوأ أثرا من المساس بسمعة الرجل ، ولذلك يعلن الله سبحانه هذا الوعيد الرهيب لكل من جرى على لسانه المساس بعرض امرأة شريفة فى قوله تعالى (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين) (١)

وقد يقال فإن ما وضعه الإسلام من قيود وعقبات فى سبيل إثبات الزنا بالإضافة إلى العقوبة الصارمة لمن يتهم أحدا بالزنا حتى وهو يعلم أنه صادق ما دام لم يصل إلى الإثبات الشرعى ، كل ذلك قد يقال إن من شأنه تشجيع الاقدام على الزنا طالما يعلم المقدم عليه أن أحدا لن يستطيع إثبات هذه الجريمة عليه ، وطالما هو عالم بأن من يتهمه أو يقذفه بالزنا سيعاقب وإن كان صادقا فى اتهامه وقذفه ، فكيف يكون ذلك ؟

والجواب أن الإسلام أحدث توازنا عجيبا فى تشريعه بين صعوبة إثبات الزنا وبين التنفير من جريمة الزنا ، فكما أن الإسلام أحدث استثناء فى تشريعه ليمنع إثبات الزنا واقعيا إلا عن طريق الاعتراف فكذلك أحدث استثناء فى تشديد عقوبة الزنا غير مألوف فى عقوبة أخرى على الإطلاق ، حيث جعل الاسلام عقوبة الزنا أشد من عقوبة القتل ، والقتل أكبر جريمة على وجه الأرض فيما بين الناس ، حتى جعل الله قتل النفس كأنها قتل للبشر جميعا كقوله تعالى (... من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ..) (٢) أى من قتل نفسا فى غير قصاص أو فساد فى الأرض كقطع الطريق أو نحو ذلك كالدفاع عن النفس فكأنه

(١) ٢٣، ٢٤ سورة النور .

(٢) ٣٢ سورة المائدة .

قتل الناس جميعا ، فمع أن القاتل كأنه قتل الناس جميعا إلا أن عقوبته القتل بالأسلوب المألوف في القتل دون تعذيب أو تشويه ، أما الزنا إذا ثبت وقوعه من المحصن فإن عقوبته القتل بأقسى وأبشع صور القتل ، وهي الرجم بالحجارة حتى الموت ، ومن البدهي أن العقوبة يحددها مقدار الجريمة ، وحيث كانت عقوبة الزنا أبشع عقوبة فمعناه أن جريمة الزنا أبشع جريمة عند الله ، وفي هذا إعلام للناس أن تصعيب الإسلام إثبات جريمة الزنا ليس للتهوين من شأنها ، وإنما لهدف بالغ الأهمية ، وهو حماية الأعراض من أن تلوكها الألسنة في المجتمع ، أما جريمة الزنا نفسها فإنها من البشاعة عند الله بمقدار العقوبة التي وضعها لها ، ولذلك فإن القرآن لايكتفي بالنهي عن الزنا ، وإنما ينهى عن أية خطوة من الخطوات التي تؤدي إلى الزنا ، هذه الخطوات التي تبدأ عادة من النظرة ، التي اذا استجاب لها الطرفان فإنها تنتهي - مهما تعددت الخطوات - إلى الفاحشة ، ولذلك نجد القرآن بالغ الدقة في سرد الخطوات أو الوسائل التي من شأنها أن تؤدي إلى الفاحشة ، والتي كان نصيب الرجل منها قليلا ، فإنه لايكاد يملك من هذه الخطوات إلا النظرة المريبة ، فإذا لم يجد استجابة من المرأة فلا حيلة له في العادة بعد ذلك ، أما المرأة فإنها تملك الغالبية العظمى من هذه الخطوات إن لم تكن كلها ، وهي ما تملكه المرأة من وسائل الإغراء التي لايصمد أمامها من الرجال في العادة إلا من أوتي قوة وعزما غير عاديين ، وفي القرآن (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولايبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن ...) ثم تواصل الآية (... ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ...) (١) ويحذر القرآن من النظرة المريبة ومما تخفيه وراءها من وساوس النفس والشيطان في قوله تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) (٢) ومن تحذير القرآن من أية خطوة إلى الفاحشة نجد تعبير القرآن لايكتفي بالنهي عن الزنا وإنما عن أي اقتراب منه في قوله تعالى (ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا) (٣) وكذلك نجد هذا النهي عن

---

(١) ٣١،٣٠ سورة النور .

(٢) ١٩ سورة غافر .

(٣) ٣٢ سورة الإسراء .

الاقتراب من أية فاحشة مهما يكن نوعها ، ومهما تكن ظاهرة للناس أو استطاع مزاولها أن يخفيها كقوله تعالى (ولاتقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) (١) ومن أقرب الخطوات إلى الفاحشة الخلوة بين الرجل والمرأة ، وقد تبدأ الخلوة بحسن النية ، ولكنها كثيرا ما تنتهى بالسيئة ، ولذلك يحرم الإسلام الخلوة لذاتها بصرف النظر عن حسن النية أو سوئها ، وذلك فى أحاديث نبوية من أشهرها (ما خلا رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما) .(٢)

٣ - قضايا وجوانب أخرى :

واستخدام القرآن أسلوب الوعيد فى سبيل الإصلاح ليس مقصورا على جانب معين واحد ، ولا جوانب محدودة من أخلاق الناس أو تعاملهم أو صلاتهم ، فلا نكاد نجد مجالاً أو جانبا إلا ويتناوله القرآن من كل زواياه كما رأينا فى قضيتى المال والأعراض ، والانطلاق فى هذا المجال لا يقف عند حد ، ولاتكاد تفاصيله تحصى ، ولكننا نكتفى ببعض الأمثلة تحاشيا لاتساع نطاق الحديث وتشعبه .

ومن هذه الأمثلة ما يتعلق بالصفات الشخصية ، فإن القرآن يحذر من الشطط فى الاتصاف بأية صفة ، ويدعو إلى التزام التوسط والاعتدال فى كل شىء لأن الفضيلة فى كل شىء هى الوسط فإذا زادت الصفة عن الاعتدال أو نقصت عنه تحولت إلى رذيلة ، والرذائل فى خلق المرء لاتقتصر عليه وحده ، وإنما تتعداه فى أغلب الأحيان إلى من يحيطون به ومن يتعامل معهم من الناس ، والقرآن يدعو إلى الاعتدال حتى فى المشى وفى الصوت ، كقوله تعالى (واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) (٣) فسواء أكان المشى مقصودا به السلوك عامة أم المشى على الأرض فالمطلوب هو الاعتدال الذى يحفظ على المرء وقاره بين الناس ويدعوهم إلى حسن رأيهم فيه ، وكذلك الصوت يدعو القرآن إلى الاعتدال فيه محذرا ضمنا من أن يصل صوت المرء فى ارتفاعه المتكلف إلى أن يكون مزعجا وهذه اللفتة فى القرآن هى من مظاهر الحضارة البشرية ، فإن اعتدال الصوت من مظاهر المدنية والتحضر ، بينما ارتفاعه المزعج هو من آثار البداوة ، وكل الأمثلة تؤكد ذلك ، فإنك لو نظرت

---

(١) ١٥١ سورة الأنعام . (٢) رواه أحمد

(٣) ١٩ سورة لقمان .

إلى ريفى يستمع إلى مذياع تجده لايستمتع بسماعه الا إذا كان المذياع فى صوت جهير صاخب ، بينما مستمع المدينة يضيق بأى ارتفاع فى الصوت عن الدرجة الدنيا المألوفة فيه ، وكذلك لو مررت بمقهى فى حى شعبى نجد صخب الأصوات فيه يتجاوز المقهى إلى كل ما حوله من الأماكن ، بينما المقهى فى حى راق لا يكاد صوت المتحدث فيه يتجاوز أذن سامعه ، وكذلك لو نزلت فى فندق راق ولو كان مكتظا بالنزلاء فإنك لاتسمع فيه حتى الهمس ، حتى قد يخيل إليك أنه مهجور ، بينما لو قدر لك أن تبيت فى فندق شعبى فقد تحتاج إلى شىء تسد به أذنيك حتى تستطيع أن تنام من صخب الأصوات .

أما ما يتعلق بالتعامل مع الناس فإن القرآن يلزم الانسان الحق والعدل فى كل ما يصدر منه ، وكل ما يصله بغيره .

وأبغض الصفات الاجتماعية إلى الله الكذب ، حيث يتضمن خداعا وتضليلا للغير ، وقد جعله النبى صلى الله عليه وسلم أبرز صفات المنافقين ، والقرآن ينفى عن الكذاب صفة الإيمان من أساسها كقوله تعالى (إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون)(١)

وفى موضع واحد من القرآن نجد هذا الحشد من جوانب الاصلاح التى يدعو اليه القرآن ويتوعد من يتمرد عليها وهو قوله تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ، ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ، وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولاتبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ، وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ، إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ، ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا ، ولاتقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ، ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا

---

(١) ١٠٥ سورة النحل .

بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا ، ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ، وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ، ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ، ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ، ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولاتجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا) (١) .

---

(١) سورة الإسراء ٣٢ - ٣٩

أنــواع العقــاب

مما يلفت النظر أن القرآن لايسوق العقاب أو العذاب فى صورة واحدة ، بل فى صور مختلفة ليس من حيث الدرجة فى الشدة وعدمها فحسب ، وأنما فى نوعية العقاب أو العذاب ، فأحيانا يصف العذاب بأنه عذاب مهين ، وأحيانا يصفه بأنه عذاب أليم ، مع أن كليهما عقاب ، وقد يكونان عقابا على شىء يبدو فى ظاهره واحدا وهو الكفر ، وأحيانا يسوق القرآن العقاب ليس بلفظ العذاب وإنما بوصف آخر كالخسران ، مع أن جريمة هذا قد تكون أكبر وأشد من الكفر المتوعد بالعذاب المهين أو العذاب الأليم كالنفاق الذى هو أشد أنواع الكفر وأخطرها ، وقد يكون العقاب ليس بلفظ العذاب أو الخسران وإنما باللوم أو الانكار أو التسفيه .

فلم كان هذا التنوع ؟ ولماذا لم يلتزم القرآن الوعيد بعقاب واحد ثابت ، كالهلاك فى الدنيا ، وعذاب جهنم فى الآخرة ؟

والإجابة عن هذا التساؤل تقتضى بسطة ولو يسيرة ، حيث إن هذه الملحوظة ليست فريدة أو غريبة فى القرآن ، بل هى جزء أو عنصر من عناصر التنوع فى القرآن ، هذا التنوع الذى قد يبدو لبعض الناس تكرارا أو إسرافا فى الطول دون ضرورة ، فبعض الذين ينظرون إلى القرآن نظرة سطحية أو عجلى يرون هذا التنوع فى القرآن فيحسبونه تكرارا ، ويرون أن بعضه كان يمكن أن يغنى عن بعض ، وقد يزعمون أن القرآن على طوله وضخامة حجمه كان يمكن أن يوجز فى حجم صغير حيث إن كل ما فيه يدور حول معان محددة تدور حول العقيدة والأخلاق وما تتضمنه الآخرة .

ومع أنه لايستطيع أحد مهما يبلغ من عمق التأمل ، أو سعة الفهم أو غير ذلك من المواهب والقدرات أن يدعى أنه أحاط بكل ما يتضمنه القرآن أو شىء منه ، أو أنه بلغ كل ما فيه أو فى شىء منه من عمق ، بدليل أننا مع مضى نحو خمسة عشر قرنا على نزول القرآن لازلنا نسمع أو نقرأ من آثار التأمل فى القرآن ما يبهرنا مما لم يصل إليه أحد منذ هذا التاريخ الطويل ، ومما لاشك فيه أن القرآن سيظل معينا خصبا لكل متأمل فيه ، وموردا لاينضب من الإيحاء بالجديد ، وبالمناسب للواقع إلى يوم القيامة ، لأن الله أراد له أن يظل منارة تشع النور والهدى إلى يوم القيامة ، ولو أن أحدا استطاع أن يستنبط كل ما فيه لبطل

سبب من أهم أسباب أعجازه .

نقول إنه مع ذلك لو أننا ألقينا نظرة تأمل فى القرآن على موضوع التساؤل السابق لوجدنا أنه يمثل عنصرا من منهج القرآن فى تكرار المعانى والأهداف ، ليس فى هذا الجانب فحسب ، وإنما فى كل المعانى والأهداف الرئيسية التى تدور حولها معانى القرآن .

ومن أمثلة ذلك وحدانية الله في الألوهية ، فإن القرآن يوردها أحيانا فى أسلوب الخبر المجرد مثل (الله لا إله إلا هو ....) (١) ولكنه لايكتفى بذلك ، وإنما يوردها فى أساليب عديدة متنوعة ، أحيانا فى أسلوب قصة أو محاورة ، كالقصة التى تتضمن حوارا بين ابراهيم عليه السلام والملك الذى يدعى الألوهية ، أو بين موسى عليه السلام وفرعون ، وكالمحاورات العديدة التى ساقها القرآن بين الأنبياء وأقوامهم حول الإيمان بالله الواحد ، وأحيانا يسوقها فى أسلوب اسئلة موجهة الى الناس ليجيبوا عنها مثل (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض) (٢) وغير ذلك من الأساليب ، وقد يلتمس لهذا التنوع أكثر من سبب أو هدف ، ولكن من أبرز الأهداف أن الله سبحانه خلق الناس مختلفين فى نواح لاتكاد تحصى مع أنهم يبدون فى الظاهر وكأن اختلافهم غير كبير ، ولكن الحقيقة التى لاريب فيها أنه لايوجد اثنان من البشر جميعا يتطابقان تطابقا كاملا ، وإذا كانت بحوث البشر قد توصلت إلى أنه لايوجد شخصان على وجه الأرض تتطابق بصمة اصبعيهما ، فإن البحوث الحديثة تشير إلى أنه لايوجد عنصر أو عضو يتطابق بين اثنين من البشر كالوجه أو الصوت أو غير ذلك ، وإذا كان هذا الاختلاف الشديد والكامل كائن فى الجسد ، فلاشك أنه أشد فى الجوهر والمقومات المعنوية ، كالذكاء ، والعواطف والانفعال والبصيرة ومقومات الأخلاق وغير ذلك .

وحيث كان الناس مختلفين ظاهرا وباطنا بهذه الدرجة من الاختلاف ، فمن البدهى إذن أن كل ما يوجه إليهم من خطاب أو تعامل معهم ينبغى أن يراعى هذا الاختلاف .

ويمكن أن نضرب مثالا بشخص يخطب فى جمع من الناس ، فهذا الجمع لابد أن يكون

---

(١) ٢٥٤ سورة البقرة .

(٢) ٣ سورة فاطر .

مختلفا فى درجة فهمه ووعيه واستيعابه واستنباطه ، وفى درجة استعداده وتيقظه للسماع ، وفى نوعية الذى يشده ويثير انتباهه من الأساليب ، وفى كثير غير ذلك ، وكان المفروض منطقيا أن على هذا الخطيب إذا أراد لهذا الجمع أن يستفيد من خطبته أن يراعى كل اسس الاختلاف بين السامعين ، وأن يصوغ لكل منهم أو لكل مجموعة متقاربه منهم الأسلوب الذى يجعلهم أكثر فائدة وأشد انجذابا إليه ، ولكنه لايوجد من يستطيع أن يفعل ذلك ، لا من حيث عدم معرفته للاختلاف المعنوى بين الناس ، ولا من حيث الأسلوب الملائم لكل نوعية ، ولذلك لايملك أنجح الخطباء فى العادة أكثر من التزام أشياء يشترك فيها كثير من الناس كالتشويق وإثارة الانفعال وقرب المعانى ونحو ذلك .

ولكن الله سبحانه هو وحده المستطيع ذلك ، لأنه يعلم طبائع النفوس وخباياها ، ويعلم مدى اختلاف الناس فيها ، وهو العلم بما يلائم كل نفس ، وما يصلح لكل نوعية من الناس ، والقرآن فى مجموعه هو الذى يجمع ويضم كل ما يصلح لكل النوعيات على اختلافها ، ففى المثال السابق عن الدعوة إلى الإيمان بوحدانية الله يمكن أن نتصور أن اختلاف الأساليب التى سبقت فيها كان لمراعاة اختلاف الناس وهم الموجهة إليهم الدعوة ، فبعضهم يحمل فى تكوينه عقلا يقظا بطبعه ، فيكفيه أن يساق له المعنى بأسلوب الخبر العادى وهو (لا إله إلا الله) فيستوعب بسرعة مدلول التعبير ، ويدرك أبعاده ومرماه ، سواء أصدق أم كفر ، ولكن بعضا آخر يوقظ عقله ويشد انتباهه سماع القصص ، فيسوق له القرآن هذا المعنى فى أسلوب قصة ، وهذا الاختلاف بين السامعين مشاهد ، فقد يتحدث محدث أو خطيب فيكون بعض السامعين شاردا عنه غافلا عن الاستماع إليه ، بل قد يداعب بعضهم النوم ، فإذا سمع بعض هؤلاء المحدث أو الخطيب يقول سأحكى لكم قصة إذا هو فى كامل يقظته ورغبته فى السماع ، ولكن بعضا آخر يروق له التخاصم والتصارع والتحزب ولو فى الآراء فإذا سمع محاورة أو مناظرة بين طرفين كان فى كامل حماسه لمتابعتها واستيعاب فصولها ومعرفة نتيجتها ، فهؤلاء يسوق لهم القرآن الخبر أو المعنى فى أسلوب قصة أو محاورة تمثل حزبين ، أو طرفين فى خصومة ، وكل منهما يصارع الآخر بحجته ومنطقه ، وبعض الناس يحملون نزعة من الذكاء يطيب لها ربط الأشياء بعضها ببعض ، ثم استنتاج النتائج من خلال ذلك ، فمثل هؤلاء يسوق لهم القرآن قضية الإيمان بالله فى الدعوة إلى تأمل الكون وما فيه من عجائب ، ليستنتجوا من خلال هذه

العجائب وجود الله ووحدانيته فى الألوهية ، أو على الأقل يحسنون متابعة عرض القرآن لهذه القضايا ، وفهم ما ينتج عن هذا العرض من نتائج ، وهكذا فى كل ما أورده القرآن من تنوع فى أساليب عرضه ودعوته .

وكذلك ما يتعلق بأصل هذا الحديث ، وهو السؤال السابق : لماذا لم يلتزم القرآن الوعيد بعقاب واحد ثابت ، كالهلاك فى الدنيا ، وعذاب جهنم فى الآخرة ؟

فإن الجواب عنه أنه من الواضح أن القرآن يراعى اختلاف منازل الناس فى الدنيا ، واختلاف طبائعهم ودرجة تأثرهم ، واختلاف مسلكهم الدينى ، وغير ذلك .

ويمكن إلقاء نظرة على أهم هذه الأنواع التى عرضها القرآن من ألوان العقاب فى هذه النبذة التى تعد تمهيدا لما يستقبل من عرض هذه الأنواع فى شىء من تفصيل .

(١) العذاب المهين لايعنى الاستغناء به عن العذاب الأليم ، وإنما يعنى إبرازه والوعيد به لنوعية معينة من الناس ، هى نوعية السادة وذوى الوجاهة فى المجتمعات ، فهذه النوعية تكون فى العادة هى صفوة المجتمع ، ولكن عوامل اجتماعية معينة تحول بينها وبين الانقياد للدين ، وهذه النوعية تؤلمها الإهانة النفسية والاجتماعية باشد مما يؤلمها العذاب البدنى ، ومن مأثور الحكم (العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الإشارة) بمعنى أن العبد والخسيس لايخاف إلا من العقاب البدنى ، أما الحر الكريم فيخاف ويتألم من مجرد الإشارة التى تتضمن إهانة له ، ولذلك نجد القرآن يركز الحديث فى عقاب السادة والخاصة من الناس على إهانتهم وليس على عذابهم بدنيا ، لأن الإهانة أوجع لهم من العذاب البدنى ، ومن أمثال العرب (المنية ولا الدنية) أى أن الموت أيسر عند الكريم من قبول الذل والإهانة ، ومن أمثلة هذا العقاب هذا الوعيد لزعيم من أكبر زعماء الشرك وألد أعداء الله فى قوله تعالى (سنسمه على الخرطوم)[١] والخرطوم هو الأنف ، والوسم هو العلامة ، والمعنى سنكوى هذا الزعيم على أنفه ، فيصبح أثر الكى علامة مميزة له على أنفه ، فمن الواضح أن هذا الوعيد لايقصد به إطلاقا الإيلام والتعذيب ، وإنما تقصد به الاهانة والإذلال لهذا الزعيم الشامخ بأنفه ، فالإذلال منصب على موضع الشموخ ومظهر العزة فيه ، فمثل هذا الزعيم يرى الموت أو أى شىء أرحم وأيسر من هذا الإذلال ، بينما لو وجه هذا الوعيد إلى شخص من عامة الناس فلن يأبه له ، لأن الكى شائع بينهم ، وهو

---

(١) ١٦ سورة القلم

لا يفرق كثيرا بين أن يكون الكى على أنفه أو غير أنفه .

(٢) العذاب الأليم يتوعد به القرآن غالبا عامة الناس الذين ليست لهم منزلة اجتماعية أو كرامة بين الناس يؤذيهم المساس بها ، فهم لايفزعون من الإهانة ، وإنما يفزعون من الألم البدنى ، ولذلك تتفنن أساليب القرآن فى وصف العذاب والألم الجسدى الذى ينتظرهم فى الآخرة كقوله تعالى (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما) (١) فالتركيز هنا على شدة الألم الذى يحدثه هذا العذاب بدنيا بصرف النظر عن الإهانة النفسية ، وقد لوحظ أن تركيز هذا الأسلوب على الجلود بالذات لأن الجلد هو موضع الأحساس دون ما تحته من الجسم ، بدليل أننا لو غرسنا إبرة فى جسد شخص ، فإن هذا الشخص لايحس بالألم إلا فى أثناء اختراق الإبرة للجلد ، فإذا تجاوزته فلن يحسن بالألم مهما توغلت الإبرة فى الجسم ، ومن هنا ندرك دقة التعقيب فى الآية بالوصفين لله ، العزيز لأنه يملك أن يردع من يعاديه فيعذبه ، والحكيم لأنه يعرف كيف يختار العذاب الأشد إيلاما ، سواء فى نوعية العذاب ، وفى نوعية الشخص المعذب .

(٣) الوعيد بالخسران لايبدو فيه الاهتمام كثيرا بالعذاب المهين أو العذاب الأليم لأن من يوجه إليهم وعيد الخسران لاتعنيهم كثيرا الآخرة وما فيها من عذاب أليم أو مهين ، وإنما تعنيهم مصلحتهم الشخصية ، ومدى ما يحققون من نفع وكسب من كل شيء ، وهؤلاء هم المنافقون فيتوعدهم القرآن بعكس ما تطمع إليه نفوسهم ، وما يسيطر على عقولهم ، وكل ما تطمح إليه نفوسهم هو الكسب ، فيتوعدهم الله بخيبة أملهم فى هذا الكسب ، وأنهم لن ينالوا إلا الخسران ، كقوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) (٢) وليس المراد هنا بالهداية الهداية الدينية ، وإنما المراد الهداية الدنيوية ، بمعني أنهم باعوا الدين الحق واشتروا به عن طريق المقايضة الضلال والكفر ، فلم يكونوا فى ذلك تجارا ماهرين ، ولو أحسنوا البصر بالتجارة لاستطاعوا أن يميزوا السلعة الجيدة الرابحة وهى الايمان من السلعة الرديئة الخاسرة وهى الكفر ، ولكنهم عكسوا الوضع الصحيح فكانوا

---

(١) ٥٦ سورة النساء .

(٢) ١٦ سورة البقرة .

كما وصفهم القرآن كثيرا بهذا (هم الخاسرون) (١) لأن الخسارة هى مصير التاجر الأحمق .

(٤) وهناك لون من الوعيد أو العقاب لا ينصب على العذاب وانما على اللوم بدرجاته المختلفة من العقاب والاستنكار والتأنيب ونحو ذلك .

وهذا النوع لا ينتظر توجيهه إلى كافر ، لأن الصلة بين الله والكافر مقطوعة ، وما دامت الصلة مقطوعة فلا لوم ولا عتاب ، لأن العقاب أو اللوم إنما يكون مع وجود صلة ولو واهية ، من باب قول الشاعر (ويبقى الود ما بقى العقاب) .

فقد يعاقب الله عباده المؤمنين على أن يصدر منهم مالا يليق بالمؤمنين مما يغضب الله كقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) (٢) فمع إثبات الإيمان لهم يلومهم على ادعاء مفخرة بشىء لم يفعلوه أو لم يؤدوه بالصورة التى تناسب الاعتزاز بها ، كالفخر بالشجاعة ، ثم عدم إبداء هذه الشجاعة فى مواجهة الحرب ، كما تشير إلى ذلك الآية التالية ، وهى (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) .

وكذلك يعاتب الله بنى آدم جميعا بصرف النظر عن إيمانهم أو كفرهم لائما إياهم على سوء تقديرهم وعدم تفريقهم بين من يدفعهم إلى الشر ومن يدعوهم إلى الخير ، بل يبلغ بهم بهم الأمر أن ينقادوا للعدو وهم يعلمون أنه عدو ، ويولوا ظهورهم للخير وهم يعلمون أنه خير فى قوله تعالى (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون) (٣) .

---

(١) ٥٢ سورة العنكبوت ومواضع كثيرة بهذا التعبير .

(٢) ٢،٣سورة الصف .

(٣) ٦٠-٦٢سورة يس .

العـذاب المهـين

وأول ما يتبادر من هذا العنوان سؤالان هما :

١ - من الذين يوجه إليهم هذا العذاب ، ولماذا خصوا به ؟

٢ - ما صفة هذا العذاب ؟

ولكن قبل كل شيء ينبغي تأكيد ما سبقت الإشارة العابرة إليه ، وهو أن كل عذاب في الآخرة أليم ، ولكن بعض المعذبين حينئذ يخصهم الله بزيادة في العذاب هي الإهانة والاذلال ، فيصبح بين العذاب المهين والعذاب الأليم ما يشبه العموم والخصوص ، كما يضاف إلى العذاب الأليم في الآخرة زيادة في العذاب والإيلام النفسي ، هي الخسران .

وأما الإجابة عن السؤال الأول وهو التساؤل عمن يوجه إليهم عذاب الإهانة ، وعن السبب في تخصيصهم به ، فهي في حاجة إلى بسطة يسيرة في الحديث لإبراز جوهر الإجابة .

وهي أن هدف كل الأنبياء وكل الأديان السماوية هي الدعوة إلى الله بالحسنى ، لتبصير الناس بالدين الحق ، وتحذيرهم من عاقبه الصدود عن الحق والخير ، حتى يكون الدين بما فيه من عقيدة وتشريع وغيبيات واضحا في عقولهم ونفوسهم ، وحين يستطيع الأنبياء والدعاة إلى الله توصيل هذه الدعوة إلى عقول الناس يكونون قد أدوا واجبهم الأصلي ، ثم يتحمل كل فرد من الناس مسئوليته أمام الله مستقلا بنفسه ودون ارتباط بأحد إلا أن يكون تعاونا على الخير ، أما المسئولية نفسها فكل امرئ قائم بذاته فيها أمام الله ، لا يغني عنه أحد ، ولا يغني هو عن أحد شيئا مهما تكن صلته بهذا الأحد .

ولو أن الأمور تركت على طبيعتها بهذا اليسر ما دارت حول الأديان مشاكل ، فلو ترك كل نبي أو داعية إلى الدين ليبلغ دعوته إلى الناس ، ثم يترك لهم كامل حريتهم في أن يؤمنوا بدعوته أو يكفروا بها ، وفي أن يصدقوه أو يكذبوه في ادعائه أنه رسول من الله إليهم لما كانت بين النبي وبينهم مشاكل ، فمهمة أي نبي أن يبلغ رسالة الله إلى الناس واضحة ثم لا عليه بعد

ذلك أن يؤمنوا أو يكفروا ، لأن حسابهم عند الله وليس عنده هو ، وهذا المعنى يتكرر فى القرآن كثيرا جدا وبأساليب متعددة متنوعة ، كقوله تعالى مخاطبا رسوله (فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر) (١) وكذلك قوله تعالى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (٢)

ولكن الذى يحدث دائما مع كل نبى وكل داعية إلى الدين على الإطلاق وبدون استثناء أن ينبرى بعض الناس فيتصدوا لهذه الدعوة ، ليحولوا بينها وبين الوصول إلى الناس ، أو ليصدوا الذين وصلت إليهم عن اتباعها والإيمان بها ، بل أن يحاولوا بكل جهدهم انتزاع الإيمان من نفوس الذين آمنوا بها ، وكانت هذه سنة ملتزمة ضد كل نبى وكل داع إلى الله ، ولا زالت هذه السنة قائمة ظاهرة ضد كل دعوة حق إلى دين الله ، فما إن تطل هذه الدعوة برأسها حتى يتكالب عليها أعداء الله فى أى مكان على وجه الأرض ، وفى أى عصر من عصور الزمان حتى اليوم ليحاولوا بكل ما يملكون من جهد أن يطفئوا نورها وأن يكتموا أنفاسها ، وأن يصدوا الناس عن اتباعها بمحاولة تشويهها وتشويه الداعين إليها ، وبكل أسلوب متاح لهم ، وما أكثر ما تتيح لهم قوتهم ، وما يمدهم به الشيطان من أساليب وفنون .

فلم ذلك ؟ ولم يتصدى بعض الناس دائما لمحاربة الأنبياء ، ومحاربة كل دعوة إلى دين حق ؟

ومن المؤكد أنهم لم يفعلوا ذلك تقربا إلى الله ، لأنهم لا يؤمنون بالله أصلا ، ولأن الله لا يتقرب إليه بالشر ومحاربة أوليائه ورسله ، ومن المؤكد أيضا أنهم لم يفعلوا ذلك من باب التسلية والترفيه ، لأن دخولهم فى أية خصومة بما تجره الخصومات من مشاكل ومتاعب أيسرها القلق وسوء الانفعالات لا يدر عليهم تسلية ولا ترفيها .

بل لابد أن تكون لهم مصلحة فى موقفهم العدائى من الأنبياء ودعواتهم ، وهذه المصلحة نستطيع أن نتبينها فى غير جهد إذا وضعنا أنفسنا مكانهم ، وتمثلنا الموقف من وجهة نظرهم ، لا من وجهة نظر الأنبياء وأتباعهم ، وحين ننظر إلى الموقف بمنظارهم هم نجد أن الله سبحانه

---

(١) ٢١-٢٢ سورة الغاشية .

(٢) ٢٩ سورة الكهف .

خلق المجتمعات على أساس تعدد الطبقات فيها ، بحيث يتفاوت نصيب كل طبقة عن نصيب الطبقة الأخرى من مصادر القوة فى المجتمع ، ومصادر القوة عادة فى أى مجتمع ثلاثة ، هى المال والجاه والسلطة ، فصاحب المال لابد أن يكون مركز قوة فى مجتمعه حسب أهمية ماله وسعته ، ولابد أن يكون له نفوذ ولو على العاملين فى استثمار ماله ، أو المتعاملين معه أو المستفيدين منه أو المتطلعين إلى الاستفادة منه أو المعجبين به ، وصاحب الجاه فى المجتمع كزعماء الجماعات أو الأحزاب أو طوائف العمال ومن فى حكمهم لابد أن يكون لهم نفوذ ونوع من السلطة الاجتماعية فى محيط أتباعهم ، وصاحب السلطان السياسى وهو الحاكم من البدهى أن له نفوذا بحكم سلطانه .

فأصحاب هذه المصادر الثلاثة ومن فى حكمهم هم أصحاب القوة والقيادة والتوجيه فى أى مجتمع مهما تفاوتت القوة فيما بينهم ، فإن قوة كل منهم تتحدد بمقدار نفوذه وسلطانه على أتباعه .

وأصحاب هذه المصادر يمثلون طبقة القيادة أو الطبقة العليا اجتماعيا ، كما أن أتباعهم يمثلون الطبقة أو الطبقات الدنيا اجتماعيا حسب قربهم أو بعدهم من مركز القوة الذى يتبعونه أو ينتمون إليه .

كما أن هذه الطبقات الدنيا هى التى تعتمد عليها شئون الحياة المعيشية بين الناس ، فمنها كل أصحاب المهن والحرف والصناعات على اختلاف أنواعها ، صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيرها ولو أن الله جعل الناس كلهم أغنياء وسادة لفسدت الحياة وتوقفت المعيشة ، حيث لا يجد الناس نجارا ولا حدادا ولا صانع أدوات منزلية ولا حلاقا ولا غير ذلك من أصحاب المهن ، لأن كل من يصبح منهم غنيا سيترك مهنته ، حيث لن يعمل بنفسه ولن يجد عمالا يعملون لديه ، لأنهم أصبحوا أغنياء ، فتفسد الحياة وتتوقف حركتها .

فتعدد الطبقات واختلاف درجاتها سنة من سنن الله الأصلية فى الأرض ، لتنظيم شئون الحياة ، كما يقول تعالى فى سياق الرد على دعوى من دعاوى المشركين (.... وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم

فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ، ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون) (١) وسياق هذا الموقف أن المشركين بحكم ارتباطهم بوضع الطبقات الاجتماعية يرون أنه ما دام النبى لابد أن يكون له أتباع فكان لابد أن يكون من يختاره الله للنبوة من طبقة القيادة فى المجتمع ، ومحمد لا هو صاحب مال ، ولا هور زعيم ، ولا هو صاحب سلطان ، فلا يصلح فى رأيهم أن يكون نبيا يتبعه الناس وينقادون له ، أما الذى يصلح لهذا الوضع فى نظرهم فلابد حينئذاك أن يكون أحد زعيمين ، إما الوليد بن المغيرة المخزومى فى مكة أو عروة بن مسعود الثقفى فى الطائف ، فهما اللذان لا ينازع أحد فى استحقاقهما الزعامة والقيادة الاجتماعية ، بخلاف محمد .

فالله سبحانه يرد عليهم ليس فى دعواهم هذه فحسب ، وإنما يبسط القضية كلها ، وهى أنه ليسوا هم الذين ينظمون الحياة ، بل الله هو الذى وضع نظامها فى حكمة تعلو فوق عقول البشر ، فهذا له الغنى وهذا له الفقر ، وهذا له القوة ، وهذا له الضعف ، وهذا النبوة ، وهذا له الكفر ، وهذا فى مهنة كذا ، وهذا فى مهنة كذا ، وأن الله جعل بينهم هذه الطبقية وهذا التفاوت والاختلاف ليستطيع بعضهم تسخير بعض فى شئونه ، وهذا التسخير لا يرتبط بالغنى والفقر ولا بالقوة والضعف بل هو سنة الحياة كما رسمها سبحانه ، فقد يسخر الفقير تجارا غنيا فلا يرفض تسخيره ، أو يسخر طبيبا غنيا أو مهندسا غنيا فى بعض شئونه ، فلا يرفض أحد منهم هذا التسخير لأنه مهنته التى يزاولها لكل من يطلبها ، كما يقول تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا) أى تسخيرا .

ثم يوضح الله جانبا من قمة الحكمة فى اختلاف أوضاع الناس فى الحياة ، مشيرا إلى التأمل فيما لو كان الناس جميعا أغنياء مترفين ، وفيما يترتب على هذا من رفض كل أحد أن يسخره أحد آخر حين يصبحون جميعا متساويين فى الغنى ، بل فى الترف فيكونون أمة واحدة

---

(١) ٣٣، ٣٢ سورة الزخرف .

متساوية فيختل نظام الحياة ، وتفسد معيشة الناس ، فيقول تعالى (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ....)[١] وحينما نزلت هذه السورة فى مكة كان المجتمع كله كافرا باستثناء بضع عشرات هم الذين اعتنقوا الإسلام ، ولو جعل الله الكافرين يومذاك أغنياء لجعل كل المجتمع أغنياء باستثناء هؤلاء الأفراد ، وهم فى تمنيهم الغنى لم يكونوا يريدون غنى عاديا ، بل كانوا يقولون للنبى إن كان ما تقول عن ربك وعن قدرته على كل شيء حقا فليجعل جبال مكة ذهبا ، وليجعل كذا وكذا ، فالله سبحانه يرد عليهم ضمنا بأنه سبحانه يستطيع أن يفعل ذلك حتى يصبح كل فرد منهم يعيش فى قصر من طوابق ، وله سلالم يعرجون فيها إلى أعلى ، وأسقف قصورهم من فضة ، وكذا وكذا ، ولكنهم حين يصبحون كذلك فستتوقف حياتهم ومعيشتهم لأنهم لن يجدوا من يرعى أو يزرع أو يصنع أو يخدم أو يزاول أى عمل لأنهم أصبحوا متساويين (أمة واحدة) فى الغنى والترف .

وإذن فسنة الله أن يكون الناس مختلفين ومتفاوتين فى أنصبتهم من مصادر القوة فى كل مجتمع ، وأى إخلال بنظام الله فهو إفساد لا تصلح به الحياة ، وقد رأينا كيف فشلت محاولة النظام الشيوعى الذى يحاول أن يجعل الناس جميعا متساوين فى أنصبتهم من مصادر القوة ، وبدل أن يصلحوا الحياة بهذا النظام كما كانوا ينادون ويملأون الدنيا ضجيجا بأوهامهم فى المساواة بين الناس إذا هم يفسدون حياتهم كلها ويغرقون شعوبهم فى المجاعات والمشاكل التى تستعصى على أى حلول .

ونعود إلى أصل الحديث وهو موقف أعداء الدين من الأنبياء ودعواتهم وأتباعهم فنقول إننا حين ننظر إلى الموقف من وجهة نظر هؤلاء الأعداء نجد أن من مصلحتهم بقاء أوضاع الطبقات الاجتماعية كما هى دون مساس بها ، ولكننا حين نتساءل عمن يكون هؤلاء الأعداء ؟ ومن أى طبقة هم ؟ نجد أنهم أصحاب مصادر القوة فى المجتمع ، أصحاب المال ، وأصحاب الجاه والنفوذ ، وأصحاب السلطة ، فهؤلاء من مصلحتهم أساسا بقاء الأوضاع الطبقية دون المساس بها ، لأن قوتهم تعتمد على هذه الطبقية ، بل هم يستمدون قوتهم فى المجتمع من هذه الطبقية ، فصاحب المال يستمد قوته من أن المستفيدين من ماله عملا عنده أو تعاملا معه

---

(١) ٣١ سورة الزخرف

يصبحون كأنهم أتباع له ، وكأنه صاحب سلطة عليهم ، والزعماء الاجتماعيون يستمدون سلطتهم وزعامتهم من كونهم يمثلون السيادة والقيادة ، وأتباعهم يمثلون الخضوع والانقياد ، وأصحاب السلطان يستمدون قوتهم وسلطانهم من سيطرتهم على المحكومين ، وخضوع المحكومين لهم .

ولكن الإيمان بالله الذى يدعو إليه كل نبى يفسد على أصحاب القوة فى المجتمعات كل شىء فيما يتعلق بقوتهم ونفوذهم .

هذا مع أن الإيمان بالله لا يغير شيئا من سنة الله فى تعدد طبقات المجتمع واختلافها ، بل من البدهى أن الإيمان يثبت كل شىء يتصل بالله ومنه هذه الطبقية ، ولكنه يحدث تغييرا جوهريا وجذريا فى مصادر القوة من جهة ، وفى ارتباط الأتباع بهذه المصادر من جهة أخرى ، فأما فى المصادر فإن الإيمان الحقيقى بالله يسلب من أصحاب مصادر القوة الشعور النفسى بأنهم يملكون هذا المصدر للقوة ، فصاحب المال ليس هو المالك الحقيقى للمال ، ولكن المالك الحقيقى هو الله ، ثم استخلف الله الغنى مكانه فى إدارة هذا المال ، وجعله أمينا فى تصريف هذا المال حسب خطة يصنعها له الله ، هى التشريع الدينى ، فيسلب الغنى أهم ما يعتز به نفسيا وهو المباهاة بما يملك ، والاستفادة من هذه الملكية لشخصه ومنزلته فى المجتمع .

وصاحب الجاه أيضا يشعر نفسيا بأن هذا الجاه ليس ملكه ، وإنما هو نعمة من الله ، وعليه أن يسخر هذه النعمة فى طريق الله ، فلن يستفيد منها كما تعود شموخا بأنفه وتيها بمجده وتعاليا بجاهه .

وصاحب السلطان يجد نفسه فى الإيمان الحق بالله يحمل بهذا السلطان عبئا بالغ الثقل ، حيث يشعر بأنه مسئول ومحاسب على كل صغيرة وكبيرة من هذه السلطة ، فتتحول كل مزايا السلطة التى لم يكن لها حدود إلى أعباء وأثقال نفسية ، فيصبح ضيقه بثقل السلطة أكثر وأشد من استمتاعه بها .

ولكن الشيء الخطير الذى تغص به حلوق أصحاب القوة جميعا ولا تستسيغه نفوسهم أن يتحولوا من زعماء وقادة ومتبوعين إلى أتباع للنبى ، بل يجدون أنفسهم فى تبعيتهم للنبى فى صعيد واحد متساويين مع الخدم والفقراء والعبيد ، بل قد يجدون بعض هؤلاء الخدم والعبيد أعلى منهم منزلة عند النبى ، وهذا ما فزع منه كل أصحاب القوة وصبوا استنكارهم وسخطهم الجامع عليه فى مواجهة كل الأنبياء فى كل العصور .

وأما فيما يتعلق بالأتباع فإن إيمانهم بالله سيصيب السادة والقادة بخسارة لا تقل فداحة عن الخسارة السابقة ، لأن الإيمان بالله سيهدم تبعية الأتباع لهم هدما ويقوضها تقويضا ، لأن الاتباع سيحولون وجهتهم وتبعيتهم إلى الله وإلى النبى وليس إلى السادة والقادة وأصحاب المال ، فأتباع الغنى مثلا بعد أن كانوا يعتقدون أن رزقهم مرتبط بهذا الغنى ، وأنه يستطيع أن يقطع عنهم رزقهم فيتضورون جوعا ، يصبحون بالإيمان وهم موقنون بأن رزقهم عند الله وليس عند الغنى ، وأن الغنى إذا قطع عنهم ما ينالون منه فإن الله لا شك متكفل برزقهم ولو من حيث لا يحتسبون أو يتوقعون ، وكذلك أتباع ذى الجاه بعد أن كانوا يعتقدون أنه يملك أن يضرهم ، وأن غضبه عليهم يضعهم فى ورطة لا مخرج منها يصبحون حين يؤمنون بالله يوقنون بأن أحدا ولو كان هذا الزعيم لا يملك أن يصيبهم بخير أو شر أو ضرر إلا بإرادة الله ، وكذلك فى نظرة المحكومين إلى الحاكم ، بعد أن كانوا يعتقدون أن كل شئونهم ، بل حياتهم نفسها فى قبضة الحاكم ، حتى إن أى ملك كان يبلغ من السلطان أن يأمر بقتل من يريد فردا أو جماعة فلا يملك أحد أو يستطيع أن يسأل لماذا أمر بما أمر ، ولكنهم بعد الايمان بالله فضلا عن أنهم يشعرون بأن أحدا ولو كان الحاكم لا يملك أن يصيبهم بشيء إلا بارادة الله ، فضلا عن ذلك فإنهم يشعرون بأنهم يستطيعون أن يسألوا وأن يعترضوا بل وأن يلزموا الحاكم أن يسير وفق الإيمان وشريعة الدين ، فلا يأمر بشيء إرضاء لنفسه وسلطانه ، وإنما هو منفذ لتشريع محدد يعرفه كل الناس ، فيعرفون متى أخطأ هذا الحاكم ومتى أصاب .

فالأتباع إذن سيعتقدون بالإيمان بالله أن رزقهم ليس فى يد الأغنياء ، وأن ما يصيبهم ليس فى يد الزعيم أو الحاكم ، ولكن شعارهم الذى يملأ نفوسهم (وفى السماء رزقكم وما

توعدون) (١)

ومن هذه الزاوية يتبين بوضوح أن الإيمان بالله مصلحة عظمى للأتباع ، لأنه يحررهم نفسيا من قبضة الأقوياء ومن الخضوع النفسى لهم ، بينما الإيمان بالله فى نظر أصحاب القوة من الأغنياء وذوى الجاه والسلطان كارثة عظمى تهدم أساس قوتهم ، وتسلبهم صفتهم فى المجتمع وهى السيادة والقيادة ، بسلب الأتباع منهم ، وتقلب حياتهم رأسا على عقب ، حيث تحولهم من سادة وزعماء ومتبوعين إلى مجرد أتباع لمن هو دونهم شأنا فى المجتمع ، ويصبحون بهذا الإيمان لا يزيدون شيئا عن الخدم والعبيد ، بل قد ينقصون عنهم فى المجتمع ، وهكذا تكون نظرتهم إلى كل نبى أو داعية إلى الدين الحق .

وإذن فالذين يتصدون بالعداوة والحرب للأنبياء وأديانهم وأتباعهم ليس الفقراء ولا الأتباع وانما أصحاب القوة فى كل مجتمع ، لأن هؤلاء من مصلحتهم فى المجتمع بقاء الأوضاع كما هى ، بحيث يظلون هم القادة والسادة ، ويظل المجتمع خاضعا لهم ومسوقا بعصاهم ، ولذلك ما إن تظهر دعوة إلى الله إلا ويبادر هؤلاء إلى محاولة خنقها والقضاء عليها ، ويؤكد القرآن هذه الحقيقة فى أكثر من موضع وبأكثر من أسلوب كقوله تعالى (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ، وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين)(٢) وكذلك قوله تعالى (وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) (٣) فهى سنة ملتزمة فى كل زمان وكل مجتمع على الإطلاق أن يكون أصحاب مصادر القوة فى كل مجتمع وهم الذين يصفهم القرآن بالمترفين هم الذين يسارعون إلى التصدى للدين بكل ما أوتوا من قوة ومن فنون فى التصدى لتظل الأوضاع التى ورثوها عن الأجيال السابقة كما هى ، فتظل سيادتهم وقوتهم ومنافعهم ثابته لا يهددها شىء ، ولكنهم يجدون دعوات الأنبياء تزلزل الأرض تحت أقدامهم ، وتفقدهم توازنهم وثباتهم ، حيث يشعرون بأنهم سيفقدون كل ما تقوم عليه قوتهم فى المجتمع ،

---

(١) ٢٢ سورة الذاريات .

(٢) سورة سبأ ٣٤، ٣٥

(٣) ٢٣ سورة الزخرف .

ويصبحون نكرات بعد أن كانوا أعلاما .

وهنا لابد أن يثور سؤال بالغ الأهمية لارتباطه بصلب الحديث ، وهو أن يقال : ولكن أصحاب مصادر القوة فى أى مجتمع هم فى العادة قلة قليلة ، بل هم أفراد ، فما قيمة رفضهم الدعوة إلى الله ما دامت الغالبية العظمى فى المجتمع وهم عامة الناس لا يرفضون هذه الدعوة ، لأنهم لا مصلحة لهم فى رفضها ، بل مصلحتهم فى اعتناقها ؟

والجواب أيضا يتعلق بصلب الحديث ، بل هو بداية صلب الحديث ، وهو أن خطورة أصحاب مصادر القوة فى المجتمع هم القابضون على نواصى العامة والأتباع ، وهم الذين يوجهون هذه الغالبية العظمى فى المجتمع ، حتى يكاد العامة يفكرون بتفكيرهم ، وينظرون إلى كل شىء بمنظارهم ، وما دام القادة يعادون الدين ويحاربونه فالعامة وراءهم كذلك ، ومن الحكم المأثورة (الناس على دين ملوكهم) وليس المراد الملوك المتوجين ، وإنما المراد أصحاب القوة والقيادة فى المجتمع ، ومن نظريات ابن خلدون المشهورة قوله (المغلوب مولع أبدا بتقليد الغالب) (١) فكل منهم ينقاد له أتباعه بمقدار قوته ونفوذه فيهم ، وما دام كل أصحاب القوة والنفوذ فى المجتمع متفقين على حرب الدين ومقاومته فلابد أن يصبحوا سدا منيعا بين الدين وعامة الناس ، لأن الأتباع سوف ينقادون لهم فى الإعراض عن الدين والنفور منه .

ومن هنا نتبين لماذا كان الواحد من الأنبياء يقضى حياته كلها فى الدعوة إلى الله فقد لا يستجيب له إلا نفر قليل قد لا يبلغون عدد أصابع اليدين ، أو اليد الواحدة فى بعض الأحيان .

ومن هنا أيضا نستطيع أن نفهم لماذا اجتذب الإسلام هذا العدد الهائل من الأتباع فى سنوات قليلة ، فإن الإجابة عن هذا التساؤل أن السبب يرتكز فى هذا النجاح للإسلام على دعامتين لم تعرف البشرية فى تاريخها أقوى منهما ، ولذلك كان أثرهما خارقا لما تعودته حياة البشر على الإطلاق :

---

(١) هذا عنوان فصل فى مقدمة بن خلدون .

(١) فأما الدعامة الأولى فهى القرآن الذى بهر المجتمع العربى بمنطقة الواضح المحدد ، وبلاغته الأخاذه المسيطرة على المشاعر ، وبشىء بالغ الأهمية فى هذا المجال ، وهو أن القرآن صب حملة رهيبة مرعبة على أصحاب مصادر القوة ، ليبصر الأتباع بحقيقة موقفهم من الأتباع ، وحقيقة موقف الأتباع منهم بأساليب شديدة التنوع وبالغة التأثير كما سنعرض لبعض منها فيما نستقبل الآن من الحديث ، وكان من أبرزها السخرية الموجعة من أصحاب مصادر القوة ، وكذلك تصويرهم فى صور بالغة الإهانة لهم والتحقير من شأنهم ، والتركيز على أنهم لا يملكون لأنفسهم ولا لأتباعهم شيئا ، وعلى أن الأتباع يخدعون أنفسهم ويلقونها فى التهلكة حينما ينساقون وراء هؤلاء السادة والقادة .

(٢) وأما الدعامة الثانية فتتمثل فى شخصية نبى الإسلام التى جمع الله فى تكوينها كل مزايا البشر ، وفى الوقت نفسه جردها من كل مساوئ البشر ، حتى إن أحدا من أعدائه على كثرتهم وعلى احتدام العداء بينه وبينهم لم يستطع أن يعثر فى شخصيته على خدش يسىء إليها ، ولا فى حياته كلها سواء قبل بعثته أو بعدها على هفوة تسىء إلى خلقه ، وما زالت أمم كثيرة تناصبه وتناصب دينه ألد العداوة ، فلم يستطيعوا منذ عشرات القرون أن يعثروا فى تاريخ حياته على أدنى هفوة تسىء إليه ، بل ما زال يبهر هؤلاء الأعداء بجوانب العظمة وسمو الخلق فى شخصيته حتى مع إنكارهم نبوته ، ومن أحدث ما اعترف به أحدهم هذا الكتاب الذى يحمل شعار أن عظماء التاريخ مائة وأعظمهم محمد .

وليس من المبالغة ولا من الشطط فى شىء أن يقال إن شخصية محمد صلى الله عليه وسلم لذاتها معجزة ، حيث لا يستطيع منصف أن يقول إن فى تاريخ البشرية كلها شخصية أخرى تنافس شخصية محمد أو تساويها ، ويمكن أن يقال إن أبرز جوانب الإعجاز فى شخصيته يتمثل فى أمرين ، أحدهما أنه جمعت فيه كل المزايا مجردة من أية مساوئ ، والآخر أنه جمع فى بعض صفاته ما يكاد يشبه المتناقضات التى لا تجتمع فى شخصيته ، فمثلا بينما هو لين بالغ اللين مع كل الناس كما يصفه ربه سبحانه (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك) (١) وهو لا يفقد شيئا من لينه وحلمه حتى حينما يتعرض

(١) ١٥٩ سورة آل عمران .

للأذى من السفهاء ، ولكنه فى مواقف الشدة والبأس يتحول إلى قوة هائلة تصغر بجوارها أية قـوة ، وهذا على بن أبى طالب الذى لم ينازع طوال حـياته فى أنه فـارس العـرب وأشـجع الشجعان يقول كنا إذا اشتد البأس وحمي الوطيس أى فى الحرب نتقى برسول الله فما يكون أقرب إلى العدو منه ، ومما يؤيد هـذا موقف النبى يوم أحد ، حيث انهزم المسلمون تحت ذهول مفاجأة خالد بن الوليد بالهجوم عليهم ، وقد انفض المسلمون عن النبى وأصيب يومئذ بأكثر من إصابة ومع ذلك كان حينئذ أشد ثباتا وثقة فى الله وفى نفسه حتى إنه طعن عدو الله وعدوه أمية بن خلف طعنة ما لبث أن فارق بها الحياة ، وتكرر هذا المشهد بصورة أصعب وأقسى يوم حنين ، حيث انهزم المسلمون جميعا تحت هول المفاجأة وانفضوا من حول النبى ، وكيف أن النبى وقف وحده وهو راكب بغلته فكان أشد ثباتا وثقة فى الله وفى شجاعته فأخذ يقول (أنا النبى لاكذب ، أنا ابن عبد المطلب) (١) ، ومع ذلك فالإعجاز ليس فى لين الخلق وحده ، ولا فى هذا المستوى من الشجاعة وحده ، وإنما الإعجاز فى اجتماعهما معا فى شخصية واحدة ، لين إلى أقصى حدود اللين ، وقوة وشجاعة إلى أقصى حدود القوة والشجاعة ، فرغم ما بين الصفتين مما يشبه التناقض إلا أنهما كانتا كاملتين فى شخصه ، وكانتا أيضا من أبرز عوامل الجذب إلى الإسلام وانتشاره بهذه الصورة الخارقة للعادة فى تاريخ الأديان ، فقد كان لينه وخلقه العظيم يمثل جاذبية شديدة إليه وبالتالى إلى اعتناق دينه ، وبالتالى أيضا يصبحون دعاة لأقوامهم وغيرهم إلى الوفود إلى محمد واعتناق دينه ، كما أن جانب القوة فى شخصية النبى كان يمثل هيبة ورهبة شديدة لأعدائه ، ومن آثار ذلك هذا الحديث النبوى الذى يذكر النبى فيه أن الله خصه بخمس لم يعطهن أحد قبله ، ومن هذه الخمس (نصرت بالرعب) (٢) وفى رواية (نصرت بالرعب مسيرة شهر) (٣) بمعنى أنه حينما يتجه إلى عدو لقتاله يلقى الله الرعب فى قلوب هؤلاء الأعداء قبل أن يصل إليهم بكثير أى منذ يعلمون أنه متوجه إليهم ، ولا شك أن أعداءه القريبين منه كانوا يشعرون بهذه الهيبة ، ولعل من آثار ذلك أن فجار قريش وسفهاءهم

---

(١) صحيح ، أخرجه الشيخان عن البراء بن عازب .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة .

(٣) رواه أحمد عن ابن عباس مرفوعاً .

لم يكونوا يجرؤون على أن يمدوا إليه أيديهم بسوء رغم حرصهم على ذلك ، بل ولم يكونوا يواجهونه هو بالإيذاء باللسان ، وإنما يصبون اضطهادهم على أتباعه ، وسفه ألسنتهم على دينه .

ولكن النتيجة أن لين خلق النبى كان يجذب الناس إلى الإسلام ، كما أن هيبته كانت تدفعهم أيضا إلى الإسلام اتقاء لغضبه .

وإذن فقد كانت المعجزتان ، معجزة القرآن ، ومعجزة شخصية النبى هما السبب فى سرعة انتشار الإسلام بهذه الصورة التى أذهلت المؤرخين ، لأنها كانت خارقة للعادة بالقياس إلى كل الأديان السابقة ، فهاتان المعجزتان كونا قوة هائلة كانت أقوى من مقاومة أصحاب القوة والنفوذ ، وهذه القوة الهائلة أصبحت هى قوة الإسلام ، وقد دخلت فى صراع مرير مع قوة أصحاب النفوذ فى المجتمع فى مكة ، فلما أتيح لها أن تنتقل إلى الأرض الخصبة فى يثرب ازداد عودها صلابة وقوة ، فأخذت قوة أصحاب النفوذ فى المجتمع العربى كله تنهار أمامها شيئا فشيئا حتى أعلنت استسلامها فى فتح مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا وليسوا فرادى .

ولكن معجزة سرعة انتشار الإسلام وعلو رايته كانت قد تحققت قبل ذلك بكثير ، فمنذ استقرار النبى فى المدينة أصبح الإسلام أمة متكاملة ، ، فيها كل مقومات الدولة والأمة ، ومعنى ذلك أن الإسلام أصبح أمة متكاملة فى نحو عشر سنوات فقط ، وكانت هذه هى المعجزة التى حيرت المؤرخين .

وهذه البسطة من القول ليست استطرادا أو إبعادا عن مسار الحديث ، وإنما هى توضيح لموقف أصحاب مصادر القوة فى المجتمع ، المال والجاه والسلطان من الدين ، وبيان مدى خطورة موقفهم على الدين ، وإجابة عن سؤال يقتضيه المقام ، وهو ما نوع العقاب الذى خص الله به هؤلاء السادة والقادة ؟

والجواب يتضمنه عنوان هذا الفصل وهو (العذاب المهين) ، وذلك لسببين :

(١) أحدهما ما يمكن أن يلحظه المتأمل فى عذاب الله ووعيده من أنه يكون عادة عكس ما يعتز به الموجه إليهم العذاب ، حيث يكون نوع العذاب هدما لما بنى عليه الكافر كفره وعداوته لله ورسله ، كما لحظنا فى عقاب أصحاب الفيل ، حيث اعتمد كفرهم على ضخامة أفيالهم ، فجعل الله عقابهم بأصغر الأشياء وأوهاها ، وكذلك عقاب عاد الذين اعتزوا بقوتهم فجعل الله عقابهم بأرق الأشياء وهو الهواء ، ومن هذا القبيل عقاب أصحاب مصادر القوة فى المجتمع ، فإن مشاعر القوة من شأنها أن تملأهم غرورا وكبرياء ، فيجعل الله عذابهم ليس بمجرد الألم البدنى ، وإنما يكون أساسا بالإذلال والإهانه ، لأن هذا هو عكس ما يشعرون به ، وهو المعول الذى تهدم به كبرياؤهم .

(٢) لما كانت خطورة أصحاب مصادر القوة ليست فى كفرهم هم ، وإنما فى منعهم جموع الأتباع من اعتناق الدين ، ولما كان هؤلاء الأتباع ينظرون إلى هؤلاء السادة والزعماء نظرات فيها الإعجاب وفيها الخوف ، فإن القرآن يصب على هؤلاء السادة والزعماء حملة عاتية ، فيها كل ما من شأنه أن يذهب عنهم هالة العظمة والعزة التى يحيطون بها أنفسهم والتى هى مصدر اعجاب أتباعهم بهم أو خوفهم منهم ، وذلك ليفيق الأتباع ويذهبوا عن عيونهم أغشيتها ، فيروا هؤلاء السادة والزعماء دون إعجاب بهم أو خوف منهم ، بل يرونهم موضع سخرية ، وموضع إهانة ، هى سخرية القرآن منهم ، وإهانته إياهم ، فيتحقق هدف القرآن وهو سلخ الأتباع من تبعيتهم وانقيادهم لأئمة الكفر ليولوا وجوههم شطر الله ورسوله ودينه .

وأما عن طبيعة هذا العذاب المهين ، فإن المتأمل فى أسلوب القرآن يلحظ أنه نوعان ، نوع فى الدنيا ونوع فى الآخرة ، فأما عذاب الدنيا فهو عقاب نفسى ، ويتمثل فى السخرية ، وأما عذاب الآخرة فرغم أنه فى جهنم إلا أن أبرز ما يرتكز عليه هو الإهانة والإذلال ، ويمكن عرض ذلك فى شىء من البسطة كما يلى :

أولا : السخرية فى الدنيا :

السخرية عنصر ملحوظ بوضوح فى القرآن ، وحين نتأمل مواضعه فى القرآن نجد أنه موجه فى أغلب الأحيان إلى الذين نتحدث عنهم بأنهم أصحاب مصادر القوة فى المجتمع ،

والذين يصفهم القرآن بأنهم (أئمة الكفر) (١) أى زعماء الكفر وقادته ، فالقرآن يركز سخريته عليهم ، لأن السخرية أشد الأساليب نيلا من نفسية من نريد إيلامهم ، حيث يتفق كل النقاد فى كل المجالات على أن أسلوب السخرية أوجع الأساليب وأشدها تأثيرا فى نفس من توجه إليه ، لأنه يشعر بأنه أصبح أضحوكة للناس ، وليس موضع تقدير منهم ، ولذلك يقول علماء النفس إن أسلوب السخرية أنجع الأساليب فى معالجة العادات والتقاليد الراسخة وتغييرها ، لأن من يزاول شيئا ولو كان عادة مقدسة ينفر من سخرية الناس فى مزاولته إياها لأنه لا يحب أن يكون موضع استهزاء الناس به ، وكذلك علماء البلاغة يقولون إن اسلوب السخرية أشد أساليب الهجاء إيلاما ، ومن هذا القبيل قول الحطيئة وهو أستاذ فن الهجاء فى الشعر العربى إذا هجوت فأضحك ، أى اجعل السامع يضحك من المهجو .

ولكن سخرية القرآن من هؤلاء السادة الذين يقفون عقبة فى طريق الدين لا تنافسها سخرية ، ومن ثم فإن تأثيرها لا ينافسه تأثير ، وذلك لسبب جوهرى يميزها عن أية سخرية أخرى ، وهو اعتماد كل عناصرها على الصدق والتزام الحقيقة ، وسخرية القرآن من السادة المغرورين المتكبرين مجال واسع يحتاج إلى بحوث مستقلة (٢) ولكننا نسوق بعض الأمثلة لمجرد إثبات أصل الموضوع ، ومنها :

(١) السخرية من المظهر الذى يتخذه المتكبرون المختالون على الناس بجاههم وقوتهم حيث تصور سخرية القرآن الواحد منهم فى صلفه ولى عنقه واشاحته بوجهه فى صورة جمل مريض بالصعر (بفتح الصاد المشددة والعين) وهو مرض معروف لكل العرب حيث يصيب الإبل فيلوى أعناقها فيسير المصاب به وصدره إلى أمام بينما عنقه منحرف إلى جهة أخرى ، وذلك فى قوله تعالى على لسان لقمان (ولا تصعر خدك للناس) (٣) فالقرآن يرسم صورة

---

(١) ١٢ سورة التوبة .

(٢) انظر كتاب اسلوب السخرية فى القرآن وكتاب التصوير الساخر فى القرآن للمؤلف طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٣) ١٨ سورة لقمان .

تعبيرية (كاريكاتيرية) بالغة الدقة وبالغة السخرية من هذا المغرور ، وميزة الصدق فيها أن التشبيه حقيقى وليس مجرد سب وشتم كالهجاء البشرى ، لأن التكلف فى المظهر وفى أى شىء معروف فى علم النفس بأنه تعويض عن شعور بالنقص ، فالذى يتحدث عن شجاعته مثلا بصورة متكلفة إنما يعرض شعوره بالنقص فى الشجاعة ، والذى يتحدث إلى شخص بتكلف عن إخلاصه له إنما يدل على شعوره بنقص فى هذا الاخلاص وهكذا ، فالتكلف فى الظهور بمظهر العظمة دليل على الشعور بنقص فى العظمة ، والشعور بالنقص مرض نفسى ، فشبه فى القرآن بمرض عضوى هو الصعر ، وكلاهما مرض ، فالصورة قائمة على حقيقة ، والجديد فيها هو التصوير الساخر المضحك ، الذى يجعل الأتباع حينما يرون شخصا من سادتهم وقادتهم يمشى بهذا المظهر يضحكون منه فيما بينهم وبين أنفسهم حيث ترتبط هذه الصورة فى أذهانهم بصورة الجمل المريض بالصعر الذى يضحكون من مشيته المعوجة ، بعد أن كانوا يرون فى هذه المشية مظهرا للعظمة والقوة والسيادة ، وهذا ما يهدف إليه القرآن أساسا ، وهو أن ينتزع من نفوس الأتباع الإعجاب بسادتهم الضالين ، والانقياد لهم فى ضلالهم ، هذا فضلا عن أن المغرور نفسه حينما يسمع هذا التصوير الساخر منه لا يستطيع أن يصطنع هذا المظهر بعد ذلك ، لأن أحدا لا يرضى أن يجد نفسه موضع سخرية .

(٢) والقرآن يسخر أيضا من الذين تطغيهم القوة فتمتلىء نفوسهم غرورا وزهوا بقوتهم ونفوذهم ، فيمشون بين الناس بهذا الزهو ، وقد استصغروا كل شىء ، واحتقروا كل من تقع عليه أعينهم ، فيرسم القرآن للواحد منهم صورة تعبيرية (كاريكاتيرية) ساخرة ، عناصرها من البيئة العربية الصحراوية ، وهى صورة شخص يمشى فوق أرض صخرية ، بجوار جبل شامخ ، وقد امتلأت نفس هذا الشخص بغرور القوة ، حتى يخيل إليه أنه أقوى من كل شىء ، وأكبر من كل شىء ، وسخرية الصورة تتمثل فى أن غرور القوة يخيل إليه أنه يستطيع خرق الأرض بقدمه ، وأنه ينافس هذا الجبل فى شموخه ، مع أن قوته لا شىء بجوار صلابة الأرض التى يمشى عليها ، وكيانه وشخصه لا شىء بجوار ضخامة هذا الجبل وشموخه ، ولكن صورته وهو يحاول ليس أن يؤثر بقدمه فى الأرض فحسب ، وإنما ليخرقها ، ويحاول ليس أن يعلو بقامته بجوار الجبل ، وإنما ليرتفع بقامته حتى ينافس علو الجبل ، هذه الصورة يستطيع رسام

يدوى ماهر أن يرسمها فى رسم (كاريكاتيرى) فلابد حينئذ أن تثير سخرية كل مشاهد وضحكه ، ومع ذلك فالصورة ليست مجرد شتم وسب كالذى يشيع فى هجاء البشر ورسومهم التعبيرية وانما هى تجسيد للمشاعر التى تجول فى نفس المغرور ، من تضخيمه لقدراته ومزاياه تضخيما شديدا يخرجها عن حد الاعتدال إلى المبالغة التى تصورها سخرية القرآن فى هذا التصوير الفنى البديع .

والهدف الأول من هذه السخرية موجه إلى الأتباع أساسا لتحويل نظرتهم إلى السادة الضالين من الإعجاب والانبهار إلى السخرية والاستخفاف ، فيكون هذا بداية تحولهم أو تفكيرهم فى التحول من التبعية العمياء إلى النظرة الواقعية واستخدام العقول ، وحينما تستخدم العقول بتجرد من الهوى الذاتى ومن المؤثرات الاجتماعية فإن هذا بداية طريق الرشاد الذى يدعو إليه الدين ، والصورة الساخرة هى فى قوله تعالى (ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) (١) والمراد بالمرح الزهو والغرور .

ومن الواضح أن المزهو بنفسه الذى يصعر خده للناس فى المثال السابق ، والذى يتيه كبرا وغرورا متصورا أنه لا يعلوه شىء ولا الجبال كما فى هذا المثال كلاهما لا يكون من عامة الناس ولا أوساطهم ، بل لابد أن يكون من طبقة الزعماء والقادة .

(٣) ومن الأمثلة أيضا السخرية من الذين يناصبون النبى العداء لشخصه ، كالذين كانوا يحسدونه على أن آثره الله بالنبوة ، بينما كانوا يرون أنفسهم أحق بها ، فامتلأت نفوسهم حقدا على النبى وبغضا لشخصه فضلا عن رفضهم دينه كما كان أبو جهل وأشخاص معه فى مكة ، وأشخاص آخرون فى أنحاء القبائل ، فيسخر القرآن من مناصبتهم النبى العداء دون ذنب جناه نحوهم ، ومن إضمارهم الحسد الذى لا يليق بكرام النفوس ، فتصور سخرية القرآن الواحد منهم فى صورة حيوان ، ولكنه ليس حيوانا سوى الخلقة كسائر الحيوانات ،

---

(١) سورة الإسراء ٣٧، ٣٨

وإنما هو حيوان مشوه ، حيث إنه أبتر ، أى مقطوع الذنب ، وذلك فى قوله تعالى (إن شانئك هو الأبتر) (١) والشنآن هو العداوة والبغض ، والشانئ هو العدو الحاقد ، والأبتر الحيوان المقطوع الذنب ، وهى صورة بالغة السخرية ، خصوصا إذا وجهت إلى زعيم يبلغ من السيادة إلى درجة أن يتطلع إلى منافسة النبى فى النبوة ، ومع هذا التصوير التعبيرى (الكاريكاتيرى) البالغ الإيلام للموجه إليه ، والبالغ التأثير فى نفوس من يتصورونه فى هذه الصورة إلا أن التصوير يختلف عن سخرية البشر التى تعتمد أساسا على السب والشتم والنيل من المسخور منه ، أما تصوير القرآن فإنه يعتمد أساسا على الحقيقة ليتخذ منها وسيلة للنيل من المسخور منه ، ليس لذات التحقير أو التهوين من شأنه ، وإنما لتبصير الأتباع والعامة بحقيقته حتى يزيلوا عن أعينهم غشاوة الاعجاب والانبهار بمركزه الاجتماعى ، هذه الغشاوة التى تجعلهم ينقادون له فيعرضون عن دعوة الايمان كما أعرض هو ، وأما عناصر الحقيقة التى تعتمد عليها سخرية القرآن فى هذه الصورة فمن أبرزها :

(أ) تشبيه هذا الزعيم وكل كافر بالله بالحيوان معنى يؤكده القرآن ويقرره فى أكثر من موضع كقوله تعالى (إن هم إلا كالأنعام) (٢) والأنعام الماشية ، وتشبيه المشركين بالأنعام محصور فى موقفهم الدينى ، بمعنى أنهم يشبهون الحيوان الأعجم فى موقفهم من الدين ، فالماشية ليست لها عقول ، وكذلك هم لا يستخدمون عقولهم فى موقفهم الدينى ، حيث يجعلون حجارة الأصنام آلهة يعبدونها ويتقربون إليها ، ومن الواضح أن هذا التفكير أو هذا السلوك يخلو من أى أثر عقلى ، فتشبيههم بالأنعام فى موقفهم من الدين تشبيه قائم على الحقيقة دون تحامل عليهم ، وفيما سوى موقفهم من الدين لا يتعرض القرآن للحديث عن عقولهم ، ولو كانوا

(١) آخر سورة الكوثر ، وما يروى فى سبب نزولها من أن العاص بن وائل كان يعير النبى بأنه لا عقب له من البنين فأخبره الله بأن هذا الشانئ ، هو الذى لا عقب له هذا غير مقنع بل ولا معقول لأكثر من سبب منها أنه لايحكم على شخص بأنه لا عقب له إلا بعد موته وهذه السورة بداهة نزلت فى حياة النبى عليه ثم أنها مكية وقد تزوج النبى بعدها فى المدينة تسع نساء وانجب ابنه ابراهيم بالمدينة . ومن الأسباب أن عدم العقب أو عدم الانجاب ليس من صنع الإنسان حتى يعاب به ، فإنما يعاب الإنسان بما يفعله وما يصدر منه اختيارا فمن باب أولى أن ينزه القرآن عن هذا القصد .

(٢) ٤٤ سورة الفرقان .

عباقرة فى شئون الدنيا وعبدوا الأصنام لكانوا فى عبادتهم الأصنام أشبه بالأنعام .

وإذن فتشبيه المشرك المعادى لشخص النبى بالحيوان تشبيه قائم على حقيقة وليس مجرد سب وشتم .

(ب) وصف هذا الحيوان الذى شبه به المشرك الشانئ للنبى بأنه أبتر ، هذا الوصف قائم على حقيقة تكرر ذكرها فى القرآن أيضا ، وذلك أن القرآن بعد أن يشبه هؤلاء المشركين بالأنعام يعقب ويضيف أنهم أسوأ حالا من الأنعام ، لأن الأنعام تؤدى ما خلقت من أجله بصورة كاملة لا عيب ولا عوج فيها ، وحياة كل نوع منها تسير بنظام ثابت مستقيم ومستقر ، والمخلوق الوحيد على وجه الأرض الذى يفسد فى حياته ، ويعصى خالقه هو الإنسان ، ومن هنا كان أسوأ من الحيوان الأعجم ، كقوله تعالى (أولئك كالأنعام بل هم أضل) (١) وكذلك قوله تعالى (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) (٢) وواضح أن تعبير (بل هم أضل) معناه هم أسوأ من الحيوان الأعجم ، وهذا المعنى يقابل وصف (الأبتر) فى الصورة الساخرة (إن شانئك هو الأبتر) لأن الأبتر حيوان أعجم ، ولكنه أقبح في منظره من الحيوان العادى ، بسبب قطع ذنبه .

(جـ) الصورة الساخرة لشانئ النبى تركز ليس على تشبيه هذا الشانئ بالحيوان فحسب ، فكل مشرك من حيث موقفه الدينى بالذات يشبه الحيوان الأعجم على وجه الحقيقة فى عدم استخدامه عقله حتى ولو كان عبقريا فى أمور الدنيا فالتشبيه حقيقى ، وكذلك كون المشرك أسوأ حالا من الحيوان الأعجم أيضا هذه حقيقة كما سبق من أن الحيوان الأعجم يؤدى وظيفته فى الحياة كاملة بخلاف المشرك ، وهذه الصورة الساخرة تشير إلى هذه المفاضلة بين المشرك والحيوان الأعجم بوصف (الأبتر) بمعنى أنه أقبح منظرا من الحيوان السوى ، ولكن سؤالا يتبادر إلى ذهن المتأمل هنا ، وهو لماذا اختير وصف (الأبتر) للدلالة على تشويه هذا الحيوان دون غيره من صفات التشويه ؟ بمعنى أنه كان يمكن أن يوصف بأنه أعرج أو أعور أو نحو ذلك ، فلماذا اختير بتر ذنبه بالذات للدلالة على تشويهه ؟

---

(١) ١٧٩ سورة الأعراف .　　(٢) ٤٤ سورة الفرقان .

وفى الإجابة عن ذلك يمكن أن يقال إن الله خلق ذنب الحيوان ليستر به عورته ، والحيوان المقطوع الذنب يكون مكشوف العورة ، وشانئ النبى يحمل عيبا خلقيا منكرا هو الغل والحسد للنبى ، وهو لا شك عيب فردى يحمله أفراد فقط ، لأن النبى لم يكن فى خلقه أو فى سلوكه قط طوال حياته ما يحمل أحدا على الإطلاق إلى بغضه أو معاداته شخصيا ، وهذه شهادة لصالح النبى لم يختلف عليها أحد من أعدائه قط ، وإنما كانت عداوتهم لدينه فحسب ، وهذا معنى لا يحتاج إلى توضيح ، فالذين يعادون النبى لشخصه ، كما يوضح تعبير (شانئك) أى معاديك أنت لشخصك ، هؤلاء الذين يعادونه لشخصه إنما يعادونه من صفة قبيحة فيهم هم ، هى الحسد ، أو من غل وحقد نابع من نفوسهم دون أن يكون قد صدر من محمد نحوهم ما يدعوهم إلى شىء من ذلك ، وكل ذلك عيب خلقى فى نفوسهم ، وكان يمكنهم أن يخفوا هذا العيب فى نفوسهم فيصبحوا كسائر المشركين ، ولكنهم أظهروا عيبهم الخلقى فى صورة إعلان عدائهم لشخص النبى وليس لدينه أو لشىء صدر منه ضدهم ، وإظهارهم العيب النفسى يشبه ظهور عورة الحيوان الأعجم حين يصبح أبتر الذنب ، فالتشبيه قائم أيضا على حقيقة ، حيث إن وجه الشبه هو كشف شىء معيب فى كل منهما ، غاية الأمر أنه فى الحيوان عيب بدنى محسوس بذاته هو العورة ، وفى شانئ النبى عيب فى خلقه ترى وتحس آثاره ، حيث إن الأخلاق كلها فى حسنها وسوئها أمور معنوية لا ترى ولا تحس ، وإنما ترى وتحس آثارها .

والذين كانوا يحملون هذا الحسد أو الحقد الشخصى للنبى بصرف النظر عن عداوتهم للدين أفراد ، كان من مشهوريهم فى مكة أبو جهل وأمية بن خلف ، وفى القبائل الأخرى عامر بن الطفيل ومسيلمة الكذاب .

وإذن فالمشبه به هو الحيوان الأعجم المبتور الذنب ، والمشبه هو المشرك الذى يحمل غلا وحقدا أو حسدا لشخص النبى صلى الله عليه وسلم فضلا عن عداوته للدين ، ووجه الشبه مراعى فى الصفتين ، بمعنى أن المشرك مشبه فى شركه بالله وعبادته الأصنام بالحيوان الأعجم فى أن كلا منهما ليس له عقل يستخدمه ، والحقد أو الحسد الذى يحمله هذا المشرك لشخص النبى يشبه العيب فى الحيوان الأعجم ، فكما أن الحيوان الأبتر أقبح فى شكله من

سائر فصيلته من الحيوان ، فكذلك الحاقد والحاسد أسوأ من سائر المشركين ، لأنه يحمل فى أخلاقه عيبا يجعله أسوأ من سائر نوعه من المشركين ، وأما أن خلقه معيب فهذا واضح ، لأنه بعدائه لشخص النبى الذى لم يتهمه حتى اعداؤه بسوء فى شخصه يدعو أحدا إلى كراهيته أو الطعن فيه ، بهذه العداوة الشخصية يكون الشانئ للنبى هو الذى يحمل العيب فى أخلاقه وليس النبى ، وهذا العيب إما أن يكون حسدا للنبى كما بدا علانية من بعض المشركين استكثارهم على محمد الذى لا يملك غنى ولا زعامة أن يكون نبيا حتى قالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (١) إما الوليد بن المغيرة فى مكة ، وإما عروة بن مسعود الثقفى فى الطائف ، ولكن لا شك أن أفرادا من البارزين فى مكة كانوا يحملون الحسد للنبى على النبوة ، حيث كانوا يرون أنفسهم أحق بها ، وقد لحظ الباحثون ذلك فى موقف أبى جهل(٢) والناس جميعا لا يختلفون فى أن الحسد عيب خلقى شديد السوء ، وإذا لم يكن هذا العيب الخلقى حسدا فسيكون غلا وحقدا شخصيا على محمد ، والحقد أيضا عيب خلقى لا يليق بالنفس الكريمة ، كما يقول عنترة الشاعر الجاهلى :

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ∴ ولا ينال العلا من طبعه الغضب

والقرآن يجعل من دعاء المؤمنين (.... ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا) (٣)

واختيار بتر الذنب دون غيره من العيوب كالعمى أو العرج أو العور هو كما سبق لأن الحيوان الأبتر مكشوف العورة بعد بتر ذنبه ، وكذلك الشانئ لشخص النبى كان يمكن أن يخفى هذا العيب الخلقى ولكنه أظهره بإعلان حقده أو حسده لشخص النبى .

ولكن هناك ملحوظة مهمة ترتبط بهذه الصورة الساخرة ، وهى لفظ (انحر) فى الآية السابقة للصورة مباشرة (فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر)(٤) فإن الأنسب لربط المعانى بعضها ببعض أنه لما صور الشانئ فى صورة حيوان أعجم قرن به الأمر بنحره حيث يبدو أن

---

(١) ٣١ سورة الزخرف .

(٢) انظر على سبيل المثال فصل صريع الحسد فى كتاب على هامش السيرة طه حسين .

(٣) ١٠ سورة الحشر . (٤) ٢،٣ سورة الكوثر

هذه إشارة إلى النبى بأنك ستقتل هذا الشانئ ، وسورة الكوثر هذه مكية وقد قتل المسلمون فعلا بعد ذلك يوم بدر سبعين من مشركى قريش معظمهم من السادة ، وأمية بن خلف بالذات طعنه النبى بيده طعنة قاتلة ولعل ذلك كان تصديقا لأمر الله النبى بالنحر ، والنحر ذبح الإبل ، ومن المناسب لضخامة منزلة هذا الشانئ فى قومه أن يشبه بحيوان ضخم كالجمل ، ومن هنا يكون أمر النبى بالنحر وليس بالذبح .

(٤) وكما عرض القرآن صورا كثيرة ساخرة لنماذج فردية من أئمة الكفر وأصحاب مصادر القوة فى المجتمع ، كل صورة تبرز فى تصوير تعبيرى (كاريكاتيرى) شخصا معينا لا يكون مقصودا لذاته ، وإنما يقصد به كل من يشبهه فى موقفه الدينى .

فكذلك ترسم سخرية القرآن صورا جماعية تعبر عن المواقف الجماعية لهؤلاء ، هذه المواقف التى لا يختلف فيها أحدهم عن الآخر ، فالمواقف أو الصفات الفردية لكل منهم فيها طابع معين ، وأسلوب خاص يميزه عن غيره ، وهذا لا يمنع أن يتفق معه أفراد أيضا فى هذا الأسلوب ولكنهم يكونون أيضا متميزين بأسلوبهم وصفتهم عن سائر زملائهم من أصحاب مصادر القوة المشركين الذين هم طبقة الخاصة .

أما الصور الجماعية التى ترسمها سخرية القرآن فإنها تعبر عن الموقف الجماعى الذى يتفق فيه كل أصحاب مصادر القوة فى المجتمع ، وان اختلفوا فى بعضه مع سائر المشركين من عامة الناس .

فالمشركون جميعا عامتهم وخاصتهم يشتركون فى رفض الدين .

ولكن طبقة الخاصة أصحاب القوة يزيدون عن العامة شدة الرفض ، وشدة النفور من الدين ، فالفارق ليس فى مبدأ الرفض ، وإنما فى درجة الرفض وأسلوبه ، حيث إن الشأن فى عامة الناس أنهم حينما يعرض عليهم أمر أى أمر ، فإنهم إما أن يقبلوه ، وإما أن يرفضوه ، ولكنهم فى كلا الحالين يفعلون ما يفعلون فى أسلوب عادى دون انفعال أو صخب أو ضجيج ، أما الخاصة أصحاب القوة فإنهم يحرصون عادة على أن يكون كل سلوكهم مثيرا للانتباه

متميزا عن سائر العامة ، ولذلك فإنهم يحرصون ما استطاعوا على استخدام وسائل الإعلام لإبراز مواقفهم ولفت الأنظار إلى أشخاصهم ، كما كانوا يحرصون دائما على استخدام الشعر ليكونوا موضع حديث الناس وعلى مشهد منهم ، فكل مسلكهم سواء فى القبول وفى الرفض ، وفى الرضا وفى الغضب يحرصون على أن يكون سلوكا متميزا يثير الانتباه ويلفت الأنظار ، والشاعر العربى القديم يعبر عن هذا المعنى الجاهلى بقوله :

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما ∴ يرجى الفتى كيما يضر وينفعا

بمعنى أن المهم أن تكون بارزا لافتا للنظر ، ولا يهم أن يكون موقفك موقف خير أو شر ، فإذا لم يكن الخير مبرزا لك فالجأ إلى الشر أيضا بصورة تلفت إليك الأنظار .

وكل الصور الساخرة التى يرسمها القرآن عنهم تشير إلى هذا المعنى وتبرزه .

كما رأينا فى صورة المزهو بنفسه الذى يمشى مصعرا خده ليلفت بمظهره هذا أنظار الناس ، وفى صورة المتكبر المنتفخ الذى يتخيل نفسه منافسا لعلو الجبال ، وحتى فى صورة الشانئ لشخص النبى نجد أنه لا يخجل بل يتعمد إظهار عيب فى خلقه هو الحسد أو الغل الشخصى مع أنه يعرف ولا يستطيع أن ينكر أنه عيب ، ولكنه كمنطق الشاعر الجاهلى السابق يريد أن يكون كل سلوكه بارزا متميزا بصرف النظر أن يكون خيرا أو شرا .

ونعود فنقول كما أن القرآن رسم صورا فردية كثيرة ساخرة لنماذج من طبقة الخاصة فكذلك رسم صورا ساخرة للمواقف الجماعية التى تشترك فيها طبقة الخاصة ، ومن هذه الصور البالغة السخرية صورة نفورهم من دعوة النبى إياهم إلى الإيمان بالله الواحد ، حيث يصورهم القرآن فى صورة قطيع من حمر الوحش فاجأه أسد ، فانطلق أفراد القطيع من شدة الخوف فى ذعر شديد ، كل حمار فى وجه من الأرض لا يلوى على شىء ، وذلك فى قوله تعالى (فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة) (١) والتذكرة هى الدعوة إلى الإيمان ، لأن الايمان مركوز فى طبيعة النفوس وتكوينها كما يؤكد علم النفس أن

---

(١) ٤٩-٥١ سورة المدثر .

الشعور الدينى غريزة فى تكوين الانسان ، ومهمة أية دعوة دينية هى التذكير بهذا الشعور الفطرى ، وتوضيح معالمه ، وتفصيل أهدافه ، ولكن المشركين أعرضوا عن هذه التذكرة ، والحمر جمع حمار ، ومستنفرة من النفور ، وهذا الوصف للحمر بالنفور يعنى أن المراد الحمر الوحشية المعروفة بشدة الحذر وشدة الخوف والنفور ، وليست الحمر الأهلية لأنها أليفة لا تنفر ، والقسورة لقب من ألقاب الأسد .

ويمكن أن يراد به الصائد ، وكلاهما يؤدى الغرض نفسه ، وهو أنه يمثل الخطر الذى تنفر منه الحمر الوحشية أشد النفور وعناصر الصورة كما يلى :

أ - مصدر الخطر فى الصورة الذى هو القسورة تقابله فى الواقع شخصية النبى فى حال دعوته هؤلاء المشركين إلى الدين .

ب - الحمر فى الصورة يقابلها فى واقع الحياة أشخاص هؤلاء المشركين ، واختيار الحمر بالذات فى التشبيه مع أن كل الحيوانات الوحشية أى غير الأليفة تخاف وتهرب من الخطر كالوحش أو الصائد ، وبعضها قد لا يقل ذعرا أو سرعة فى الهروب ، لأن الحمار يضرب به المثل فى الغباء .

والكافر فى موقفه من الدين هو فى قمه الغباء ولو كان عبقريا فى شئون الدنيا ، فتشبيهه بالحمار فى موقفه من الدين بالذات تشبيه حقيقى لا مجاز فيه ولا خيال .

جـ - شدة النفور المعبر عنه فى الصورة بتعبير (فرت من قسورة) يقابله فى الواقع نفور هؤلاء المشركين من الدعوة إلى الدين بهذه الصورة البالغة الشدة فى النفور ، لأنهم يرون فى الدين الجديد تهديداً لمصالحهم ومنافعهم وشهواتهم وأوضاع السيادة التى ورثوها ، بخلاف نفور العامة من الدين فإن الشأن فيه أن يكون محض رفض وإعراض عنه دون خوف أو فزع منه ، لأنهم ليست لهم مصالح يخشون مساس الدين بها ، وكل ما لديهم هو عقيدتهم فى الشرك ، فإما أن يبقوها ويرفضوا الدين الجديد ، وإما أن يعتنقوا الدين الجديد ويرفضوا عقيدة الشرك ، ولا يخشون حينئذ ضياع شىء ذى قيمة ، لأنهم لم يرثوا مجدا يخشون ضياعه

، ولا يملكون مصادر قوة فى المجتمع يخشون أن يحول الدين بينها وبينهم ، أما طبقة الخاصة فلا يخشون على عقيدتهم فحسب ، وانما يخشون على كل الأمور التى جعلتهم طبقة خاصة ، ورفعتهم فوق طبقة العامة ، والتى يرون فى الدين ليس مساسا بها فحسب ، وإنما يرون فيه هدما وتدميرا لها ، ومن هنا كانت شدة نفورهم من الدين بهذه الصورة التى ترسمها سخرية القرآن منهم .

وإذن فإن هذه الصورة الساخرة رغم طرافتها وغرابة مظهرها إلا أنها قائمة على حقيقة لا مجاز فيها ولا تخيل ، كما رأينا فى مقابلة عناصر الصورة وأوجه الشبه بينها وبين واقع هؤلاء المشركين .

وواضح أن من أبرز أهداف الصورة تنبيه الأتباع إلى حقيقة هؤلاء السادة ، الذين تمتلئ نفوس الأتباع إعجابا وافتتاناً بهم وبقوتهم ، حتى يفيقوا ويعلموا أن موقفهم الدينى ليس كما يصوره لهم الزعماء كذبا وتضليلا ، ولا كما كانوا يتصورونه هم ، وحتى إذا لم يصدقوا تصوير القرآن وسخريته من زعمائهم ، فإن هذا التصوير على الأقل يدعوهم إلى إعادة النظر فى موقفهم الدينى ، واستخدام عقولهم مجردة عن تأثير الزعماء فيها ، ليروا أين الحقيقة ؟ أهى فى موقف الزعماء أم فى موقف النبى والقرآن ، وهذه النتيجة هى كل هدف الدين ، وهو أن يستخدم الناس عقولهم مجردة عن الهوى الشخصى كأهواء الزعماء والسادة ، وعن المؤثرات الاجتماعية كتأثير الزعماء على العامة والأتباع ، فحين يستخدم الناس عقولهم مجردة عن المؤثرات لا يهم الدين حينئذ أن يؤمنوا أو يكفروا ، إذ يكفى أن يكون العقل حجة عليهم عند الحساب أمام الله ، ووضوح حجة الله على عباده كما سبق هو هدف كل الأديان ، ولكن انقياد الأتباع وتأثرهم بموقف الزعماء يحدث تشويشا وضبابا على وضوح حجة الله ، حيث يمكن أن يحتج الأتباع يوم القيامة بأن سادتهم هم الذين ضللوهم وأعموهم عن رؤية الحق كما ينقل القرآن عن الأتباع فى مشهد من مشاهد جهنم (يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) (١) ورغم أنها حجة واهمة لا تغنى عنهم شيئا ، لأن

---

(١) ٦٦ - ٦٨ سورة الأحزاب .

الملائكة سيردون عليهم وينقضون لهم حجتهم ، إلا أن القرآن مع ذلك لا يريد أن تكون لهم حجة البتة ، فيبصرهم فى حياتهم الدنيا بحقيقة هؤلاء الزعماء وخطورة انقيادهم لهم كما فى هذه الصورة الساخرة التى كأنها تتضمن رسالة موجهة إلى الأتباع بأنكم حين تنقادون وراءهم لا تنقادون وراء عقلاء يهدونكم ، ولا وراء أقوياء يحمونكم من الله ، وإنما وراء أشخاص يشبهون فى نفورهم من الدين قطيعا من حمر الوحش فاجأه أسد فانطلق مذعورا كل حمار فى وجه من الأرض يعدو بأقصى سرعته ولا يلوى على شىء ولا يفكر فى شىء ، ففكروا أنتم فى موقفكم وفى مصيركم قبل فوات الأوان ، وحين يستخدم أى عاقل عقله دون مؤثرات فلن يتردد فى الاهتداء إلى الله .

(٥) وكما نجد فى القرآن صورا فردية كثيرة للسخرية من زعماء الكفر والإلحاد بوصفهم أفرادا ، وصورا أخرى لهم جماعية كالصورة السابقة .

فكذلك نجد من التصوير ما يجمع بين الصورة الفردية والصورة الجماعية ، كهذه الصورة التى يتضح من ملابساتها أنها أساسا لشخص من أكبر السادة وأقواهم نفوذا ، وأوسعهم نصيبا من مصادر القوة فى المجتمع ، ولذلك فهو أشدهم طغيانا على المؤمنين وصدا إياهم عن دين الله ، حيث يسوق القرآن صفات عديدة من آثار طغيانه وكذلك سلوكا بارزا من آثار بغيه على المؤمنين ، ويجعل ذلك تمهيدا للتصوير ، وملابسات تحيط بالصورة ، وذلك فى قوله تعالى (.... إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى ، أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى ، أرأيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية) (١)

وإذا تأملنا الآيات السابقة نجد أنها تتضمن وعيدين ، وعيدا حقيقيا ، ووعيدا مجازيا ، والوعيد المجازى هو الذى تتركز فيه السخرية ، ولكن الوعيد الحقيقى هو التمهيد والملابسات التى بنيت عليها الصورة ، ويمكن توضيح ذلك فيما يلى :

---

(١) ٦ - ١٩ سورة العلق .

(أ) الوعيد الحقيقى :

تبدأ آياته بتأكيد أن شعور الإنسان بالغنى يدعوه إلى الطغيان ، والطغيان فى اللغة هو مجاوزة الحد فى أى شىء ، ومنه فى القرآن (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) (١) فالشعور بالغنى يدفع صاحبه إلى مجاوزة الاعتدال فى سلوكه ، ويعقب القرآن على ذلك بأن الرجعى إلى الله إشارة إلى أن الغنى ينبغى ألا ينسى بأنه سيموت ويترك هذا الغنى لغيره ، وهذا تمهيد يشير إلى صفة هذا الزعيم من الغنى والطغيان ، وهى إشارة ضمنية يشترك فيها مع غيره ، أما الذى يخص هذا الزعيم فهو ما يأتى بعد ذلك من أنه يتحدى المؤمنين بمنعهم من عبادة الله ، وأما الوعيد الحقيقى الموجه إليه فهو أنه لو كان عاقلا لكان يجب أن يعلم بأن الله مطلع على كل ما يصدر عن الإنسان من خير أو شر ، وعالم بحال كل إنسان ظاهرا وباطنا ، والمؤمن بل العاقل لا يحتاج إلى وعيد أشد من أن يوقن بأن الله يعلم ويرى كل ما يصدر منه ، لأن المؤمن أو العاقل لابد أن يتوقع ما يترتب على علم الله بما يصدر من الإنسان ، وهذه الايات هى (... إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى ، أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى ، أرأيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى) (٢).

(ب) الوعيد المجازى :

وفى هذا الوعيد تتركز السخرية ، وهى سخرية من شقين ، سخرية من شخص هذا الزعيم الذى يروى أنه إما ابو جهل ، وإما أمية بن خلف ، وليس تحديد الأشخاص بذى قيمة فى القرآن ، فمهما يكن سبب النزول مرتبطا بشخص أو جماعة معينين ، فإن المعنى نفسه عام يمكن أن ينطبق على كل من يتصف بهذه الصفة ، أو يزاول هذا المسلك إلى يوم القيامة ، والسخرية من هذا الشخص نجدها مجسدة فى صورة حسية فى التخيل ، ولكنها مجازية أى غير حقيقية فى الواقع ، وهذه الصورة تبدأ من حيث تنتهى الصورة الحقيقية السابقة ، ففى نهاية الصورة الحقيقية يتوعده الله بأنه يراه ، وهو يتحدى الله بالشرك ، ويؤذى عباد الله

---

(١) ١١ سورة الحاقة . (٢) ٦- ١٩ سورة العلق

المؤمنين بنهيهم عن عبادة الله ، سواء أكان النهى موجها إلى شخص النبى صلى الله عليه وسلم أو غيره من المؤمنين ، ولكن غضب الله الذى يبدو فى التصوير يشير إلى أن الإيذاء كان موجها إلى شخص النبى ، ولذلك كان الغضب غير عادى .

(١) فتبدأ هذه الصورة من أن هذا الزعيم المشرك لم يستجب لوعيد الله ، وكأنه استخف به ، فكأن الصورة المجازية ترسم مشهدا من مشاهد الحياة بين الناس ، فى مصارعة أو مبارزة بين شخصين ، وهذا يقتضى كأن القرآن يدعو أتباع هذا الزعيم وأنصاره لمشاهدة زعيمهم كيف يكون حاله فى هذه المصارعة التى سيكون طرفا فيها ، ويبدأ المشهد بوجود هذا الزعيم شامخا يتحدى وعيد الله إياه ، وإذا الله سبحانه وتعالى كأنه يبرز له لمصارعته ، وإذا الزعيم الشامخ لا يصارع ولا يصمد ولا يقاوم ، ، وإنما يستسلم لله وهو يقبض على شعر ناصيته ويجذبه بقوة ، وإذا الزعيم الذى كان شامخا لا يملك إلا الاستسلام والانقياد لهذه القبضة الرهيبة التى تقبض على ناصيته وتجذبها بشدة .

وهذا هو المشهد الفردى فى الصورة ، وهو مشهد موجه إلى الأتباع الذين ظلوا حياتهم مبهورين بقوة هذا الزعيم الذى لا يصمد أمام نفوذه وقوته شىء ، فإذا هم يرونه فى هذا الذل والهوان فضلا عن الضعف تحت هذه القبضة الرهيبة ، قبضة الله سبحانه ، وهذا المشهد فى قوله تعالى (كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة)[1] والسفع القبض على الشىء وجذبه بشدة ، والناصية أعلى الشىء وهى أعلى الرأس ، ولو تأملنا ما يشابه هذا المشهد فى واقع الحياة لوجدناه مثيرا للضحك ، فلو تصورنا حلبة مصارعة يقف فيها عملاق بالغ القوة والشدة والضخامة ، وننتظر من يخرج لمصارعته ، فلابد أن نتوقعه مكافئا ومماثلا له فى ضخامته وقوته ، ولكننا لو فوجئنا بأن الذى يخرج لمصارعته طفل أو قزم ضئيل نحيل فلا نشك أن هذا المنظر سيثير ضحك المشاهدين ، وكذلك العكس فيما لو وقف شخص بالغ الضآلة والصغر ليتحدى عملاقا بالغ الضخامة والقوة ، ومن الطرافة فى الصورة أن التصوير يشير إلى أن هذا الزعيم المشرك حينما أصبحت ناصيته فى هذه القبضة القوية الرهيبة كأن شخصه وكيانه كله انمحى ولم يبق له وجود إلا ناصيته لأنها مقبوض عليها فى القبضة القوية الرهيبة ، ولذلك لا يتحدث الله حينئذ عن هذا المشرك لأنه لم يعد له كيان ، وإنما يتحدث عن ناصيته

---

(١) ١٥-١٦ سورة العلق

فحسب ، فيصفها بأنها ناصية كاذبة وخاطئة ، ومع أننى لست من المولعين بالتكلف فى ربط القرآن بالبحوث العلمية إلا أن وضوح المعنى يدعو إلى القول بأنه لعل الحديث عن الناصية بالذات ، ووصفها بصدور أفعال كالكذب والخطأ منها ، لعل هذا من السبق العلمى للقرآن ، فإن الناس حين نزول القرآن كانوا يعتقدون أن القلوب التى فى الصدور هى مركز التوجيه والمعرفة فى الجسد ، ولكن البحوث العلمية المتأخرة هى التى اهتدت إلى أن المخ هو مركز القيادة والمعرفة وكل ما يتصل بالحياة ويترتب عليها ، وهذا ما نجده فى هذه الصورة التى تصب سخطها على الناصية وهى وعاء المخ وتصفها بأنها (كاذبة خاطئة) دون أن تصف صاحب هذه الناصية أو قلبه بشىء كما تكرر وصف القلوب فى مواضع كثيرة شتى فى القرآن بالأعمال والصفات .

وقد يقال لماذا يلجأ إلى هذا التصوير المجازى ، مع أن مضمونه موجود فى مواضع كثيرة من القرآن بأسلوب الحقيقة ، والجواب أن من أبرز الأسباب فى هذا أن القرآن يلجأ كثيرا إلى تجسيد مشاهد مماثلة لواقع الحياة حتى تكون أوقع فى نفوس السامعين والتالين للقرآن ، ومنها هذا المشهد الحالى ، فإنه يصور ما يشبه مصارعة يشترك فيها هذا الزعيم الكبر اللامع البراق الذكر ، وحين يشترك شخص بهذه المنزلة فى موقف خطير كهذا فلابد أن يجتمع كل أصحابه وأصدقائه وأتباعه لحضور المشهد ، ولا شك أن الجمع وخصوصا الأتباع ظلوا طوال حياتهم أو حياة هذا الزعيم معجبين مبهورين بقوته وسطوته ، ونفوسهم مفعمة بأنه يملك قوة لا تقهر ، وسلطة لا تغلب ، حتى إنهم كانوا يرونه يتحدى الله ، ويسخر من دينه ، ويؤذى رسوله ، ويضطهد المؤمنين ، فهو إذن لا يخاف من الله ، بل ولا يأبه ولا يحسب له حسابا ، وهذه القوة التى يبدو بها أمامهم هى التى جعلتهم ينقادون له ، ويحتمون بقوته التى يتوقعون أن تكون حصنا لهم وحماية لا تقهر ، ولم يدر بخلدهم قط أن شيئا على الإطلاق يمكن أن تهتز له قوة زعيمهم أو تنحنى أمامه ، ولا شك أنهم كانوا يتوقعون أن تظل قوة زعيمهم بهذا الشموخ فى هذه المصارعة .

ولكنهم يفاجأون بأنه ما إن برزت له هذه القبضة القوية الرهيبة ، قبضة الله ، لتسفع ناصيته حتى انهار واستسلم دون أية مقاومة ، بل انمحى كيانه كله بكل ما كان فيه من جبروت

وغطرسة وكبرياء . ولم تبق منه الا هذه الناصية المقبوض عليها . والتى يصفها القابض عليها بصفات النكر والسوء فلا ترد ولا تعترض . بل لا تنكر أن ما وصفت به من السوء حق وصدق وحينئذ لابد أن تنقلب صورة هذا الزعيم فى نفوسهم رأسا على عقب ، ولابد أن يفيقوا من الوهم الذى كانوا يتمثلونه فى شخصية الزعيم ، وتكون النتيجة أن يشعروا بأنهم كانوا مخدوعين فى الاعجاب به وفى الانقياد له ، وحيث إن القوى فى العادة هو موضع الإعجاب فصاحب هذه القبضة القوة الرهيبة وهو الله سبحانه هو إذن الذى يستحق الاعجاب به والانقياد له ، وهذه النتيجة هى الهدف الأول من الصورة ، أن ينسلخ الاتباع من تبعيتهم لهذا المشرك الضال ، ليتجهوا فى التبعية والانقياد إلى الله ورسوله

بل من النتائج الباهرة لمثل هذا المشهد أن زملاء هذا الزعيم وأصحابه من السادة ذوى الأتباع حين يشاهدون هذا المشهد أو يسمعونه متلوا فى القرآن فيتمثلونه كأنهم يشاهدونه سيفيقون من جهتين ، إحداهما انخداعهم فى قوة صاحبهم الزعيم الكبير ، والأخرى التفكير فى موقفهم هم ، فإذا كان هذا الزعيم الذى كان أقوى منهم قوة وأوسع سلطانا لم يصمد ولم يقاوم أمام هذه القبضة الرهيبة فما لهم هم لا ينقذون أنفسهم من هذه القوة بالتودد إليها قبل أن تسحقهم ؟ وماذا يغنى عنهم هذا الزعيم بتحديه لله ولدينه ورسوله ، إن صحبته أو صداقته إذن جناية عليهم يذكرهم القرآن بمشهد من آثارها فى موضع آخر من القرآن هو (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا) (١)

وهذا هو المشهد الفردى فى الصورة

(٢) وأما المشهد الجماعى فى الصورة فإنه يبدأ أيضا من حيث تنتهى أحداث المشهد الفردى السابق ، فقد رأينا هذا الزعيم الطاغية وقد سلبته قبضة الله كل قوته ، بل كل كيانه ، فلم يصمد ، ولم يقاوم ، وحيث إن من منهج تصوير القرآن أن يرسم مشاهد مماثلة لمشاهد فى واقع حياة الناس ، فإن من المألوف فى واقع حياة الناس أن المهزوم حينما لا تسعفه قوته فى

---

(١) ٢٩/٢٧ سورة الفرقان

منازلة خصمه يستغيث بمن يمكن أن يعينه ويؤازره فى موقفه ، ليستعين بهذا النصير فى مقاومة خصمه ، وهذا الزعيم الطاغية لابد أن يكون له أعوان وأتباع كثيرون يستعين بهم ، فمن المتوقع أن يستغيث بهم ليخفوا إلى نجدته ، وقد يفكر الأعوان والأتباع من تلقاء أنفسهم فى أن يخفوا إلى نجدته حيث رأوه فى هذا الوضع المهين .

ولكن الله يحذر الزعيم الطاغية من أنه لو لجأ إلى الاستعانة بأعوانه وأتباعه فإن الله سيستعين حينئذ بشرطته وهم الزبانية ، وذلك فى قوله تعالى (فيلدع ناديه ، سندع الزبانية) ١٧، ١٨ سورة العلق

والنادى مكان الاجتماع ، ومكان اجتماع هذا الزعيم هو نادى قريش المسمى دار الندوة الذى كان يجتمع فيه سادة قريش لمناقشة كل أمورهم العامة ، وكان مقصورا على السادة ، ولذلك لم يكن يدخله أحد بصفته عضوا فيه إلا الشيوخ من قريش حيث يكونون قد بلغوا منزلة السيادة فى أقوامهم ، ما عدا عمرو بن هشام أبى جهل فإنه أصبح عضوا فيه ولم يطر شاربه ، أى وهو ما زال أمرد لما بدا فى شخصيته من معالم الذكاء والحزم .

فالقرآن يحذره حينئذ من دعوة أصحابه فى دار الندوة الذين سيدعون بدورهم أنصارهم وأتباعهم وأقوامهم ليخفوا لنصرة الزعيم الطاغية ، ولكن القرآن لا يسوق التحذير فى أسلوب النهى مثل أن يقال لا تدع ناديك لأنهم لن ينفعوك ، وإنما يسوقه بأسلوب الأمر المؤكد (فليدع ناديه) وذلك من باب الاستخفاف والاستهانة والسخرية .

والزبانية فى لغة العرب هم رجال الشرطة ، ولكن لما استخدم القرآن هذا اللفظ وصفا لملائكة العذاب ، بطل استعماله فى غيرهم ، وأصبح بعض الناس حين يصف رجال الشرطة بأنهم زبانية وصف مجازى باعتبارهم عنوانا للشدة والبطش مع أنه الاسم الحقيقى لهم .

فالله سبحانه يتوعد هذا الزعيم الطاغية بأنه إن استدعى أعوانه فإنه أى الله سبحانه سيستدعى زبانيته ، وعندئذ استكان هذا الزعيم فى خضوعه واستسلامه للقبضة القوية الرهيبة دون تفكير فى الاستعانة بأعوانه ، كما أن أعوانه لابد قد استبعدوا هذه الفكرة أيضا ، وكأنه هو وأتباعه جميعا يعلمون فظاعة استدعاء الله زبانيته .

وهذا المشهد أيضا تصوير لمشاهد مماثلة فى واقع الحياة ، حيث يستعين كل مغلوب أو خائف من الهزيمة بأعوانه وأنصاره ، فينصروه ويشدوا من أزره ، ولكن القرآن كأنه يقول له ولأعوانه وأتباعه ، هل ينفعه بشىء أن يستعين بأى أحد أو بأية قوة ليحتمى به من قوة الله ؟

وأما كون هذا الوعيد أو هذا التصوير مجازيا فلأنه وإن كان يعتمد على حقيقة إلا أن صورته الظاهرية غير حقيقية ، فأما الحقيقة التى يعتمد عليها فهى أن قوة الله لا تغالب ، ولا تصمد أمامها أية قوة مهما تكن فردية أو جماعية أو أية قوة على الإطلاق .

وأما التصوير المجازى فى الصورة فهو أن الله سبحانه لا يحتاج إلى أن يقبض على ناصية خصم ليهزمه أو يحطمه ، لأنه يملك أن يهلكه وأن يمحوه بمحض الإرادة والمشيئة ، وكذلك لا يحتاج سبحانه إلى أن يستدعى زبانية أو أى شىء ليستعين به ، لأنه يملك أن يدمر أية قوة وأى شىء فى السموات والأرض بمحض مشيئته وإرادته ، كقوله تعالى فى الرد على الذين يدعون ألوهية المسيح عليه السلام (... قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ...) (١)

فهذه مشاهد غير حقيقية ولكن الله سبحانه يسوقها وكأنها من واقع حياة الناس لتكون أبلغ فى إقناعهم وأوقع فى نفوسهم ، ولكنها تبلغ من طرافتها أنها تملأ نفس السامع المتأمل لها سخرية من عقول أعداء الله الذين يتحدون الله ورسوله ويكابرون ويعاندون ، وكأن القرآن يقول لهم لهم أنتم وضعتم أنفسكم فى خصومة وتحد لله ، وعداوة له غير مقدرين عاقبة هذا وخطورته ، فهذه الخصومة التى تديرونها أنتم من جانب واحد ضد الله تعالوا تخيلوا أنها أصبحت خصومة حقيقية محسوسة كخصومة بعضكم بعضا كيف يكون موقفكم فى الخصومة أمام قوة الله ؟

ثانيا : التبصير العقلى للأتباع :

ومما يعد فى جانب منه موجها إلى أصحاب مصادر القوة فى المجتمع فى صورة حرب نفسية ضدهم تبصير أتباعهم بخطورة انسياقهم وراء سادتهم دون تفكير ، وأخشى ما

---

(١) ١٧ سورة المائدة .

يخشاه الزعماء ضياع نفوذهم على أتباعهم ، وقد وجد سادة مكة أن كل من يعتنق الاسلام من أتباعهم يخرج من قبضتهم ونفوذهم ، ويصبح تابعا تبعية كاملة لمحمد ، بل إن عبيدهم المملوكين لهم كان الواحد منهم يعتنق الاسلام كما فعل بلال فيصبح فيما يتعلق بعقيدته ودينه بالذات حرا مستقلا عاصيا لسيده ، بل يتحدى سيده فى هذا ويتحدى سادة مكة جميعا ، فكان هذا مما يزيد السادة نفورا وبغضا لهذا الدين الذى يفسد عليهم عبيدهم وأولادهم فضلا عن اتباعهم .

وإذا كانت صور السخرية من السادة موجهة إليهم صراحة وإلى أتباعهم ضمنا فإن التبصير العقلى موجه إلى الأتباع صراحة وإلى سادتهم مضمونا أو إشارة .

ومع أن المخاطبين بهذا التبصير العقلى ما زالوا أحياء لم يموتوا بعد ، ومع أنهم من باب أولى لم يدخل الكافرون منهم جهنم التى تنتظرهم ، إلا أن القرآن ينقل لهم مشاهد من جهنم إن لم تكن لهم هم بعد أن يدخلوا جهنم فى الآخرة فهى مشاهد لأمثالهم فى الكفر وفى الموقف الدينى عامة ، أى أنها مشاهد لزملائهم فى الكفر ، حتى يتداركوا أنفسهم فلا يقعوا فيما وقع فيه أمثالهم من عداوة الله ورسوله .

(١) ففى أحد هذه المشاهد يبصر القرآن الأتباع بأن انقيادهم لسادتهم ، أو خوفهم من سطوتهم وبطشهم لا يصح أن يصرفهم عن الإيمان بالله ، والقرآن يسلم لهم بأنهم قد يتعرضون لاضطهاد هؤلاء السادة أو تعذيبهم أو أى شىء لا يستطيعون احتماله ، ولكنه يؤكد لهم أن ذلك أيضا لا يصح أن يكون عذرا لأن الله خلق الأرض واسعة ، لا تضيق بأحد ، والرزق مكفول لكل حى فى أى مكان ، فيسوق القرآن لهم هذا المشهد من الحوار بين الأتباع المستضعفين والملائكة بعد الموت (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) (١) فما داموا قادرين على الهجرة والانتقال من مكان الظلم والطغيان إلى أى مكان آخر فلا عذر لهم عند الله .

---

(١) ٩٧ سورة النساء .

(٢) وفى مشهد آخر ينقله القرآن لهم من المشاهد التى لابد أن تحدث فى الآخرة ، والتى سيكونون طرفا فيها إذا ماتوا على الكفر (وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ، وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ، إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا ...) (١)

فكأن القرآن يقول للأتباع إن السادة الذين تتبعونهم لابد أن يستقروا فى جهنم فى الآخرة بحكم شركهم بالله ، ولكنهم سيكونون سببا فى أن تكونوا أنتم أيضا معهم فى جهنم بسبب اتباعكم إياهم فى الكفر ، وأنتم اليوم تظنون أن المسئولية تقع على سادتكم وليس عليكم ، وستقولون هذا لسادتكم حينما تكونون جميعا فى النار يوم القيامة طالبين منهم أن يحموكم من النار كما تظنون الآن أنهم يستطيعون حمايتكم ، فإذا هم يردون عليكم بأنهم أصبحوا فى النار مثلكم ولو كانوا يستطيعون شيئا لكان أولى أن يفعلوه لأنفسهم ، وسيعترفون حينذاك بأن الله لم يظلمهم ، وإنما صب عليهم جزاء ما فعلوه فى الدنيا ، ولكن القرآن يزيدهم تذكيرا بأن النار التى سيكونون فيها مع السادة هى نار أبدية لا نهاية لها ولا أمل حتى فى تخفيف حدتها وبشاعتها ، فينقل لهم القرآن فى هذا المشهد أن الذين فى النار يتلهفون على تخفيف عذابهم محض تخفيف ولو يوما واحدا ، فيرد عليهم الملائكة ردا هو فى حقيقته رسالة موجهة إلى الأتباع ، وهى (أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى) أى اعترفوا بأن الرسل دعوهم إلى الإيمان وأنهم فهموا هذه الدعوة بوضوح ، وهذه كما سبق هى حجة الله على عباده ، وهى كل مهمة رسل الله أن يبلغوا هذه الرسالة واضحة إلى الناس ، وحين اعترف أهل جهنم بذلك أخذ الملائكة يسخرون منهم بأن يقولوا لهم ادعوا أنتم ربكم أن يخفف عنكم ، ووجه السخرية أن الملائكة يعلمون أن دعاء أعداء الله غير مستجاب عند الله ولكنهم يسخرون منهم ليزيدوا عذابهم البدنى فيضيفوا إليه عذابا نفسيا .

---

(١) ٤٧-٥١ سورة غافر .

(٣) وفى مشهد آخر يضيف السادة إلى مضمون المشهد السابق معنيين فى غاية الأهمية فى توجيههما إلى الأتباع ، وهما اعتراف السادة أمام الله وأمام الأتباع يوم القيامة بأنهم كانوا ضالين فى الدنيا ، وبأنهم اليوم لا حول ولا قوة لهم ولا مهرب أمامهم أو خلفهم ، وذلك فى قوله تعالى (وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) (١) وأهمية هذين المعنيين هى لفت أنظار هؤلاء الأتباع المخدوعين فى زعمائهم وفى اتخاذهم حماية لهم ، ليفيقوا الآن وينقذوا أنفسهم من تبعيتهم لهؤلاء السادة فى الضلال قبل فوات الأوان .

(٤) وفى مشهد آخر من مشاهد عذاب الآخرة يبرز القرآن للأتباع معنى آخر بالغ الأهمية فى تبصيرهم بسوء انقيادهم وراء السادة الضالين ، وهو أن هؤلاء السادة الذين تتبعونهم اليوم سيتبرأون منكم يوم القيامة ويسفهونكم ويعلنون أنه لا صله بينهم وبينكم ، وانكم يومذاك ستندمون على أنكم اتبعتموهم فى الدنيا كحالكم اليوم فتتمنون يوم القيامة أن تجدوا فرصة للعودة إلى الحياة الدنيا لتتبرأوا منهم وتعلنوا عدم تبعيتكم لهم ولكن هذا من المحال ، فلا تملكون حينئذ إلا الحسرة والندم على إتباعكم إياهم (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وان الله شديد العذاب ، إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لناكرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار) (٢) وأمامكم أيها الأتباع هذه الفرصة اليوم وهى أن تتبرأوا من تبعيتكم إياهم ، وتبصروا أين الحق ، ومن الذى ينبغى أن تتبعوه ، أهو هذا الرسول الذى يهديكم إلى الله والجنة ، أم هؤلاء السادة الذى لا يهدونكم إلا إلى الجحيم .

(٥) وفى مشهد آخر شديد الطرافة ينقل القرآن معركة حامية تحدث فى جهنم بين الأتباع والسادة ، حيث يفاجأ الأتباع بأن انقيادهم لسادتهم وزعمائهم هو الذى أدى بهم إلى

---

(١) ٢١ سورة ابراهيم .

(٢) سورة البقرة ١٦٥-١٦٧

هذا المصير فى جهنم ، فيوجهون اللوم إلى سادتهم قائلين لهم أنتم السبب فى هذا المصير الذى صرنا إليه ، ولولاكم لكنا مؤمنين فكنا اليوم فى الجنة ، ولكن السادة يردون عليهم من منطق السيادة وكأنهم ما زالوا سادتهم قائلين لهم فى تأنيب وتسفيه كيف تتهموننا بهذا وقد وضح لكم الحق فى الدنيا وأيقنتم بصدق الرسول وأن الإيمان بالله هو الحق ، ومع ذلك كفرتم ؟ فهل نحن الذين جعلناكم كافرين أم أنتم الذين أجرمتم فى حق أنفسكم بكفركم بعد وضوح الحق لكم ؟ فيرد عليهم الأتباع مذكرين إياهم بأنهم كانوا يزينون لهم الباطل والكفر ليجعلوه أو يصوروه فى صورة الحق وأنه محافظة على تراث الآباء والأجداد ، وحفظ للدين الذى ورثوه عن آبائهم ، وبأنهم كانوا يشوهون لهم الحق والإيمان والنبى فيصوروا لهم كل ذلك بأنه وهم أو سحر أو نحو ذلك ، وأنهم بناء على ذلك أى الأتباع يجب أن يعتصموا بدينهم الموروث وهو عبادة الأصنام ، وهكذا تحتدم المعركة الحامية بين السادة والأتباع فى تقاذف التهم وتبادل التسفيه ، ولكن المهم هو أن شيئا من ذلك لن ينفع الأتباع يومئذ ، وكل ما يملكونه هو الحسرة والندم ، كما يقول تعالى (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) ؟ (١)

ومن الواضح أنها رسالة موجهة إلى الأتباع لتبصيرهم بخطوره اتباعهم لزعمائهم فى ضلالهم ، وكأن الرسالة تبعث فيهم الجرأة على مواجهة زعمائهم ولو نفسيا ، بمعنى أن يجدوا فى نفوسهم الجرأة على أن يستقلوا فى تفكيرهم عن السادة ، فلا ينظرون إلى الدين بمنظار سادتهم ، وإنما بعقولهم ومن خلال مصلحتهم هم وليس مصلحة سادتهم ، فإذا كانت مصلحة سادتهم الإبقاء على الضلال لأنه يحفظ لهم مكانتهم ومنافعهم فى المجتمع فإن هذا ليس مصلحة للأتباع ، بل هو خطر داهم عليهم حيث يدفعهم إلى أسوأ مصير فى الآخرة .

---

(١) ٣١-٣٣سورة سبأ .

(٦) وكان القرآن بعد أن يبصرهم بخطورة اتباعهم لسادتهم فى الضلال ، ويبين كل جوانب هذه الخطورة من الزوايا العديدة المتنوعة فى المشاهد السابقة يركز الخلاصة والنتيجة فى معنى لابد أن يملأ نفوسهم وعقولهم اليوم حينما يسمعونه ، وهو أنهم سيسيطر عليهم الندم الشديد يوم القيامة ، فإن هذا من شأنه أن يدفعهم إلى التفكير والتساؤل : لماذا سيندمون؟ ، أو هل حقا سيندمون ؟ ، بل يفكرون فيما هو أسبق من ذلك ، وهو هل حقا سيبعثون بعد الموت ؟ وإذا كان بعث وندم فكيف يتلافون اليوم الأسباب التى ستجعلهم يندمون ، وهكذا فى أسئلة كثيرة لابد أن تتزاحم فى نفوسهم لتصل إلى عقولهم ، وحينما تصل الأسئلة إلى عقولهم طالبة إجابة عنها فإن هذا أول طريقهم إلى الدين ، لأن أهم مرحلة فى هدم أية عقيدة هو التشكيك فيها ، فإذا حدث الشك فيها يمكن أن يتحول الشاك إلى عقيدة أخرى .

ولذلك نجد القرآن يعرض على الأتباع مشاهد يبدو فيها ندمهم الصارخ على أمرين ، أحدهما أنهم عرفوا الحق واضحا حيث عرضه عليهم رسول الله ومع ذلك رفضوه ، والآخر أنهم انقادوا لسادتهم وزعمائهم فى الضلال والكفر فنفوسهم ملأى بالحسرة والندم ، حيث لا ينفعهم فى جهنم ندم ، وكل ما يملكونه هو الدعاء على هؤلاء السادة الذين وصلوا بهم إلى هذا المصير فى جهنم (يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبرائنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) (١) ومهما تكررت المشاهد أو تقاربت معانيها فلابد أن نجد فيها جديدا يضاف إلى كل مشهد ، ومهما يكن ايجاز هذا الجديد فإنه سيكون فى صلب الهدف ، أو يكون هدفا مستقلا ، وهذا الدعاء الذى يمثل إضافة إلى المشاهد السابقة وهو (ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) يتضمن فى توجيهه إلى الأتباع معنيين هما خلاصة الدعوة الدينية الموجهة إلى الأتباع ، وأول المعنيين هو أنهم بعد الموت سيواجهون الحقائق ساطعة ومجسدة فلا يملكون إلا الانصياع لها ، وأبرز الحقائق أن الله هو الإله الواحد الذى بيده كل شىء ، وليس بيد غيره شىء ، فسيكونون بداهة مؤمنين بالله فى الآخرة وان كان هذا لا ينفعهم بشىء ، ومن آثار إيمانهم أنهم يدعون الله قائلين (ربنا) أى يا ربنا .

---

(١)٦٦-٦٨ سورة الأحزاب .

والمعنى الثانى فى خلاصة ما يراد تبصيرهم به هو أن ما هم فيه اليوم هم وسادتهم ضلال عن الحق الإيمان ، وأن السبب فى ضلالهم هم هو اتباعهم هؤلاء السادة والزعماء (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) .

(٧) وفى مشهد آخر ينقل القرآن الأتباع إلى مرتبة أعلى من التبعية ، حيث يشعرون بأنهم أقوى من سادتهم وزعمائهم ، وأنهم يستطيعون أن ينتقموا مما ارتكبه هؤلاء الزعماء فى حقهم حيث تسببوا لهم فى هذا المصير البالغ السوء وهو جهنم ، بل لعلهم يحاولون التجول فى جهنم للبحث عمن أضلوهم ليضعوهم تحت أقدامهم (وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) (١) وهى كأنها رسالة إلى الأتباع تتضمن معنى مختلفا عما سبق ، حيث يبدو فى هذا المعنى بعث الثقة فى نفوس الأتباع وإشعارهم بأنهم ليسوا ضعفاء بالدرجة التي يتصورونها ، بل إنهم سيأتى يوم يبحثون عن هؤلاء السادة الذين يرونهم اليوم فى قمة القوة لينكلوا هم بهم ، بل ليجعلوا هؤلاء السادة تحت أقدامهم ، وذلك فى جهنم ، وكأن القرآن يقول لهم فما يمنعكم اليوم أن تنقذوا أنفسكم منهم قبل فوات الأوان ، لأنكم فى جهنم لا تملكون شيئا ولا ينفعكم عمل ، أما اليوم فلستم فى حاجة إلى أن تضعوهم تحت أقدامكم ، بل يكفى أن تسلخوا أنفسكم من اتباعكم إياهم فى الكفر والضلال ، وأن تتجهوا إلى الحق مع الرسول الذى أرسله الله إليكم .

ولا شك أن هذه الرسائل الموجهة إلى الأتباع مع رسائل أخرى عديدة فى القرآن كافية لتبصيرهم ونصحهم وبيان مدى الخطر الذى يحيق بهم فى انقيادهم لضلال سادتهم وزعمائهم ، ومن لم ينتصح منهم فقد أعذره الله بأبلغ الإعذار ، ولن تكون له حجة عند الله يوم القيامة ، بل إن حجة الله عليه ستكون دامغة .

(٨) وفى مشهد آخر نجد القرآن يتجه إلى منفذ آخر مهم من منافذ تأثير السادة والزعماء فيمن حولهم ، فمن المألوف أن الذين يتمتعون بمنزلة السيادة والزعامة فى مجتمعاتهم يكونون متصفين بالتأثير النفسى فيمن يتصلون بهم حتى تتحقق فيهم صفة السيادة والزعامة ،

---

(١) ٢٩ سورة فصلت .

والسيادة أو الزعامة ينصب تأثيرها الأصلى على الأتباع ، ولكن التأثير النفسى الذى يتمتع به الزعيم يجذب إليه عادة ليس الاتباع فحسب ، وإنما أيضا بعضا من الأصحاب والأصدقاء والإخوان ، وقد يكون لكل منهم نوع من التأثير فى الآخر وإن اختلفت درجة التأثير ، والقرآن يعنيه التأثير من حيث هو ، فإن كثيرا من الناس إن لم يكن أغلبهم يستخدمون هذا التأثير فى مجال الشر والسوء أو فى مجال العقيدة ، فيدفعون أو يغرون من يتصلون بهم من الإخوان والزملاء والأصدقاء بالانسياق معهم فى تيار الفساد أو الإلحاد كما يشاهد كثيرا فى كثير من الطوائف والمجالات ، فالقرآن يحذر هؤلاء الذين ينساقون وراء ضلال أصحابهم وأصدقائهم ، منبها إياهم إلى أن كل هذه العلاقات التى تقوم على السوء تنقلب يوم القيامة إلى عداوات ، حيث يلوم كل منهم صاحبه ويتهمه بأنه هو الذى كان سببا فى ضلاله ، فيقول تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) (١)

ولكن الصورة التى يرسمها القرآن فى أسلوب فنى تزيد عن أسلوب الحقيقة فى الآية السابقة تأثيرا نفسيا بالغا ، حيث ترسم مشهدا مجسدا فى مخيلة السامع للكافر حينما يجد نفسه فى قاع جهنم بسبب تأثره بصداقة صديق معين أغراه بالكفر ، وزين له الإعراض عن الله ورسوله فاستجاب لإغرائه وتزيينه فظلم نفسه بالكفر بالله ، وهو أسوأ وأقسى ظلم يصيب به الانسان نفسه ، لأن الله قد يغفر كل شىء ، وكل جرم إلا الكفر به ، كما يقول تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (٢) فهذا المشرك الظالم لنفسه تمتلئ نفسه ندما على أمرين ارتبط بعضهما ببعض أو ترتب بعضهما على بعض ، أحدهما أنه كانت لديه فى الدنيا فرصة عظمى ، هى أن ينضم إلى حزب الله مع رسول الله ، ولكنه ضيع هذه الفرصة التى لا تعوض ، والأمر الآخر أنه استجاب لإغراء صديقه المعين فلان ، الذى أغراه بالشرك وزينه له ، فأضله عن طريق الصواب ، وأوغله فى طريق الهلاك ، فكأنه فى هذا كان شيطانا وليس إنسانا ، ولكن تصوير القرآن لا يسوق التعبير عن الندم فى أسلوب الحقيقة ، وإنما يسوقه فى أسلوب الكناية ، فيصور هذا المشرك فى سيطرة الندم عليه وتغلغله فى نفسه

---

(١) ٦٧ سورة الزخرف .

(٢) ٤٨ سورة النساء .

فى صـورة من يعض على يديه من شـدة الندم (ويوم يعض الظالم على يديه يقـول يا ليـتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا) (١)

٣ - عذاب الهوان :

وفى حديث القرآن عن عذاب هذه الطبقة المتميزة فى المجتمع ، وهى التى تملك مصادر القوة ، المال والجاه والسلطة ، نلمس القصد ليس إلى إبراز شدة الإيلام والتعذيب البدنى كعذاب عامة الناس ، وإنما يكون القصد إلى إبراز الإهانة والإذلال لهم حينما يسلكون طريق المعاداة لله ودينه ، فيكونون بالضرورة سببا فى الحيلولة بين الغالبية العظمى من أتباعهم وبين الدين .

وقد سبق تكرار القول بأنه من الملحوظ أن عقاب الله يكون عادة عكس ما تقوم عليه نزعة الكفر والتحدى لله ، ليكون هذا أظهر فى ضعف الكافر وأبلغ فى إذلاله وإظهار عجزه ، وحيث إن كفر الطغاة من السادة والزعماء يقوم على الكبرياء والمبالغة فى الشعور بالعزة فإن الله يجعل عذابهم وعقابهم عادة مقرونا بإذلالهم وإهانتهم ، بل إننا فى أغلب الأحيان نجد كأن القرآن لا يعنى بإبراز تعذيبهم لذاته ، وإنما يعنى بإبراز إذلالهم وإهانتهم ، لأن إبراز الإذلال كأنه رسالة موجهة إلى الأتباع ليروا هؤلاء السادة الذين يملأون عليهم نفوسهم بخيالات القوة والعزة والمنعة وهم رازحون تحت نير الذل ، راسفين فى أغلال الهوان ، فتكون هذه المشاهد مما يدفع الأتباع إلى إزالة الغشاوة عن عيونهم والتنبه إلى خطورة الانسياق وراء ضلالهم ، فيدفعهم هذا إلى استخدام عقولهم فى البحث عن طريق الحق ، وهذه نماذج من صور عديدة لإذلالهم :

(١) فمن أمثلة ذلك هذا الحديث الحافل بالسخط على زعيم معين من سادة قريش ، والذى يسوقه القرآن مقرونا بمساوئ عديدة يتصف بها هذا الزعيم لم يقرن مثلها بأحد فى القرآن ، حيث يصفه القرآن بأكثر من ثمانى صفات قبيحه فى خلقه وسلوكه فضلا عن كفره فى

---

(١) ٢٩ سورة الفرقان

عقيدته ، ثم يجعل عقابه بعد ذلك الكى على أنفه دون أى وعيد آخر فى الدنيا أو الآخرة ، فلم تذكر جهنم ولم يذكر عذاب بدنى أو وعيد دنيوى ، وليس معنى ذلك أن هذا الكافر بمنجاة من جهنم أو أنواع العذاب الأخرى ، وإنما معناه أن الهدف ليس إبراز عذابه ، وإنما إبراز إهانته ، لأن الإهانة لمثل هذا الزعيم أوجع من العذاب الجسدى ، ولأن صورته وهو الإذلال أوقع فى نفوس الأتباع ، وأدعى إلى التنفير من زعامته من أى عذاب بدنى ، حيث يقول تعالى (ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، سنسمه على الخرطوم) (١) والهماز الذى يطعن ويقدح فى أعراض الناس ومروءتهم ، والمشاء بنميم الذى يفسد العلاقات بين الناس بتحريض بعضهم على بعض ، والعتل العنيف الغليظ الطبع ، والزنيم هنا الشاذ بين الناس والدخيل بين فضلاء الناس حيث يدعى الفضل بين الفضلاء وليس منهم ، والآيات تشير إلى سبب طغيانه وكفره وهو المال والجاه (... أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) أى بسبب الغنى بالمال ، والجاه بالبنين كان كفره ، ولكن الشاهد أنه بعد كل هذه المساوئ إضافة إلى كفره لم يكن وعيده إلا (سنسمه على الخرطوم) والخرطوم هو الأنف ، وهو رمز العزة ، ومنه الأنفة وشموخ الأنف فى حال العزة ، ورغم الأنف فى حال الإذلال ، وهذا هو المقصود بالكى على أنفه بالذات ، أن يكون فى موضع الذل ، وأن يكون إذلاله ظاهرا لكل راء حيث إنه فى أبرز موضع وهو الأنف .

(٢) ولكن القرآن يتتبع إذلال هؤلاء السادة منذ إشرافهم على الموت ، وحتى قبل خروج أرواحهم ، حيث يحيط بهم ملائكة العذاب يستخرجون منهم أرواحهم ، بما يعنى أن خروج أرواحهم سيكون مرحلة من مراحل التعذيب حيث يكون مصحوبا بالقسوة والإيلام الجسدى والنفسى ، كهذه الصورة (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنت عن آياته تستكبرون) (٢) فوصفهم بالاستكبار يحدد أنهم من السادة وليسوا من عامة الناس أو

---

(١) ١٠-١٦ سورة القلم .

(٢) ٩٣ سورة الأنعام .

أوساطهم ، والقرآن يسوق تهويل هذا المشهد دون ذكر تفصيله بتعبير (ولو ترى ....) وحذف جواب لو كما فى هذا التعبير يقصد منه تهويل المشهد وتضخيم آثاره ، ويعلل علماء البلاغة حذفه بقولهم لتذهب فيه النفس كل مذهب ، أى لتتخيل حسب ما يناسب السياق أقصى ما يحتمله الخيال ، مثل أن يكون تقدير الجواب لو رأيت هذا المشهد لرأيت مشهدا مهولا أو فظيعا أو مشهدا لا يوصف من بشاعته أو إيلامه لهؤلاء المستكبرين .

(٣) وفى تصوير آخر نرى المشهد بعد موتهم مباشرة ، حيث نرى الملائكة فور قبض أرواح هؤلاء ينهالون عليهم بالضرب فى صورة إذلال ، حيث يضربونهم فى مواضع يرى كرام الناس الموت أهون من الضرب عليها ، وذلك قبل أن يزج بهم فى الجحيم ، حيث يقول (ولو ترى إذا يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) (١)

(٤) وفى صور أخرى نرى المشهد عقب خروجهم من القبور مباشرة يوم القيامة ، حيث نراهم يخرجون فى البعث من قبورهم منطلقين فى سرعة وعجلة ، ولكن أبرز ما يبدو من حالهم هو الذل الشديد الذى يبدو فى انكسار نظراتهم واتجاه وجوههم إلى الأرض ، ولا شك أنهم حينئذ ستمتلئ نفوسهم حسرة ، حيث يتذكرون أن هذا هو اليوم ، يوم البعث الذى كانوا يكذبون حديثه (فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى كانوا يوعدون ، يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون) (٢) والخوض واللعب يشير إلى أن هؤلاء من طبقة الخاصة وليس العامة ، فإن معيشة العامة يغلب عليها الكدح والمشقة وليس اللعب ، والنصب(بضم النون المشددة والصاد) هى الأنصاب من الأصنام التى ينصبونها لعبادتها ، وذكر الأنصاب والتشبيه بها فى هذا الموقف من باب السخرية بهم وتذكيرهم بها حيث يوازن التعبير فى أسلوب التشبيه بين تلبيتهم دعوة الله إياهم يوم القيامة للحساب وبين تلبيتهم عبادة الأصنام ، والإسراع إلى الأصنام إسراع نفسى ، بمعنى أن خيالهم مرتبط بهذه الأوثان ومسرع إليها ، أما الإسراع فى الخروج من القبور فهو إسراع حسى ، كما يصفه القرآن فى موضع آخر (خشعا أبصارهم يخرجون

(١) ٥٠ سورة الأنفال .

(٢) ٤٢-٤٤ سورة المعارج .

من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) (١)

(٥) وفى مشهد آخر نراهم تجاوزوا مواقف الموت والبعث والحساب ، فحق عليهم العذاب ، ولكن عذابهم يختلف عن عذاب العامة ، لأنه عذاب إذلال وإهانة ، وقلب لأوضاعهم التى كانوا يعتزون بها فى الدنيا ، والتى كانت من أهم أسباب كفرهم ، وطغيانهم ، فهؤلاء الذين فى هذا المشهد كانوا فى الدنيا أغنياء مترفين يستمتعون بطيبات الدنيا ، ويتلذذون بشهواتهم ، حتى أطغاهم ما هم فيه ، فهم اليوم فى الآخرة فى ذل بعد عزة ، وفى حرمان من أى خير ، بعد أن كانوا غارقين فى النعيم ، وفى عذاب شديد بعد أن كانوا هم الذين يملكون أن يعذبوا عبيدهم وأتباعهم (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) (٢) فالكبرياء هى السبب الأول فيما هم فيه من عذاب الإهانة بالذات ، والكبرياء من صفات السادة وليس العامة .

(٦) وفى منظر آخر بالإضافة إلى انكسارهم ومظاهر الذل البادية على وجوههم وهيأتهم نجد شيئا طريفا رغم أنه من مظاهر الهوان والذل ، وهو النظرة الذليلة التى يختلسونها إلى من حولهم يبحثون عن منقذ أو شفيع فلا يجدون (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى) (٣) وهو أيضا حديث عن السادة ، حيث نجد فى السياق قبل ذلك الحديث عن (الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق) (٤) فالذين يستطيعون أن يظلموا وأن يبغوا لا يكونون فى العادة من العامة ، بل لابد أن يكونوا من ذوى القوة فى المجتمع ، ومن ثم لابد أن يكون لهم نوع من السيادة ، وفى مشهد العذاب الموجه إليهم من الواضح عدم القصد إلى إبراز العذاب نفسه بما فيه من إيلام أو قسوة ، وإنما الواضح القصد إلى إظهار ذلهم وهوانهم المتمثل فى خشوعهم واختلاسهم النظرة الذليلة ، أما جهنم التى لابد أن يعذبوا فيها فليس فى الحديث وصف لها كما هو فى مواضع عديدة من عذاب عامة الناس ، وكل ما يتعلق بها هنا هو أنهم (يعرضون عليها) عرضا وليس دخولا .

---

(١) ٨٧سورة القمر .

(٢) ٢٠ سورة الأحقاف .

(٣) ٤٥ سورة الشورى .

(٤) ٤٢ سورة الشورى

(٧) ومن مشاهد عذاب السادة الأغلال والسلاسل التى يسلسلون ويغللون بها فى جهنم ، فمن الواضح أن تصويرهم وهم مغللون ومسلسلون فى نار جهنم لا يقصد به إظهار شدة التعذيب لأن الأغلال والسلاسل من نار ، وهم فى النار فلا تزيدهم الأغلال والسلاسل شيئا من العذاب لأن جهنم وكل ما فيها نار ، وإنما القصد إظهار إذلالهم وعجزهم عن أن يدافعوا عن أنفسهم أو أن يقاوموا ، وإنما هم أذلاء مستكينون خاضعون لكل ما يفعل بهم يوم القيامة ، وكأن القرآن يقول لهم انظروا إلى سادتكم وهم مقيدون فى الأغلال والسلاسل ، أين قوتهم التى تخشونها اليوم ؟ فأفيقوا واستخدموا عقولكم (ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ، إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ، فى الحميم ثم فى النار يسجرون ، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ، من دون الله ....) (١) فالذى يدل على أن المقصودين بهذا المشهد من السادة وليس العامة أنهم (يجادلون فى آيات الله) فالذين لهم قدرة عقلية على الجدال ، ولهم منزلة فى المجتمع تتيح لهم التصدى لما لا يرتضونه هم عادة من الخاصة وليس العامة ، ولفظ (يسحبون) أى يجرون على الأرض ولفظ (يسجرون) من السجر وهم ملء الموقد بالنار ، أى يكونون وقودا يملأ جهنم ، أو أن النار تملأ أجوافهم ، وحين يتخيل الأتباع منظر سادتهم وكل منهم فى عنقه قيد وسلسلة من نار ، وهو مطروح أرضا ، وهناك من يسحبه ويجره على الأرض ، وهو خانع ذليل مستكين لا يبدى حركة ولا مقاومة فلا شك أنه سيفكر كثيرا فى مدى صحة انقياده له ، وفى مدى صحة موقف هذا الزعيم من الدين ، فلو كان رفضه الدين صحيحا ما صار إلى هذا العذاب وهذا الهوان ، وما دام موقفه خاطئا فكيف يسير وراءه وينقاده فى هذا الخطأ ؟ ومن هنا تكون بداية انسلاخ الأتباع من تبعيتهم للضلال .

ومن باب أولى يكون تفكير السادة أنفسهم فى هذا المصير الذى ينتظرهم ، والذى يرون أسوأ ما فيه هو الإذلال والإهانة ، فإن هذا من شأنه أن يدفعهم إلى استخدامهم عقولهم فى الحكم على مدى صحة هذا الذين الذى يرفضونه ، ومدى صدق هذا الوعيد الرهيب الذى يتوعدهم به هذا القرآن ، ومهما يكن تصميمهم على رفض الدين الجديد فإن مجرد افتراضهم

---

(١) ٦٩-٧٤ سورة غافر .

فى عقولهم ولو افتراضا جدليا أنه صحيح ، ومجرد افتراضهم بحكم التفكير العقلى ولو افتراضا جدليا أن آلهتهم باطلة ، هذا يكفى فيه زحرحة عقيدتهم ولو درجة من الشك فى صحة وثنيتهم ، تقابلها بالضرورة درجة من الشك فى صحة موقفهم من الإسلام ، هذه الدرجة كافية لتحريك عقولهم إلى البحث عن الحقيقة ، وسيظل هذا البحث ولو دون قصد منهم يشغل نفوسهم وعقولهم فى ليلهم ونهارهم وفى كل شئونهم ، ولابد حينئذ أن يسطع الحق أمامهم إذا لم تصدهم عوامل وأهواء من خارج نفوسهم كالخوف على مصالحهم أو منزلتهم فى المجتمع أو نحو ذلك .

(٨) ومن فنون الإذلال فى تعذيب أصحاب مصادر القوة فى المجتمع الذين يصدون الأتباع عن سبيل الله هذا المشهد الذى نرى فيه المشرك المتميز عن العامة وقد أخذ ملائكة العذاب بناصيته وقدميه ، ومع أن الوضع المنتظر لمثله حينئذ بداهة أن يلقى به فى جهنم كما يلقى أى متاع يقذف فى النار ، إلا أن التصوير لا يذكر شيئا إلا محض الإمساك به من ناصيته وقدميه ، وسيكون حينئذ ممددا تمديدا أفقيا وكأنه نائم فى الفضاء بين يدى الممسك به ، وكل ما تبديه الصورة وكل ما فى هذا الوضع لذاته ليس فيه تعذيب بدنى ولا ألم ، ولو أن شخصا من عامة الناس وجه إليه هذا الوعيد لذاته لما خوفه أو أفزعه ، ولكن سيدا أو زعيما يهدد بهذا الوعيد فسيرى الموت أو أى شىء أهون عليه من هذا الإذلال ، وهذا هو الهدف من التصوير فى كل صور الإهانة والإذلال أن يفزع السادة مما ينتظرهم من وعيد الإذلال ، وأن يصغروا فى نفوس أتباعهم ، فينصرف الأتباع عن اتباعهم وتتاح لهم حينئذ حرية التفكير والاتجاه ، وهذا هو هدف القرآن ، وهذه الصورة (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام) (١) وسيماهم علاماتهم ، والمشركون ليست لهم علامات جسدية تميزهم عن غيرهم ، ولكن الذى يميزهم هو منزلتهم ومكانتهم بين أقوامهم ، وهو ما يشير إلى أن المأخوذ بناصيته وقدميه من السادة وليس من العامة ، ومع تكرار أننى لست من المولعين بالربط بين معانى القرآن والبحوث العلمية الحديثة إلا أن مما يلفت النظر تعبير (يعرف المجرمون بسيماهم) أى لهم علامات تميزهم ، وفى البحوث الحديثة فى نظرية (لامبروزوا) أن المجرم له تكوين جسدى

(١) ٤١ سورة الرحمن .

خاص وخصوصا فى الوجه يميزه عن التكوين العادى ، وتفيض النظرية فى وصف الملامح الخاصة بالمجرم فى وجهه وتكوينه الجسدى ، ومع أن هذا يطابق تعبير القرآن (يعرف المجرمون بسيماهم) إلا أننى لا أظن أن القرآن يعنى شيئا من ذلك ، لأن القرآن يعنى بالجريمة جريمة العقيدة وهى الكفر ، وليس جريمة السلوك التى تعنيها النظرية المشار إليها .

(٩) ومن فنون الإذلال أحد مشاهد الصورة التى سبق الحديث عنها فى إذلال هذا الزعيم الذى كان يبلغ به الفجور فى كفره أن ينهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الصلاة بجوار الكعبة ، ومن باب أولى ينهى أى مسلم ، فإن القرآن يتوعده بأن يعرضه لوضع بالغ الإذلال والإهانة بالقياس إلى مثله ، فيقول تعالى عنه (أرأيت الذى ينهى ، عبدا إذا صلى ، أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة) (١) والسفع هو الجذب بقوة وعنف ، فكل الوعيد الموجه إليه هو أنه إذا لم يكف عن معاداة الله ورسوله فسيكون عقابه أن يجذب بعنف من ناصيته الكاذبة الخاطئة ، وهذا الوعيد أيضا بالقياس إلى شخص من عامة الناس ليس بذى خطر كبير ، وليس مصدر تخويف يصرفه عما يريد ، أما بالقياس إلى زعيم يرى أن حياته كلها أهون من فقدان كرامته ومنزلته فضلا عن زعامته فكل شىء أهون عنده من هذا الإذلال .

فهذا وعيد مخيف للزعيم ، ولكن مجرد تصوير هذا الوعيد لابد أن يكون له أثر عميق فى نفوس أتباعه حينما يرونه أو يتخيلونه فى هذا الإذلال .

(١٠) وفى أحد المشاهد نجد صاحب سلطان يصرح بتمنى الموت حينما يشعر بما أعدله من إذلال وتعذيب ، فيستعيد صورة ماله العريض ، وسلطانه القوى ، ونفوذه وتأثيره على رعيته وأتباعه ، ورغم حسرته على ذهاب هذا الماضى إلا أن العبرة الماثلة فى نفسه حينئذ أن الماضى بكل ما فيه من أمجاد ومن ترف لم يغن عنه فى موقفه يوم القيامة شيئا .

ثم يقدم هذا الطاغية إلى ما أعده ، فإذا أول ما يواجهه هو فظاعة الإذلال ، فبعد أن

---

(١)٩-١٦سورة العلق .

كـان هو الذى يبطش بمن يريد ، ويقـيـد من يريد ، ويتـحكم فى مـصـائر الناس ، أصـبـح هو المعروض على القيود والأغلال والسلاسل الرهيبة ، فضـلا عن الجـحيم ، وذلك فى قوله تعالى تصويراً لموقف هذا الذى كان سلطانا طاغيا (ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه ، خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ....) (١)

والقرآن حافل بمشاهد الإذلال لهذه النوعية من الناس ، وما هذه الأمثلة إلا نماذج منها ، ويمكن إيجاز أهداف هذا الموضوع ، وما ينبغى أن نلفت النظر إلى مراعاته فيما يلى :

(١) القرآن يفرق تفريقا واضحا بين نوعين من العذاب والوعيد ، أحدهما العذاب البدنى الأليم لكل من يستـحق العقاب ، والعذاب النفسى المهين ، وهو خـاص بالمتكبرين ، ومن أبرزهم السادة والزعماء .

(٢) تركـيـز الحـديث فى عـذاب السـادة على الإهـانة والإذلال ليس لأن هذا النوع من العذاب يغنى عن العذاب الأليم بل هو إضافة إليه وزيادة فوقه .

(٣) تركيز الحديث فيما يتعلق بالعبرة على أنها موجهة إلى الأتباع ليس معناه أنها غير مـوجـهة إلى السادة أو المهانين ، بل العكس هو الصـحـيح ، وإنما المقصـود أن خطورة كـفـر السادة ليس فى كفرهم هم ، وإنما فى أنهم يصبحون سدا حائلا بين الأتباع والدين ، فالقرآن يركز هدفه فى هدم هذا السد ليستطيع العامة الوصول إلى الدين .

---

(١) ٢٨-٣٢ سورة الحاقة .

العذاب الأليم

وكل عذاب الآخرة أليم شديد الإيلام ، بل كل عذاب الله سواء فى الدنيا وفى الآخرة لابد أن يكون شديد الإيلام حتى يتحقق الهدف منه ، ومن تكرار القول أن العذاب حين يوصف بالإهانة أو الخسران أو غير ذلك فليس معناه انتفاء شدة الإيلام أو تخفيفها وإنما هى إضافة إلى الإيلام ، فأمثلة عذاب الإهانة فيما سبق إنما تعنى أن نوعا من الناس يضاف الإذلال إلى إيلامهم ، وكذلك كل وصف لعذاب الله غير الألم إنما هو إضافة إلى الألم وزيادة عنه ، لأن الذين يستحقون هذه الزيادة قد ارتكبوا فى حياتهم جرما يفوق فى سوئه جرم الذين يستحقون عذاب الألم وحده ، فمن الواضح مثلا أن جرم الزعيم الكافر الذى كان سببا فى منع أتباعه من اعتناق الدين أكبر من جرم هؤلاء الأتباع الكافرين ، لأنه أضاف إلى كفره الصد عن سبيل الله فاستحق زيادة فى العذاب عن عذاب هؤلاء الأتباع .

وإذن فالأصل فى العذاب هو الإيلام ، وكل وصف آخر له إنما هو إضافة إلى الأصل ، وهذه الصورة هى تطبيق على واقع حياة الناس فى منازلهم وأوضاعهم الاجتماعية ، فالأصل فى حياة الناس أن يكونوا عامة ومتساويين كما كانوا عند نزولهم من بطون أمهاتهم ، وكما يكونون حين يموتون ، لا يمتاز أحد منهم عن أحد فى شىء فى ذاته هو بصرف النظر عما يحيط به ، فإذا أصبح أحدهم غنيا فهذه إضافة وزيادة عن الأصل أضافتها الظروف ، وكذلك إذا أصبح أحدهم عالما أو زعيما أو ذا سلطان أو غير ذلك فكلها إضافات وزيادات مكتسبة .

وحيث كان الأصل فى الناس هم العامة ، والأصل فى عذاب الله هو الإيلام فيكون واضحا أن العذاب الأليم من نصيب عامة الناس إذا ارتكبوا ما يستحقون عليه العذاب ، لأن العقاب يتحدد بمقدار الجريمة ، وهم ليس لهم فوق جرمهم وضعا يستحقون عليه زيادة العذاب ، كالسادة الذين أضافوا إلى جرمهم فى الكفر جرما آخر هو الصد عن دين الله ، وكالمنافقين الذين أضافوا إلى كفرهم جرما آخر هو النفاق الذى يختفون خلفه فيرتكبون فى تخفيهم جرائم أخرى هى فى أغلب الأحيان أخطر وأسوأ من كفرهم المجرد . وكما لحظنا فى كل ما سبق من أنواع عقاب الله من أنه دائما يأتى إلى المعاقبين من خلال نفسياتهم ، فكل نفسية لها عقاب يلائمها بحيث يكون أوجع لها وأخزى لأصحابها وأوضح فى نفوس الذين يريدون أن يعتبروا

ويتعظوا ، فكذلك العذاب الأليم من حيث كونه موجها فى الغالب إلى عامة الناس فإنه يراعى نفسيات العامة ونزعاتهم وما تقوم عليه حياتهم .

ومن البدهى أن القرآن قبل أن يوجه إليهم الوعيد فإنه كرر دعوتهم إلى الدين بأساليب عديدة متنوعة .

ويمكن أن نلحظ معنى مهما يلفت القرآن أنظارهم إليه قبل أن يلجأ إلى الوعيد ، وهو أن وجود رسول الله بينهم رحمة لهم وحصن يحميهم من عقاب الدنيا حتى وإن لم يؤمنوا ، فإن الله لن يعذبهم أو يعاقبهم فى الدنيا إكراما لهذا الرسول بالذات ، وأهم ما فى هذا المعنى هو الجانب النفسى الذى يشعرهم بأنهم فى حماية الرسول ، وأن هذه الحماية الدينية تشبه الجوار المعروف لديهم حيث يستطيع أحد السادة أن يعلن أن جماعة أو قبيلة ما أصبحت فى جواره وحماه ، فكل من يفكر فى المساس بهم فكأنه يفكر فى العدوان على المجير نفسه ، فبهذا المنطق كأن القرآن يصور لهم أهمية وجود رسول الله بينهم فى صورة المجير والحامى لهم من عذاب الله ، وهذا من شأنه فى أيسر الفروض أن يحول نفسياتهم تجاه الرسول فى صورة إن لم تكن من الولاء والود فهى ليست من العداوة والنفور ، ومن خلال ذلك فإن عقولهم فى أغلب الظن أو أغلب الصور ستبدأ فى التفكير فى دعوة هذا الرسول وفى موقفه الدينى بصورة إن لم تكن أيضا فى وضع الاقتناع فيكفى أن تبدأ فى الشك فى صدق موقفها من الشرك ، فإن أهمية الشك دائما أنه بداية استخدام العقول ، واستخدام العقول هو أهم ما يطلبه الإسلام ، لأن أى تفكير مجرد عن الهوى لابد أن يوصل إلى الله .

وهذا المعنى وهو إشعارهم بأن وجود رسول الله بينهم رحمة وحماية لهم من عذاب الله فى الدنيا يبرزه لهم القرآن فى قوله تعالى (وإذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ..) (١) وأيسر ما تقضى به العقول أنهم ما داموا قد اعترفوا بوجود الله ولو افتراضا أن يقولوا إن كانت دعوة الرسول حقا فاهدنا إلى الإيمان بها ، ولكنهم يبلغ بهم السفه أن يقولوا إن كان هذا

---

(١) ٣٢،٣٣سورة الأنفال .

الدين حقا فأمطر علينا حجارة أو عذبنا عذابا أليما ، وعندئذ يبرز لهم القرآن هذا المعنى النفسى الذى يؤكد لهم أنهم فى جوار رسول الله طالما هو بينهم فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فالوضع مختلف ، حيث تعهد الله ألا يغفر لمشرك فيها أبدا ، كما يقول تعالى (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (١) فالعذاب لكل من مات مشركا لا مفر منه .

ولكن كيف يكون عذاب هؤلاء العامة الذين يمثلون الغالبية العظمى فى كل مجتمع ؟ أو بمعنى آخر هو : حيث سبق القول بأن عذاب الله يراعى نفسية الذين يوجه إليهم العذاب بحيث يكون العقاب أوجع وأبلغ ، فكيف يكون نوع عذاب هؤلاء العامة ؟

والجواب أن العامة يغلب عليهم عادة الانشغال بحياتهم المعيشية ، بحيث تكون الحياة المعيشية همهم الأول ، وفيما يتعلق بمواقف العقاب فإنهم فى العادة يخافون العقاب البدنى قبل خوفهم من العقاب النفسى المتمثل فى نحو الإهانة والاستهزاء .

ولذلك نلحظ أن العذاب المتوعد به العامة يتركز غالبا فى الأمرين معا ، الإيلام البدنى ، والحياة المعيشية ، ومن أمثلة ذلك ما يلى :

١ - الطعام :

والطعام أبرز متطلبات المعيشة فى الدنيا كما يصور القرآن انشغال عامة الناس به وبمتعة شهواتهم ناسين ما ينتظرهم بعد الموت فى قوله تعالى (... والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) (٢) ومن الواضح أن القرآن إنما يعنى أساسا بأمور الدين والآخرة ، أما الدنيا فهى عرض عابر شديد القصر وشديد التفاهة معا فى مقياس العمر الأبدى للإنسان بعد الموت ، فالذى يهمل ولايفكر فى دواعى عمره الأبدى وهو الآخرة ، لايكون من العقل فى شيء ولو كان عبقريا فى أمور الدنيا التى لاتساوى غمضة عين فى المقياس الزمنى للعمر الأبدى ، وهذا يطابق تماما تشبيه القرآن إياهم فى موقفهم الدينى بالذات بالأنعام ، فى أن كلا منهما يحصر همه فى متطلبات جسده وحده ، ولذلك نجد القرآن

---

(١) ٤٨ سورة النساء .

(٢) ١٢ سورة محمد .

يسخر كثيرا من وضعهم هذا ليبصرهم بسوء هذا الوضع كقوله تعالى (كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون) (١) وكقوله تعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل ...) (٢) .

وليس بعيدا عن السخرية بهم أن القرآن يجعل من أبرز وسائل تعذيبهم فى الآخرة الأكل الذى شغلوا به حياتهم الدنيا ، وقد جعل الله فى جهنم شجرة مشهورة يأكل منها أهل النار ، وهى شجرة من نار وكل ثمرها نار ، ولكنها تزيد عن الإيلام البدنى للآكلين الإيلام النفسى ، حيث إن طلعها منظره يثير الرعب فى النفوس ، ومع ذلك يفرض عليهم أن يأكلوا منها بنهم حتى تمتلىء بطونهم ، وكأنهم يصابون بالتخمة التى يصاب به المنكب على الطعام مثلهم ، فيقول تعالى عن شجرة الزقوم (... إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين ، فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ...) (٣) وفى موضع آخر من القرآن نجد الآثار الرهيبة التى يحدثها الأكل من هذه الشجرة فى قوله تعالى (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم) (٤) .

٢ - الشراب :

ومن الحاجات المعيشية التى ترتبط بالطعام عادة الشراب ، وأهم أنواعه الماء الذى تقوم عليه الحياة بوصفه أهم حاجة للجسم بعد الهواء ، ولكن الشراب ليس الماء وحده ، وإنما هو أنواع عديدة ، يختلف الناس ويتفاوتون فى استعمالها أو استعمال بعضها ، كاللبن والعسل والخمر وغير ذلك .

والقرآن يتحدث كثيرا عن شراب أهل جهنم ، حيث يسوقه ويسوق أنواعه فى أساليب عديدة متنوعة .

ومن هذه الأساليب أسلوب السخرية والاستخفاف ، حيث يصورهم القرآن حينما يحتاجون إلى الشرب فى جهنم فى صورة قطعان من الماشية تساق إلى ورد ماء فترد كما ترد الماشية الماء لتشرب ، ولكن شراب جهنم نار ، وتبدو الإهانة وإثارة الحسرة لديهم أوضح حين

---

(١) ٤٦ سورة المرسلات .
(٢) ٢ سورة الحجر .
(٣) ٦٤-٦٦ سورة الصافات .
(٤) ٤٣-٤٦ سورة الدخان .

يوازن القرآن بين تصوير المؤمنين فى وفود مكرمة يحتفى باستقبالها وبين جعلهم هم قطعان ماشية ترد نارا لتشرب منها مرغمة على الشرب ، فى قوله تعالى (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ، ونسوق المجرمين إلى جنهم وردا) (١) .

ويصورهم القرآن أحيانا فى صورة آكل يكثر من الأكل فيحتاج إلى ماء يشربه على الطعام ، ولكن هذا الطعام من شجرة الزقوم ، والماء من نار ، ففى القرآن فى سياق الحديث عن شجرة الزقوم (فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ، ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم) (٢) .

ومن المألوف فى حياتهم أن الحر يحتاج إلى شرب الماء ليعوض ما يتصبب من العرق ، وهؤلاء فى جهنم التى لاتطاق من نارها فضلا عن حرها ، فإذا هم يستغيثون من شدة العطش ، واذا الزبانية يغيثونهم فعلا ، ولكن ليس بماء وإنما بنار تشبه فى سيولتها الماء ، ويقدمون متلهفين على الشراب ، ولكنهم قبل أن يصل هذا الشراب إلى أفواههم إذا حرارته تشوى وجوههم مما يتصاعد من حر هذا الشراب إلى وجوههم ، كقوله تعالى (إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا) (٣) .

ولكننا نجد فى صورة أخرى تصورا بالغ الطرافة ، وبالغ السخرية بهم فى أكثر من مشهد من مشاهد هذه الصورة .

والصورة هى أن هؤلاء المشركين حين يقدمون يوم القيامة كأنهم يقدمون فى صورة وفد من الضيوف المكرمين ، وكأن الملائكة لايسخرون منهم قائلين لهم تقدموا لتروا وتنالوا مما أعد لكم من ضيافة فى هذا النزل (بضم النون والزاى) وكأن هذا الوفد من الضيوف قادم من سفر ، وقد أرهقه الجوع والعطش ، ويتقدم ليرى ما أعد له من طعام وشراب فى هذا النزل ، ولكنه يفاجأ بأن الطعام هو شجر الزقوم ، وأن الشراب هو الحميم ، ومع ذلك فإن شدة الجوع

---

(١) ٨٥،٨٦ سورة مريم . (٢) ٦٦،٦٧ سورة الصافات .

(٣) ٢٩ سورة الكهف .

تجعله يأكل بنهم من شجر الزقوم حتى تنتفخ بطونهم من امتلائها ، وكذلك شدة العطش تجعله يعب من الحميم عبا ، وإذا كانت بطونهم تمتلىء من نار الزقوم ، فإنها لا تمتلىء ولاترتوى من شراب الحميم ، فيظلون يشربون دون انقطاع ، لأنهم لايرتوون كالإبل التى تصاب بداء الهيام ، وهو داء يصيب الإبل كأنه خلل فى مسالكها البولية فتظل تشرب ولاترتوى لأن كل ما تشربه تبوله (... ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين) (١) وتصويرهم فى أثناء الشرب بصورة الإبل الهيم ، وتصوير ما أعد لهم من عذاب فى صورة نزل (فندق) حافل بكل ما يعد لاستقبال الضيوف ، كل ذلك سخرية بالغة بهم .

وفى موازنة بين شراب أهل الجنة وشراب أهل النار نجد شراب أهل الجنة فيضا سخيا من أنهار تفيض بكل ما يلذه الشاربون على اختلاف أمزجتهم ورغباتهم ، فهناك أنهار من الماء العذب النقى ، وأنهار من اللبن الطازج الشهى ، وأنهار من خمر جيدة ، وأنهار من عسل قد صفى من كل الشوائب فضلا عن كل ما يشتهون من كل الثمار التى تصاحب فى العادة الشراب . وفوق هذا كله ينعمون برضا الله عنهم ، بينما كل شراب أهل النار الماء الحميم الذى تتساقط منه أمعاءهم ، وبطبيعة الحال ليتها تتساقط وتنتهى ، ولكنها كلما تساقطت عادت كما كانت ، فيشربون فتتساقط ، ثم تعود وهكذا ، وهم لايطلبون فاكهة مما يؤكل مع الشراب كما كانوا يفعلوان فى الدنيا ، لأنهم يعلمون أنه لافاكهة فى جهنم إلا شجر الزقوم ، وهذه الموازنة فى قوله تعالى (مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) (٢) .

فالشراب الوحيد فى جهنم هو هذا الحميم الذى يشوى الوجوه ويقطع الأمعاء ، وليس لهم شراب غيره ، كما أن هذا الشراب خاص بأهل جهنم لايمس أحدا غيرهم ، ومع ذلك فليس هو كل العذاب ، وإنما هناك ألوان أخرى من العذاب تتوارد عليهم (لهم شراب من حميم

---

(١) ٥١-٥٦ سورة الواقعة .

(٢) ١٥ سورة محمد .

وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) (١) ويتكرر هذا المعنى لتأكيده كقوله تعالى (والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) (٢) .

وفى صورة أخرى نرى بشاعة ماء الحميم فى جهنم حيث كان أهل جهنم يريدون أن يغتسلوا كما كانوا يفعلون فى حياتهم الدنيا ، أو يفرض عليهم هذا الغسل ، فيؤتى بماء الحميم ، ويصب فوق رءوسهم فإذا ما فى داخل بطونهم ينصهر به فضلا عن جلودهم ، ثم تضاف إلى ذلك الأنواع الأخرى من العذاب ، وكل هذه المشاهد تحدث ليس مرة واحدة تنقضى بها الحياة ويفنى الجسد كما يحدث فى الدنيا ، وإنما هى مشاهد دائمة التكرار والتجدد دون انقطاع ، بل دون أى فاصل بينها ، ومن ذلك قوله تعالى (... يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق) (٣) على أن لفظ (ذوقوا) وحده نوع من التعذيب النفسى لأنه سخرية بهم ، فالذوق والتذوق المألوف والمعروف هو اختبار طعم الشىء بطرف اللسان أو بوضع شىء قليل مما يراد ذوقه على اللسان ، وعذاب جهم الذى يطلب منهم أن يذوقوه ليختبروا طعمه بعيد كل البعد عن الذوق المألوف والمعروف ، بل عن الذوق نفسه ، لأنه عذاب رهيب وليس اختبارا للطعم .

وإذا كان شراب النار الذى هو الحميم هو كل مشروب أهل جهنم ، فإن من تعذيبهم فقدان الأمل إطلاقا فى أن ينالوا أى ماء مما يشرب فى العادة لإرواء الظمأ أو تبريد الجوف ، بل ولا أن يصل شىء من ذلك إلى ألسنتهم ليذوقوه (لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا) (٤) .

ومن تعذيبهم النفسى أن يروا أهل الجنة وخصوصا من كانوا يعرفون منهم فى الدنيا يتمتعون بالماء البارد وغيره من وسائل النعيم ، فيضرعون إليهم أن يفيضوا عليهم شيئا من هذه الأنهار التى يمتعهم الله بها ، ولكنهم لا يجدون إلا ما يزيدهم بأسا وعذابا ، وكما ينقل القرآن عنهم فيما لابد أن يكونوا فيه فى الآخرة (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن

---

(١) ٧٠ سورة الأنعام . (٢) ٤ سورة يونس .

(٣) ١٩-٢٢ سورة الحج . (٤) ٢٤ سورة النبأ .

أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا ، إن الله حرمهما على الكافرين) (١) ولابد أن يتذكروا حينئذ أن هؤلاء الذين يستعطفونهم اليوم ليفيضوا عليهم شيئا مما نعمهم الله به كانوا ينفرون منهم ويعادونهم ويسخرون منهم وآثروا عليهم الصلة بأخلاء السوء وقرناء الكفر .

٣ - الملبس والفراش :

ومن وسائل المعيشة التى تشغل عادة أذهان العامة الملبس وأثاث البيت كالفراش والغطاء ونحو ذلك ، فالله ييسر لهم كل ما كان يشغلهم فى الدنيا ويشقون للحصول عليه ، فهو اليوم يقدم إليهم دون أن يطلبوه بل هو مفروض عليهم لأنه عذاب لهم .

وأول ما يشغل بال الإنسان فى الدنيا الدار التى يحتاج إليها احتياجا ضروريا للسكن ، فهم اليوم يجدون دارا تفتح لهم أبوابها ، وينظرون فاذا هى جهنم التى سيجدون فيها دارا ليست مؤقتة كمساكن الايجار فى الدنيا ، بل وليست كالدار المملوكة التى تنتهى ملكيتها بالموت ، وإنما هى دار خالدة لا نهاية للإقامة فيها ، لأنها فى جهنم كما يقول تعالى (ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) (٢) .

ولكن القرآن لايدخلهم داراً خاوية ، وإنما يجدون فيها كل ما كانوا يحتاجونه فى ديارهم فى الدنيا ، ولكن كل شيء فيها من نار السعير ،

ومن الحاجات الضرورية فى الدار الفراش ، ولكونه أهم الأشياء الضرورية فى الدار نجد القرآن يكرر أنهم سيجدون فى جهنم فراشا ، ولكنه بئس الفراش ، كقوله تعالى (... مأواهم جهنم وبئس المهاد) (٣) وكون جهنم فراشا سخرية بهم ، ولكن السخرية الأشد هى أن الأصل فى المهاد هو فراش الطفل الصغير ، حيث تمهد له أمه ألين ما لديها فى فراشه ليريحه ، وقد كان يمكن أن يكون تعبير القرآن بلفظ الفراش كما فى حديثه عن فراش أهل الجنة فى قوله تعالى (متكئين على فرش بطائنها من استبرق) (٤) ولكن سخرية القرآن بهم تصور أن ما أعد

---

(١) ٥٠ سورة الأعراف .
(٢) ٢٨ سورة فصلت .
(٣) ١٩٧ سورة آل عمران .
(٤) ٥٤ سورة الرحمن .

لهم فراش هو ألين وأنعم ما يعرفون من فراش ، وهو مهد الطفل الصغير ، ومن الملحوظ أن القرآن استخدم بالقياس إلى أهل الجنة لفظ الفراش ، أما أهل جهنم فهم الذين استخدم لهم لفظ المهاد الذى من شأنه أن يكون ألين من من الفراش العادى من باب السخرية بهم ، وقد ذكر المهاد لهم أيضا فى سورة الأعراف (١) وسورة الرعد (٢) وسورة ص (٣) ويرتبط بالفراش فى الذهن الغطاء .

والقرآن من باب السخرية بهم يصور كأن جهنم باردة لا يستطاع النوم فيها من شدة البرودة بدون غطاء ، فيذكر أنه أعدت لهم فى جهنم أغطية يضعونها فوقهم لتحميهم من البرد ، وكأن هذا من باب تيسير كل وسائل الراحة لهم ، فالفراش تحتهم ألين ما يكون الفراش ، ومن فوقهم الأغطية التى تقيهم البرد من حولهم (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش) (٤) والغواش هى الأغطية ، وكل هذا سخرية ، لأن جهنم ليس فيها فراش لين أو غير لين ، وليس فيها برد على الإطلاق حتى تحتاج إلى أغطية كما يؤكد القرآن (لايذوقون فيها بردا ولا شرابا) (٥) بل هى وكل ما فيها نار حامية .

ومن وسائل المعيشة وحاجاتها الضرورية الملابس ، وجهنم لاتضن على أهلها بحاجتهم إلى الملبس - بل تقدم لهم ثيابا ، وليست ثيابا عامة تصلح لكل لابس ، بل لتكون هذه الملابس متقنة ومحكمة تلائم جسد لابسها فإن هذه الملابس قطعت وقيست على قدود أصحابها ، ويتقدم كل منهم ليلبس لباسه فإذا هذه الثياب من نار متقدة ، ولابد أن يلبسوها ، ولابد أن تصطلى أجسادهم بنارها ، فكان تعبير القرآن (قطعت لهم ثياب من نار) (٦) .

والثوب يحتاج إلى قميص تحته عادة ، وجهنم لا تبخل عليهم بالقمصان ، فتعد لهم قمصا هى السرابيل ، ولكنها ليست من نوع ما يألفون ، بل ولا هى من النار مباشرة ، وإنما هى من مادة حارقة للجلد ، وهى سريعة الاشتعال حين تمسها النار ، تلك هى مادة القطران الأسود ، الذى يؤخذ من شجر معين ، فيكون أسود اللون ، كريه الرائحة ، وهم يعرفونه حق

---

(١) الآية ٤١ .
(٢) الآية ١٨ .
(٣) الآية ٥٦ .
(٤) ٤١ سورة الأعراف .
(٥) ٢٤ سورة النبأ .
(٦) ١٩ سورة الحج .

المعرفة ، لأنهم كانوا فى الدنيا يحتاجونه دائما ليدهنوا به جلود الإبل الجرب ، ففى القرآن (سرابيلهم من قطران) (١) وذلك لتتأذى نفوسهم برائحتها ، وليجدوا لذعها فى أجسادهم ، ولتكون النار أسرع اشتعالا ، وأعمق توغلا فى جلودهم .

٤ - الإيلام البدنى والنفسى :

ومن حيث إن أشد ما يخافه العامة من أنواع العقاب هو العقاب البدنى ، وليس العقاب النفسى ، فلذلك نجد القرآن يأتيهم بما هو أشد إيلاما لهم ، فيتتبع أهم مواضع الإيلام لهم فيصب عليهم العذاب فوقها .

وأهم ما فى ظاهر الإنسان وجهه الذى يتمثل فيه كيانه ومعالمه كلها ، وتتركز فيه أهم حواسه إن لم تكن كلها فنجد القرآن يصب ألوانا من التعذيب على وجوههم ، وأول التعذيب عجزهم عن أن يدفعوا النار عن وجوههم ، وهذا العجز نفسه من أشد التعذيب النفسى ، فإن الإنسان يستميت عادة فى الدفاع عن وجهه بالذات ، حتى إنه قد يعرض أى مكان فى جسده كله ليقى به وجهه مما يوجه إليه من ضرب أو طعن أو أى مصدر ضرر بدنى ، ولكنهم فى جهنم كما يصفهم القرآن (... لايكفون عن وجوههم النار ..) (٢) بل قبل أن يصلوا إلى جهنم ينصب الهوان على وجوههم ، حيث يحشرون ويجرون منكفئين على وجوههم ، كما يصف القرآن ذلك (الذين يحشرون على وجوههم إلى جنهم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) (٣) وفى جهنهم لايستطيعون أن يكفوا النار عن وجوههم ، فتظل النار تلفح وجوههم فتصبح وجوههم كالحة كئيبة مشوهة (تلفح وجههم النار وهم فيها كالحون) (٤) فلا حائل بين النار ووجوههم ، فالنار تغشى وجوههم وتغمرها ، كما ينوع القرآن فى وصف وصول النار إلى وجوههم ، فأحيانا تلفحها كما سبق ،وأحياناً (وتغشى وجوههم النار) (٥) .

ولكن التفنن فى تعذيب الوجوه لايكتفى بوصول النار إليها ، وإنما يكون تعذيبها فى أوضاع مختلفة ، منها هذه الصورة التى تقلب فيها الوجوه فى النار وكأنها لحم يشوى

(١) ٤٩ سورة ابراهيم .
(٢) ٣٩ سورة الأنبياء .
(٣) ٣٤ سورة الفرقان .
(٤) ١٠٤ سورة المؤمنون .
(٥) ٤٩ سورة ابراهيم .

على النار فيقلب إلى كل جهة لينضج من كل جوانبه ، ففى القرآن (يوم تقلب وجوههم فى النار) (١)

وفى تتبع القرآن مواضع الإيلام لأعداء الله ، نجد من أشد ما فى الجسد إحساسا بالألم هو الجلد ، والقرآن يتحدث عن تعذيب الجلود لذاتها فى أكثر من موضع ، ولكن يستوقفنا هذا الموضع البالغ الدقة ، والبالغ التعبير عن شدة الإيلام لهم ، فى قوله تعالى (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ...) (٢) وقد سبقت الإشارة إلى أنه من دقة القرآن ومن آثار كونه كلام الله أن يحدد تركيز الألم فى الجلد ، فلم يعرف إلا مؤخرا فى البحوث العلمية أن مركز الأحساس بالألم هو الجلد ، أما ما تحت طبقة الجلد فلايشعر الإنسان فيه بالألم ، بدليل أننا لو غرسنا إبرة فى جسد إنسان فإن إحساسه بالألم إنما يكون فى أثناء اختراق الإبرة الجلد ، فإذا اخترقته لا يشعر بألم مهما توغلت تحت الجلد ، وحيث إن القرآن يهدف إلى إبراز شدة الإيلام لهم ، فإنه يبرز هذا المعنى الذى لم يكن يعلمه عند نزول القرآن إلا الله ، وهو أن جلودهم هى موضع الألم ، ولذلك فإن الله لايترك جلودهم يأكلها الحريق ، لأن الجلود لو زالت فلن يشعروا بألم فيما تحتها ، بل كلما احترقت جلودهم تجددت كما كانت ، وتظل تحترق وتتجدد بغير انقطاع إلى ما شاء الله ، ومن الدقة التى لن تكون عفوية لأنه لا شيء فى القرآن عفوى بل لابد أن يكون مقصودا وذا دلالة معينة ، أن يقترن لفظ (ليذوقوا) بمعنى أن الجلود هى التى يذوقون فيها العذاب ويحسون فيها بالألم ، وإلا لما كان هناك داع لتبديلها كلما نضجت .

وهكذا تتعدد مشاهد الإيلام البدنى فى كل ظاهر الإجساد ، وفى صور أخرى كثيرة ، ولكن جهنم لاتكتفى بتعذيب الظاهر كنار الدنيا ، وإنما تتوغل حتى تنال كل الباطن ، فنار الدنيا لاتصل إلى الجوف إلا حينما يحترق الجسد ويتفحم ، ويكون صاحبه قد فارق الحياة قبل ذلك بكثير ، أما نار جهنم فإن صاحبها لايموت أبدا ، ولايتفحم جسده أبدا ، بل يبقى حيا ، ويبقى جسده كلما نضج عاد كما كان ، ومع ذلك فإن النار تظل تحرق فى الجوف كما تفعل فى ظاهره .

---

(١) ٦٣ سورة الأحزاب .

(٢) ٥٦ سورة النساء .

فهذا الحميم يصهر ظاهر الجسد وباطن الجوف معا ، كما فى قوله تعالى (يصهر به ما فى بطونهم والجلود) (١)

وهذا الحميم يرغمون على شربه فإذا أمعاؤهم تتساقط منه قطعة قطعة ، كقوله تعالى (وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم) (٢) ونار جهنم نفسها لاتكتفى بشى الظاهر حرقه ، وإنما تتوغل حتى تصل إلى القلوب ، كقوله تعالى (نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة) (٣) وهى فى الحقيقة لا تطلع على القلوب اطلاعا فحسب ، وإنما تشويها شياً ، ولكن التعبير بالاطلاع مجاز من باب السخرية ، ومع ذلك يستفاد منه أن النار حينئذ تخترق الظاهر متجهة إلى الجوف ، وكأنها تبحث عن شىء فى داخل الجوف ، فإذا هى تعثر على القلوب .

وحتى يكون عذابهم كاملا من كل الوجوه ظاهرا وباطنا وحسيا ومعنويا ، لذلك نجد القرآن يتتبع أيضا عذابهم من الناحية النفسية ، فيعرض مشاهده وآثاره .

ومن أوائل المشاهد أن عذابهم النفسى يبدأ قبل أن يدخلوا جهنم ، فإنهم ما إن يروا ما أعد لهم من عذاب فيها حتى يستولى عليهم الهلع والفزع ، فإذا أبصارهم جاحظة شاخصة من هول ما يرون ، وإذا الندم الأليم يملأ عليهم نفوسهم بما يصاحب هذا الندم من حسرات ومن تسفيه لأنفسهم كيف أنهم غفلوا عن تذكر هذا العذاب الذى توعدهم به الدين فى حياتهم الدنيا ، وكيف أنهم أجرموا فى حق أنفسهم هذا الجرم الذى دفعهم إلى جحود الله وإلى عبادة هؤلاء المعبودين الذين يرونهم اليوم مدفوعين معهم إلى جهنم ، ويصور القرآن بعض ذلك فى هذا المشهد (واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة ابصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين ، إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون ، لهم فيها زفير وهم فيها لايسمعون) (٤)

بل إن العذاب النفسى يتقدم بهم إلى ما قبل موتهم ، إلى الواقع الذى يخاطبهم فيه

---

(١) ١٩ سورة الحج .

(٢) ١٥ سورة محمد .

(٣) ٦، ٧سورة الهمزة .

(٤) ٩٧، ١٠٠سورة الأنبياء .

القرآن ، وهو ينطبق على كل مخاطب يشبههم إلى يوم القيامة لأن الخطاب بالقرآن لاينتهي بجيل أو زمان معين أو محدد ، فيصورهم القرآن في صورة من الإيلام النفسي هي أنهم مدعوون إلى أن يحركوا عقولهم ويستخدمونها وأن ينظروا فيما حولهم من خلق الله ليتدبروا آيات الله ، وإلى أن يستجيبوا لداعي الله ، ولكنهم جمدوا أنفسهم وجمدوا عقولهم ، فلاهم يحركون عقولهم ولا هم يتقدمون إلى داعيهم إلى الله ليستجيبوا له أو ليتفهموا ما يدعوهم إليه ، فكأن أجسامهم مقيدة ومغللة بأشد الأغلال ، وكأن رءوسهم التي فيها عقولهم مغللة أيضا بأغلال معينة تجعلها شاخصة إلى أعلى لا تستطيع الحركة يمنة ولا يسرة ، وفوق ذلك كأنهم بين سدين من أمام ومن خلف ، فلا يرون شيئا إلى أمام ، ولا يرون شيئا إلى خلف ، وبهذا تصبح الجهات الأربع مصمتة مغلقة من حولهم كقوله تعالى (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون) (١) وفي تعبير (مقمحون) تشبيه لهم بالأبل حين ترفع رءوسها من الشراب إلى أعلى ، فالبعير يقال له حينئذ قامح ، وهم في التشبيه كذلك ، أبصارهم شاخصة لاتتحرك ، ورءوسهم بما فيها من عقول جامحة إلى أعلى في وضع ثابت لايتحرك ، فهم لايرون بسبب هذا الوضع وبسبب السدود من أمام ومن خلف شيئا ، ولا داعي للإفاضة في عناصر التشبيه ، ولكن تكفي الإشارة إلى أن ثبات رءوسهم يعني جمود عقولهم وأفكارهم ، وأن السدود من حولهم هي العوامل النفسية والاجتماعية التي تصدهم عن الإيمان وتحول بينهم وبينه .

ومع ذلك فإن هذه الصورة النفسية كأنها صورة مصغرة للصورة الحسية التي سيكونون عليها في صورة من صور تعذيبهم النفسي في الآخرة ، كهذه الصورة (إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ، في الحميم ثم في النار يسجرون) (٢) وكقوله تعالى (... أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم) (٣) .

ومن وسائل التعذيب النفسي قطع الروابط في الآخرة بين أفراد الأسرة الواحدة ، فمن متعة الحياة وسكينتها النفسية في الدنيا حياة الفرد بين أسرته ، أبيه وأمه وأخوته قبل أن

---

(١) ٨، ٩ سورة يس .

(٢) ٧١، ٧٢ سورة غافر .

(٣) ٥ سورة الرعد .

يتزوج ، ثم بين زوجه وبنيه بعد أن يتزوج ، وحرمانه منهم أو من بعضهم شقاء نفسي ينغص عليه حياته ، فعذاب الله يأتيهم أيضا من هذه الناحية ، ومن كل ناحية فيها إيلام لهم ، فاذا كل رابطة أو صلة مقطوعة بينه وبين كل من كان يألف الحياة معهم ويسعد بمعيشته بينهم ، كقوله تعالى (فإذا جاءت الصاخة ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) (١) فهؤلاء هم أسس الروابط الأسرية التى يحرص الإنسان بغريزته على الارتباط بهم ارتباطا اجتماعيا ، ولكنه فى الآخرة يجد من الأهوال ما يصرفه عنهم ، بل يصل الأمر إلى أن يفر هو منهم فرارا لأن ما هو فيه يشغله عن كل شىء ، فإذا انتهى هول الحشر والحساب الذى يشغل كل امرىء عن أقرب أقربائه وأحب أحبائه عندئذ تعود الروابط بين الأفراد ، ولكن لتكون زيادة عذاب فى جهنم حين يشاهد الكافر أعزاءه وأحباءه وهم يعذبون ، أو زيادة فى النعيم حين يستمتع المؤمن بصحبة أعزائه وأحبائه فى الجنة .

٥ - عذاب الندم :

وكان من حق هذا الحديث أن يندرج فى العذاب النفسى ضمن الحديث السابق ، ولكن لأن القرآن جعله فى أبرز ما يعانيه ويشعر به العامة فى الآخرة ، فينبغى أن يفرد بحديث خاص لأبراز هذه الأهمية الشديد التى يوليها القرآن إياه .

ويمكن إبراز أهم ما يتضمنه عنصر الندم فيما يلى :

(أ) الوعيد كله فى القرآن والدين عامة ليس هدفا مقصوداً لذاته ، وإنما القصد الوحيد منه إيقاظ عقول الضالين عن طريق الله ليشعروا بسوء موقفهم الدينى ، فيندموا على ذلك فيتجهوا إلى الله ، وهذا هو الفارق الجوهرى بين وعيد الله ووعيد البشر بعضهم بعضا ، فإن وعيد الناس ينصب عادة على الرغبة فى الانتقام بوصفه غاية وهدفا لذاته ، بينما وعيد الله هدفه الوحيد الهداية والإصلاح ، فإذا استجاب الموجه إليه الوعيد لدعوة الحق انمحى كل أثر للوعيد ليحل محله الثواب .

والفاصل دائما بين الهداية والضلال وبين الخير والشر هو الندم ، فإذا تحول الضال عن

(١)٣٢-٣٧سورة عبس .

الضلال إلى الهداية ، والشرير عن الشر إلى الخير ، فمعناه أنه ندم على مسيرة الضلال والشر ، وأحس بما فيها من خطأ فعاد إلى الهداية والخير ، ومنه التحول من المعصية إلى التوبة فالفاصل الوحيد بينهما الإحساس بالندم الذى يكون مركز التحول من الشر إلى الخير ، ومن العصيان إلى الطاعة .

والندم نفسه نوع من الألم أى العذاب النفسى مهما تفاوتت درجاته ، ومهما طال أو قصر زمنه .

وإذن فوعيد القرآن كله يهدف إلى الإشعار بالندم ، ولئن كان الندم نوعا من العذاب النفسى فإن العذاب النفسى فى الدنيا لايوزن بشىء من عذاب الندم فى الآخرة .

(ب) سبق القول بأن كل ماهو موجه فى ظاهره إلى السادة بوصفه حديثا عنهم أو وعيداً لهم كما سبق فى حديث العذاب المهين بأنواعه هو فى الجانب الأبرز والأهم موجه إلى الأتباع لإشعارهم بسوء موقفهم الدينى ليفيقوا ويستخدموا عقولهم فيشعروا بالندم فيعودوا إلى طريق الله .

(ج) مما هو ملحوظ فى مشاهد عذاب الآخرة أن معظمها موجه إلى الاتباع وهم عامة الناس سواء أكان مرتبطا بالسادة فى محاورات بينهم وبين الأتباع أم غير مرتبط .

وحينئذ يتضح أن كل أنواع الوعيد سيكون العامة والأتباع هم العنصر الأصلى فيه ، لأنه إذا كان الوعيد عاما أى كان موجها إلى الكافرين بصفة عامة فإن القصد الأول منه حينئذ أن يكون موجها إلى العامة لأنهم هم عامة الناس ، وهم الذين يوليهم الدين اهتمامه الأول بصفتهم الغالبية العظمى فى الناس من جهة ، وبصفتهم أحوج إلى التبصير والإرشاد من الخاصة الذين يفترض فيهم عادة أن يكونوا أشد وعيا وأنضج عقولا من العامة .

وكذلك إذا كان الوعيد موجها إلى الخاصة كما رأينا فى وعيد السادة الزعماء فإن القصد الأهم فيه كما سبق هو لفت أنظار العامة والأتباع إلى حقيقة السادة فى موقفهم المعادى للدين من أنهم إنما يضللون أتباعهم ويدفعونهم إلى سوء المصير ، والأتباع هم بداهة من العامة ، كما أن العامة هم أتباع حقيقة أو حكما .

والنتيجة أن العامة هم الهدف الأول والأهم فى كل وعيد للقرآن .

وحيث كان الندم هو الثمرة المرجوة لأى وعيد فى القرآن ، فإننا نجد وعيد القرآن يفيض فى أساليب متعددة ومتنوعة كلها من شأنها أن تبعث الندم فى نفوس الذين ضلوا عن طريق الله سواء بالكفر أو بالعصيان .

وعلى سبيل المثال نجد هذه الصورة الحافلة بعناصر اثارة الندم ، والتى تأتى فى سياق إنكار المشركين البعث حتى إنهم اتهموا حديث البعث بأنه لون من السحر ، فالقرآن يصور لهم حالهم حينما يبعثون ويجدون أن حديث البعث والحساب بعد الموت لم يكن سحرا وانما هو حقيقة هم اليوم ماثلون فيها ، فإذا بعضهم يلوم بعضا قائلين (يا ويلنا هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) (١) ويشتد الندم حينما يجدون أنفسهم محشورين للحساب والمساءلة ، وهم فريقان ، تابعون ومتبوعين ، وبطبيعة الحال فإن مساءلة المجرم عن جريمته لاتكون سؤالا واحدا أو عنصرا واحدا ، وإنما هى مساءلة شاملة لكل الجوانب من الدوافع والأسباب وكيفية المزاولة للجريمة ومدى معرفة المجرم لآثار جريمته ومدى خطورتها وغير ذلك والصورة هنا للمساءلة ، حيث يأمر سبحانه قائلا (وقفوهم إنهم مسئولون) (٢) ولكن الصورة تركز المشهد على عنصر معين من عناصر المساءلة ، هو العلاقة بين الأتباع والمتبوعين ، هذه العلاقة التى كانت سببا فى هذا المصير السيء الذى صاروا إليه ، حيث يقول سبحانه (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم)(٣) وإذا تأملنا تعبير الآية نجد أنها تشمل كل صور التبعية الاجتماعية والعائلية ، بما فيها الصورة التى يكون فيها الشخص تابعا ومتبوعا فى آن واحد ، فالتبعية الاجتماعية هى العلاقة بين السادة وأتباعهم ، حيث يكون التابع أو المرءوس مطيعا لسيده أو رئيسه ، وهذه الطاعة هى المقصودة فى تعبير (يعبدون من دون الله) فالعبادة فى معناها العام هى الطاعة ، وعبادة الله طاعته ، ومنه (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (٤) أى ليطيعونى ، وكذلك طاعة الأتباع لسادتهم ، وطاعة المرءوسين لرؤسائهم إذا كانت طاعة عامة وليست فى حدود

---

(١) ٢٠ ، ٢١ سورة الصافات .
(٢) ٢٤ سورة الصافات .
(٣) ٢٢ ، ٢٣ سورة الصافات .
(٤) ٥٦ سورة الذاريات

العمل هى عبادة ، ومن باب أولى طاعة المحكومين لحكامهم طالما هى طاعة عامة فهى عبادة ، والفيصل بين الطاعة العامة والخاصة ، أنه إذا كان التابع أو المرءوس أو المحكوم يطيع طاعة مطلقة فهى عبادة ، وإذا كانت الطاعة فى حدود العرف أو العمل أو القانون فحسب ، بحيث يستطيع التابع وينفذ استطاعته مخالفة المتبوع إذا تجاوز مالا ينبغى تجاوزه ، فحينئذ تكون الطاعة خاصة ، وهو ما يجب أن تكون الطاعة فى حدوده ، ومنه المبدأ الشرعى (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) فإذا كانت الطاعة عامة ومطلقة فهى طاعة العبادة ، وهى المعنية فى أمر الله سبحانه ملائكته أن يحشروا الذين ظلموا أى الكافرين مع الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ، أى يطيعونهم فى الكفر الطاعة التى كان ينبغى أن يطيعوها لله بالأيمان .

ومن التعبير الذى يلفت النظر فى هذا السياق أمر الله سبحانه أن يحشروا أزواجهم معهم إلى جهنم ، مع أن الزوجية لذاتها ليست ذنبا ، ووجهه أن الموقف هو مشهد خاص بالمساءلة عن التبعية التى أدت إلى الكفر ، والمرأة يفترض فيها أن تكون تابعة لزوجها ، ولذلك كانت عنصرا فى المساءلة ، وقد كان يجب عليها ان تخالفه حين اتجه إلى الكفر ومغاضبة الله ، ولكنها أطاعته الطاعة المطلقة التى وصلت إلى تفضيل طاعته على طاعة الله فى أخطر موضع وهو العقيدة .

ولكن المشهد أصبح فيه ثلاثة أنواع من التبعية ، هى أن يكون الإنسان تابعا فقط وهو تبعية الزوج لزوجها ، وأن يكون تابعا ومتبوعا كالزوج الذى يكون من عامة الناس ، حيث يكون تابعا لسيد أو رئيس أو حاكم ، وفى الوقت نفسه هو متبوع ، لأن له امرأة أو أكثر تتبعه ، والنوع الثالث يتمثل فى السيد أو الحاكم الذى لايكون فوقه رئيس له ، فيكون متبوعا وليس تابعا .

وهذا الموقف يفيض بالندم ، وخصوصا الأتباع الذين يتركز المشهد عليهم ، حيث يسيطر عليهم الشعور بالهوان كما هو مضمون (بل هم اليوم مستسلمون) (١) ولكنهم فى غمرة الندم والهوان لايملكون إلا توجيه اللوم إلى سادتهم وزعمائهم ، حيث يتهمونهم بأنهم كانوا

---

(١) ٢٦ سورة الصافات .

يضغطون عليهم بالقوة ليحولوا بينهم وبين الإيمان بالله قائلين (.. إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) (١) واليمين رمز القوة ، ولكن زعماءهم يسفهونهم قائلين إنكم كنتم تستطيعون أن تخالفونا ولكنكم اخترتم تجاوز الحق إلى الباطل ، وهو معنى الطغيان فى ردهم عليهم بقولهم (وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين) (٢) لأن الطغيان هو مجاوزه الحد فى كل شيء ومنه طغيان الماء فى القرآن (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) (٣) ويطول الحوار وتبادل اللوم والتأنيب بينهم ، ولكن غاية ما ينتهى إليه الأتباع ما يعبر عنه القرآن فى موضع آخر من قولهم صارخين بالندم (يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا)(٤)

ولكن الصورة التى نحن معها والتى تحفل بمواقف الندم ، لا تكتفى بما يحفل به موقف المساءلة بين الأتباع والمتبوعين أمام الله ، وإنما تتبع هذا المشهد بمشاهد كثيرة كلها حافل بالندم فضلا عن الألم والعذاب ، منها أن يروا المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم فى الدنيا يرفلون فى صفوف النعيم فى الجنة .

ومن المشاهد المثيرة لندم الكافرين أن يسمعوا حوارا بين أهل الجنة ليس كالحوار الصاخب الحزين بينهم وبين سادتهم أو تابعيهم ، وإنما هو حوار هادىء يعبر عن سعادة أحد المؤمنين بأنه كان من العقل والحزم بحيث لم يترك نفسه تنساق وراء غواية أحد رفقائه الذى كان يسخر من البعث وممن يصدقون حديثه ، وإنما اتجه إلى الإيمان بالله وبكل ما يخبر به ومنه البعث ، وعن سعادته بنجاته من المصير الذى يرى فيه رفيقه هذا وهو يصطلى النار فى قاع الجحيم ، ولابد أن تمتلىء نفوس الذين يوجه إليهم الاتعاظ بهذه المشاهد وأهمهم الأتباع ندما إن كان لهم شيء من عقل أو تفكير . وتواصل الصورة التى نحن معها مشاهد الحسرة والندم ، أو المشاهد التى من شأنها أن تثير الحسرة والندم فى نفوس العامة الذين يوجه إليهم أساسا خطاب الدين .

وهذه الصورة التى نحن معها تدور ركائزها حول الرد على إنكار البعث الذى كان هو

---

(١) ٢٨ سورة الصافات .
(٢) ٣٠ سورة الصافات .
(٣) ١١سورة الحاقة .
(٤)٦٦-٦٨سورة الأحزاب .

العقبة الكبرى بين الأنبياء وأقوامهم ، وخصوصا بين محمد صلى الله عليه وسلم ومشركى العرب الذين كانوا يصفون كل من يقول بالبعث بأسوأ الصفات ، حيث نجد فى سياق الصورة (وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ، أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون) ؟ (١)

وأما الصورة فمنها بادئة بالرد على انكارهم البعث وسخريتهم منه (قل نعم وأنتم داخرون ، فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ، وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ، احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون ، من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون ، ما لكم لا تناصرون ، بل هم اليوم مستسلمون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين ، فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ، فأغويناكم إنا كنا غاوين ، فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون ، إنا كذلك نفعل بالمجرمين) (٢) .

ومما يلى ذلك فى صورة الصافات من المشاهد التى تثير ندم الكافرين وحسرتهم فضلا عن بشراها للمؤمنين (.. إلا عباد الله المخلصين ، أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون ، فى جنات النعيم على سرر متقابلين) (٣) .

ومن المشاهد التى تلى ذلك ، والتى تهدف إلى ذات الاتعاظ والاعتبار ، مشهد من أسمار أهل الجنة (فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قال قائل منهم إنى كان لى قرين ، يقول أإنك لمن المصدقين ، أإذا متنا وكنا تربا وعظاما أإنا لمدينون ، قال هل أنتم مطلعون ، فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ، قال تالله إن كدت لتردين ، ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ، أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين) ؟ (٤) والمشاهد السابقة حافلة بصور السخرية ،

---

(١) ١٥ - ١٧ سورة الصافات .

(٢) ١٨ - ٣٤ سورة الصافات .

(٣) ٤٠ - ٤٤ سورة الصافات .

(٤) ٥٠ - ٥٩ سورة الصافات .

سـواء فى كـلام الكافـرين عن البـعث ، أو فى ردود المؤمنين عليـهم فى الآخرة ، ولكن المقـام لايستدعى الإفاضة فى بسطها وعرضها .

وعيـد الخسـران

وهذا النوع من الوعيد ليس أيضا بديلا عن الأنواع الأخرى من الوعيد أو العذاب ولا مغنيا عنها ، وإنما هو من باب أن الله سبحانه هو العليم بطبيعة النفوس ، فيأتى لكل نفس من الجهة التى هى أشد تأثيرا فيها .

فالسادة والمتكبرون يضعون كل همهم أو جله فى محاولة الظهور أمام تابعيهم بمظهر العزة والقوة والتعالى ، فيأتيهم الله بالهوان والإذلال ليروا أنفسهم ويراهم أتباعهم والمعجبون بهم فى هذا الوضع المهين .

وعامة الناس ومنهم الأتباع حين يتصورون العقاب فإن أهم ما يخشونه منه العقاب البدنى ، وأهون ما يبلغ آذانهم من الوعيد العقاب النفسى ، لذلك يأتيهم الله بأشد ما يؤلمهم ، فيتركز وعيدهم فى العقاب البدنى بصوره المختلفة .

ولكن هناك صنف آخر من الناس ، سواء أكان من النوع الأول أم النوع الثانى لا يعنيه كثيرا التفكير فى شىء مما سبق ، وإنما يعنيه فى المقام الأول البحث عن منفعته الشخصية ، فعينه دائما على مصلحته العاجلة ، ونفسه دائما مشدودة إليها ، فلا يرى الخير إلا ما يوصله إليها ، ولا يرى الشر إلا ما يحول بينه وبينها ، ولذلك هو يحسن التودد إلى كل من لديه شىء من هذه المنفعة ولو كان يحمل له فى نفسه أسوأ ما يحمل إنسان لإنسان ، وكذلك يجيد التودد إلى كل من يصلح أن يكون وسيلة لوصوله إلى مصلحته ، فهو صديق لكل هؤلاء وإن حمل قلبه لهم كل عداء ، وهو متظاهر بكل فضيلة خلقية يمكن أن توصله أو تقربه من هدفه ، مع أنه فى حقيقة أمره لا صديق له إلا منفعته ، ولا خلق له إلا ما يوصله إلى هذه المنفعة .

وهذا النوع من الناس موجود ومشاهد فى كل المجتمعات صغرت أو كبرت ، ولكنه ليس له كيان محدد ، أو نسبة ثابتة ، لأنه يعتمد دائما على التخفى ليس بجسمه ، وإنما إخفاء أهدافه واتجاهاته ، وهو دائما يلبس ثوب العصر الذى يعيش فيه ، ويصطبغ بلون المجتمع الذى ينتمى إليه ، فيكون من غير اليسير اكتشافه ، أو الحكم القاطع عليه .

والمجتمع الوحيد الذى استطاع تحديد هذه النوعية من الناس تحديدا واضحا لا يكاد يخفى عليهم منهم فرد ، هو مجتمع المسلمين فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن الله العليم الخبير بكل ظاهر وخفى وضع فى القرآن سردا وإن كان متفرقا لصفات هذا النوع الذى سماه القرآن المنافقين ، لأن أسلوب المراوغة والتخفى الذى يلتزمونه يشبه نافقاء اليربوع ، هذا الحيوان الذى يجيد المراوغة ، حيث يصنع جحره ذا فتحتين فى جهتين ، فإذا هوجم من جهة هرب من الجهة الأخرى ، وهذه الصفات أشبه بأعراض الأمراض ، التى لا تعرف الأمراض عادة إلا بها ، فالطبيب إنما يعرف المرض من خلال الأعراض التى يحس بها المريض أو تظهر عليه ، وكذلك سرد القرآن أعراض النفاق ، وأشار إلى المسلمين أن يعرفوا المنافقين من ملاحظتها ، وكان من هذا القبيل قوله تعالى (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ، ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول) (١) والذين فى قلوبهم مرض المنافقون فيقول تعالى إنهم ظنوا أن الله لن يكشفهم ، والله قادر على أن يعرف النبى بأسمائهم وأشخاصهم ، ولكنه يجعل فطنة النبى تكشفهم من خلال سقطات ألسنتهم ، وسقطات الألسنة إحدى العلامات الكثيرة التى ذكرها القرآن لكشف المنافقين (٢) وسرد العلامات أو أعراض النفاق أنفع للمسلمين من تعريف الله النبى أشخاص المنافقين ، لأن المسلمين فى أى عصر وأى مجتمع يستطيعون إذا أحسنوا فهم القرآن وأحسنوا تطبيقه أن يكتشفوا كا منافق ، وكل أسلوب للنفاق .

وبدون حاجة إلى الإفاضة فى موضوع النفاق فإن ما يعنى هذا الحديث منه هو أن المنافق هو الذى ينطبق عليه انطباقا كاملا أن كل حياته بكل ما فيها من جهد وسعى مقصورة على منفعته الشخصية العاجلة .

وكون حياته مقصورة على مصلحته العاجلة هو الفارق بينه وبين غيره ، فكل الناس يسعون لمصلحتهم ، ولكنهم يختلفون فى تحديد نوع المصلحة وفى حجمها بالقياس إلى بقية مشاغلهم ، فبعضهم يرى مصلحته فى كسب المال مع شىء آخر كالمجد أو غيره ، فتكون

---

(١)٢٩، ٣٠ سورة محمد .

(٢) انظر على سبيل المثال كتاب أسلوب القرآن فى كشف النفاق للمؤلف طبع الهيئة العامة للكتاب .

مصلحته موزعة ولو بنسب متفاوتة بين أكثر من هدف ، وبعضهم يرى مصلحته فى تحصيل علم مع شيء أو أشياء أخرى فيوزع مصلحته ولو بتفاوت بين أكثر من غرض ، وبعضهم يرى مصلحته فى الآخرة مع شيء أو أشياء من الدنيا ، وهكذا يكون للإنسان عادة مصلحة أولى تضاف إليها مصالح فرعية أقل منها أهمية ، ولكنه يلتزم خلقا وأسلوبا واضحا وصريحا فى محاولة تحقيق مصالحه وأهدافه ، بصرف النظر عن أن يكون الخلق أو الأسلوب حسنا أو سيئا ، أما المنافق فإنه تغلب عليه فى العادة صفتان :

١ - إحداهما أنه يحصر همه وهدفه فى اتجاه واحد يريد من ورائه تحقيق منفعة عاجلة ، هى من محيط الأمور المادية كالمال أو المنصب ، وليس الأمور المعنوية كالمجد أو الدين أو المبادئ .

٢ - والصفة الأخرى أنه يعتمد دائما على التخفى والتمويه على الناس فى سبيل الوصول إلى هدفه ، فهو فى الظاهر صديق لكل الناس ، أو كل من يرتبط بهدفه الذى يسعى إليه بسبب قريب أو بعيد ، بينما هو فى حقيقته عدو لكل الناس ولكل شيء إلا مصلحته الخاصة .

وأما علاقة وعيد الخسران بهذا الاتجاه فهى أن وعيد الله يأتى لمثل هؤلاء من الزاوية التى تسيطر على أمانيهم وتتركز فيها آمالهم ، وهى زاوية الكسب وتحقيق المنفعة ، ويسلك لهم فى هذا عكس الاتجاهين السابقين اللذين يظنون فيهما تحقيق آمالهم .

فأما عن سيطرة حب النفع عليهم فإن الله يلقى فى نفوسهم الوعيد الذى يشعرهم بخيبة الأمل ، والإحساس باليأس ، وبتوقع الفشل والخسارة ، وليس النجاح والكسب الذى يسعون إليه .

وأما عن براعتهم فى التخفى ، ومهارتهم فى المراوغة فإن الله سبحانه يجعل نفسه هو المتصدى لهم فيها ، حتى يشعروا بأن هناك من هو أمهر منه فى الكيد والتدبير والتخطيط ، ويكفى أن يشعرهم بأنه مطلع على كل ما يظنونه سرا وخفاء ، وأن ما يفعلونه ويدبرونه فى

الظلام إذا كان عند الناس سرا مطويا فهو بالقياس إلى الله مكشوف كأنه فى وضح النهار وعلى رءوس الأشهاد .

وهذه صورة متكاملة عن هذا النوع من البشر ، نرى فيها هذا النوع من البشر ، مكشوفا فى كل أمره ، ظاهر وباطنه ، عقيدته وسلوكه ، وعلاقاته وأهدافه .

فهم فى العقيدة (.... وما هم بمؤمنين) وهذا الإلحاد الذى يحملونه ليس شيئا عارضا يسهل تحويلهم عنه كغيرهم من الناس ، كما أن نزعة النفاق بكل ما تعنيه هذه النزعة ليست شيئا عارضا يسهل شفاؤه أو تقويمه ، وإنما هو شذوذ متأصل فى نفوسهم أشبه بالمرض حين يتغلغل فى القلب فيعسر شفاؤه (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) ومن طبيعتهم الأصيلة فى تكوينهم حب الإفساد وكراهية الاستقامة (ألا إنهم هم المفسدون) كما يوضح القرآن منهج سلوكهم فى موضع آخر من القرآن (يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف) (١) ولابد أن يكون لهم أصحاب وقرناء يشاركونهم فى التخفى ، ويدبرون معهم ما يدبرون فى الخفاء ، ويوجه بعضهم بعضا إلى مايبتكرونه من وسائل الإفساد وأساليب الإلحاد (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) (٢) .

وهذا كله واقع مشاهد من فئة من الناس كانت فى الأجيال الماضية تتخفى بأهدافها وسلوكها لأن الحق كان يضىء الحياة من حولهم ، فلابد أن يستخفوا ليعملوا فى الظلام ، ولكنهم اليوم بدأوا يعملون فى العلن لأنهم شعروا بأن قبضة الحق بدأت تضعف ، وأن قبضة الباطل هى المسيطرة أو الأقرب إلى السيطرة فى كل موقع ، وفى كل ركن من أركان الأمة الإسلامية ، ولكن الله يتوعدهم بأنهم لن يحققوا الكسب الذى يهدفون إليه ، وأنهم احترفوا التجارة ، ولكنهم سلكوا الأسلوب الفاشل فيها ، حيث لم يميزوا بين السلعة الجيدة والسلعة الخاسرة الرديئة ، والسلعة الجيدة الرابحة هى الحق والهدى ، والسلعة الرديئة فى الدنيا والخاسرة فى الأخرى هى الإلحاد والضلال .

ثم يضرب الله لهم فى وضعهم أكثر من مثل ، منها أنهم حين عرفوا الحق وأضاء لهم

---

(١) ٦٧ سورة التوبة . (٢) ١٤ سورة البقرة .

هذا الحق طريقهم إلى الله إذا هم يغمضون عنه عيونهم ويلجأون إلى كهوف الظلام ليديروا فيها مايديرون .

ومن هذه الصورة قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ، وذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ، ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمى فهم لا يرجعون) (١)

ومن الحرب النفسية لهم أن الله سبحانه يشعرهم بأن خصومتهم ليست مع المؤمنين ، وإنما هى مع الله مباشرة ، وأنهم حين يخادعون فهم لا يخدعون المؤمنين ، وإنما يخادعون الله مباشرة ، وذلك ليلقى فى قلوبهم الرعب ، فإنهم حتى وإن شكوا شكا أو ظنوا ظنا فى وجود الله فلابد أن يعيشوا فى قلق وتوقع لعقاب الله لهم حتى وإن ظلوا فى ضلالهم وإلحادهم ، وهذا أيسر العقاب لهم فى الدنيا ، كما يقول سبحانه فى موضع آخر من القرآن عن هذا المعنى (ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) (٢)

ولكن الضربة النفسية الأليمة هى تصويرهم فى صورة تاجر فاشل يبيع الهدى والخير ليشترى الضلال والكفر ، فيؤكد لهم القرآن ما يقضى به كل عقل سليم من أنه بيع خاسر ، وأن التاجر الذى يبلغ به السفه هذا المبلغ هو تاجر فاشل خاسر ، لا يهتدى لمصلحته الحقيقية ،

---

(١) ٨-١٨ سورة البقرة .

(٢) ٨٥ سورة التوبة .

ولا يميز بين السلعة الرديئة والسلعة الجيدة (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلهم (عذاب أليم) ولكن الوعيد بالآخرة بالقياس إليهم أمرهين ، لأنهم ينكرون البعث أصلا ، ولهذا بدأ الوعيد بالخسران فى الدنيا لأن هذا الشعور أوجع لهم من حيث إنه يمثل خيبة الأمل العاجل لهم ، ثم تصويرهم فى صورة من فقد كل حواسه التى تربط حياته بغيره ، فالمرء إذا فقد حاسة واحدة كالبصر شعر بأن بينه وبين الناس والحياة من حوله حاجزا ، وأسوأ من ذلك لو فقد السمع وحده ، أو النطق وحده ، فكيف إذا اجتمعت فيه كل هذه النقائص والحواجز بينه وبين غيره ، فلا هو يبصر ، ولا هو يسمع ، ولا هو ينطق ، إن الموت خير بكثير ممن يكون بهذه الحال ، وليس هناك عذاب نفسى أبلغ ولا أوجع من شعور من يجد نفسه فى هذه الصفات وفى هذا الهوان ، وهذا المعنى ليس محض سب لهم ، وإنما هو تصوير حقيقى لآثار موقفهم الدينى ، حيث صموا آذانهم عن سماع الحق ، وأغمضوا أبصارهم وبصائرهم عن رؤيته ، وعقلوا ألسنتهم عن النطق والاعتراف بما يعلمون أنه حق ، وتعقيب الآية بتعبير (فهم لا يرجعون) يفهم منه أن غيرهم قد يشاركهم فى موقفهم الدينى من حيث الكفر وصم الآذان عن سماع الحق ، ولكن الآخرين قد يرجى رجوعهم إلى الحق حين يتكشف لهم ، أو حين ييأسون من استمرارهم فى طريق الضلال ، أما هم فلا ينتظر رجوعهم إلى الحق ، ولا تراجعهم عما هم فيه من النفاق والضلال ، لأن النفاق فى العقيدة إنما يكون حين يكون الشذوذ فى تكوين صاحبه كاملا ، بحيث يشبه تغلغل المرض فى القلب ، وهو ما عبر عنه القرآن بتعبير (فى قلوبهم مرض) بخلاف ما دون ذلك من المرض العضوى حيث يرجى شفاؤه ، وما دون تغلغل النفاق إلى هذه الدرجة يرجى أيضا شفاؤه ، أما حالهم هم حين يلغون أسماعهم وأبصارهم وألسنتهم فى موقفهم من الدين ، فهى حال لا ترجى لصاحبها الهداية (فهم لا يرجعون) ، ويعبر القرآن فى أكثر من موضع بأن النفاق حين يكون بهذه الدرجة فلن يرجى انتزاعه من خلق صاحبه ، ومن ذلك (فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه) (١) ومن ذلك أيضا (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم) (٢) لأن استغفار

---

(١) ٧٧ سورة التوبة .

(٢) ٦ سورة المنافقون .

الرسول لشخص إنما يعنى أن يهيئ الله هذا الشخص ليكون موضع رضا الله فيغفر له ، ولكن هذا النوع من المنافقين غير مهيأ بطبيعة تكوينه للتحول عن النفاق ، فالاستغفار له غير مجد .

وفى سياق الحديث عن النفاق لابد من الإشارة إلى نوع بالغ الخطورة ، وهم اليهود ، فمما تحدث به المؤرخون ، ومما لحظه المسلمون بوضوح فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، بل مما يحتاج إلى عميق استنتاج أن اليهود كانوا يمثلون مركز النفاق وقيادته بوضوح فى المدينة ، حيث تذكر روايات التاريخ أن المنافقين من العرب كانوا يتخذون من اليهود مرجعا ومأوى .

وكان الضوء القوى من القرآن ومن وجود شخص النبى حينئذ ، كاشفا لخطورة اليهود بوصفهم مركزا للنفاق ، وذلك إنما يدل على أن هذا خلق اليهود فى كل مكان وكل عصر ، وواقع الحياة يؤكد ذلك (١)

فاليهود بصفة عامة يعرف الناس عنهم طوال تاريخهم ، وفى كل مكان يحلون فيه على وجه الأرض صفات معينة تغلب عليهم أى على الغالبية العظمى منهم بحيث تصبح حكما عاما عليهم من باب أن للأكثر حكم الكل ، ومن أبرز هذه الصفات النفعية بحيث يغلب عليهم قبل كل شىء استهداف المنفعة والمصلحة الشخصية ، وخصوصا المال ، وكأن بينهم وبينه جاذبية خاصة ، فما إن يوجد اليهودى فى مكان حتى يبدأ فى الإمساك بالحبال التى تشد إليه المال مستخلصا إياه من أيدى الآخرين بأية وسيلة ، ومن هذه الصفات ما هو معروف عنهم من أنهم يحملون نزعة عدائية لكل من عداهم من الناس على الإطلاق ، ومن هذه الصفات ما هو معروف عنهم أيضا من أنهم فى مجموعهم يتميزون بالمهارة فى أعمالهم وبدرجة من الذكاء تفوق السلالات الأخرى ، ومن الصفات المعروفة أيضا عنهم طوال تاريخهم نفورهم الشديد من الدين أى دين سماوى ، ولذلك كانوا هم الشعب الوحيد الذى تفرد بقتل الأنبياء ولم يخلص قط لأى نبى أو دين ، ومن هذه الصفات أيضا تميزهم طوال تاريخهم بالميل إلى الغدر ونقض العهود

---

(١) انظر كتاب أسلوب السخرية فى القرآن فصل اليهود والسخرية طبع الهيئة العامة للكتاب .

والمواثيق ، ولعل هذه النزعة إلى الغدر كانت خلاصة صفتين من صفاتهم ، هما النزعة العدائية لكل الناس ، والنزعة إلى الإلحاد ومعاداة الأديان ، فالعداوة مع عدم التقيد بالمبادئ والخلق تنتجان الغدر ونقض العهود .

وكل هذه الصفات التى تتأصل فى طبيعة اليهود هى الدعائم التى يقوم عليها النفاق ، والذى يحمل قدرا ولو محدودا من هذه الصفات يصبح منافقا ، فكيف بالذين يجمعون كل المؤهلات للنفاق فضلا عن تفوقهم فى هذه الصفات وهم اليهود ؟ ولهذا كانوا مركزا وإدارة للنفاق فى التاريخ الإسلامى .

ومن آثار ذلك أننا نجد القرآن يدرجهم غالبا فى حديثه عن المنافقين ، ولكنه يخصهم بمعانى مما ينفردون به بوصفه ظاهرة عامة فيهم ، فالغدر ونقض العهد قد يصدر من بعض الناس بوصفه حدثا عارضا ، أما غدر اليهود ونقضهم العهود فهو طبيعة أصيلة فى تكوينهم ، وتعبير القرآن يشير إلى ذلك كقوله تعالى (الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون) (١) ويروى أن المراد بهم يهود بنى قريظة ، فنقضهم الميثاق ليس حدثا عارضا ولا فرديا وإنما هو خلق ملتزم ، والقرآن يؤكد فى أكثر من موضع أن هذا خلق ثابت مكين فى طبيعة اليهود عامة وليس فى جماعة أو طائفة معينة منهم ، كقوله تعالى فى سياق الحديث عن اليهود عامة (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) (٢) أى إلا قليلا منهم لا ينطبق عليه هذا الحكم ، والقرآن فى دقته وإنصافه وصدقه لا يعمم الأحكام ، ولو كان واحد منهم فحسب لا ينطبق عليه حكم فإنه يشير إلى استثنائه منهم ، والقرآن يؤكد الحكم السابق عليهم باستثناء القليل منهم أيضا كقوله تعالى فى سياق الحديث عن بنى اسرائيل عامة (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم) (٣) والنبى صلى الله عليه وسلم يجعل الغدر من أبرز

---

(١) ٥٦ سورة الأنفال . (٢) ١٥٥ سورة النساء .

(٣) ١٣ سورة المائدة .

صفات النفاق حيث يقول ﴿أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منها كانت فيه خصله من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر ، وإذا عاهد غدر﴾(١) .

والذين ينقضون العهد إنما ينقضونه من أجل منفعة يظنونها خيراً لهم من الوفاء بالميثاق الذى يرونه حائلا بينهم وبين هذه المنفعة ، ومن جهة أخرى يظنون أن الطرف الآخر فى الميثاق هو الخاسر بنقض العهد ، ولكن القرآن يبرز لهم ولغيرهم الحقيقة ، وهى أن الذى ينقض العهد هو الخاسر مهما بدا من كسبه العاجل أو الظاهر بنقض العهد ، لأن ما يخسره من خلقه ودينه لا يعوضه أى كسب ، ونقض العهد خسارة فادحة فى الخلق والدين ، وأشد المواثيق الميثاق مع الله (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) (٢)

وبعض الناس يرى وكأنه يفخر بأن الغاية عنده تبرر الوسيلة ، وأن كل ما يوصله إلى النجاح أو ما يتصوره نجاحا فهو محمود ، وبعض الناس يخدعون بهذا ، ويرون فيه براعة ومهارة ، حتى اخترعوا للجرائم أوصافا براقة تغرى ضعاف النفوس والعقول بالإعجاب ومحاولة تقليدها كوصف من يلتزم الكذب للتخلص من المآزق بأنه يخرج نفسه من المواقف كالشعرة من العجين ، ومن يكون ماهرا فى السرقة والاختلاس (النشل) بأنه يسرق الكحل من العين ، وكثير غير ذلك مما يهدف إلى جعل المنكر حسنا ، والجريمة براعة ، فالقرآن يضرب من هذا المحيط مثلا بالذى يزين الكفر وأساليبه ليجعل منها شعارات براقة ، كالذين ينادون بأن الدين مخدر للشعوب ، وأن الدين يجعل عقول الناس جامدة لا تفكر ، فتصبح حياتهم ظلاما ، وأن النور هو العقل وليس شعارات الدين ، وأن التنوير هو استخدام العقول ونبذ الدين وراء الظهور ، فيجعلون الدين مناقضا للعقل ومناقضا للعلم ومناقضا للحضارة والتقدم ، وهى مغالطة وتضليل هو أبعد ما يكون عن حقيقة الإسلام بالذات ، فإنه إذا كانت هناك أديان سماوية أفسدها أصحابها فجعلوها بإفسادهم وتحريفهم غير ملائمة للعقول ولا للتقدم فإن هذا

---

(١) رواه البخارى .   (٢) ٢٧ سورة البقرة .

لا ينطبق إطلاقا على الإسلام الذى حفظ الله دستوره وهو القرآن من أى تغيير أو تحريف ، فالقرآن يتحدث عن أمثال هؤلاء المضللين المزيفين بمثل قوله (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) [1] فهم من الذين كفروا مهما تصنعوا فى ادعاء الدين ، لأن مسلكهم لا يسلكه مؤمن ، بل ولا يسلكه كافر عادى ، لأن الكافر كفره وفساد عقيدته مقصور على نفسه ، أما الذى يصطنع أسلوبا أو منهجا ليضلل الناس عن دينهم ، ويصدهم عن طريقهم إلى الله بهذا الزيف الذى يشوه به الدين ، ويحقر من شأن المؤمنين كما يفعل دعاة مذاهب الإلحاد والعلمانية الذين ينادون بأن العلم وليس الدين هو طريق النهضة وثوب الرفاهية ، وإذا كان الكافر خاسرا بكفره ، فهؤلاء أشد خسرانا عند الله ، لأنهم يحملون وزرهم ووزر الذين يضللونهم ويصرفونهم عن دين الله فهم الأخسرون أعمالا ، ولكنهم يخدعون غيرهم ، وقد يخدعون أنفسهم بوهم أنهم أعلام بارزون ، ومفكرون متميزون ، يقودون شعوبهم إلى النهوض والتقدم ، ولكنهم فى الحقيقة من (الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) وإذا كان هدف هؤلاء أن تكون لهم فى الدنيا مكانة خاصة ، ومنزلة متميزة ، سواء عند شياطينهم فى مراكز النفاق وإدارة الإلحاد ، أو عند المخدوعين بهم من عامة المسلمين والسذج الذين قد يصدقون أن هؤلاء دعاة نهضة وتقدم ، إذا كانوا يريدون أن يكون لهم فى هذه الحياة وزن ، أو كان لهم فيها فعلا وزن ، فإن الله يقول (فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) .

وأما أسلوب التخفى والمراوغة الذى يلجأ إليه هؤلاء وكل المنافقين من أنهم يظهرون للمسلمين بمظهر الإسلام ، ويظهرون لشياطينهم من الإنس فى الخفاء بوجههم الحقيقى كما يصور القرآن ذلك (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) [2] وهم يتصورون أنهم بذلك يخدعون المؤمنين ليصلوا من خلال هذه المخادعة إلى تحقيق أهدافهم وأهداف شياطينهم فى إدارة الإلحاد من تشويه الحق وتقبيحه ،

---

(١)١٠٣،١٠٥ سورة الكهف .

(٢) ١٤ سورة البقرة .

وتزيين الباطل وتحسينه ، أصحاب هذه الأساليب يواجههم الله سبحان بذاته ليكون هو الخصم المباشر لهم ، فيصور لهم أن خداعهم هذا ليس خداعا للمؤمنين فحسب ، وإنما هو أيضا خداع لله سبحانه ، كقوله تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) (١) فالله هو العليم بما يدبرون فى الخفاء ، وهو الأقدر على أن يرد كيدهم إلى نحورهم حتى يتبينوا أخيرا أنهم لم يكونوا يخدعون الله ولا المؤمنين وإنما يخدعون أنفسهم ، كقوله تعالى (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم) (٢)

وحتى النبى صلى الله عليه وسلم إن ضاق بخداعهم ، وتوجس من مكرهم شرا فإن الله يطمئنه بأنه سبحانه هو المتصدى لهم مباشرة فيما يتعلق بالمكر والخداع والتخفى ، لأن الرسول والمسلمين مطالبون بالجهاد والمواجهة مع العداوة الظاهرة للإسلام والعدوان عليه ، أما الأساليب الخفية فليست مطوياتها فى متناولهم ، فيتولاها الله عنهم كما يقول سبحانه لنبيه (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله) (٣) أى عليك أن تطمئن إلى أنه ما دام الله معك ، وهو العليم بما يدبرون وما يستهدفون ، وهو الأقدر على أن يدير الدائرة عليهم فإن العاقبة لك وليست لهم .

وفى سياق الحديث عن اليهود فإنه كان ينبغى أن يفردوا بحديث خاص ، حيث إن القرآن أفاض فى حديثهم ، وفى كشف خباياهم ، وفى إبراز مساوئهم ورذائلهم ، بما لم يتحدث به عن طائفة أو نوع آخر من أعداء الله ، فقد يكون الحديث عن المشركين والكافرين فى القرآن من غير اليهود أكبر حجما من الحديث عن اليهود ، ولكننا لو وازنا بين هذا الكم الكبير عن غير اليهود ، وبين الحجم الأقل عن اليهود سنجد أن الحجم الكبير من حيث الجوهر ودرجة السخط يصغر بجوار مقدار السخط واللعن والتحقير الذى يصبه القرآن على اليهود ، والفارق بينهما ينبع من الفارق بين غير اليهود وبين اليهود فى الموقف الدينى ، فإن سوء وضع المشركين والكافرين من غير اليهود يتركز فى فساد العقيدة ، وليس فى الخلق أو السلوك . أما فساد

---

(١) ١٤٢ سورة النساء

(٢) ٩ سورة البقرة

(٣) ٦٢ سورة الأنفال

اليهود فهو فى عقيدتهم وفى أخلاقهم وسلوكهم ، ولذلك كان السخط عليهم فى درجة لا تدانيها درجة السخط على أى صنف آخر من البشر ، وإذا كان السخط مشتركا بينهم وبين غيرهم مهما كان التفاوت فى درجته ، فإن اليهود يختصون فى حديث القرآن عنهم بمعنى لم يكن واضحا ولا بارزا فى حديث القرآن عن غير اليهود وخصوصا المشركين وهو الاحتقار والازدراء ، فإن حديث القرآن عن اليهود لا يخلو من احتقار وازدراء لهم إضافة إلى السخط عليهم ، بينما المشركون قد يبلغ سخط القرآن عليهم ذروته ، ولكنه لا يحمل نغمة الاحتقار والازدراء ، بل قد نرى فى كثير من أساليب القرآن – وليس فى موضع واحد – ما يتضمن اعتراف القرآن بأن هذا المشرك أو هؤلاء المشركين يحملون ميزة تبعث على لفت الأنظار إليها مهما يبلغ السخط على صاحبها ، من باب إنصاف الخصم والاعتراف بماله من فضل أو مزايا [١] ومن أمثلة ذلك إفاضة القرآن فى إبراز المزايا الاجتماعية العديدة لهذا الزعيم القرشى المشرك ، الذى لم يذكر اسمه . كشأن القرآن فى جعل أحكامه عامة تنطبق على كل من يتصف بالأسباب التى دعت إلى هذا الحكم ، ويروى أنه الوليد بن المغيرة ، حيث أفاض القرآن على إيجازه فى إبراز مزاياه الاجتماعية والعقلية من تفرده فى منزلته من السيادة (وحيدا) ومن تمتعه بزينة الدنيا فى قمتها (مالا ممدودا وبنين شهودا) ومن خضوع المجتمع لزعامته وتصاعد هذه الزعامة فى مجدها ، ومن آثار ذلك (ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أيد) ومن مزاياه الشخصية والعقلية ما تعجب منه القرآن ، بل كرر تعجبه من عمق تفكيره وتدبيره ، رغم أنه استغل ذلك فى معاداة الله وحرب الإسلام ، ولذلك استحق وعيد الله إياه بأشد العذاب فى قوله تعالى (ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر ....) [٢]

---

(١) انظر كتاب إنصاف الخصم فى القرآن للمؤلف طبع الهيئة العامة للكتاب .

(٢) ١١-٢٦سورة المدثر وانظر فى تفصيل هذا كتاب إنصاف الخصم فى القرآن للمؤلف طبع الهيئة العامة للكتاب

ومن هذا القبيل اعتراف القرآن بمنزلة هذا الزعيم القرشي الآخر في قومه رغم أنه من ألد أعداء الله ، حيث يقال له في جهنم (ذق إنك أنت العزيز الكريم) (١) ولا ضرورة لتحميل الألفاظ غير معانيها بأن نحمل العزيز معنى الذليل والكريم معنى اللئيم ، فضلا عن أن الذين يسمعون هذه الأوصاف من قومه يعرفون أنه ليس ذليلا ولا لئيما ، فالمعنى واضح ، وهو أنهم يقولون له في جهنم لقد كنت في الدنيا عزيزا كريما ، بل كنت منفردا بالعزة والكرم ، فهل نفعك اليوم ذلك أو أغنى عنك شيئا ؟ فيكون هذا إهانة وعذابا نفسيا يضاف إلى عذابه البدني ، وكذلك في مواضع أخرى من القرآن سبقت الإشارة إلى بعضها ، منها هذا الزعيم الذي يصور القرآن من باب السخرية به وبقوته وأعوانه كأن معركة قد تنشب بين أنصار هذا الزعيم وجنود الله في قوله تعالى (فليدع ناديه ، سندع الزبانية) (٢) ولكن السخرية لا تنفي أن له قوة وأنصارا يعتز بهم ويعتمد على قوتهم .

ورغم أن أمثال هؤلاء هم من أشد أعداء الله عداوة ، وسخط الله عليهم من أشد السخط ، ولكنه سخط لا يحمل الاحتقار والازدراء ، وإنما يتضمن مع السخط والكراهية أن لهذا الخصم قيمة ومزايا ، سواء في منزلته بين الناس ، أو في شخصيته وكيانه .

والفرق كبير بين الكراهية والاحتقار ، فقد نعادي شخصا أشد العداوة ، وقد نحمل له أشد الكراهية ، ولكننا مع ذلك نشعر بأن له في نفوسنا كيانا ونوعا من التقدير والإكبار ، وقد نشهد له بأنه خصم شريف ، بينما شخص آخر قد لا نحمل له هذا القدر من الكراهية أو السخط ولكننا ما إن نتذكره حتى يقترن به النفور والاستخفاف والاحتقار ، وتظهر آثار الفرق بينهما فيما لو زالت أسباب كراهية من نكره ، فإنه قد يتحول إلى صديق ، لأننا نحمل له في نفوسنا جذور التقدير والإكبار ، بينما الذي نحتقره لا يمكن أن نتصوره صديقا مهما حاول أن يزيل أسباب النفور منه لأننا لا نحمل له في نفوسنا ما يجعل نفوسنا نتقبله ، لأن عيوبه التي حملتنا على ازدرائه ثابتة في شخصه لا تزول ، بخلاف الأول فإنه حينما تزول الكراهية لا تبقى

---

(١) ٤٩ سورة الدخان

(٢)١٧، ١٨ سورة العلق .

فيه عيوب تدعونا إلى النفور منه .

وهذا الوضع ينطبق على المشركين من جهة ، وعلى اليهود من الجهة الأخرى ، فإن المشركين حين زالت الكراهية بينهم وبين الإسلام ، أو زال الموقف الذى كان يبغضهم إلى الله ورسوله وهو الشرك اعتنقوا الإسلام وأصبحوا من حزب الله وأوليائه ومن أحب الناس إلى الله ورسوله ، أما اليهود فإنهم فى غالبيتهم العظمى ظلوا كما هم فى موقفهم من الدين ، لأن مساوئهم ثابتة فى كيانهم وأشخاصهم .

على أن القرآن لم يقتصر على إبراز مزايا فى أفراد من المشركين فحسب ، وإنما نجد فيه أكثر من صفة يتحدث بها عن مشركى العرب ، وهذه الصفات وإن لم تكن فى سياق مدح إلا أنها لا تنبئ عن ذم ، بل تنبئ عن ميزة وفضيلة وإن لم يحسنوا توجيهها ، ومن ذلك قوله تعالى عن المشركين مخاطبا النبى صلى الله عليه وسلم (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا) [١] فوصفهم باللدد فى الخصومة وهو العناد والاستغراق فى الخصام بما تحتاجه الخصومة من مقدرة على الجدال ، وتقليب موضوع الخصومة على وجوهه والتشبث بالموقف ونحو ذلك ، والقوة فى الخصومة ميزة وفضيلة لذاتها ، ولكنهم بدل أن يستخدموها فى الحق استغلوها فى الباطل وحرب الله ورسوله .

وكذلك من هذا القبيل قوله تعالى عنهم (... بل هم قوم خصمون) [٢] ولفظ (خصمون) يعنى المبالغة فى الخصومة والإفراط فيها ، وكأن المشاركة فى أية خصومة هواية يستحبونها ويتشبثون بها ، وهذا أيضا يعنى وصفهم بالقوة فى موقف التخاصم ، وهى أيضا فضيلة وصفة محمودة لذاتها ، بعكس الضعف عند الخصومة ، ولكنهم استخدموا هذه الميزة فى الباطل ضد الحق ، فحولوها إلى رذيلة .

وكذلك الأفراد الذين نوه القرآن بمزاياهم فى مواضع عديدة ، وهبهم الله نعما ومزايا هى

---

(١) ٩٧ سورة مريم .

(٢) ٥٨ سورة الزخرف .

من قبيل الفضائل لذاتها ، ولكنهم جعلوا نعم الله أسلحة يحاربونه بها ، ويصدون بها عن سبيله ، فحولوا النعم والفضائل إلى رذائل استحقوا من أجلها غضب الله ووعيده .

ولكن اليهود لم يكن جرمهم فى الكفر وحده ، ولا فى معاداة الله ورسوله فحسب ، وإنما كان أيضا فى أخلاقهم وسوء سلوكهم ، حيث حملوا من الرذائل وسوء الخلق ما لم يحمله عنصر آخر من البشر ، وكان من آثار ذلك عمدهم دائما إلى كتمان الحق ، وإلباسه بالباطل إذا أظهروه ، كقوله تعالى ناهيا لهم عن هذا الخلق (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) (١) فهم يعرفون الحق ، ويعلمونه علم اليقين ، ولكنهم إما أن يكتموه ، وإما أن يشوهوه حتى يلتبس بالباطل .

وقد نجد فى آية واحدة عديدا من مساوئهم المختلفة التى استحقوا من أجلها لعنة الله ونزع الرحمة واللين من قلوبهم ، كقوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم ....) (٢) ويكرر القرآن وصمهم بهواية تحريف الكلام عن قصده الحقيقى ، هذه الهواية التى ما زالوا يحاولونها فى القرآن كما نفذوها فعلا فى التوراة ، كقوله تعالى (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ...) (٣)

وإذا كان الناس فى كل عصورهم وأماكنهم يعرفون عن اليهود حب المال والتضحية فى سبيله بكل شىء ، فإن القرآن يؤكد هذه الحقيقة ، ويبرز صورا عديدة من تجارتهم بالخلق والدين ، وهما قمة القبح فى المتاجرة ، ومن أمثلة ذلك أن يزيفوا كلاما من عندهم ينسبونه إلى الله ، مدعين أنه كلام الله ، كما فعلوا فى التوراة ، ولم يكن هذا من آثار الكفر فحسب ، وإنما كان تجارة وسعيا وراء الكسب من كل شىء ، ولو كان هذا الشىء كفرا أو تزويرا أو تضليلا ، ولكن الله يتوعدهم بالويل ليعلموا أن هذا الكسب فى حقيقته خسارة وليس ربحا ، كقوله تعالى

---

(١) ٤١ سورة البقرة .   (٢) ١٣ سورة التوبة .

(٣) ٤٦ سورة النساء .

(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) (١)

وأحيانا يتاجرون بكلام الله ، إما بحجبه وكتمانه فلا يظهرونه إلا بثمن ، وإما بتحريفه وتغييره ليحصلوا من وراء ذلك أيضا على ثمن ، ولكن الله ينبههم إلى أن آيات الله لا توزن بثمن مهما يكن هذا الثمن ، وأن الكسب الذى يكسبونه من وراء ذلك ويظنونه ربحا سيعلمون مدى تفاهته حين يحل عليهم وعيد الله ، ولكن الله يحذرهم كقوله تعالى (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) (٢)

وأحيانا يبيعون الآخرة كلها بما فيها ليجعلوا ثمنها هذا الربح العاجل الذى يكسبونه من الزيف والتزوير والكذب والتحريض والكفر والضلال ، كما يقول الله تعالى عنهم (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون) (٣) ومن الواضح أن من يبيع الحياة الأبدية وهى الآخرة بالحياة العاجلة التى لا تساوى لحظة بالقياس إلى الآخرة ليس برابح ، بل هو بيع الحماقة ، وتجارة السفه الشديد ، والخسران المبين .

وفى صورة أخرى نراهم كالعهد بهم دائما تجارا مستعجلين إلى المال بأى ثمن ، والثمن فى هذه الصورة بالغ الفداحة ، إنه الإيمان ، حيث يدفعونه ثمنا ليشتروا به الكفر بآيات الله التى يوقنون بصدقها ، وبرسوله محمد الذى يعرفونه من خلال صفاته فى كتابهم السماوى كما يعرفون أبناءهم ، لا يرتابون فى صدقه ، ولا يلتبس عليهم بغيره ، ومع ذلك يكفرون بهذا كله ليشتروا به ما تهفو إليه أنفسهم فى أى وضع من أوضاع الحياة ، ويظنون ذلك ربحا ، فبئس الربح هذا ، وبئست التجارة هذه ، كما يقول تعالى (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله) (٤)

وفى فيض آخر من نقائص يسردها القرآن عن اليهود ، يسوق نقيصه من نقائصهم

---

(١) ٧٩ سورة البقرة .
(٢) ٤٠ سورة البقرة .
(٣) ٨٦ سورة البقرة .
(٤) ٩٠ سورة البقرة .

تتعلق بالتعليم ، وهى أنه لا اعتبار فى منهج التعليم عندهم لله ولا للدين ولا للخير أو الخلق ، وإنما الاعتداد كله بما يحقق لهم المنفعة العاجلة وما تراودهم نفوسهم عليه من الشر ، مع أنهم يعلمون أن هذا يضرهم عند الله ولا ينفعهم (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) (١) ولكن القرآن يلفت نظرهم إلى شيء خطير ، وإن كانوا هم لا يعدونه خطيرا ، وهو أنهم فى هذا البيع لم يبيعوا الآخرة والدين فحسب ، وإنما باعوا أنفسهم ، فكأنهم بما صنعوا لم يعد لهم كيان أو وجود معتبر ، لأن الإنسان إذا تجرد من خلقه ودينه فكأنه هدم نفسه وأزالها من الوجود الذى له قيمة ، ولكنهم لا يفكرون فى هذا ، ولا يريدون أن يفكروا فيه (ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) .

وفى صورة أخرى نرى الخسران المبين لتجارتهم بالدين والخلق يوم القيامة ، حيث يصب الله عليهم ألوانا من الخسارة الباهظة ، والعذاب النفسى المتمثل فى جعلهم موضع ازدراء واحتقار فى الآخرة كما كانوا فى الدنيا ، وموضع غضب الله وسخطه ، ويجعل الله هذا العذاب النفسى سابقا فى الذكر للعذاب البدنى ، وهذا يعنى أن العذاب النفسى ينبغى أن يكون أهم من العقاب الجسدى ، فإن المؤمن حقا يفزع من الشعور بغضب الله أشد من فزعه لتصور العذاب البدنى ، وكذلك صاحب الخلق الكريم يفزع من الإيذاء النفسى أشد من فزعه من الإيذاء الجسدى ، فيقول تعالى فى سياق الحديث عن اليهود (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) (٢)

وكذلك يبرز القرآن نزوعهم إلى تحريف كلام الله وتزييفه بكلامهم ، هذه النزعة المتأصلة فيهم ، والتى كان من آثارها تحريفهم التوراة ، وكان من آثارها محاولاتهم الدائمة التى تتحدث عنها وسائل الإعلام العالمية بين الحين والحين لتحريف القرآن ، وطبع نسخ من القرآن بعد

---

(١) ١٠٢ سورة البقرة .

(٢) ٧٧ سورة آل عمران .

تزييفها وتحريفها بكلام من عندهم ونشرها فى بعض الشعوب الإسلامية التى تكون الثقافة الإسلامية فيها محدودة ، والتى يظن بعض الناس أنها محاولات حديثة أو مبتكرة منهم ، ولكن القرآن يؤكد أنها نزعة ماثلة فى فريق منهم هم الذين يحسنون التزييف والتزوير حيث يعمدون إلى تغيير كلام الله الذى أنزله إليهم ليكذبوا به القرآن ، ويكذبوا صفة رسول الله ، وبهذه النزعة نفسها يحاولون تحريف القرآن ، فيقول تعالى (وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) (١)

وإذا كان الباحثون حول طبيعة اليهود وخصائصهم قد أجهدوا أنفسهم سواء فى الشرق وفى الغرب فإن ما توصلوا إليه من نتائج لم يكن جديدا ، وإنما سجله القرآن قبلهم بكثير ، ولا شك أن أكمل بحث وأشمله وأعمقه عن اليهود هو ما تضمنه القرآن ، غير أنه متفرق فى أثناء القرآن ، ولو أن حديث القرآن عن اليهود جمع ثم درس دراسة علمية من علماء متخصصين فى العلوم المرتبطة بالبحث ، كعلوم التاريخ والاجتماع وعلم النفس وما يرتبط بها إضافة إلى علم الدين واللغة لبحث عمق الإشارات اللغوية فى أسلوب القرآن لكان هذا البحث أشمل وأدق بحث عن اليهود على الإطلاق ، وإذا أردنا عرض أمثلة هى أبعد ما تكون عن الحصر والإحصاء ، وإنما هى محض نماذج وأمثلة لبعض الجوانب الثابتة فى تكوين اليهود وخلقهم ، مع مراعاة أن حديث القرآن عنهم لا يحمل طابع التعميم ، وإنما يتحدث عن الغالبية العظمى من اليهود ، هذه الغالبية التى تصلح منطقيا أن يكون الحكم عليها حكما على الجميع رغم عدم إنطباق هذا الحكم على أفراد أو أقلية ، كما يقال بنو فلان شجعان ، فلا يلزم أن يكون كل الأفراد شجعانا ، بل يكفى الأغلبية ، وكما يقال طلاب هذا الفصل الدراسى أذكياء ، فلا يلزم أن يكون كل أفراده كذلك ، ولا ينفى هذا الحكم أن يكون فى هذا الفصل فرد أو أفراد قليلون أغبياء ، فكذلك الحكم على اليهود فى أى أمر هو دائما حكم على الأغلبية العظمى وليس على كل الأفراد .

---

(١) ٧٨ سورة آل عمران .

ومن هذه الأمثلة :

أولا : فيما يتعلق بالعقيدة يحكم عليهم القرآن أو بمعنى آخر يخبر القرآن أنهم يحملون ما يلى :

(أ) الكفر فى عقيدتهم ، وكل البحوث تؤيد ذلك ، حيث تؤكد البحوث الاجتماعية عن اليهود أنهم يحملون نزعة الإلحاد الدينى ، وتاريخهم كله يؤيد ذلك كما ضرب على بن أبى طالب المثل بجحودهم فضل الله حيث عبدوا العجل ولم تجف بعد أقدامهم من نعمة الله بشق البحر لهم ، وإذا كان هذا فى أول تاريخهم فإن من آخره ما نقلته كل وسائل الإعلام عن قائدهم وهو يتحدث عن انتصارهم التاريخى الذى لم يكونوا يحلمون به سنة سبع وستين وتسعمائة وألف حيث يتحدث عن أنه من الملحدين وليس المؤمنين ، هذا بدل أن يسدى الحمد لله على هذا النصر الذى لم يكونوا يتخيلون أدناه ، والقرآن يؤكد هذا فى مواضع عديدة .

(ب) مما تميزوا به عن سائر الملحدين والكافرين نزعة العداوة لله وإلصاق الذم به سبحانه ، كقولهم يد الله مغلولة ، وقولهم فيما ينقله أيضا القرآن أيضا عنهم أن اله فقير ونحن أغنياء ، وبحوث الباحثين من غير المسلمين عنهم تؤكد وجود نزعة عدائية فيهم نحو الله سبحانه ، بل إن نصوص كتبهم الدينية بعد أن حرفتها أيديهم تتضمن هذا بوضوح .

(جـ) مما تميزوا به فى كفرهم عن سائر الشعوب الكافرة قتل الأنبياء ، فلم يعمد شعب إلى منهج قتل الأنبياء وتعذيبهم والتمثيل بهم إلا اليهود ، والقرآن يكرر ذلك الحدث منهم ، وتاريخهم وكتبهم الدينية تثبت ذلك .

ثانيا : فيما يتعلق بنفسية اليهود ، فإن القرآن يتحدث عن نزعات نفسية كثيرة تميزهم عن غيرهم ، ومن أبرز هذه النزعات :

(أ) التعالى ، واعتقادهم فى أنفسهم السمو عن سائر الناس ، والقرآن يؤكد ذلك فى أكثر من موضع ، كادعائهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، ومثل ادعائهم أنهم دون الناس جميعا ينتسبون إلى الله انتسابا خاصا فيرد القرآن عليهم على لسان النبى صلى الله عليه وسلم فى

قوله تعالى (قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) (١) وهذا الادعاء هو ما يعرفه العالم كله عنهم حتى اليوم من ادعائهم أنهم شعب الله المختار .

(ب) نزعة العدوان ، وهى تنبع أساسا من نزعة العداء ، والعداوة لذاتها عاطفة أو مشاعر مائلة فى طبيعة وتكوين الإنسان ، فكل إنسان يمكن أن يحمل النفور الذى يصل إلى حد العداوة لمن يرى فيه مصدر ضرر ، أو حائلا بينه وبين نفع ، ولكن نزعة اليهود تختلف عن ذلك ، حيث إنهم يحملون هذه النزعة لكل من سواهم على الإطلاق بدون سبب يدعو إلى ذلك ، وقد أثبت الباحثون من غير المسلمين أن اليهود يحملون نزعة عدائية نحو كل الناس على الإطلاق ، بل قد تصل هذه النزعة إلى عداوتهم لله ، وقد ترتد إلى عداوتهم لأنفسهم ، ولكن الذى نريد أن نبرزه هو أن نزعة اليهود التى نشير إليها تتجاوز هذا كله إلى الميل والنزوع إلى العدوان على الغير ، فكثير من الناس قد يحملون عداوة لغيرهم ، ولكنهم لا يميلون ولا يفكرون فى الاعتداء عليهم ، أما اليهود فانهم يحملون نزعة أصيلة فيهم ، هى الميل إلى العدوان ، كقوله تعالى (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) (٢) وصيغة المضارع فى (يعتدون) ككل مضارع تفيد التجدد والحدوث كما يقول علماء اللغة ، ومعنى التجدد فى هذا الفعل أن نزوعهم إلى العدوان غير مرتبط بسبب يدعوهم إلى العدوان كما هو حال سائر الناس ، بل هى نزعة فى تكوينهم إلى الميل إلى الاعتداء ولو بدون سبب ، وهى قوة أو نزعة كامنة فى النفس ، فما إن يجدوا لديهم قوة لمزاولتها حتى يزاولوها ولو بدون سبب أو داع ، وهذا واقعهم اليوم فى فلسطين ، فما إن أحسوا أن لديهم قوة حتى طغوا وبغوا وعاثوا فى الأرض الفساد ، دون أى سبب أو داع لهم إلى ذلك ، ولذلك فإن الذين يتوهمون أن اليهود يمكن أن يستكينوا إلى السلام والكف عن العدوان مهما حققوا من آمال لدولتهم ، ومهما خضع لهم من حولهم ، بل مهما لبوا لهم مطالبهم وأحلامهم

---

(١) ٦ سورة الجمعة .

(٢) ٧٨ سورة المائدة .

فإنهم مخدوعون خديعة كبرى ، لأن نزوع اليهود إلى العدوان متغلغل فى دمائهم ، ولن يتوقف ولو ملكوا العالم كله ، ولو تحول الناس إلى عبيد لهم ، ولن يمنعه إلا شيء واحد فقط ، هو أن يكونوا عاجزين مغلوبين على أمرهم كحالة التشرد التى كانوا فيها قبل قيام دولتهم ، ومع ذلك فإن هذا يمنع عدوانهم منعا ، ولكنه لا ينتزع نزعة العدوان من نفوسهم لأنها طبيعة متأصلة فيهم ، ولذلك كان من دقة القرآن حذف المتعلق فى (يعتدون) فلم يذكر أنهم يعتدون على من .

ثالثا : وفيما يتعلق بسلوك اليهود المميز لهم ، نجد القرآن يفيض فى تعداد صفات خلقية فى سلوكهم ينفردون بها عن سائر الناس ، ومن هذه الصفات :

(أ) نقض العهود والمواثيق ، فالقرآن يؤكد فى مواضع عديدة ، هذه النزعة فيهم ، بما يعنى أن نقضهم العهود والمواثيق ليس مرتبطا بحوادث معينة ، أو بملابسات خاصة ، وإنما هى نزعة متغلغلة فى طبعهم ، ومن ذلك (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ...) (١) وتاريخهم كله يؤكد وجود هذه النزعة فيهم بوصفها طبيعة وليست استجابة لإغراء أو هدف أو حادث معين كما يحدث فى نقض بعض الناس عهودهم ، ولذلك فإن الذين يحلمون ويتوهمون اليوم أن اليهود سيوفون بعهودهم ومواثيقهم واتفاقاتهم مع العرب أو المسلمين هم مخدوعون خديعة كبرى ، فإن اليهود لا يوفون بأى عهد على الإطلاق إلا فى حالة واحدة ، هى أن يكونوا مرغمين على الوفاء ، وعاجزين عن النقض .

(ب) العنصرية ، حيث يتحدث القرآن فى أكثر من موضع عن تحصنهم بعنصريتهم ، بمعنى أنهم لا يثقون ولا يطمئنون إلى أحد من غير سلالتهم ، بل بالنزعة العدائية والعدوانية التى سبقت الإشارة إليها آنفا يستبيحون العدوان على كل الناس ، سواء فى أنفس الناس أو فى أموالهم أو شئونهم ، بل إنهم يزعمون أن الله أحل لهم أموال كل الناس ، ومن الناس العرب ، فكان اليهود الذين يعيشون بين العرب يدعون أن الله أحل فى التوراة كل أموال العرب ، مهما كان بينهم وبين أصحاب الأموال من عهود ، أو مهما كانت هذه الأموال عندهم عن طريق الأمانة التى هى من أوثق العهود ، فإن هذه الأموال فى كل أحوالها أحلها لهم الله فى

---

(١) ١٣ سورة المائدة .

زعمهم ، والقرآن ينقل عنهم ذلك مكذبا إياهم مؤكدا أن الله يحب الوفاء بالعهود ويبغض من يخل بها ، كقوله تعالى (.... ومنهم من أن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ، بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين) (١) والأميون هم العرب ، ولكن نزعة اليهود هذه ليست ضد العرب وحدهم وإنما هى ضد الناس جميعا ، حيث يدعون أن الله أحل لهم أموال كل الناس ، كما فعلوا عند خروجهم من مصر ، حيث تسجل كتبهم الدينية ما يتضمن أنهم طلبوا من نسائهم التحايل على نساء المصريين لاستعارة حليهن ثم هربوا به ، وهكذا فإن كل مال لغير اليهود يعدونه حلالا لهم .

ومن آثار العنصرية فى المجال الدينى ما يسجله عليهم القرآن من أنهم يتواصون وخصوصا رجال الدين وعلماءه منهم بأن يحتكروا علمهم الدينى وبخاصة ما ينبئ عن صدق الإسلام ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يطلعوا عليه أحدا غيرهم حيث يقولون (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) (٢) وهذه العنصرية فى كل صورها ماثلة معروفة لكل الناس فيهم .

(جـ) حب الإفساد ، ونشر الانحلال الخلقى ، فالقرآن فضلا عن الإفاضة فى وصفهم بفساد أخلاقهم وفساد سلوكهم صراحة أو ضمنا فى مواضع عديدة ، فإنه فضلا عن ذلك يصفهم ضمن المنافقين بما لم يوصف به غير من يحمل صفة النفاق ، وهو العمل عكس المصلحين وعكس الدين ، فإذا كان الدين وكذلك كل المصلحين ولو لم يعتنقوا دينا يحسنون الحسن ويدعون إليه ، ويقبحون القبيح وينفرون منه ، فإن المنافقين يحسنون القبيح ويأمرون به ، ويقبحون الحسن وينهون عنه ، كما يقول تعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ....) (٣) ومن المعروف أن النفاق لم ينفصل عن اليهود فى طول التاريخ الإسلامى ، والروايات تؤكد أن اليهود كانوا دائما هم مركز النفاق ومدرسته ، وملجأ المنافقين ومرجعهم ، وكل حديث عن النفاق والمنافقين من العسير فصل اليهود عنه ، ويؤكد أن اليهود فى صلب المشار إليهم ممن يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف

---

(١) ٧٥ ، ٧٦ سورة آل عمران . (٢) ٧٢ سورة آل عمران .

(٣) ٦٧ سورة التوبة .

أن واقع اليهود فى كل مكان يؤيد هذه النزعة فيهم ، بل إن وثائقهم التى يجعلونها دستورا لسلوكهم تجعل هذه النزعة سلاحا جوهريا فى تحقيق آمالهم فى سيادة العالم ، والانتصار على كل البشر بوسائل محددة ، من أسسها نشر الفساد والتحلل الخلقى بين شعوب العالم حتى يمكنهم القبض على ناصية العالم (١) ، وهذا فضلا عن حرصهم على إشاعة الاضطرابات والقلاقل والانقلابات والثورات فى كل مكان يتاح لهم العمل فيه ، أو وضع أصابعهم فى ثقب من ثقوبه ، وقد عرف العالم أنهم كانوا وراء كل الثورات والانقلابات الكبرى فى العالم كالثورة الفرنسية ، والثورة الشيوعيه فى روسيا ، بل إن كثيرا من قادة هذه الثورات كانوا يهودا مثل كارل ماركس معلم الشيوعية وقائدها ، ورغم أن الثورات والانقلابات تتذرع بطبيعة الحال بشعارات تبدو براقة ، وتمثل فى ظاهرها أهدافا وأمانى للشعوب إلا أن اليهود طالما ظلوا قابضين على ناصيتها أو مؤثرين فى سيرها فإنهم يحرصون على أن تظل الثورات والانقلابات هدما للمبادئ والقيم الخلقية وبخاصة الأديان ، حتى تكون الأديان السماوية هى الهدف الأول لمعاول الثورة أو الانقلاب ، ومن أوضح أمثلة ذلك الثورتان الكبريان اللتان أدارتا وما زالتا تديران أو تحركان كل ثورة فى العالم ولو بوصفها نموذجا يحتذيه الراغبون فى أية ثورة أو انقلاب فى أى مكان بالعالم ، وهما الثورة الشيوعية التى قادها كارل ماركس فى روسيا والتى نشرت مبادئها فى كل أنحاء الاتحاد السوفيتى وما كان يعرف بالمعسكر الشيوعى ، ثم فى كل ثورة فى أنحاء العالم تجعل مبادئها هدفا وغاية ، وأول لبنة فى بناء الفكر الشيوعى تقوم على هدم الدين باعتباره فى رأيهم مخدرا للشعوب ، وحائلا بينها وبين كل عوامل التقدم والعلم والحرية والرفاهية وكل ما هو خير للشعوب ، وهم يوجزون ذلك بأنه بينما عوامل التقدم تحاول دفع الشعوب إلى أمام ، إذا بالدين ، أى دين سماوى يجرها إلى وراء ، ومن هنا نشأ وصف الدين بالرجعية ، وبصفة عامة فإن الدين فى شعاراتهم نقيض لكل ما من شأنه النهوض والتقدم ، وهذه الثورة تنسب إلى قائدها وواضع مبادئها فهى الماركسية نسبة إلى كارل ماركسى اليهودى .

---

(١) انظر بروتوكولات حكماء صهيون ، وهى ما يشبه الدستور الذى وضعه كبار مفكرى اليهود وصاغوه فى صورة الأساليب والوسائل التى تمكنهم من تحقيق حلمهم فى سيادة العالم وذلك فى اجتماعاتهم سنة سبع وتسعين وثمانمائة وألف .

وكذلك الثورة الفرنسية التى كانت نواة الثورات فى العالم تقوم اللبنة الأولى فى مبادئها على حرب الدين ، أى دين سماوى ، باعتبار الدين أيضا حائلا بين الشعوب والتقدم ، وأن من يريد السير فى طريق النهضة والتقدم فعليه أن يضع مبادىء الدين تحت قدميه أو وراء ظهره ، ولا بأس بأن يجعل الدين مجرد شعار أو عنوان ينتسب إليه كما ينتسب إلى وطن من الأوطان. فيقال هذا مسيحى مثلا كما يقال فرنسى أو ألمانى ، ولا بأس أيضا بأن يعترف بوجود الله - خلافا للشيوعية - بشرط أن يكون وجود الله فى تصوره مجرد رمز وشعار دينى . فالشرط والمبدأ الأساس اعتقاد ان الله ليس له تأثير فى أى شىء أو شأن من شئون الحياة العملية ، وكذلك الدين يجب ألا يكون له أية علاقة بسير الحياة وشئونها العملية ، وإنما الناس هم الذين يصوغون المبادىء والقوانين التى تنظم حياتهم وتسيرها . فالعلمانيون يجعلون العلم وحده هو الهدف المنشود ، والمحرك الوحيد لدفع الحياة نحو هذا الهدف ، والشىء الوحيد الذى يناقض هذا الهدف فى مبادئهم هو الدين ، ولذلك يصوغون شعار العلمانية استنادا الى العلم ، على أنها هى الطريق الوحيدة للنهضة والتقدم ، وأن الدين ومبادئه هو أيضا الطريق الوحيدة إلى التخلف والجهل ، أو هو على الأقل أقرب الطرق وأسرعها إلى التخلف والجهل وسائر عوامل الإضرار بالمصلحة الحقيقية للشعوب والأفراد ، ومن المعروف أن اليهود هم المحركون لكل خيوط الثورة الفرنسية والواضعون لأهدافها ومبادئها .

وواضح كل الوضوح أن الثورتين الفرنسية والشيوعية تلتقيان فى أهم هدف لهما وهو حرب الدين ونشر الإلحاد ، وقد نجحتا كل النجاح فى جعل كل من يدين بالشيوعية أو ينتمى إليها يحاول أن يمحو من ذهنه كل ما يتعلق بالدين أو بذات الله سبحانه على أساس أنهما لاوجود لهما أصلا فى الفكر الشيوعى ، وكذلك النجاح فى جعل كل من يدين بالعلمانية يعتقد أن العدو الأول إن لم يكن الوحيد لأى نهضة أو حضارة هو الدين .

ومن الواضح أيضا كل الوضوح أن الغالبية العظمى من الثورات والانقلابات فى العالم كله ، اقتدت فى مبادئها وأهدافها وخصوصا الموقف من الدين إما بالثورة الفرنسية ، وإما بالثورة الشيوعية .

ومن الواضح كل الوضوح أيضا أن الثورات والانقلابات التى قامت فى الشعوب الاسلامية وجدت أنها لاتستطيع أن تجعل الشيوعية شعارا أو دستورا رسميا لها، لأن شعوبها تدين بالاسلام والمذهب الشيوعى ينكر الدين من أساسه ، فهذا يجعل الثورة من بدايتها فى حرب مع الشعب ، فلجأت الغالبية العظمى من هذه الثورات والانقلابات إلى العلمانية التى تحمل نوعا من الخداع الدينى الذى قد يجوز على بعض العامة والسذج ، وهو أن العلمانية لاترفض الدين ، ولا تنكر وجود الله ، بل تترك للفرد حرية اعتناق الدين ومزاوله شعائره .

ولكن الذين يتجاوزون السذاجة ولو بأصبع ، أو يلبسون السذاجة ولكن فى ثوب خفيف يعلمون أن الله عند العلمانية مجرد رمز قد يكون للتبرك أو للآخرة أو لأشياء نفسية ، ولكن لا علاقة له بحياة الناس وأعمالهم ، فإن الناس هم الذين يصوغون حياتهم ويختارون كل ما يرونه ويريدونه فيها دون أن يكون لله فى ذلك دخل ، وكذلك الدين عندهم مجرد شعار ، قد يكون للانتماء إليه كالانتماء إلى الوطن مثلا ، أو للاعتزاز به كالاعتزاز بأى شىء يخص به المرء نفسه ، ولكن لا علاقة له ولا يصح أن تكون له علاقة بالحياة العملية أو سير الحياة ، وكان من آثار ذلك أن كل الدساتير والقوانين والنظم فى الدول العلمانية تعيش فى واد بعيد كل البعد عن وادى الدين ، وتسير فى طريق موازية للدين ، بحيث لا يلتقيان أبدا بصورة مقصودة متعمدة ، لأن واضعى هذه النظم يتعمدون افتراض عدم وجود الدين بكل ما يأمر به أو ينهى عنه فى وضعهم لهذه النظم ، فكل ما حرمه الدين من سلوك لا اعتبار له فى هذه النظم .

وكذلك الحال فى شعار حرية الفرد فى مزاولة شعائر الدين ، فإن هذه الحرية مكبلة بكل الأغلال ، حيث لايصح أن تتجاوز السلوك الشخصى البحت ، مثل أن يصلى كما يشاء أو يعتقد فى داخل نفسه ما يشاء ، ولكن لا يصح أن تتجاوز هذه الحرية حدود شخصه ، فلا يملك أن يتعامل بمنطق الدين وتشريعه حتى مع أولاده أو زوجه ، ومن باب أولى مع أى أحد آخر ، لأن الدين الحقيقى عندهم هو ما وضعته العلمانية من تشريع ونظام وقوانين ، وحيث كانت العلمانية تقوم على نبذ الدين ومعاداته فإن على الفرد الذى يزاول شعائر دينه ولو فى داخل نفسه أن يعلم أنه معاكس ومعاد لنظام الدولة ، فلا ينتظر حصوله على أية ميزة ، بل عليه أن يوطن نفسه

ويروضها على تقبل كل المضايقات ، وكل صور النبذ والاستخفاف حتى مع أولاده الذين سينشأون بطبيعة الحال فى المناخ العلمانى ، وهو لايستطيع أن يجهر بالدين ، ولا أن يقول إن هذا حلال أو حرام ، ولا أن يقول إن هذا موافق للدين أو مخالف له ، لأن الدين لا وجود له من حوله .

وقادة الانقلابات والثورات أو الغالبية العظمى منهم فى الدول الاسلامية آثروا العلمانية لأنها تحقق ذات الأهداف الشيوعية فيما يتعلق بالدين ، ولكنها فى الأسلوب والوسائل تبدو فى الظاهر أخف قبضة وأيسر أغلالا من الشيوعية ، مع أنها فى حقيقة الأمر أخطر تأثيرا من الشيوعية فيما يتعلق بالدين رغم اتفاقها مع الشيوعية فى الهدف ، لأن العدو الذى يواجهك بالطعنة من أمام تراه وتملك فرصة لمقاومته أو الاستعانة بمن يقاومه ، أما العدو الذى يحتضنك ليطعنك من خلف فلا يتيح لك مقاومته ، والشيوعية عدو ظاهر للدين ، أما العلمانية فإنها تصطنع شتى الأساليب لتخدع العامة والسذج وتوهمهم بأنها ليست حربا على الدين وإنما هى تبصير و (تنوير) للشعب ليعرف ويرى طريقه إلى الحضارة والتقدم ، وأساليب أخرى مما يتناقله دعاة العلمانية الذين ينتشرون ويندسون فى كل أنحاء الأمة الإسلامية على الإطلاق ، سواء أكانوا من القادة أم من المثقفين .

وكانت من أولى الدول الإسلامية التى جرفها تيار العلمانية جرفا كاملا تركيا التى كانت عاصمة الخلافة الإسلامية عدة قرون ، ولكن كمال اتاتورك استطاع أن يمحو وجه الدين من الحياة العامة لتركيا ، وأن يحول كل وسائل الإعلام ، وكل وسائل التعليم إلى العلمانية ، حتى وصل الأمر إلى ما يرويه أحد الفارين من هذه العلمانية من أن أحد مفتشى التعليم فى تركيا زار أحدى المدارس ، فسأل طالبا هل تعرف شخصية فى التاريخ اسمها محمد ؟ فأجاب بالنفى ، قال هى تعرف الله من هو ؟ فأجاب الطالب : هو كمال أتاتورك ، وكمال أتاتورك أيضا يهودى الأصل .

ومن الطريف العجيب ، بل من المحزن أن أحد رؤساء مصر بعد الثورة زار تركيا فقال فى خطبته الرسمية هناك : ومما تعتز به الثورة المصرية أنها تسير على نهج الثورة التركية ،

أى ثورة كمال أتاتورك العلمانية ، ولم تكن هذه الخطبة سرا ، بل نشرت فى كل الصحف المصرية والتركية ، ولم تكن الخطبة ارتجالا ، ولا هى رأى شخصى ، وإنما هى ككل خطبة رسمية تمثل سياسة الدولة تمثيلا كاملا ودقيقا .

وليس هذا الحديث مقصودا هنا لذاته ، وإنما هو محض استشهاد على أن اليهود فى طول تاريخهم لم يكتفوا بأن يكونوا هم المتميزين ببغضهم الشديد للدين ، وبتغلغل نزعة الإلحاد فى نفوسهم ، وإنما بذلوا وما زالوا يبذلون كل جهدهم وكل إمكاناتهم لنشر الفساد والإلحاد والاضطرابات فى كل أنحاء العالم ، مستعينين بكل من لديه استعداد للنفاق ، وكل من تتفق مبادئهم مع هواه أو مع مصلحته الشخصية ، وكل هؤلاء يدخلون بطريق مباشر أو غير مباشر فى دائرة من يقول عنهم القرآن (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم . . .) (١) كما أن مناهج علمانيتهم كمنهج التعليم فيها يدخل فى دائرة قوله تعالى (. . ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) (٢) وشروا بمعنى باعوا .

وقد أثبت التطبيق العلمى لهذه المناهج أنها ضارة وليست نافعة كما يحدد تعبير القرآن ، ولذلك رأينا أن الشعوب التى اعتنقت الشيوعية نفضت أيديها من الشيوعية واعترفت علانية بأن مبادىء الشيوعية كانت كارثة على الشعوب من نواح عديدة ، إحداها تغلغل الفقر والجوع ، وكذلك فى الشعوب العلمانية حيث بدأت تفيق من كابوس العلمانية وفسادها ، وها هى ذى تركيا يبدأ شعبها فى نفض غبار العلمانية والإفاقة من سكرتها ، وليتنا ونحن فى بداية غيبوبة العلمانية نفيق قبل أن نستغرق فى سكرتها .

وإذا كان المؤمنون يوقنون بأن طريق الله هى الخير للدنيا والآخرة ، كما يقول تعالى عن نحو ذلك (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . .) (٣)

---

(١) ٦٧ سورة التوبة .

(٢) ١٠٢ سورة البقرة .

(٣) ١٥٣ سورة الأنعام

فإن الذين يسيرون فى غير طريق الله لابد أن يتبينوا إن عاجلا وإن آجلا أن طريقهم لم تكن نهايتها إلا الخراب أو الدمار ، ولا يزال الله سبحانه يضرب للناس الأمثلة لعلهم يتعظون ، وأقرب الأمثلة نهاية الشيوعية ، ولا أظن أنه من الشطط أن يقال إن من الأمثلة أيضا بداية النهاية للعلمانية ، حيث إن شواهد كثيرة تنذر بأن نهايتها قد بأت ، ولكن السياق لايستدعى الإفاضة فى ذلك .

والذى يعنينا هنا أن كل السبل التى انحرفت عن طريق الله وجارت عنها كانت من صنع اليهود أو من إيحائهم .

ومن تتمة حديث النفاق وفى صلبه اليهود أن ما يميز المنافقين أنهم يعتمدون على إخفاء حقيقتهم ، وإنهم يدبرون ما يدبرون ضد غيرهم فى الخفاء وهم يطمئنون إلى أن أحدا لم يلمح أسلوبهم ، ولم يرتب فى تخفيهم ، فإن الله يؤكد لهم أنه سبحانه التزم أن يجعل كل تدبير سيء لايحيط إلا بصاحبه ، كقوله تعالى (ولايحيق المكر السيء إلا بأهله) (١) .

ويتكرر هذا المعنى فى القرآن كثيرا بأساليب مختلفة ، وهو أن المكر السيء من حيث إنه خفى فإن الله هو الذى يتولى الرد عليه وعقاب مزاوله ، لأن العداوة العلنية يستطيع المعتدى عليه فيها على الأقل أن يعلم ما يوجه إليه ليأخذ حذره ، أما العدوان المدبر فى الخفاء فلا يعلمه إلا الله ، فلذلك تكفل الله بأن يتولى هو الرد عليه ، والرد دائما هو أن يحيط التدبير السيء بمدبره ، ولكنه قد يجرف معه غيره ممن لم يأخذوا على يده ويمنعوه ، أو وقفوا راضين أو ساكتين وهم يتوقعون أنه يدبر شيئا فى الخفاء ، ومن أمثلة ذلك ما يضرب به الله مثلا بما دبره جماعة من ثمود فى الخفاء ضد صالح عليه السلام وأهله فتولى الله الرد عليهم ، وكان الأمر (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون ، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون) (٢) فأهم ما يتضمنه الموقف أن يكون الله سبحانه هو الذى يتولى الرد على التدبير السيء فى الخفاء ، ولكن سيكون

---

(١) ٤٣ سورة فاطر .

(٢)٥٠-٥٢ سورة النمل .

هناك فارق من جهتين ، إحداهما أن رد الله لايكون خفيا وإنما شديد الوضوح ، والأخرى أن رد الله لابد أن يكون آلم وأوجع من التدبير السيء .

ومن الملحوظ بوضوح أن التدبير الخفى والمكر السيء يتوعده الله سبحانه بالعقاب العاجل فى الدنيا ، ويكون لكل نوع من المكر نوع يلائمه من عقاب الله ، وهذا هو الخسران المبين ، فإن كل تدبير سيء وكل مكر إنما يهدف بالضرورة إلى مصلحة يحققها الماكر لنفسه ، ولكن القرآن يؤكد فى أكثر من موضع ، وبأكثر من أسلوب أن كل هذا التدبير الخفى بالذات لابد أن يبوء بالخسران والبوار ، لأنه سيرتد إلى صاحبه ، فيصبح خاسرا فى الوقت الذى كان ينتظر فيه الكسب والنجاح .

وهذه صورة من صور الوعيد للذين يمكرون السوء ، ويدبرون الشر فى الخفاء ، هذا الوعيد الذى من شأنه أن يجعل ماكر السوء يفكر أولا فيما سيجره عليه مكر السوء من خراب ودمار وخسران ، فإذا لم يرتدع فليتوقع حلول العقاب ، وهذه الصورة فى قوله تعالى (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون ، أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين ، أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لروف رحيم) (١) فالقرآن لايحدد لهم مصدرا معينا يأتيهم منه الهلاك ، وإنما يخوفهم من كل الجهات وكل الأحوال التى يكونون فيها حتى يعيشوا فى قلق وترقب لما يحل بهم من عقاب الله ، وقد يقال فإنهم غير مؤمنين بالله أصلا فكيف يخافون من وعيده ؟ والجواب أنهم مع كفرهم وشركهم لاينكرون وجود الله ، كما يسجل القرآن ذلك فى أكثر من موضع ، كقوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) (٢) ومن ناحية أخرى هم يعلمون فيما تتناقله أخبارهم كثيرا من أحداث أهلك الله فيها أقواما ، ومنها أحداث فى أرضهم كهلاك عاد وثمود الذى تتناقله أخبارهم ، وتحدث عنه شعراؤهم قبل الإسلام ، بل هناك من الأحداث ما شهده الذين يخاطبهم القرآن وهو حادث الفيل الذى وقع فى العام الذى ولد فيه

---

(١)٤٥-٤٧ سورة النحل .

(٢) ٦١ سورة العنكبوت .

النبى صلى الله عليه وسلم ، ومعنى ذلك أن كل الذين كانوا يكبرون سن النبى ببضع سنوات ممن يخاطبهم القرآن شهدوا حادث الفيل ، ويعلمون أنه من الله وحده ، وليس لأحد سواه دخل فيه ، فحين يتوعدهم الله بأى وعيد فإنهم لايستطيعون فيما بينهم وبين نفوسهم أن ينكروه أو يكذبوه أو يستخفوا به ، وإن صدر شىء من ذلك على ألسنتهم فإنما هو من باب المكابرة واللدد فى الخصومة الذى وصفهم به القرآن فى قوله تعالى (. . . وتنذر به قوما لدا) (١) .

وإذا كان الأصل فى المنافق أنه لا يعتنق الدين أصلا ، وإنما يتخذ منه لباسا يخفى به سوءته فى العقيدة ، ودرعا يحمى بها نفسه من المؤمنين ، فإن من صور النفاق نوعا يعتنق الدين ويؤمن به ، ولكن ليس إيمان الرسوخ واليقين ، وإنما إيمان التجربة والاستكشاف ، فإن حقق لنفسه ما يرجو وما يهدف إليه من كسب أو أمل استقر فى الإيمان وطابت به نفسه ، وإن لم يكن الأمر كذلك نفض يديه من الدين وانقلب إلى عقيدة الكفر ، فإن استطاع أن يجهر بكفره ، أو وجد الجهر به أربح له وأنفع جهر بكفره ، وإلا أخفاه كسائر المنافقين ، وهذا النوع هو أسوأ صور الكفر والنفاق ، لأن الكافر أو المنافق قد يصيب من الدنيا خيرا فيخسر الآخرة وحدها ، أما هذا الذى تراجع عن الخطوة التى خطاها نحو الإيمان فهو أشد الناس خسرانا ، لأنه خسر الآخرة كغيره من أعداء الله ، وزاد على ذلك أنه خسر الدنيا أيضا ، لأنه إنماتراجع لأنه وجد خسارة (ومن الناس يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) (٢) .

وإذا كانت الخسارة فى المال أو فى الآمال محزنة مؤلمة فإن هناك خسارة أفدح منها ، وهى خسارة النفس ذاتها ، وذلك بإهدار كيانها الحقيقى وقيمتها ، فإن قيمة الإنسان فى الدنيا تنبع فى الحقيقة من جوهره ، وما يحمله هذا الجوهر من قيم معنوية ، كالذكاء والحكمة والفضائل بصفة عامة ، وبدون هذه القيم لا قيمة حقيقية للإنسان ، كما يقول الشاعر العربى القديم : لسان الفتى نصف ونصف فؤاده .·. فلم تبق إلا صورة اللحم والدم

---

(١) ٩٧ سورة مريم .

(٢) ١١ سورة الحج .

فلسان الإنسان هو الكاشف والمعبر عن الجوهر والفضائل أو العكس ، والفؤاد هو العقل ، حيث يستخدم القلب أكثر ما يستخدم عند العرب بمعنى العقل ، فإذا عدم الإنسان عقلا وخلقا فاضلا يعبر عنه لسانه فلن يبقى بعد ذلك إلا ما يوجد فى أى حيوان من لحم ودم .

وهذه القسمة بين العقل والخلق إنما يراد بها وصف الكمال فى الإنسان ، فحينما يجتمع للمرء عقل وخلق فهذا هو الكمال ، إما إذا انفرد أحدهما فإن الكيان الإنسانى ينهار كله ، فإذا وجد الخلق وحده بدون عقل رغم أن هذا غير متصور إلا بمعنى أن يكون ضعيف العقل فإنه حينئذ لايعدو أن يكون مثل حيوان أعجمى أليف يطيع ويستجيب دون عقل أو إدراك ، وإذا وجد العقل والذكاء وحده دون خلق حسن فلا يعدو أن يكون هذا الشخص شيطانا شريرا ، يستخدم عقله وذكاءه فى الشر ، لأنه ليس له ضابط من الخلق .

ففى كلا الحالين عدم الخلق وعدم العقل إهدار للآدمية الحقيقية وتحويل لها إما إلى الحيوانية العجماء ، أو الشيطانية .

وأى أداة يملكها الإنسان ولايستخدمها عند الحاجة إليها فكأنها ملغاة ولا وجود لها ، والله أعطى كل إنسان عادى عقلا ليستخدمه ، وأول ما ينبغى استخدامه فيه الدين لإنه مرتبط بالحياتين معا ، حياة الدنيا وحياة الآخرة ، فالكافر الذى ينكر وجود الله الذى يدل عليه كل شىء فى داخل ذاته وفى خارجها ، والذى يعبد حجرا مثلا أو غير ذلك من صور الكفر يكون قد ألغى عقله حيث لم يستخدمه فى أحوج الأمور إلى استخدامه ، فكأنه بغير عقل ، وإلغاء العقل إهدار للذات ، وهذا معنى الخسران 'للنفس الذى يتكرر فى القرآن كثيرا وصفا للذين أعموا عيونهم وأصموا آذانهم عن الإيمان بالله ، بل وأغلقوا عقولهم دونه ، كقوله تعالى (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا) (١) وكقوله تعالى (. . الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) (٢) .

---

(١) ١١٩ سورة النساء .

(٢) ١٢ سورة الأنعام .

وكقوله تعالى (ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) (١)

وإذا كان خسران النفس خسرانا شديدا فإن هناك خسرانا يفوقه فى الشدة ، هو خسران النفس والأهل معا ، فإن الأهل جزء مكمل للنفس ، وهم من عوامل سعادة المرء أو شقائه ، وقد يخسر المرء شيئا فى نفسه ، فيكون مما يعزى ويواسى به أن يقال له إن الله عوضك عن هذا فى أولادك ، ولكن أن تكون الخسارة فيه وفى أولاده وأهله فهذا هو الخسران المبين كما يقول عنه القرآن (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) (٢) .

وصفات الحسن والقبح ليست درجة واحدة ، بل وأحياناً لاتكون درجات متقاربة ، وكذلك كل المعانى والأعراض ، ومن أوضحها الربح والخسارة ، فقد يربح التاجر بضعة دراهم أو دنانير فيقال إنه رابح ، ولكن رابحا آخر قد يربح الآلاف والملايين ، فهو أيضا رابح ، مع الاختلاف الشديد بينهما فى مقدار الربح ، وكذلك الخسارة ، قد تكون فى القليل جدا وفى الكثير جدا ، فإذا كانت الخسارة فى مثل الصورة السابقة تتفوق على غيرها من شديدات الخسارة ، فى الأملاك ثم فى النفس ، ثم فى النفس والأهل معا ، فإن هناك خسارة أخرى قد تضاف إلى ذلك ، هى الخسارة فى المروءة والمنزلة بين الناس ، حين يشعر المرء بأنه فقد كيانه ومنزلته فى مجتمعه ، وأشد من ذلك أن يسمع شماتة الناس فيما أصابه ، وخصوصا شماتة الذين كان يراهم دونه منزلة وقدرا ، وهم المؤمنون الذين يفترض فى غالبيتهم عادة وكما هو الواقع أنهم من عامة الناس ، وليسوا من طبقة السيادة والقيادة ، بينما الكافرون عادة وخصوصا الذين لهم نفوذ وتأثير على أهليهم إنما يكونون من طبقة السيادة فى أية درجة من درجاتها ، فهؤلاء تكون خسارتهم فى أكثر من جانب ، خسارتهم فى أنفسهم بسبب كفرهم ، وخسارتهم فى أهليهم الذين كانوا هم بنفوذهم وتأثيرهم عليهم سببا فى كفرهم ، ثم خسارتهم فى منزلتهم بين الناس ، ثم فى الشماتة بهم ممن كانوا يرونهم أراذل الناس ، أو على الاقل

---

(١) ٩ سورة الأعراف .

(٢) ١٥ سورة الزمر .

دونهم بكثير منزلة ومقدارا ، كما يقول تعالى (وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة . .) [١] وحيث كانوا هم من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم فإنهم يعدون قول المؤمنين هذا موجها إليهم وشماتة فيهم .

بين الوعد والوعيد :

وإذا كان هذا التنوع الدقيق واضحا فى الوعيد لأعداء الله فإن المتأمل يستطيع أن يجد هذا التنوع أيضا فى الوعد للمؤمنين ، فإن المؤمنين بوصفهم بشرا لابد أن يكونوا طبقات أو فئات من الناس مختلفين فى وضعهم فى المجتمع ، ومختلفين أيضا فى نزعاتهم .

ولذلك كان وعد الله للمؤمنين ليس نوعا واحدا ، وإنما هو أنواع مختلفة كما تختلف أنواع الوعيد ، فالوعيد كله فى العذاب ولكنه مختلف ، والوعد كله فى النعيم ، ولكنه أيضا مختلف ، وحيث كان هذا الجانب ليس من موضوع الكتاب وهو الوعيد فإننا نلقى إليه نظرة عامة عابرة لمجرد إبراز أن كل ما يأتى من قبل الله لابد أن يحمل طابع الدقة ، وطابع المراعاة لطبيعة البشر من حيث بلوغ أقصى التأثير فى النفوس ، سواء فى حال الإيلام كالوعيد ، أو حال الإسعاد كالوعد والتبشير ، ومن آثار هذا التنوع فى الوعد :

(١) ما يبدو أنه موجه إلى العامة من المؤمنين مما أفاض فيه القرآن فى وصف ألوان الطعام ، وصنوف الشراب ، وأنواع اللباس لأهل الجنة فضلا عن المتع الجسدية بنساء الجنة ، والقصور والأرائك وغير ذلك مما هو واضح وكثير التنوع فى القرآن ، ولكنه جميعا يدخل فى نطاق المتع الجسدية التى هى الشاغل الأول لعامة الناس ، فالقرآن يعدهم بأن كل ما كان يشغلهم أو كانوا يتمنونه فى حياتهم الدنيا سيجدونه ويجدون ما يفوقه فى نعيم الجنة .

(٢) ما يبدو أنه موجه إلى الخاصة من المؤمنين زيادة عما يشاركون فيه العامة من النعيم وهذه الزيادة هى المتعة النفسية أو المعنوية ، فكما أنهم كانوا يزيدون عن العامة من المؤمنين فى صلتهم بالله وتضحياتهم فى سبيله فكذلك تكون لهم درجات من نعيم معنوى مطلق

---

(١) ٤٥ سورة الشورى .

التحديد بحيث يتخيلون فيه السعادة بغير حدود ، والخاصة من المؤمنين هم الذين يوصفون بالمحسنين ، والإحسان هو أداء ما هو أحسن ، بمعنى أن يكون المؤمن فى أحسن حالات الإيمان ، وعمله أحسن الأعمال ، فالعامة من المؤمنين وضعهم الدينى حسن ، ولكن الخاصة وضعهم أحسن وأفضل ، وهذه الدرجة أو هذه الدرجات التى يفضلون بها عامة المؤمنين تقابلها زيادة فى الثواب ، ولكنها تختلف عن ثواب العامة فى النوع كما اختلف اصحابها فى درجاتهم عن العامة ، فإذا كان العامة المشار اليهم يجدون سعادتهم ومتعتهم فى النعيم الحسى كالطعام والشراب والتمتع بالحور العين ونحو ذلك من متع الجسد ، فإن الخاصة من المؤمنين يمنيهم الله بنعيم نفسى يكون فى أغلب الأحيان مطلقا غير محدد ، كوعد الله رشوله محمدا صلى الله عليه وسلم فى قوله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) (١) فلم يقل له ماذا سيعطيك ، لأن تحديده يصغر من نوع الإعطاء أو حجمه ، وإنما هو عطاء مطلق من كل ما يتمناه وفوق ما يتمناه حتى تطيب نفسه وتقر عينه بتعبير (فترضى) لأن الرضا النفسى هو السعادة الحقيقية ، بل السعادة الكاملة ، لأن الإنسان قد يعطى كل ما يتمنى ولكن لايشعر بالرضا ، فإطلاق العطاء ، دون تحديد لتتخيل فيه النفس كيف تشاء ، ثم جعل الغاية هى السعادة النفسية هو الدرجة التى تعلو فوق العطاء الحسى المحدد . وهو ما لا يدانيه فى نفوس الخاصة نعيم آخر .

وكذلك يتحدث القرآن عن ثواب الخاصة وهم الذين بلغوا درجة الإحسان ، فيعدهم بالأجر ، ولكنه أجر غير محدد النوع ، وإن كان محدد الصفة ، كقوله تعالى (للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) (٢) فهو أجر عظيم ، ولكنه غير محدد النوع ، وعدم تحديده يشعر به وبقيمته الخاصة من المؤمنين وليس العامة .

بل يجعل الله للخاصة جزاء ليس من نوع العطاء المباشر ، وإنما هو من نوع المتعة النفسية ، كقوله تعالى (والله يحب المحسنين) (٣) فالكثيرون من عامة الناس قد لايجدون متعة أو قناعة نفسية كاملة بحب الله المجرد من العطاء ، ولكن الخاصة يجدون فى حب الله لهم ولو

---

(١) ٥ سورة الضحى .

(٢) ١٧٢ سورة آل عمران .

(٣) ٩٣ سورة المائدة .

دون عطاء آخر هو الأمنية الكبرى ، والمتعة العظمى ، ولو أنهم أيقنوا أنهم لن ينالوا غير هذا الحب شيئاً آخر لما قلل هذا شيئا من تفانيهم فى حب الله والتضحية فى سبيله .

وكذلك يعبر القرآن عن العطاء المطلق للمحسنين ، وهو العطاء الذى لا تحده الحسيات ، ولايبدو فيه الارتباط بمتعة الجسد ، وإنما هو عطاء نفسى ومعنوى مهما داخلته أوجه النعيم الحسى ، بمعنى أنه حتى ولو كان إطلاق العطاء يتضمن الحسيات فإن الخاصة لايقفون عند هذه الحسيات ، وإنما يكفيهم منه الجانب النفسى والمعنوى ، وذلك كقوله تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) (١) فكما أن الخاصة من المؤمنين التزموا أحسن أوضاع الإيمان فكذلك جعل الله لهم درجة من الثواب هى أحسن الدرجات ، بل يزادون فوق هذه الدرجة ، وهذه الدرجة هى (الحسنى) أى المنزلة الحسنى التى هى أحسن المنازل ، ولكن القرآن لم يحدد هذه المنزلة ، ولا نوع الثواب أو النعيم فيها ، وكذلك لم يحدد الزيادة التى فوقها وهى فى تعبير (وزيادة) ولكن نفوس الخاصة حين تسمع مثل هذا الوعد من الله يصغر عندها أى ثواب أو نعيم آخر ، بل لا تتمنى ولا تفكر فى شىء آخر ، لأنها لا ترى متعة تدانى هذه المتعة النفسية ، ولاترى نفسها فى حاجة إلى شىء آخر غير هذه المتعة .

وكما رأينا فيما سبق أن الخاصة من أعداء الله يصغر فى نفوسهم أى عقاب أو إيذاء بدنى بجوار المساس بعزتهم وكرامتهم ، فكذلك الخاصة من المؤمنين يصغر فى نفوسهم أى نعيم بدنى بجوار النعيم النفسى الذى يمنيهم الله به .

وكما رأينا فى أصناف الوعيد وعيدا خاصا للذين باعوا دينهم من أعداء الله طلبا للكسب وحرصا على المنفعة ، فكذلك نجد فى المؤمنين من يحملون نزعة حب الكسب ، والحرص على المنفعة ، وهم وإن لم يفرطوا فى دينهم ، ولم يبيعوا إيمانهم إلا أن نفوسهم بنزعتها البشرية تتطلع إلى الكسب والمنفعة فهؤلاء يعدهم الله بما تطيب به نفوسهم ، وتقر به أعينهم وهو الربح والكسب من خلال إيمانهم وصلتهم بالله ، وهؤلاء بطبيعة الحال من عامة المؤمنين ، وليسوا من خاصتهم ، فالله سبحانه يعدهم حينا بالربح والزيادة كقوله تعالى (من كان

---

(١) ٢٦ سورة يونس .

يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه) (١) فهذه الزيادة ربح واضح تطيب به نفوس هواة التجارة ، وحينا يصور الله لهم تضحيتهم فى سبيل الله بأنها تجارة فيها بيع وشراء وثمن ، كقوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . . .) (٢) فهى صفقة فى الجهاد فى سبيل الله يخاطب بها عامة المؤمنين ، لأن الجهاد واجب على كل مؤمن حين يطلبه الجهاد ، وهذه الصفقة هى بيع المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، والله سبحانه هو المشترى ، والجنة هى الثمن ، والتجار يعرضون بضاعتهم للبيع ، ولكن ليس كل تاجر يبيع ، وليست كل صفقه تجد شاريا ، وكذلك المجاهدون ليسوا جميعا يفوزون بالشهادة فيقبضوا من الله الثمن ، فأما الذين لاينالون شرف الشهادة فلا يرتفعون إلى طبقة الخاصة ، وأما الذين يفوزون بها فإنه يصبحون من الصفوة والخاصة .

ولكن الذى يعنى هذا الحديث هو أن من أنواع الوعد الأغراء بالربح والزيادة كما أن من أساليب الوعيد أسلوب التهديد بالخسران .

---

(١) ٢٠ سورة الشورى .

(٢) ١١١ سورة التوبة .

وعيـد المؤمنيـن

ولا شك أن الله فوق كل شىء وحين يذكر الله يصغر كل شىء حتى الملائكة والأنبياء ، وكل كبير أو عظيم هو كبير بالقياس إلى المخلوقين ، أما بالقياس إلى الله فالأمر كما يقول سبحانه (إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا) (١) ، ومن آثار ربوبية الله لكل شىء ، وعبودية الناس وغيرهم لله أن نجد وعيد الله فيما يتعلق بأوامره ونواهيه عاما لكل الناس ، لا يستثنى منهم أحد على الإطلاق ولو كان نبيا ، فإن ميزة الأنبياء ليس أنهم بمنأى عن أوامر الله ونواهيه ، وإنما لأنهم أطوع الناس لله ، وأحرصهم على تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه .

ومن آثار الإعجاز الموضوعى للقرآن ومن آثار كونه كلام الله أنه يعمم مبدأ الوعيد على كل البشر بمن فيهم الأنبياء ، بأن يجعل لكل مخالفة له عقابا ، فمن يخالف فهذا عقابه ، ومن لم يخالف فليعلم أنه إذا خالف فسينال هذا العقاب ، وأن رضا الله مقرون بطاعته فحسب ، فمن يخرج عن الطاعة فلابد أن ينطبق عليه عدل الله فى تعميم أوامره ونواهيه .

وقد يعجب بعض الناس من أن يروا فى القرآن وعيدا للأنبياء ، وهو فى الواقع ليس وعيدا وإنما هو تحذير من أن ينزلقوا فيما ينزلق فيه غيرهم من مخالفة الله ، والأنبياء فى حقيقة الأمر ليسوا فى حاجة إلى تحذير أو وعيد لأنهم معصومون عن تعمد عصيان الله فى أية صورة من صورة العصيان ، ولكن بوصفهم بشرا قد يخطئون خطأ وليس عمدا ، فيكون حساب الله لهم أشد من حسابه لغيرهم بلومهم على هذا الخطأ ، بينما سائر الناس لايلامون على الخطأ ، كقوله تعالى فى سياق دعاء المؤمنين (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) (٢) ويمكن الإلمام بشىء من التفصيل لما سبق فيما يأتى :

---

(١) ٩٣ سورة مريم .

(٢) آخر سورة البقرة .

وعيـــد الأنبيـــاء :

نجد فى القرآن كثيرا جدا مما يبدو فى ظاهره وعيدا افتراضيا للأنبياء ، وأكثره موجة إلى قمة الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ، ووجه الافتراض فيه كأنه يقال للنبى لو فعلت ما يغضب الله فسينالك العقاب كما ينال سائر الناس ، والنبى نفسه كثيرا ما كان يردد هذا المعنى فى أساليب مختلفة ، وفى مواقف متعددة ، منها أنه أشير عليه فى شأن أحد أسرى بدر من المشركين وكان خطيبا بارعا أن ينتزع بعض أسنانه حتى لايستطيع الخطابة ضد الرسول والإسلام بعدها ، فأبى صلى الله عليه وسلم قائلا لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا ، ومنها أن النبى رأى فى شأن أسرى بدر ألا يقتلهم بل يأخذ منهم فدية ، وكان رأى عمر بن الخطاب أن قتلهم هو الأولى لأن فيه تخويفا لأعداء الله ، وتم رأى النبى بالفداء ، فلام الله سبحانه نبيه والمؤمنين على تركهم ما هو أفضل ، بقوله تعالى (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) (١) وقد عقب النبى على ذلك بقوله (لو نزل عذاب من السماء ما أفلت منه غير عمر)(٢)، أى أن العذاب لو نزل كان سيصيب النبى نفسه ، ومن هذا المحيط فى جانب آخر حين قال النبى لأصحابه (لن يدخل الجنة أحداً عمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ، قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله منــه برحمة) (٣) ، لأنه مهما تبلغ منزلته فهو عبد لله ، والعبد لاينتظر من غير سيده شيئا ، والقرآن يؤكد فى مواضع عديده هذا المعنى بأساليب متنوعة منها (قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير مبين) (٤) .

أما الوعيد الافتراضى ، أو التحذير فى صورة الوعيد فالقرآن حافل به ، حيث نجده موجها إلى الأنبياء بصفة عامة أحيانا ، وإلى أشخاص معينين منهم بصفة خاصة أحيانا ، فمن الوعيد الموجه إلى كل الأنبياء لو أنهم خالفوا أمر الله قوله تعالى (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) (٥) فالنبى على جلال قدره

---

(١) ٦٨ سورة الأنفال . (٢) القرطبى فى تفسير الآية ٦٨ من سورة الأنفال عن يزيد بن هارون .

(٣) رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم عن عائشة رضى الله عنها وأوله (سددوا وقاربوا ...)

(٤) ١٨٨ سورة الأعراف . (٥) ٦٥ سورة الزمر .

يوحى الله إليه كما أوحى إلى كل الأنبياء من قبله أن من يشرك بالله من خلقه جميعا ومنهم أو أولهم الأنبياء فهو عدو لله .

ومن ذلك قوله تعالى (وما كان لنبى أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) (١) والغلول هو الأخذ من الغنائم بغير حق وكذلك قوله تعالى (قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم) (٢) وكذلك قوله تعالى (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ، إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا) (٣) .

وكذلك الأنبياء يوجه الله إليهم هذا التحذير أو هذا الوعيد إن صدر منهم ما يستدعى غضب الله ، فقد أنذر الله نوحا عليه السلام أن يجعله فى الجاهلين السفهاء إن عمد إلى مخالفة المبادىء التى بعثه الله وبعث كل أنبيائه عليها ، وكان ذلك فى قصة محاولة نوح أن ينجى ابنه من الغرق وهو يعلم أن ابنه كافر بالله ، حيث يقول له تعالى (إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) (٤) .

ويعتذر الله سبحانه عن خليله ابراهيم بأن ما صدر منه من مخالفة لهذه المبادىء وهو استغفاره لأبيه المشرك كان بحسن نية لعله تشجيع لأبيه وإغراء إياه بالإيمان ، فلما يئس منه وأيقن أنه عدو لله تبرأ منه ، وذلك فى قوله تعالى (وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . .) (٥) فالمبدأ أن العلاقة بين المؤمنين وغيرهم هى علاقة الإيمان ، أما علاقة النسب مهما قربت ، أو علاقة المنفعة مهما عظمت أو غير ذلك من العلاقات فلا اعتبار لها ، وينبغى للمؤمن أن يلغيها ، وأن يكون شعاره أن كل مؤمن مهما بعد أخ له ، وأن كل كافر مهما قرب عدو له ، والقرآن حافل بهذا المعنى فى طرفيه الإيمان والكفر فى أساليب متنوعة ، ومن آثار ذلك أنه لا ينبغى للمؤمن حتى أن يستغفر للكافر ولو كان أباه أو ابنه من باب قوله تعالى (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا

---

(١) ١٦١ سورة آل عمران .
(٢) ١٣ سورة الزمر .
(٣) ٧٤، ٧٥ سورة الاسراء .
(٤) ٤٦ سورة هود .
(٥) ١١٤ سورة التوبة .

أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) (١) .

ومن هنا كان لوم الله سبحانه لنبيه نوح الذى أراد أن يستغل وعد الله إياه أن ينجيه وأهله من الغرق بأن ينجى ابنه الكافر ولكن الله ينبهه إلى المبدأ فى علاقة المؤمن بغيره فى قوله تعالى (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) (٢) ، وقد استوعب أبو بكر الصديق هذا المعنى حيث كان أحد أبنائه مشركا يقاتل المسلمين يوم بدر ، فقال لأبيه ذات مرة بعد أن أسلم لقد كنت فى متناول سيفى يوم بدر فحدت عنك ، فقال له أبوه بحزم : ولكنك والله لو كنت فى متناول سيفى يومئذ ما حدت عنك .

وموسى عليه السلام يرتكب خطأ غير متعمد ، حين يكز أحد المصريين وكزة تقضى عليه دفاعا عن يهودى مستضعف ، وذلك قبل أن يبعث رسولا من الله ، ويعترف موسى بأنه أخطأ ، وأنه لو كان حينذاك نبيا ما كان ليفعل ذلك ، وهذا فى حواره مع فرعون الذى يصفه بالجحود وكفران نعم فرعون وفضله عليه فى تربيته إياه ، فيرد عليه موسى فيما يرد بأنه إنما فعل هذه الفعلة قبل أن يصبح نبيا ، وأن فرعون أفسد نعمه وفضله بإذلال اليهود الذين هم قوم موسى ، ومن ذلك قوله تعالىٰ من هذه المحاورة بين فرعون وموسى (. . . قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ، قال فعلتها إذا وأنا من الضالين . . .) (٣) ولكن موسى يحذر نفسه ويتوعدها قبل أن يحذره الله ويتوعده ، فيعترف بخطئه وبأنه لو عاود هذا الخطأ فسيكون نصيرا للمجرمين من قومه ، ونصير المجرم شريك له فى الجرم ، حيث يقول (فلن أكون ظهيرا للمجرمين) وهذا الموقف يرويه القرآن ضمن قصة موسى فى سورة القصص ، ومنها (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ، قال رب إنى ظلمت نفسى

---

(١) ١١٣ سورة التوبة . (٢) ٤٥، ٤٦ سورة هود

(٣) ١٨-٢٠ سورة الشعراء .

فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ، فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين ، فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين) (١) وواضح من القصة أن موسى عليه السلام هم بتكرار الخطأ رغم ظهوره له وعزمه على عدم تكراره ، إلا أنه حينما وجد اليهودى المستضعف مغلوبا على أمره كما حدث فى اليوم السابق لم يستطع مقاومة نزوعه الى نصرة اليهودى فهم بضرب المصرى وهو يعلم أن هذا سيؤدى غالبا إلى قتله كما حدث للمصرى الأول ، ولكن يبدو أن المصرى استغاث بقومه وأخبرهم بمافعله موسى فى اليوم السابق ، وحينئذ كان موسى قد مضى فى سبيله ناجيا بنفسه .

والذى يعنينا هنا من ذلك كله أن المقاييس عند الله ثابتة لا تتغير ، ولا تزيد ولا تنقص ، فالخطأ خطأ ، ولا يغير من وصفه أن يصدر من كافر ، وأن يصدر من نبى ، بل إن النبى حسابه عند الله أشد بمقدار منزلته عند الله ، وهذا من باب (حسنات الأبرار سيئات المقربين) بمعنى أنه كلما علت منزلة المرء كان حسابه أشد عند الله ، وكذلك عند الناس ، فمن أمثال العرب قولهم كذبة الأمير بلقاء مشهورة ، بمعنى أن الشخص العادى قد يكذب فلا يأبه الناس لكذبه ولا يتداولونه بالتشهير ، ولكن حينما تصدر كذبة من شخص بارز يكون الأمر بالعكس .

والله سبحانه بعدله المطلق لا يحابى ولا يجامل فى المقاييس والموازين ، بل يجعل عباده جميعا فى الحساب درجة واحدة ، وبمقياس واحد ، لا يباح لأحدهم أن يرتفع عن هذه الدرجة إلا بحرصه على إرضاء الله واتقاء غضبه من باب (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (٢) والأنبياء أكرم الناس عند الله لأنهم أطوعهم لله وأخوفهم منه ، فإذا صدر منهم خطأ كانوا كغيرهم فى الحكم على هذا الخطأ لذاته ، ولهذا ساق القرآن مواقف خطأ غير قليلة من بعض الأنبياء ابتداء من آدم الذى عصى ربه (٣) ومرورا بكثير من الأنبياء كما سبق ، بل إن بعضهم ناله

---

(١) ١٥-١٩ سورة القصص . (٢) ١٣ سورة الحجرات .

(٣) ١٢١ سورة طه (وعصى آدم ربه فغوى) .

شيء من عقاب الدنيا كيونس عليه السلام الذى أرسله الله إلى قومه ، فظل يدعوهم فلم يؤمنوا ، بل لعله ناله منهم من الأذى ما ينال كل الأنبياء ، حتى يئس من إيمانهم فرحل عنهم دون إذن من ربه ، وهو عبد لله ، وما كان لعبد ان يترك عملا كلفه إياه سيده دون إذنه ، فإذا تركه وانصرف دون اذن كان آبقا ، وهكذا حكم الله على عبده ورسوله يونس بأنه آبق ، وذهب يونس ليركب سفينة يجتاز بها إلى جهة بعيدة عن قومه ، وركب السفينة ، ولكنها وقفت فى عرض البحر لاتتحرك مع وجود العوامل التى من شأنها أن تسير كل السفن ، ويروى أنه كان من تقاليدهم أن أية سفينة فيها عبد آبق ، أو لعله أيضا فيها أى شخص مرتكب جريمة لاتتحرك حتى يخرج منها هذا الآبق أو نحوه ، فأجروا القرعة فخرجت على يونس ، والوضع المنتظر أنهم ما داموا فى عرض البحر والسفينة لاتتحرك إلى أمام ولا وراء فلا مخرج إلا إلقاء الآبق فى البحر فألقوا يونس أو ألقى هو بنفسه فور إحساسه بخطئه وبأن هذا من الله ، ولكن الله كان قد هيأ له حوتا ضخما عليه أن يبتلعه وأن يحافظ عليه سليما فى جوفه حتى يأذن الله له بالخروج ، فكانت هذه القصة (وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك المشحون ، فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ، فنبذناه بالعراء وهو سقيم . . .) (١) وإذا كان ما حدث ليونس عليه السلام من حرج فى ظهوره أمام الناس من ركاب السفينة مرتكبا جرما ، ثم ابتلاع الحوت وما يصاحب ذلك بالضرورة من ألم جسدى ، ثم بقاؤه بدون طعام أو شراب فى بطن الحوت حتى يخرج سقيما عليلا ، ثم نبذه فى عراء ، إذا كان هذا كله لونا من عقاب يمسه الله به ، فإن ما سيشعر به من ندم بعد ذلك سيكون أشد إيلاما له وذلك من جهتين :

١ – احداهما ندمه الشديد على خروجه على مقتضيات العبودية لله فضلا عن مقتضيات النبوة والرسالة ، وهى أن يكون كل سلوكه وعمله بأمر وإذن من الله ، ولكنه حين يئس منهم وأيقن أنهم هالكون خرج من بينهم دون اذن من الله .

٢ – والجهة الثانية أن يونس عليه السلام تبين أن قومه كانوا سيؤمنون بالله ، وأن

---

(١)١٢٩-١٤٠سورة الصافات .

هروبه هو الذى كان سيحكم عليهم بالكفر ، وذلك أن الله كلفه أن يعود إليهم ، ويعاود دعوتهم إلى الله ، فإذا هم جميعا يؤمنون ، وكانوا أكثر من مائة ألف كما يحدد القرآن (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ، فآمنوا فمتعناهم إلى حين) (١) فلا شك أنه سيندم ندما شديدا على هروبه من بينهم .

الأثر الدينى والإعلامى :

ورغم أن تطبيق المبادىء من الله على كافة عباده شىء عادى هو المتوقع من الله سبحانه إلا أن هذا له أكثر من أثر بالغ الأهمية حين يرد ذكره فى القرآن الذى جعله الله لسان الإسلام فى الدعوة إلى الله ، ومن أهم هذه الآثار الإعلامية التى يوجهها القرآن إلى كل من يدعوهم إلى الإسلام :

(١) أن الإله الذى يدعوهم إلى الإيمان به ليس إله المؤمنين فحسب ، ولا هو إله طائفة أو مذهب أو جماعة معينين كما يألفون فى آلهتهم التى يجعلونها عنصرية ، لكل قبيلة إله ، ولكل شعب معبود ، فكل إله راع وحام لعابديه والمؤمنين به فحسب ، يجاملهم ويتحيز لهم ، بل هو الله الواحد ، إله كل الكون بكل ما فيه ، وكل ما يصدر عنه للبشر عام لهم جميعا ، إذا أمر فهو أمر للجميع ، وإذا نهى فهو نهى للجميع ، لايشذ عن ذلك حتى أقرب المقربين إليه وهم الأنبياء ، لأنه هو العدل المطلق .

وهذا من شأنه أن يلفت نظر سامعى القرآن إلى أن الله الذى يدعوهم إليه القرآن ليس ككل ما يعرفون ، ويكفى أن يدفعهم هذا إلى التفكير فى الله والدين ، فإن مجرد استخدام العقل دون هوى أو معوقات لابد أن يؤدى إلى الإيمان بالله .

(٢) أن الذى يخاطبهم بالقرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم يقول لهم إن هذا القرآن ليس من كلامه هو كما يزعمون ، بل هو كلام الله ، وهذا التحذير الشديد الذى يتضمنه القرآن موجها إلى محمد صلى الله عليه وسلم تأكيد لقول محمد إنه من كلام الله ، فلو كان من كلامه

---

(١) ١٤٧-١٤٨ سورة الصافات .

هو فلا يعقل أن يوجه إلى نفسه هذا التحذير الذى يتضمن وعيدا افتراضيا شديدا لا يقبله إنسان عادى قط على نفسه ، كقوله تعالى عن القرآن ، وعن أن محمدا لو افترى شيئا منه ونسبه إلى الله لصب الله عليه عذابا شديدا لا يستطيع أحد أن يحميه منه (. . . تنزيل من رب العالمين ، ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين) (١) وكقوله تعالى عن الحرب النفسية الشعواء التى يحاصر بها المشركون رسول الله من كل وجه ، خصوصا فيما يتعلق بالقرآن الذى زلزل كيانهم ، فأخذوا ينهالون عليه من كل ناحية بأوصاف شتى من كونه شعرا أو سحرا أو كهانة أو هذيان جنون أو أنه أساطير الأولين أو غير ذلك ، ولولا أن رسول الله كان جبلا راسخا صامدا لانهار تحت هذه الحرب النفسية المهولة ، فإن من أمثال العامة أنه إذا قال لك اثنان إنك بدون عقل فصدق ، ومن باب أولى بالضرورة إذا قالا لك ووصفاك بما هو دون الجنون ، فإن الجنون أقصى ما يسب به الانسان لأنه إلغاء لكل كيانه الحقيقى ، فكيف إذا وجد الرسول أمة من الناس تكاد تتفق صراحة أو ضمنا فى اتهامه بهذه الصفات ؟ وأعنى بالضمنى أن بعضهم يصرح باتهامه والباقون يقرون ذلك ولا ينكرونه فكأنهم من المصرحين بالاتهام ، والأدهى فى ذلك أن الذين يصرحون باتهامه ليسوا فى نظر الناس جهلاء أو سذجا لايعنون ما يقولون ، وإنما هم سادة المجتمع وذوو العقول والحكمة فيه . فما كان لبشر عادى أن يثبت أمام هذه الحرب النفسية العاتية ، خصوصا وأنها مجرد لون من ألوان الحرب الموجهة إليه وإلى الذين اتبعوه اضافة إلى حروب أخرى كالحرب الاقتصادية ، وحرب المضايقات والإيذاء البدنى واللسانى وغير ذلك ، ولعل من آثار هذا ما يسجله القرآن من أن نفسية الرسول بوصفه بشرا قد يراودها اللين قليلا أمام عتو هذه الحرب ، كما يقول تعالى (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ، إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا) (٢) فهذه خواطر نفسية فى داخل نفس الرسول لايمكن أن يطلع عليها أحد غير الله ، خصوصا وأنها ليست من الخواطر أو الانفعالات

(١)٤٢-٤٧ سورة الحاقة .

(٢)٧٢-٧٥ سورة الإسراء .

التى تحدث آثارا فى الجسد والملامح ، كالخوف أو الذهول وانما هى خواطر يغلب أن تكون مصحوبة بالتفكير أكثر منها مصحوبة بالمشاعر والانفعالات ، واذن فهى خواطر داخلية بحتة لايطلع عليها ولا يعرفها إلا الله ، وهى خواطر تسىء إلى صاحبها أكثر مما تحسن إليه لأنها مهما صغرت فهى من قبيل الضعف أمام واقع الحياة ، فلو أن القرآن كان من كلام النبى كما يزعمون ما استخرج النبى هذه الخواطر قط من نفسه ولا جعلها حديثا يتلى أمام كل الناس ، لأنها أقرب إلى التنقيص من قوته وقدرته منها إلى الاعتزاز والفخر بها ، وكذلك هذا الوعيد المصاحب لها لو كان القرآن من كلام النبى ما كان ليتوعد به نفسه ولو افتراضا .

والنتيجة البالغة الأهمية من نتائج سرد القرآن لمثل هذا أن أعداءه حينما يسمعون ذلك لابد أن تستبعد عقولهم أن يكون هذا القرآن من كلام محمد ، لأنهم ينظرون إليه على أنه بشر عادى ، والبشر العادى لايفعل ذلك ضد نفسه ، بل المألوف عندهم أن الحياة تقوم على التنافس فى الفخر بما هو موجود ، وبادعاء ما ليس موجودا ، لكن أن يذكر المرء ما ينبىء عن أى شىء من الضعف ينسبه إلى نفسه ، خصوصا وأن هذا من خواطره التى لايطلع عليها أحد فهذا غير مألوف فى طبيعة البشر .

وهذا المعنى لابد أن يراود كل سامع لهذا الحديث ونحوه فى القرآن بصرف النظر عن تصديقه أو تكذيبه للقرآن ، ولابد أن يفكر السامع فى تعليل لكيفية صدور هذا ونحوه من محمد ضد نفسه ، وكما تكرر القول فإن هدف القرآن فيما يتعلق بالعقيدة هو تحريك العقول لمجرد التفكير الدينى المحايد ، لليقين بأن العقل العادى حينما يفكر فلابد ان تتكشف له الحقيقة وهى وحدانية الله فى الكون ، وهذا لذاته هو كل هدف الأديان السماوية جميعا ، وهو وضوح حجة الله على عباده ، فما دامت الحقيقة قد وضحت لهم فيستوى أن يؤمنوا أو يكفروا لأن الله سبحانه ليست له مصلحة فى كليهما ، وهذا المعنى يتكرر فى القرآن كثيرا بأساليب متعددة كقوله تعالى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) (١) .

---

(١) ٢٩ سورة الكهف .

وعيد عامة المؤمنين :

وإذا كان ما سبق هو تحذير أو وعيد مفترض للخاصة أوخاصة الخاصة من المؤمنين ، فإن هناك أيضا وعيدا مفترضا أو تحذيرا كثيرا متعددا لعامة المؤمنين ، بعضه يتعلق بالعقيدة ، وبعضه يتعلق بالسلوك العملى ، وبعضه يتعلق بالخلق والصفات .

فما يتعلق بالعقيدة تحذير المؤمنين من أن يرتدوا عن دينهم إلى الكفر بعد إذ هداهم الله، وتوعد الله إياهم إن فعلوا ذلك أن يزيل الله وجودهم ليحل محلهم قوم يؤمنون بالله ولايرتدون عن دينهم ، بل تكون قلوبهم مليئة بحب الله والحرص على كل ما يرضيه ، فى قوله تعالى (يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولايخافون لومة لائم . . .).(١) ويترك الله إزالتهم مبهمة ليفهموا منها ما يشاءون فى ضوء موقفهم من الدين ، هل هى إزالة من الدنيا بالهلاك كما فعل الله بغيرهم ممن أهلكهم ، أم هى إزالة من عداد المؤمنين بحيث لايقبل رجوعهم إلى الدين بعد ذلك ، أم غير هذا وذاك ، ويكفى فى كل حال أنه وعيد من الله .

كما أننا نجد بعض أنواع العذاب التى توعد الله بها أعداءه ماثلة فى وعيده للمؤمنين إن فعلوا مايستوجب هذا العقاب .

فمن الوعيد بالعذاب الأليم قوله تعالى فى سياق خطابه للمؤمنين خلال قصة الإفك التى قذف بعض المؤمنين فيها عائشة رضى الله عنها بالفاحشة (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون) (٢) فكل من يحب شيوع الفاحشة بين المؤمنين له هذا العذاب الأليم ، سواء أكان من الكافرين أم من المؤمنين ، ولكن المهم أن المؤمنين داخلون فى الوعيد .

ومن الوعيد بعذاب الخسران تحذير المؤمنين من أن تلهيهم زخارف الدنيا ومتعها

---

(١) ٥٤ سورة المائدة .

(٢) ١٩ سورة النور .

ومغرياتها عن دينهم فيغفلوا عما أوجبه الله عليهم ، كقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) (١) .

ولكننا نلحظ أن تحذير المؤمنين يخلو من الوعيد بالهوان والإذلال الذى توعد الله به نوعا من أعدائه كما سبق ، والذى هو أشد ألوان العذاب ، وذلك لأن عذاب الإيلام أوالخسران لايخل بكرامة المرء إخلالا كاملا ، وقد نرى كثيرا من سادة الشعوب وقادتها يتعرضون للعذاب الجسدى ومع ذلك تظل نظرة الناس لهم مقرونة بالتقدير والإكبار ، كما أن الخسران فى أى شيء من اعراض الدنيا لاينزل كثيرا بقدر المرء ما لم يمس مروءته وعرضه ، أما الإهانة والإذلال فإنها تذهب كل ما يحرص كرام الناس عليه فى قدرهم ومنزلتهم بين الناس ، ولذلك قد يعاقب المرء ابنه عقابا بدنيا مؤلما ، وقد يسلبه بعض ما منحه إياه ، ولكنه لا يفكر فى إذلاله وإهانته .

والمؤمنون هم أحباء الله وأعزاؤه ، فهو يتوعدهم بالعذاب الأليم أو بالخسران إن خالفوه ، ولكنه لايتوعدهم بالهوان والإذلال طالما بقيت لهم صفة الإيمان .

والقرآن يحذر المؤمنين ويتوعدهم فى كثير من صور الإخلال بطاعة الله فى السلوك ، وأخطر ما يحذرهم منه ويتوعدهم إن وقعوا فيه هو ممالأة أعداء الله واتخاذهم أولياء لهم أو ملجأ يلجأون إليه أو يحتمون به ، بل يجب أن يقتصر ولاؤهم على المؤمنين ، كقوله تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) (٢) والولاية لاتعنى الصلة أو المودة ، فإن الله لاينهى عن الصلة أو المودة للذين يسالمون المسلمين من أعداء الله كقوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) (٣) ولكن الولاية فى العرف العربى هى معاهدة الولاء التى تعقد بين طرفين ، وتكون فى أغلب أحوالها فى

---

(١) ٩ سورة المنافقون .
(٢) ١٤٤ سورة النساء .
(٣) ٨ سورة الممتحنة .

صورتين ، أحداهما صورة العبد الذى يتحرر من الرق فيصبح مولى للذى كان يملكه ، وكان العبيد يحرصون على هذا الولاء ، لأن العبد فى حال العبودية يكون فى حماية سيده ، فإذا أعتق وتحرر فإنه يحرص على أن يظل سيده حاميا له فيكون بينهما هذا الولاء ، والصورة الأخرى للولاء هو دخول جماعة أو شخصية ضعيفة فى جوار أو ولاء مع قبيلة قوية أو شخص قوى ، بحيث يعلن القوى أن هذا الشخص أو هذه الجماعة فى جواره أو ولائه أى فى حمايته .

فالولاء المصرح به هو ما لا يتجاوز حسن الخلق فى الصلة بكل الناس ولو كانوا كافرين إلا أن يكونوا أعداء ، لان حسن الخلق فضيلة يحض عليها الإسلام مع كل الناس ، من باب قوله تعالى (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ..) (١) أما المنهى عنه فى الصلة بغير المؤمنين فهو ما يتجاوز حسن الخلق إلى الصلة الخاصة ، وأسوأ ما فى هذه الصلة أن تبلغ درجة التناصر ، بحيث ينصر المؤمن أعداء الله ، أو يطلب منهم أن ينصروه ، فإن التناصر يجب أن يكون مقصورا على المؤمنين فيما بينهم ، ينصر بعضهم بعضا ، وهذا من مدلول قوله تعالى فى الآية السابقة (لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين)(٢) أى أن تناصركم يجب أن يكون مع المؤمنين وليس الكافرين ، أما التناصر مع غير المسلمين فكأنه يخرج صاحبه من زمرة المسلمين كما يقول تعالى (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين) (٣) .

ومن الواضح أن الذى يجعل تناصره معهم فهو الذى جعل نفسه منهم قبل أن يحكم الله عليه بذلك ، لأن التناصر بما يترتب عليه من تضحيات من الطرفين هو أقصى مايتصور من وثوق الصلة العملية بصرف النظر عن علاقة العواطف والمشاعر .

وقد يصدر من بعض المؤمنين ، أو الذين يعدون أنفسهم بين المؤمنين ما لا يليق بالمؤمنين ولايتفق مع عقيدتهم ، فيحذرهم الله ويتوعدهم بالمقت الشديد من الله ، كقوله تعالى (يأيها

---

(١) ١٣ سورة الحجرات .
(٢) ١٤٤ سورة النساء
(٣) ٥١ سورة المائدة .

الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) (١) ويروى أنها نزلت فى نحو من الذين يفخرون بالشجاعة ويباهون بالاستعداد للتضحية فى القتال فإذا جاءت الحرب خالفت أفعالهم أقوالهم ، ولكن القاعدة المتفق عليها فيما يتعلق بأحكام القرآن أنه لاعبرة لخصوص السبب ، وإنما العبرة بعموم الحكم ، فكل مخالفة بين القول والفعل بغيضة أشد البغض إلى الله ، لأن هذه المخالفة هى صورة النفاق الذى يخالف فيه المنافق بين قوله وفعله ، وبين ظاهره وواقعه ، ومن المعروف أن النفاق نوعان ، نفاق فى السلوك والعمل ، وهذا مع قبحه الشديد فى الدين ، وبغضه الشديد إلى الله لا ينافى الإيمان ، فقد يكون المرء مؤمنا ويصدر منه بعض ذلك فى سلوكه ، والنوع الثانى نفاق العقيدة ، وهو إخفاء الكفر بوصفه هو واقع المرء وحقيقته ، واظهار الاسلام مخادعة للمسلمين ، وهوأسوأ صور الكفر وأبغضها إلى الله ، وفى الحديث النبوى (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا أوتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر) (٢) ، والنفاق الخاص هو نفاق العقيدة .

ومن تحذير السلوك التحذير الشديد من الربا ، حيث يتوعد الله من يزاول الربا بصورة رهيبة هى إعلان لحرب من الله ورسوله عليه ، وهى حرب غير محددة فى الوعيد ، وإنما يحددها الله فى التنفيذ والتطبيق حسب كل حالة من حالات الربا ، فيقول تعالى (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله . . .) (٣) وينبغى أن نلحظ أن أخطر ما فى التعبير هو ربط هذا السلوك بالإيمان وعدمه ، بمعنى أن الربا لايتفق مع الإيمان الحقيقى (إن كنتم مؤمنين) بل إن التعبير بلفظ (إن) الذى يفيد الشك فى حدوث الفعل يعنى أن الربا لايتفق حتى مع أضعف الإيمان فضلا عن أقواه .

---

(١) ٢،٣سورة الصف .

(٢) رواه البخارى .

(٣)٢٧٨-٢٧٩سورة البقرة .

ومن السلوك الذى لا يتفق مع الإيمان ولكن أصحابه يعدون أنفسهم بين المؤمنين ، وقد يحملون نفاقا لايصل إلى درجة نفاق العقيدة ، فيظل إيمانهم واهيا ضعيفا يمكن أن يهوى إلى قاع النفاق ، وهو نفاق العقيدة ، فيخاطبهم الله بوصفهم الاجتماعى ، أى بوصفهم معدودين بين المؤمنين، أو هم فى الدرجة الدنيا من الإيمان ، وهم الذين يبيحون لأنفسهم أن يمكروا فيما بينهم مكرا سيئا يضر بالمسلمين أو ببعضهم ، وفى هذا عصيان لله ، وعصيان وإيذاء للرسول نفسه ، وهذا لا ينبغى أن يكون من عمل المؤمنين ، لأنه من عمل الشيطان ، فيقول تعالى (يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون ، إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا باذن الله) (١) .

وهذا الحديث لايتضمن أوامر الله إلى المؤمنين فإنها كثيرة مستفيضة تشمل كل حياة الناس ، من العقيدة حتى آداب السلوك ، فالقرآن يعلم الناس آداب حياتهم وصلاتهم كرد تحية السلام ، وإفساح بعضهم لبعض فى المجلس ، واستئذانهم عند دخول بعضهم على بعض ، بل حتى الاعتدال والقصد فى المشى وفى درجة الصوت وغير ذلك .

ولكن الذى يعنى هذا الحديث هو مايتضمن وعيدا صريحا أو ضمنيا من الله ، وفيماسبق بعض أمثلة ونماذج منه ، وهذا يحقق أهدافا عديدة ، منها تقويم المسلمين وإصلاحهم ، ومنها إعلاء عدل الله سبحانه حيث يسوى فى الحساب بين كل عباده فلا يميز المسلمين إذا أخطأوا عن غيرهم ، وغير ذلك .

---

(١) ٩،١٠سورة المجادلة .

من أساليب الوعيد

(ولو ترى)

وهناك ألفاظ تقترن عادة بالوعيد ، وأبرزها تعبير (ولو ترى) فإنه يأتى فى مقام التهويل وإبراز البشاعة ضمنا وليس صراحة ، ومع ذلك فإن التضمين يراد به زيادة التهويل بأكثر مما يدل عليه التصريح .

وذلك أن لفظ (لو) من أدوات الشرط التى لها فعل شرط وجواب شرط ، تقول لو زرتنى أكرمتك ، فالزيارة فعل الشرط والاكرام جوابه ، وتقول لو نزل المطر نبت العشب ، فنزول المطر هو فعل الشرط والإنبات جوابه .

وحين يصرح بجواب الشرط أيا كان فهو معروف والنفس تستطيع أن تستوعب صورته ولو تخيلا محددا .

ولكن أحيانا يراد حذف جواب الشرط فيقترن لفظ (ترى) بلفظ (لو) فتصبح (لو ترى) ويبقى الشرط وملابساته ليدل على الجواب ، فيكون التعبير حينئذ دالا على التهويل وتكبير المشهد ، ومعنى ذلك أن هذا الأسلوب لا يكون إلا لأعداء الله .

والقرآن يصور مشاهد للوعيد يحذف فيها جواب لو ليترك للخيال فيها مجالا فسيحا يتخيل فيه ما يشاء فى ضوء ملابسات الشرط المذكورة .

فيصور القرآن مشاهد لأعداء الله لتكون تحذيرا ووعيداً لهم ، ولتكون عبرة وتأملا لغيرهم .

ومن هذه المشاهد ما يبدأ منذ أول لحظة فى قدومهم على الآخرة أو آخر لحظة فى حياتهم الدنيا ، وهو مشهد خروج الروح ، حيث يصور المشهد أعداء الله وقد دخلوا فى سكرات الموت ، وغمرتهم أهواله ، وملائكة الموت لا ينتزعون أرواحهم مرة واحدة ، وإنما يتركون الأجساد تطرد هذه الأرواح وكأنها تتبرأ منها ، وكأن أعداء الله هم الذين يخرجون أرواحهم ،

فيكون هذا أشد إيلاما لهم كما نتصور إنسان يضطر إلى إجراء جراحة لنفسه فإن الألم حينئذ يكون أشد مما لو أجراها له غيره ، والملائكة يطلبون منهم هذا قائلين لهم (أخرجوا أنفسكم) وفى المشهد أن عذاب الإهانة والإذلال يكون معدا بحيث ينالهم فور خروج أرواحهم ، ولو بمشاهدتهم هذا العذاب منتظرين أن يحين دخولهم فيه ، وفى الأمثال الشائعة قولهم وقوع البلاء أيسر من انتظاره ، بمعنى أن حلول المصيبة أيسر احتمالا من انتظار حلولها ، وهذا المشهد فى قوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ، ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ...) (١) ومن الواضح أن هؤلاء من سادة القوم ذوى الأتباع والأنصار ، وأصحاب الثراء والجاه ، وهذا يدل الكثير من التعبير مثل (تستكبرون) فإن الكبرياء لا تصدر عادة من عامة الناس ، وإنما من خاصتهم ، وكذلك (جئتمونا فرادى ..) حيث يتضمن هذا أنكم تركتم أتباعكم وأعوانكم فى الدنيا وجئتم يوم القيامة فرادى كما ولدتكم أمهاتكم ، وكذلك (تركتم ما خولناكم ...) بمعنى تركتم فى الدنيا ما كان لديكم من نعم الله فى الجاه والمال والبنين وغير ذلك ، وكذلك (وما نرى معكم شفعاءكم ...) أى تركتم الذين كنتم تظنون أنهم آلهة ينفعونكم أو يشفعون لكم .

فكل هذا تأنيب وتقريع وتهكم بهم ليكون عذابا نفسيا يضاف إلى عذابهم البدنى ، ولكن تركيز الوصف وبيان حالهم يومئذ كان فى حذف جواب لو من (ولو ترى ...) فالمعنى لو ترى حالهم يومئذ لرأيت شيئا فظيعا أو شيئا مهولا أو شيئا لا توصف بشاعته أو لرأيت أبشع ما يمكن أن يتصوره الخيال من سوء حالهم وهوانهم أو نحو ذلك من كل ما تستطيع النفوس أن تتخيله وتتصوره ، فالتعبير لا يهدف إلى تحديد صورة معينة لسوء حالهم حينئذ ، وإنما يهدف إلى نحوما يصفه علماء البلاغة بقولهم لتذهب فيه النفس كل مذهب ، أى لتتصور أو تتخيل كما تشاء .

---

(١)٩٣،٩٤سورة الأنعام .

وهذا مشهد آخر لأعداء الله حين يتوفاهم الملائكة فينهالون عليهم بنوعين من العذاب ، وليس نوعا واحدا ، أحدهما لا يقصد به الإيلام البدنى ، وإنما تقصد به الإهانة والإذلال ، وهو صفعهم على وجوههم ، وضربهم على أدبارهم ، والعذاب الآخر هو العذاب الأليم جسديا ، وذلك فى قوله تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) (١) أى يقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق ، وحقه أن يقال اصطلوا هذا العذاب أو ادخلوا فيه ، ولكن التعبير بالذوق (ذوقوا) هو من باب السخرية بهم ، لأن الذوق والتذوق هو اختبار طعم الشيء باللسان أو بطرفه ، وعذاب جهنم لا يذاق باللسان ولا يختبر طعمه ، لأنه معروف ، وهو يحرق حرقا ويشوى شيا .

ولكن حذف جواب لو فى (ولو ترى) يقتضى تضخيم المشهد وتهويله ، حيث يكون المعنى لو ترى هذا المشهد لرأيت مشهداً فظيعا تتخيل فيه أبشع ما تتصور من حالهم يومئذ .

وإذا كان فيما سبق تصوير لمشاهد خروج أرواحهم ، وتصوير ما يعقب ذلك ، فهذا مشهد يصور بعثهم من القبور ، حيث يخرجون من قبورهم مسرعين متزاحمين أذلاء منكسرين كما يصورهم القرآن (... يوم يدع الداع إلى شيء نكر ، خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) (٢) .

ولكن حذف جواب لو يأتى فى صورة أخرى لهذا المشهد نفسه ، حيث تصور الصورة مشهدهم حين يفزعون من قبورهم بالبعث ولكنهم يفاجأون بأنهم مأخوذون من كل وجه بقبضة قوية بالغة القوة والشدة لا يجدون منها منجى ولا مهربا (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب) (٣)

وحذف جواب لو يضخم المشهد ويكسبه هولا غير محدود رغم أنالصورة لا تتضمن حديثا مباشرا عن العذاب أو الإيلام ، ولكن حذف الجواب يوحى بما يعوض ذلك ، بل بما هو أشد منه

---

(١) ٥٠ سورة الأنفال . (٢)٦-٨ سورة القمر .

(٣) ٥١ سورة سبأ .

، حيث يكون المعنى لو رأيت حالهم حينئذ لرأيت مشهدا مهولا وحالا غير موصوفة فى شدة ما يحيط بها وما تعانيه نفوسهم ، وفظاعة ما يحيط بها .

وفى مشهد آخر تنتقل الصورة إلى مشهد الحساب والمساءلة أمام الله ، وهو مشهد رهيب لأعداء الله ، حيث يشعرون بكل مشاعر الصغار والندم والتهيب والخوف وكل ما من شأنه أن يملأهم حسرة على ما ضيعوه فى حياتهم الدنيا من فرصة الإيمان وإرضاء الله ، وعلى أنهم ورطوا أنفسهم فى التكذيب بدين الله ورسوله ، ولفظاعة هذا المشهد على أعداء الله يكرره القرآن مبرزا السبب الذى وضعهم فى هذا الوضع الرهيب وهو تكذيبهم بدين الله وإنكارهم البعث ، ففى القرآن (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا إلى ما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ، وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمعوثين ، ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى) (١)

فحذف الجواب فى (ولو ترى إذ وقفوا على النار ...) وفى (ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ..) لتهويل المشهد وتضخيم آثاره وكلاهما مرتبط بالآخر ، فمشهد وقفهم على النار يجسد ندمهم البالغ الشدة والإيلام على أنهم كانوا يكذبون بما يرونه الآن ماثلا أمام أعينهم ، بل بما يعذبون به اليوم عذابا لا يوصف ، ومشهد وقفهم على ربهم يجسد إحساسهم بالخزى والهوان عند ربهم وهو يسجل عليهم اعترافهم بما كسبت أيديهم .

ولكن حذف الجواب فيهما يصور كأن المشهدين لا يوصفان لفظاعة ما فيهما من هول وآثار ، وكأنه قيل لو رأيت أعداء الله فى المشهدين لرأيت هولا شنيعا وحالا لا توصف .

وفى مشهد آخر نرى صورة أعداء الله وهم غارقون فى الذل والندم ، حتى إنهم لا يستطيعون رفع رءوسهم من الشعور بالذل والهوان ، يضرعون إلى الله أن يعيدهم إلى الدنيا ليضعوا أنفسهم فى الوضع الصحيح الصالح بدل الوضع الخاطئ الذى أودى بهم ووصلهم إلى

---

(١) الآية ٣٠ سورة الأنعام .

هـذا المصيـر ، ولكنهـا ضراعة جاءت فى غير أوانها ، حيث كان أوانها فى الدنيا وليس الآخرة (ولـو تـرى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) (١)

فحذف جواب لو يضخم مشهد الذل والهوان والندم الرهيب الذى يسيطر عليهم ، وكأنه قيل لو رأيت حالهم حينئذ وهذه العوامل تصطرع فى نفوسهم لرأيت شيئا شنيعا ومشهدا رهيبا لا يوصف .

وفى مشهد آخر سبق الحديث عنه حيث تدور معركة حامية بين الأتباع وسادتهم الذين كانوا سببا فى كفرهم ، حيث يتبادلون الاتهام ، ويتقاذفون بالشتائم ، يقول الأتباع للسادة أنتم الذين صددتمونا عن دين الله ولولاكم لكنا مؤمنين فعليكم اليوم وزر كفرنا ، ولكن السادة يسفهونهم مؤكدين لهم أنهم كانوا يعرفون الحق ، وكانوا يستطيعون أن يخرجوا من طاعتهم ويؤمنوا ولكنهم آثروا الضلال وارتكبوا جريمة الكفر مختارين ، فيرد عليهم الأتباع مذكرين إياهم بما كانوا يدبرونه من كيد ومكر بالدين وبما كانوا يأمرونهم به من كفر بهذا الدين ، وهكذا فى معركة حامية صاخبة يصور القرآن بأسلوب إيجازه أهم عناصرها فى قوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) (٢)

ومن الواضح كما سبق أن أهم ما يهدف إليه مثل هذا التصوير هو تنبيه الأتباع وهم أكثرية الناس لأنهم يمثلون العامة إلى سوء انقيادهم الأعمى وراء ضلال سادتهم وقادتهم ، ولفت أنظارهم إلى أن لديهم اليوم الفرصة ليفكروا فى مصلحتهم ومسئوليتهم أمام الله قبل أن

---

(١) ١٢ سورة السجدة .

(٢)٣١-٣٣سورة سبأ .

يفوت الأوان بالموت ويجدوا أنفسهم فى هذا المشهد الذى يصوره القرآن كثيرا فى أوضاع مختلفة .

ولكن الذى يعنينا هنا هو حذف جواب لو فى (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ...) فإن التقدير لو رأيت هذا المشهد بما يحفل به من خزى الكافرين جميعا أمام الله ، ومن ندمهم الشديد على ما ارتكبوه فى حق أنفسهم من جريمة الكفر ، وبما يحفل به هذا المشهد من صراع بين السادة والأتباع ، وبما يحفل به من إذلال لهؤلاء المتكبرين حيث توضع فى أعناقهم الأغلال ، وبما يحفل به المشهد من كل ما يحويه ، لو رأيت ذلك لرأيت شيئا شنيعا لك أن تتخيل أو تتصور فيه كل ما يمكن أن يخطر ببالك مما يستدعيه هذا السياق .

نافذة الوعيد

(العين)

العين هى العضو الذى يعد نافذة حقيقية على نفسية الإنسان بكل ما فيها من مشاعر وانفعالات ، فكل انفعال لابد أن يظهر أثره فى العين بالذات ، وقد يحاول الإنسان إخفاء مشاعره وانفعالاته بحيث لا تظهر على جسده أو وجهه ، وكثيرا ما ينجح فى هذا من أوتى فى تكوينه مقدرة على إخفاء انفعالاته أو بمعنى أصح على التحكم فى أعضائه بحيث لا تظهر عليها الانفعالات والمشاعر إلا عضوا واحدا يصعب إن لم يستحل التحكم فيه تحكما يخفى المشاعر والانفعالات وهو العين ، ولعله لم يكن عفوا أو مصادفة ما يشيع بين عامة الناس حين يريد أحدهم أن يعرف مدى أو نوع مشاعر شخص أن يقوله له (عينك فى عينى) أى انظر نحوى أو اجعل عينك تلاقى عينى ، ويعنى من ذلك أنه سيعرف فى عينيه نوع انفعاله بالأمر الذى يدور فيه الحديث بينهما .

ومما يلفت النظر بوضوح أن القرآن جعل العين مرآة تظهر فيها كل انفعالات الإنسان بحيث لا تكاد تشذ حالة منها عن ذلك سواء أكان الأسلوب حقيقيا أم مجازيا، ومن ذلك :

١ - الفـــزع والخــــوف :

والفزع يستعمل عادة فى الخوف الشديد المفاجئ ، فحينما يفاجأ المرء بمصدر مفاجئ لخوف شديد فلابد أن يضطرب ، وأن يسيطر عليه انفعال شديد مفاجئ ، وأول ما يبدو أثر الفزع يبدو فى العينين ، وقد يظهر أثره فى الجسد كله وخصوصا الوجه ، وبعض الناس قد يملك من قوة التحكم فى انفعاله أن يتحكم فى جسده أو وجهه فلا يظهر فيهما أثر الفزع بوضوح ، ولكن عينيه يصعب عليه التحكم فيهما ، ولابد أن يظهر فيهما أثر الفزع ، وأثر الفزع فيهما يكون عادة بجحوظ العين بحيث يكون هذا من أثر المفاجأة كما هو مشاهد .

والقرآن يصور أثر الخوف المفاجئ وهو الفزع فى صور كثيرة كلها تقترن بالعين ، سواء أكان ذلك فى مشاهد الدنيا أم مشاهد الآخرة .

فمن مشاهد الدنيا أثر موقف الأحزاب فى نفوس المؤمنين ، حيث تجمعت كل قوى الكفر والنفاق والشرك لتهاجم المسلمين فى المدينة بقصد القضاء على الإسلام من جذوره قضاء كاملا ، وأحس المسلمون بهذا الخطر المفاجئ ، ولو خاف كل منهم على حياته حينئذ فلن يكون ملوما ، ولكن خوفهم الأشد لم يكن على حياتهم فما أكثر ما تنافسوا فى تقديمها فى سبيل الله ، وإنما كان خوفهم الأشد على الإسلام نفسه وعلى مصباح الإسلام رسول الله ، فقد وضح فى غير ليس يومئذ أنه لو نجح أعداء الله فلن يبقى للإسلام كيان ولا جذور ، ولم يكن لديهم أى أمل فى المقدرة على مقاومة كل هذه القوى ، فتعلق أملهم بالله سبحانه فى أن يحدث لهم معجزة تنجى الإسلام من الفناء ، خصوصا وأن الله وعدهم وعدا مكررا أن ينصر دينه وينصرهم ، ولكنهم انتظروا هذا النصر فلم يأت ، وبدأ أعداء الله يتحركون للقتال ، وبدأت المناوشات التى تسبق القتال فعلا ، كالمبارزة التى ألح عمرو بن عبدود المشرك فى طلبها ، حين أخذ يختال بين الفريقين مباهيا بقوته وبأنه الفارس الأوحد الذى لا يجرؤ أحد على مبارزته أو مقاومته ، وأخذ ينادى على المسلمين هل من مبارز ؟ فلا يجرؤ أحد على الخروج له ، وأخيرا جازف الغلام على بن أبى طالب الذى لم يكن جاوز العشرين بكثير فخرج له وانتهى الصراع الرهيب بمقتل عمرو بن عبدود ، ولكن هذا زاد الموقف توترا ، وأشعل حماس أعداء الله للقتال ، هنالك اجتاح الخوف والفزع نفوس عامة المسلمين قبل أن تحدث معجزة الله ، والقرآن يصور أثر الخوف والفزع فى هذا التعبير (يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا ، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ، وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ....) [1]

فالقرآن يحدد فى إيجاز مصادر الخوف الشديد الذى اجتاح عامة المسلمين وأبرزها (إذ

---

(١) ٩ - ١٣ سورة الأحزاب وانظر القصة فى سيرة ابن هشام ص ١١٣ الجزء الثالث من المجلد الثانى طبعة المكتبة التوفيقية بمصر

جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم) وكذلك عدم تحقق وعد الله وقد بلغ الخطر أشده (وتظنون بالله الظنونا) وكذلك ما يشيعه ويردده المنافقون حينئذ بأن وعد الله للمسلمين كان خيالا ووهما من المسلمين ، وعدم تحققه وقد بلغت الأزمة قمتها يؤيد فى الظاهر إشاعة المنافقين حيث يقولون (ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) أى وهماً ، وكذلك من هذه العوامل الحرب النفسية التى تصب على المسلمين حيث يقولون لأهل يثرب (المدينة) انجوا بأنفسكم من الخطر وانصرفوا من مواقع القتال ، وكل هذه العوامل تنبئ عن وصول الخوف والإحساس بالخطر ذروته فى نفوس عامة المسلمين .

والذى يعنينا هنا إبراز القرآن آثار خوفهم وفزعهم من خلال أعينهم فى تعبير (وإذ زاغت الأبصار) بمعنى سيطرت على العيون حالة عدم استقرار وعدم تركيز وثبات ، كحالة العين وهى جاحظة ، فهى مفتوحه ، ولكنها فى حالة غير عادية من آثار سيطرة الخوف والفزع على الشخص وكان هذا ابتلاء وهو نوع من الوعيد .

والقرآن يكتفى بوصف العين عن الإفاضة فى وصف الانفعال الذى نبعت منه حركة العين ، فمهما كانت الإفاضة فى الوصف فلن تبرز المعنى كما تبرزه حركة العين بصورة محسوسة مرئية ، ومن أمثلة ذلك وصف آثار الخوف الذى يعترى المنافقين حينما يجدون أنفسهم مطالبين بالقتال ، والمنافقون يظهرون الإسلام ، وقد يبالغون فى التمسك بشعائره أمام المسلمين لخداعهم ولكنهم فى داخل نفوسهم غير مؤمنين ، والنفاق ينبع أساس من الضعف عن مواجهة الواقع ، ولو كانوا أقوياء نفسيا لأظهروا حقيقتهم كما أظهرها المشركون ولكن ضعفهم عن مواجهة الواقع وهو قوة المسلمين جعلهم يلجأون إلى النفاق ، فالمنافقون أصلا أقرب إلى الخوف من غيرهم بحكم ضعفهم ، فإذا أمر الرسول بالتهيؤ لقتال ومواجهة أعداء سيطر الخوف والرعب من الموت على نفوس المنافقين الذين ليست لهم مصلحة فى القتال ، وليس فى نفوسهم أى دافع إليه كدافع الجهاد فى سبيله لله لدى المسلمين .

والقرآن لا يصف الخوف نفسه فى قلوبهم وإنما يصف أثره فى عيونهم ونظراتهم لأن هذا مشهد محسوس مرئى ، فالنظرة إليه تنبئ عن كل ما تعانيه نفسية الخائفين فى قوله تعالى

(.... فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ...) (١) فالذى يواجه الموت يرى هو دون كل من حوله أهوال الموت ، وقد يكون جسده كله حينئذ ساكنا حيث تكون الحيوية قد سلبت منه وليست فيه أية قدرة على الحركة أو الانفعال إلا عيناه تظلان هما النافذة المطلة على نفسيته وما تعانيه من رعب الموت .

والمنافقون حينما يسمعون أمر الرسول بالقتال وهو أمر لا مفر من تنفيذه تقفز فى خيالهم صورة الموت الذى سيتعرضون له فى الحرب ، فتمتلئ نفوسهم رعبا وفزعا ، وتظهر آثار ذلك فى عيونهم ونظراتهم .

وأما مشاهد الآخرة ، فمنها ما يستحضر فيه القرآن صورة أعداء الله حينما يفاجأون بمواجهة أهوال القيامة التى تتبدل فيها صورة كل شىء ، وينهار فيها كل شىء حتى تصبح الجبال هشة غير متماسكة كأنها الصوف المنفوش ، والمؤمنون يجدون من رحمة الله ما يعينهم على احتمال هذه الأهوال ، ولكن أعداء الله يواجهونها بذواتهم ولا طاقة لمخلوق حينئذ بمواجهة شىء منها ، فيصور القرآن ما يعترى أعداء الله من فزع حين يفاجأون بهذه الأهوال فتظهر آثار هذا الفزع فى العيون ، فيقول تعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ، مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء) (٢)

فشخوص الأبصار هو من الجحوظ بحيث تتسع حدقة العين اتساعا بمقدار شدة الانفعال والفزع ، ومهطعين بمعنى مسرعين ، ومقنعى رءوسهم بمعنى يرفعونها إلى أعلى ، ولا يرتد إليهم طرفهم بمعنى أن عيونهم تظل جاحظة مفتوحة لا تغمض ولا تطرف وأفئدتهم قلوبهم وهواء أى فارغة جوفاء من شدة الخوف والفزع والصورة هى جحوظ العيون بسرعة المفاجأة حين تمتلئ قلوبهم فزعا ورعبا من مشاهدة الأهوال الذين هم قادمون عليها فتجحظ عيونهم وأبصارهم شاخصة إلى أعلى وكأنها تنظر إلى شىء ، مع أنها لا تنظر ولا تتحرك وإنما هى

---

(١) ١٩ سورة الأحزاب وكذلك الآية ٢٠ سورة محمد .

(٢) ٤٢ ، ٤٣ سورة إبراهيم .

مأخوذة وثابتة من هول المفاجأة .

وهذه صورة أخرى من قبيل ظهور آثار الفزع فى شكل العين ومنظرها فى الآخرة ، فى قوله تعالى (واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ....) (١) فالوعد الحق هو القيامة وما فيها من مشاهد وأهوال ، فالذين كفروا وقد كانوا يكذبون بالبعث وبكل ما يترتب عليه من باب أولى يفاجأون بأن ما كانوا يكذبون به هو اليوم أمامهم بكل أهواله ، وهم اليوم مرغمون على الدخول فى هذه الأهوال واصطلاء بشاعتها فإذا عيونهم جاحظة من مشاهدة هذه الأهوال ، ومن مشاهد الخوف الشديد فى الدنيا الذى تعبر عنه العين فى القرآن منظر بعض ناقصى الشجاعة من المسلمين وهم متوجهون لقتال المشركين يوم بدر فالقرآن يصفهم بقوله (كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) (٢) فهم متخاذلون ونظرات عيونهم كالمسوق إلى موت مرئى .

(٢) الــــــذل :

ومن المشاعر البشرية الشعور بالذل والهوان ، وقد يكون متعدد الأسباب فى غير حصر ، كما أن درجاته أيضا تتفاوت بغير حصر ، وقد يفيض بعض الناس فى وصف مشاعر الذل وتحديد مصادرها ، وقد يفيضون فى وصف آثارها ، ولكن القرآن يكتفى أحيانا بوصف أثر الذل البادى فى العين ، فيكون هذا الأثر أبلغ فى وصف الذل من أية إفاضة فى وصف مشاعر الذل .

والمشاهد التى يسوقها القرآن لارتسام أثر الذل فى العين يغلب عليها أن تكون فى الآخرة لإبراز ما يتعرض له أعداء الله من شعور بالذل والهوان حينئذ ، فهم حينئذ مسلوبو القوة ، ومعدومو النصير أو الشفيع فى آن واحد ، ومع ذلك فهم أمام قوة لا تقاوم ، هى قوة الله التى أعدت لهم ما يلاقون من مصادر الذل والهوان .

---

(١) ٩٧ سورة الأنبياء .

(٢) ٦ سورة الأنفال .

فهذا مشهد لأعداء الله حين يعرضون على جهنم وقد ملأهم الشعور بالذل ، ولكننا لا نتبين من المشهد إلا أعينهم ونظراتهم فنعرف منها مدى ما يعانون من مشاعر الذل والهوان فى قوله تعالى (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى) (١) فهذه النظرة الذليلة المنكسرة التى تختلس النظر اختلاسا ولا يستطيع صاحبها أن يرفع بصره لأنه من الذل لا يستطيع أن يرفع رأسه ، كل هذا وغيره لا يعبر عن مشاعرالذل كما تعبر عنه صورة (ينظرون من طرف خفى) .

وحين يجتمع الخوف والشعور بالعجز والاستسلام فانهما ينتجان هذا الذل الذى يرتسم فى نظرة العين بذلة وانكسار وخشوع ، كما فى هذه الصورة من صورة الآخرة (قلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة) (٢) فوجيف القلوب من الضعف والعجز والاستكانة ينتج هذا الذل البادى فى نظرة العين .

وفى مشهد آخر من مشاهد الآخرة نرى صورة أعداء الله وهم مبعوثون من قبورهم مسرعين إلى ما يريده لهم الله من عذاب لأنهم يومئذ مسلوبو الإرادة والقوة والاختيار ، وهم لذلك يشعرون بكل مشاعر الذل والهوان وهم منساقون إلى ما يدعون إليه من هول يوم القيامة ، وهذا الذل يرتسم فى عيونهم ونظراتهم ، كما يقول الزمخشرى لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران فى عيونهما ، أى فى عيون الذليل والعزيز ، فيقول تعالى (... يوم يدع الداع إلى شىء نكر ، خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) (٣)

وفى صورة أخرى من مشاهد الآخرة يصرح القرآن بأن خشوع أبصارهم وانكسار نظراتهم إنما كان مما يسيطر عليهم من مشاعر الذل ، فهذا الذل هو الذى ظهر فى عيونهم (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) (٤)

---

(١) ٤٥ سورة الشورى . (٢) ٨، ٩ سورة النازعات .

(٣) ٦-٨ سورة القمر . (٤) ٤٣ سورة القلم .

وهذه الصورة من الذل البادى فى عيونهم عند خروجهم من قبورهم مسرعين إلى ما أعده الله لهم من عذاب شديد البشاعة ، وتتركز الصورة فى خشوع أبصارهم بمعنى انكسارها وارتسام الذل فيها فيقول تعالى (يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون) (١)

٣ - الحيـــــاء :

أفاض الشعراء فى وصف عيون النساء ، ومعظمه فى وصف جمال العيون وتأثير نظراتها ، ولكن بعضا من كبار الشعراء يصفون بعض دلالة هذه العيون ، فهذا امرؤ القيس يصف نظرة الحذر والخوف المصحوب بالتحفز للمقاومة والدفاع فيقول فى معلقته :

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى ∴ بناظرة من وحش وجرة مطفل

فهو يصفها بأنها لم تستجب لمغازلته ، وإنما صدت ولوت وجهها عنه فظهر خدها الأسيل ، وكأنها خافت من ملاحقته إياها فنظرت إليه نظرة حذر واستعداد للمقاومة ، كأنها نظرة أنثى من وحوش وجرة المشهورة بالسباع ، وهذه الأنثى لها أطفال فوجدت خطرا يهدد أطفالها فنظرت إلى المهاجم هذه النظرة التى تتجمع فيها كل معانى الخوف والحذر والتوثب ، وأى إفاضة فى وصف المشاعر والانفعالات لا يؤدى ما يؤديه التشبيه بهذه النظرة التى ترتسم فيها كل هذه المعانى .

والنابغة الذبيانى يصور نظرة المرأة الراغبة فى مبادلة الحب أو الإعجاب ولكن ظروفا من داخلها أو خارجها تمنعها من الصلة ، فتبدى هذه الرغبة الممنوعة فى نظرتها التى يشبهها الشاعر بنظرة المريض المستأنس بوجوه عواده فيقول :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها ∴ نظر السقيم إلى وجوه العود

والشنفرى الأزدى يصور نظرة الحياء والعفة عن امرأة ، فيصفها بأنها تمشى وبصرها

---

(١) آخر سورة المعارج .

إلى الأرض طوال مشيها ، وكأنها سقط منها شيء على الأرض فعادت تبحث عنه فى الطريق التى سلكتها فى صورة من يقص الأثر فيقول :

كأن لها فى الأرض نسياً تقصه ∴ على أمها وإن تكلمك تبلت

والنسى بكسر النون الشيء المنسى ، وتقصه أى تتبعه ، والأم بفتح الهمزة القصد وتبلت أى تقتصد فى الكلام .

والشاهد فى أن الحياء يجعل بصرها فى أثناء المشى متجها إلى الأرض كمن يبحث عن شيء سقط منه على الأرض ، وهو من أحسن ما وصف به الحياء ، حيث إن المرأة تقصر بصرها على هدفها وبغيتها فحسب ، وهى فى مشيها إنما تبغى معرفة الطريق فتجعل بصرها لا يتجاوز معرفتها الطريق .

ومن طرائف العرب أن رجلا كان مسافرا فى قافلة ومعه جارية بارعة الجمال ، وقد أخفى الناس نساءهم فى هوادج ، أما هو فتركها ظاهرة مكشوفة الوجه ، ولكنه عصب عينيها ، فقيل له فى ذلك ، فقال إنما أخاف عليها من عينيها لا من أعين الناس .

والقرآن من حيث كونه فى كل تشريعه وتوجيهه يركز على هدفين أحدهما سلامة العقيدة ، والآخر حسن الخلق ، وهذا من مجالات الخلق ، فإن القرآن يعلى من شأن الحياء وفيما يتعلق بعين المرأة فإن القرآن يوجه إلى ما يؤدى إلى العفة وهو الحياء ، فجعل وسيلة الحياء هى غض البصر الذى يدل على الحياء ، والحياء من أسمى الفضائل الخلقية ، سواء فى النساء وفى الرجال .

ومع أن غض البصر مجرد مظهر للحياء أو وسيلة إليه إلا أنه لأهميته جعل القرآن كأنه هو الغاية التى هى الحياة ، ففى القرآن (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) (١) وفى شأن النساء (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) (٢) فغض البصر لذاته ليس هو الحياء ولا

---

(١) ٣٠ سورة النور .

(٢) ٣١ سورة النور .

هو العفة ، وقد يوجد غض البصر ولا يوجد معه حياء ولا عفة ، ولكن العين هى اللغة الصامتة بين الرجل والمرأة فمهما اختلفت اللغات والأجناس ، فهى الوسيلة الغريزية للتفاهم بينهما ، وقد عبر الرجل العربى بفطرته عن ذلك حينما عصب عينى جاريته فمنع بذلك التفاهم بينها وبين أى رجل .

وكذلك القرآن حين يأمر الرجل والمرأة كليهما بغض البصر فإنه يمنع التفاهم بغير شرعية بينهما .

والقرآن يجعل خير ما توصف به المرأة للترغيب فيها أن تغض بصرها عن غير زوجها ، ويجعل ذلك صفة لنساء الجنة ، بل يجعل من غض بصرها ما يجعل بصرها كأنه مقصور على زوجها ليس دون الرجال فحسب ، بل دون كل شىء آخر ، حتى كأنها لا ترى شيئا قط سواه ، وجذور هذا المعنى أو أصله هو ما يتمناه الرجل ولو تخيلا ، أن يكون هو كل شىء فى قلب امرأته وعقلها وحياتها ، وتكون سعادته معها عادة بمقدار ما يحس منها من هذا المعنى .

فالقرآن يعد لأهل الجنة هذه السعادة التى كانوا يتمنون شيئا منها فى الدنيا فيجعلها لهم كاملة فى الجنة وكأن نساءهم فيها لا يبصرن غيرهم وذلك بوصف (قاصرات الطرف) والطرف هو البصر ، وقصره أى جعله مقصورا على الأزواج لا يتعداهم إلى غيرهم ، ومن ذلك قوله تعالى (وعندهم قاصرات الطرف عين) (١) وعين جمع عيناء وهى المرأة ذات الجمال الباهر فى عينيها .

ومن ذلك أيضا فى القرآن (وعندهم قاصرات الطرف أتراب) (٢) فهذا المعنى وهو قصر المرأة بصرها على زوجها يكرره القرآن مضافا إليه معنى جديداً يتركز فى (أتراب) أى متقاربات فى السن حتى لا يغبط أحدهم غيره على أن امرأته أو نساءه فى سن خير من سن نسائه هو ، بل يكن جميعا فى السن التى تكون المرأة فيها فى قمة حسنها وشبابها .

---

(١) ٤٨ سورة الصافات .

(٢) ٥٢ سورة ص .

والقرآن وصف نساء الجنة بصفات أخرى من الجمال وزيادة الرغبة من الرجال كالحور والبكارة التى لم يطمثها إنس ولا جان ، ولكن الذى يعنينا هنا ما يتعلق بالنظرة ودلالتها على الانفعال النفسى ، وغض البصر وقصر الطرف دليل على الحياء ، والحياء انفعال نفسى يمنع صاحبه من مزاولة ما هو معيب ، ولذلك كان الحياء من أشد ما زكاه ورغب فيه النبى صلى الله عليه وسلم لأنه وقاية من كل عيب ومن ذلك قوله الحياء لا يأتى إلا بخير فهو يشبه ما يعرف فى الطب بالمناعة ضد المرض وأسبابه ، كما أن فقدان الحياء يشبه فقدان المناعة فى الجسم وهو أحدث وأخطر ما عرف من الأمراض الفتاكة التى لابد أن تنتهى بالموت لفقدان الجسم للمقاومة والمناعة ولم يعرف له علاج بعد ، وكذلك الحياء فقدانه يجعل الشخص فاقدا للحصانة ضد العيب ، فيستوى عنده الحسن والقبيح ، والمعيب وغير المعيب ، وفى هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم إذا لم تستح فاصنع ما شئت .

٤ - الخيـــانة :

ومن الانفعالات النفسية الخلقية الخيانة والغدر ، وهما من أسوأ ما يحمل الإنسان من خلق على الإطلاق ، وصاحبهما لا يطمئن إليه ولا يثق فيه حتى أقرب الأقرباء إليه .

ومشاعر الخيانة يظهر أثرها فى العين .

بل إن القرآن يلفت النظر ضمنا إلى أن الخيانة لابد أن يتركز أثرها فى العين ، حتى إنه يجعل العين نفسها هى الخائنة لوضوح الخيانة فيها ، وواضح أن الخيانة من صاحب العين وأن العين محض أداة أو مكان يظهر فيه أثر الخيانة ، ففى القرآن (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) [١]

وفى مشهد رائع التصوير يصور القرآن منظرا من مناظر الخيانة البادية فى الأعين حيث تكون الأعين بنظراتها سلاحا فى الخيانة ، وذلك أن المنافقين كانوا يخالطون المسلمين ويجالسون النبى على أنهم مؤمنون ، لأن هذه المخالطة أو المجالسة لا تضرهم ، بل تفيدهم

---

(١) ١٩ سورة غافر .

خداع المسلمين ، ولكن الخطر الداهم عليهم حينما يشعرون أن النبى يوحى إليه ، أو أنه أنزل إليه وحى سيعلنه على المسلمين ، ورغم كفرهم فهم يعلمون أن هذا الوحى سيكشف خباياهم ، ويطلع النبى والمسلمين على ما يحاولون إخفاءه ، عندئذ ينظر بعضهم إلى بعض نظرات تحمل إشارات معينة يدعو فيها بعضهم بعضا إلى سرعة الانسحاب والتسلل من المكان الذى لو ظلوا فيه فسينكشف أمرهم أو يكاد ، وهذا المشهد فى القرآن (وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا ...) [١] ونظرة بعضهم إلى بعض بهذه الصورة هى نظرة الخيانة للمسلمين ، والغدر بمن يثقون فيهم ويعدونهم من المؤمنين ، ويتعاملون معهم على هذا الأساس .

٥ - الحقد والغضب :

ومن المشاعر والانفعالات التى تعبر عنها نظرة العين الحقد والغضب ، وهما انفعالان وإن كانا مختلفين فى الأمر الواقع أى فى صورة حدوثهما ، إلا أنهما ينبعان من أصل متقارب الفروع ، فكلاهما يعبر عن السخط ، ولكن الحقد سخط دائم على شخص معين أو جماعة معينة ، وهو دائم لأنه يرتبط عادة بسبب أو بدافع غير وقتى بل مستمر ، أما الغضب فيكون تعبيرا عن انفعال مفاجئ وغير مستمر ، ولذلك يخمد الغضب بخمود الانفعال الذى أثاره ، وقد يجتمع الاثنان الحقد والغضب فى توجيههما نحو هدف معين لاجتماع العوامل التى أثارتهما فى النفس .

والقرآن يصف نظرة قد تحمل أحد الانفعالين أو هما معا ، وهى نظرة المشركين إلى الرسول كلما علموا أنه أنزل عليه وحى ، وكل الملابسات تشير إلى أن أصحاب هذه النظرة ليسوا من عامة المشركين ، وإنما هم من السادة ، بل هم من قمم السادة الذين ينتظرون أن يكون كل تفوق فى المجتمع من حقهم هم ، لأنهم يملكون من السيادة والزعامة ما يؤهلهم فى رأيهم لكل علو فى المجتمع ، والتاريخ يعرف أفرادا معينين على رأسهم عمرو بن هشام أبو جهل كان أساس ثورتهم على الدين ليس إنكاره ، بل إسناده إلى محمد الذى كانوا يرونه أقل

---

(١) ١٢٧ سورة التوبة .

منهم مالا وجاها وسيادة ، فكانوا يرون أنفسهم أحق منه بالنبوة ، وكان هذا مصدر حقدهم الأصلى على النبى ، وكلما نزل عليه شىء من الوحى أهاج هذا حقدهم وحوله إلى غضب وحدة انفعال ، وإذن فهم ليسوا فردا واحدا ، وليست نظرتهم واحدة ، أو فى وقت معين محدد ، فقد يكون بعضهم ينظر إلى النبى عندما يوحى إليه نظرة حقد حادة ، وقد ينظر بعضهم إليه نظرة غضب جامح ، وقد يجتمع الانفعالان فى نظرة بعضهم .

والقرآن يجعل كل هذه الانفعالات تبدو فى نظرة العين التى يصفها بقوله (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ...) (١) والإزلاق هو إزالة الشىء عن موضعه ، ومنه انزلقت قدمه إذا جرت من موضعها دون قصد منه ، ولكن الإزلاق فعل يصدر من فاعل ، فهؤلاء المشركون يصبون كل حقدهم وغضبهم فى نظرتهم إلى النبى نظرة من حدتها تكاد تحركه وتزيله وتدفعه من مكانه ، وهو أقصى ما توصف به النظرة الحاقدة أو الغاضبة .

٦ - السعـــادة :

ومن الواضح أن السعادة ومشاعر أخرى مما هو مسوق هنا عن العين ليس من موضوع الكتاب وهو الوعيد ، ولكنى رأيت من الأهمية استكمال موضوع استخدام العين فى القرآن بصفة عامة .

فأحيانا يعبر القرآن عن الشعور بالرضا والغبطة والسعادة وكل ما من شأنه أن يبعث البهجة فى النفس فلا يصف هذه المشاعر نفسها ، وإنما يعبر عن أثرها فى العين ، وكأن العين نفسها هى السعيدة ، المبتهجة الراضية ، أو كأن العين هى النافذة المطلة على أعماق النفس ، والنفس حينئذ سعيدة ، فهذه السعادة ترى فى العين أو من خلال العين .

ففى أحد المشاهد عثرت امرأة فرعون على طفل رضيع مصادفة ، ولكن هذه المصادفة صاحبها أمران ملآ نفسها ولعا بهذا الرضيع الذى كان يفترض أن يقتله فرعون كما يقتل كل

---

(١) ٥١ سورة القلم .

أبناء طائفة هذا الطفل الذى هو موسى ، والأمران هما :

(١) أن الله ألقى على هذا الطفل حبا شديدا بحيث يملأ هذا الحب نفس كل من يراه ، فامتلأت نفس امرأة فرعون حبا جارفا لهذا الطفل فور رؤيته (١)

(٢) وأن امرأة فرعون كانت عاقرا لا تلد ، فما إن رأت هذا الطفل حتى تفجرت فيها كل ينابيع الأمومة ، وأصبح هذا الطفل فى خيالها هو وليدها الذى يملأ حياتها سعادة وأملا .

وإذن فقد كانت امرأة فرعون تشعر بسعادة غامرة لا تعبر عنها الألفاظ ، ومع ذلك جعل القرآن العين تعبر عن كل هذه السعادة فى قوله تعالى على لسان امرأة فرعون تخاطب فرعون (قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) (٢) فجعل قرار العين أو استقرارها تعبيرا عن الرضا والسعادة ، وكأن العين كانت تتحرك بحثا عن شىء فوجدته فلم تعد بها حاجة إلى الحركة أو البحث من باب قول الشاعر :

فألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قر عيناً بالإياب المسافر

ومن مشاهد تعبير العين عن السعادة فى القرآن فى قصة موسى عليه السلام أيضا ، حين أوحى الله إلى أمه أن تلقيه عقب ولادته فى النهر فى صندوق ، وواضح كيف يكون وله الأم على رضيعها وهى تلقيه باختيارها فى اليم ، ثم لا تعلم له مصيرا ، ولا تشك فى أنه هالك لا محالة من عدة مخاوف وليس خوفا واحدا ، فهو معرض للغرق ، وهو معرض لحيوانات الماء ومنها التماسيح التى كان يموج بها نهر النيل قبل إنشاء السدود فيه ، ومنها أن يموت عطشا وجوعا داخل صندوقه ، خصوصا وأن الرضيع فى حاجة دائمة متواصلة إلى الرضاع ، كل ذلك وغيره ماثل فى نفس أمه ، ولو انعدمت كل هذه المخاوف فإن مجرد بعده عنها دون أن تعلم مصيره كان كافيا لأن يملأ كل كيانها ولها وهلعا .

---

(١) فى قوله تعالى (وألقيت عليك محبة منى) ٢٩ سورة طه وكان هذا سببا فى نجاته من الموت .

(٢) ٩ سورة القصص .

وحينئذ يكون واضحا مدى السعادة التى ستشعر بها لو أنها عرفت مصير طفلها فضلا عن أن تراه بعينيها سليما صحيحا ، فهذه السعادة التى ستشعر بها لا تعبر عنها أيضا الألفاظ ، ولكن القرآن يجعل العين تعبر عن هذه السعادة فى قوله تعالى (فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن) (١) فكان قرار العين أيضا أو استقرارها هو التعبير عن كل هذه السعادة .

ومن مشاهد تعبير العين عن السعادة والرضا فى قصة مريم ، حين ولدت المسيح عليه السلام من غير أب ، فاضطرت إلى الاختفاء بولادتها التى سيراها كل الناس عارا شنيعا لا يقبل فيه أى دفاع ، فانتبذت من أهلها مكانا قصيا منعزلا لا يراها فيه أحد ، وولدت وهى وحدها ، وأحست بالجوع الشديد عقب الولادة ، وفراغ جوفها وحاجتها إلى الغذاء الذى يدر لبنا لرضيعها .

وإذن فقد كانت مريم تعانى حينئذ ما لا يطيقه بشر عادى من الهموم ، هموم الفضيحة التى لا يوجد لها لديها أو لدى أى إنسان دفاع عنها ، وهى ولادة طفل بدون أب شرعى ، ثم نظرتها إلى مستقبل أسود فى نظرها حيث تلاحقها الفضيحة مدى حياتها ، ثم يضاف إلى كل ذلك ما تعانيه من جوع لا أمل لها فى معالجته لأنها لا تملك أى طعام أو شراب ، ولا تجد أملا فى الحصول عليهما ، وهكذا تتجمع كل الهموم فى نفسها .

ولكن الله يأتيها بالفرج وإذهاب كل هذه الهموم ، فسيحدث معجزة تدافع عنها ، وهى أن يتكلم هذا الطفل الوليد مدافعا عنها ، ويجعل النخلة التى بجوارها تساقط عليها رطبا لذيذا بمجرد أن تلمس النخلة وتحاول هزها ، ويوجد الله لها الماء ، فتحل كل مشاكلها وهمومها فجأة وعلى غير توقع .

ويكون واضحا حينئذ مدى السعادة التى تحس بها ، ومدى الرضا الذى تشعر به حين تجد كل همومها وأحزانها قد تبددت فجأة ، إن هذه السعادة لا تعبر عنها أيضا الألفاظ .

---

(١) ٤٠ سورة طه .

ولكن القرآن يجعل العين تعبر عنها فى قوله تعالى مخاطبا مريم (فكلى واشربى وقرى عينا) [١] فيجعل قرار العين منبئا ومعبرا عن كل هذه السعادة .

٧ - الحـــزن :

وأوضح ما تكون العين تعبيرا فى مشاعر الحزن ، فالعين تكون أفصح ما تكون تعبيرا ودلالة عندما تكون فى موقف الحزن الذى تصاحبه عاطفة الرحمة واللين ، وتكون رسالة العين حينئذ هى الدمع ، وهى أفصح رسالة لأنها واضحة ومفهومة بكل اللغات وفى كل الأجناس ، بل ليست فى حاجة إلى لغة ، لأننا حين نرى دمعا فى عين نعرف فى غير لبس أنها عين حزينة .

والقرآن يتحدث أحيانا عن الحزن ، فلا يصفه ، ولا يصف شيئا من معاناته ، وخوالجه ، وإنما يكتفى بجعل العين تعبر عنه بالدمع .

فهذا موقف لبعض فقراء المسلمين ، امتلأت قلوبهم إيمانا بالله ، ورغبته فى الجهاد فى سبيله ، حتى أصبح الجهاد وحب الاستشهاد هو الأمنية التى تسيطر على كل كيانهم ، وحينما يتهيأ المسلمون للقتال فى حرب تحتاج إلى سفر ، وهذا السفر يحتاج إلى رواحل تحملهم ، وهم لا يملكون رواحل ، فيلجأون إلى رسول الله ليعينهم برواحل ، ولكن النبى لا يملك ما يلبى به مطلبهم ، فيصابون بخيبة أمل تسيطر على نفوسهم بعد أن علقوا الأمل على عون رسول الله ، فتملأ هذه الخيبة نفوسهم حزنا وشعورا بالعجز عن تحقيق الأمنية المسيطرة على نفوسهم وهى المشاركة فى الجهاد ، فيرجعون من عند الرسول وكل مشاعر الخيبة والعجز والحرمان تموج فى نفوسهم ، فلا يملكون أن يحبسوا دموعهم وهى تفيض من عيونهم تعبيرا عن هذه المشاعر الحزينة ، ففى القرآن (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل ، ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ، إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ...) [٢] وسياق

---

(١) ٢٦ سورة مريم .

(٢)٩١-٩٢سورة التوبة .

الآيات ينبئ عما كان يشعر به أصحاب الأعذار من ألم نفسى ، ومن خوف من الله أن يحاسبهم على عدم اشتراكهم فى أداء واجب الجهاد رغم أعذارهم ، فالله سبحانه يطمئنهم إلى قبول عذرهم وإعفائهم من مسئولية الجهاد ، محددا هذه الأعذار فى أوصاف عامة تتسع للكثيرين ، وعلى كل منهم أن يحدد وضعه أو نصيبه من هذه الأعذار ، وهى الضعف والمرض والعجز عن تدبير نفقة الحرب ، فهؤلاء يعفيهم الله بشرط أن تكون قلوبهم عامرة بالإيمان والإخلاص لله ورسوله والرغبة فى الجهاد ، ومع أن الفقراء الذين لم يجدوا عند رسول الله ما يحملهم عليه داخلون فى العاجزين عن تدبير نفقة الحرب لأنفسهم ، لأن الراحلة للسفر جزء أصلى من النفقة ، ومع ذلك فإن الله يخصهم بالذكر إشادة بمشاعرهم التى تفيض من خلال عيونهم دموعا غزيرة ، والذى يعنينا هنا من كل هذا أن القرآن جعل العين فى تعبيرها عن الحزن بالدمع أبلغ من أى وصف للحزن نفسه ، ولكن روعة تعبير القرآن تستوقفنا كثيرا عند بعض الألفاظ ، فإن بعض الألفاظ فضلا عن بلاغتها فى أداء المراد منها تحمل فوق ذلك إيحاء بفيض آخر من المعانى أو المشاعر التى تصبح كالهالة المحيطة بالمعنى الأصلى ، ومن هذه الألفاظ :

لفظ (تفيض) من تعبير (وأعينهم تفيض من الدمع) فإن لفظ تفيض يؤدى لذاته معنى بالغ الدلالة على الموقف ، وهو أن دموعهم لا تسيل سيلانا أو تتساقط تساقطا كما هو مألوف فى دموع الناس ، ولكنها تفيض فيضانا ، وكأنها نهر زاد عن السيلان أنه امتلأ ، ثم زاد عن الامتلاء ففاض بالماء على جوانبه . فهذه من بلاغة المعنى الأصلى .

أما الهالة الزائدة عن المعنى الأصلى والتى تحيط بالمعنى الأصلى وتوحى بخيال بالغ التأثير فى نفس المتذوق للتعبير فهو إسناد الفيض إلى العيون فى (وأعينهم تفيض) فالأصل أن الدمع هو الذى يفيض ويخرج من العين غزيرا حينئذ ، ولكن التعبير يجعل عيونهم ذاتها هى التى تخرج وتسيل أو تفيض مع الدمع من شدة حرقة البكاء واحتدام الحزن ، وكأن الحزن أخذ يتكاثر فى نفوسهم حتى ضاقت نفوسهم عن الاتساع له ، فاندفع هذا الفائض من الحزن ليخرج دموعا من خلال العيون ، ولكنه من شدة اندفاعه دفع العيون نفسها إلى الخروج معه فى

الدموع ، ومن الألفاظ (الخوالف) وهو من الجموع الخاصة بالنساء أى قبلوا ترك مجال الرجال ليصبحوا مثل النساء وهذه الصورة من العيون التى يجعلها القرآن كأنها تفيض وتخرج مع الدمع من شدة الحزن يرسمها القرآن أيضا لعيون بعض من القسس والرهبان النصارى الذين صفت نفوسهم ، وتجردت قلوبهم من الأهواء والعصبية العمياء لما يعتقدون ، فحين سمعوا القرآن وتدبروا هديه ، واستوعبوا صدقه فى الحديث عن المسيح وأمه ، واتفاقه مع ما يعرفون من أصول المسيحية وغير ذلك مما جعلهم يوقنون بأنه كلام الله كما قال النجاشى النصرانى حين سمع القرآن والله إنه والذى أنزل على المسيح ليخرجان من مشكاة واحدة ، وصدق بالقرآن وبأن محمدا رسول من الله وبهذا كان مسلما ، وقد صلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم صلاة الجنازة على الغائب حين أخبره الوحى بموته(١)، وبهذه الروح حينما سمع بعض القسيسين والرهبان كلام القرآن امتلأت نفوسهم بمشاعر الإيمان ثم تزاحمت فى نفوسهم مشاعر الحزن على ما ضاع من حياتهم فى غير إيمان حقيقى قويم ، مع خوف من الله أن يحاسبهم على ما ضيعوه قبل ذلك ، وغير هذا من مشاعر الحزن ورقة العاطفة التى جعلها الله فى قلوب الذين اتبعوا المسيح بصدق كما يقول تعالى فى سياق الحديث عن المسيح عليه السلام (وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ...) (٢) وهذه المشاعر تزاحمت فى نفوسهم حتى فاضت دموعا فى عيونهم .

ولكن القرآن يعبر عن أن مشاعرهم هذه لم تكن عادية ، وبالتالى فإن دموعهم لم تكن عادية وإنما بلغت شدة انفعالهم أن كادت تدفع عيونهم أيضا لتخرج من محاجرها وتسيل مع الدموع ، فى قوله تعالى (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) (٣) فقد كانت الميزة التى دفعتهم دون غيرهم إلى الحق تتركز فى (وأنهم لا يستكبرون) أما غيرهم فإن كبرياء العزة بالإثم والضلال تمنعهم

---

(١) انظر قصة النجاشى وصلاة النبى ﷺ عليه فى الجزء الأول من سيرة ابن هشام ص ٢٣٠-٢٣٣

(٢) ٢٧ سورة الحديد . (٣) ٨٣ سورة المائدة .

من اعترافهم بالحق والدخول فيه .

٨ - الغبـــاء :

أفاض القرآن فى استخدام العين للدلالة على الغباء الشديد الذى يفقد معه المرء الإدراك لما هو واضح ، وذلك بوصف العين بالعمى تشبيها لفاقد الإدراك بفاقد البصر ، فإن من لا يميز مثلا بين الحق والباطل وهما واضحان ، أو بين الخير والشر وهما واضحان يصبح مثل من لا يميز بين النور والظلام ، فكلاهما فاقد لأداة التمييز بين الأشياء ، غاية الأمر أن الغبى لا يميز بين الأشياء المعنوية أما الأعمى فهو لا يميز بين الأشياء الحسية .

والقرآن يستخدم العمى فى معناه الحقيقى وهو فقدان البصر فى أكثر من موضع ، كقوله تعالى فى الحديث عن أصحاب الأعذار (ليس على الأعمى حرج) (١) وكذلك (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) (٢) وذلك فى قصة عبد الله بن أم مكتوم الأعمى حين حضر إلى النبى فشغل عنه ببعض السادة من المشركين حرصا على دعوتهم إلى الإسلام ، فعاتب الله نبيه على الانشغال بأعداء الله عن المؤمن ولو كان انشغاله حرصا على إسلامهم .

ولكن القرآن يستخدم العمى كثيرا جدا فى الأسلوب المجازى الذى لا يقصد فيه فقدان البصر ، وإنما يقصد به الغباء ، وفقدان التمييز بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ، ومن ذلك (وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) (٣) فهم يملكون عيونا مبصرة ، ولكنه بصر بالمحسوسات فهى رؤية مادية ، ولكن بصيرتهم المدركة عقليا ومعنويا معطلة ، وهذه البصيرة هى البصر الحقيقى ذو القيمة ، أما البصر الحسى فلا يخرج صاحبه عن نطاق الحيوان ، الأعجم ، فالحيوان الأعجم يبصر بعينيه فإذا فقدهما فقد قيمته والانتفاع به ، أما الإنسان فقيمته الحقيقية ليست فى عينيه وإنما فى عقله وجوهره ، فإذا فقد عينيه لم تذهب قيمته ، بل قد يكون ذا منزلة وشأن كبير وهو أعمى ، إما إذا فقد بصيرته المدركة فلن تبقى لعينيه أو لأية

---

(١) ٦١ سورة النور وكذلك ١٧ سورة الفتح .

(٢) أول سورة عبس .

(٣) ٩٨ سورة الأعراف .

حاسة فيه قيمة ، بدليل أن الفاقد العقل قد تكون كل حواسه سليمة ، فهو يبصر ولكنه لا يستفيد من هذا الإبصار شيئا ، ويسمع ولكنه لا يعى ولا يفهم مما يسمع شيئا ، ويهذى بكلام كثير ولكنه لا يعد كلاما ، فكأنه أعمى وأصم وأبكم مع سلامة هذه الحواس جميعا فيه ، وهذا ما يقرره القرآن عن المشركين من حيث إنهم بعبادتهم الأصنام ألغوا عقولهم فأصبحوا (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل) (١) فالماشية أهدى منهم لأنها تهتدى بفطرتها إلى أداء ما هو مطلوب منها وما خلقت من أجله ، أما هم فقد عطلوا فطرة الإيمان التى غرسها الله فى نفوسهم فكانوا أضل من الماشية .

وإذن فالقرآن يجعل العين رمزا للعقل والتمييز ، ويجعل فقدانها رمزاً للغباء وفقدان الإدراك والتمييز ، أما العمى الحسى فليس بذى شأن ، لأنه لا يخل بإدراك المرء وتمييزه ، وفى القرآن (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) (٢) والمراد بالقلوب العقول ، وأغلب ما يستخدم القرآن القلوب يكون بمعنى العقول .

واستخدام القرآن للعين كأنها هى أداة العقل والتمييز ، وفقدان الإدراك والتمييز بمعنى العمى كثير مستفيض فى القرآن فلا يحتاج إلى مزيد استشهاد ، والباحثون يلحظون الارتباط بين حركة العين والتفكير المتجدد ، بمعنى أنهم يلحظون أن المرء حينما يكون فى حالة تقليب لفكرة أو موازنة بين أفكار فإن العين تتحرك مع تحرك فكره ، وتكون العين ساكنة حينما يسكن الفكر .

---

(١) ١٧٩ سورة الأعراف .

(٢) ٤٦ سورة الحج .

٩ - التأمـــل :

ومـمـا اسـتـخـدم فـيـه القرآن العين كثيرا التأمل ، حيث نجد النظر يتردد فى القرآن كثيرا بمعنى التأمل ، ومن ذلك فى حديث القرآن عن ابراهيم عليه السلام (فنظر نظرة فى النجوم ، فقال إنى سقيم) [١] وليس هناك تباعد بين النظر والسقم كما يوحى الظاهر ، بل هما هنا مرتبطان ارتباط النتيجة بالمقدمة ، وذلك أن ابراهيم يعجب من إصرار قومه على الشرك رغم جهاده معهم وتبصيرهم بالإيمان ، فيلقى إلى الكون نظرة تأمل وخصوصا النجوم وما يحيط بها مـن الكون ، كالشمس والقمر وسائر الكواكب فإذا دلالة ذلك على وجود الله ساطعة ، وكـانت نظـرة واحدة من نظرات التأمل لأن الدلالة واضحة لا تحتاج إلى تكرار التأمل ، فتمتلئ نفسه حسرة وألما وضيقا لجهل قومه وإصرارهم عن الغفلة عن هذه الدلالة حتى وصل به الضيق النفسى بقومه إلى ما يعرف فى علم النفس بالاكتئاب ، أو ما يعرفه العرب بالابتئاس . والاكتئاب والابتئاس كلاهما من الأمراض النفسية العارضة أو المؤقتة طالما هى مرتبطة بسبب أو مصدر معين ، بحيث تزول إذا زال السبب أو عولج ، فحين يقول ابراهيم حينئذ إنى سقيم فإنما يعبر تعبيرا حقيقيا وليس مجازيا عما يحس به من الضيق بحال قومه من الإيمان بالله .

ولكن القرآن استخدم نظر العين فى معنى التأمل .

وكذلك حديث القرآن عن الزعيم القرشى الذى لم يعجبه أن يصف قومه القرآن بأنه شعر أو كهانة أو هذيان جنون أو نحو ذلك مما لا يجوز فى عقول العرب ، فأخذ يتأمل ويقلب وجوه الفكر ليصل إلى وصف للقرآن يمكن للناس أن يتقبلوه فيعرضوا عنه ، والقرآن يتعجب من عمق تفكيره وتدبيره هذا الذى وصل به إلى وصف القرآن بأنه سحر كالذى يفعله السحرة من التفريق بين الأحبة والأقارب ، ومن تحويل العواطف من الكره إلى الحب والعكس ، وهو ما يفعله القرآن من جعل بعض الناس يصدقونه فيكرهون أحب الناس وأقربهم إليهم إذا لم يشاركوهم تصديقه ، ويحبون حينئذ من كانوا أبغض الناس إليهم وهم محمد ومن معه ، ولا

---

(١) ٨٨-٩٠ سورة الصافات .

يفعل هذا إلا السحر ، فالقرآن إذن سحر ، ومن هذا الحديث فى القرآن (إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) (١) وتعبير قتل كيف قدر أسلوب تعجب مكرر ، ولكن الذى يعنينا هنا استخدام النظر بالعين فى معنى التأمل والتفكير (ثم نظر) وكذلك استخدام النظر بالعين فى معنى التأمل فى قوله تعالى فى سياق الحث على التأمل فى خلق الله للوصول إلى الإيمان (أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله ...) (٢) بمعنى ألا يتأملون فى خلق الكون من الذى أوجده ؟ ومن يديره وينظمه ؟

ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) (٣) فالمطلوب ليس النظر الحسى إلى جرم السماء وما فيها ، وإنما المطلوب الكيفية التى وجدت بها ، والكيفية فى تأملها أمر عقلى وليس حسيا .

وفى القرآن كثير من هذا القبيل .

١٠- الإشـــراف :

ومن المعانى التى استخدم القرآن فيها العين الإشراف على الشىء بمعنى تركيز الاهتمام به ، ومتابعة أحواله أو أطواره ، ومن ذلك قوله تعالى فى سياق حض النبى على تركيز اهتمامه فى عامة المسلمين بالإشراف عليهم ومتابعة أحوالهم ومزاولتهم للدين ، بحيث لايشغله الاهتمام بدعوة السادة ووجوه الناس إلى الإسلام عن الاهتمام بمن هم أولى بالاهتمام وهم العامة ذوو القلوب العامرة بالإيمان والخالية من الأهواء والكبرياء وعوامل الصدود عن الدين (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولاتعد عيناك عنهم) (٤) فليس المراد الاهتمام بهم بمجرد النظر بالعين إليهم ، وإنما المقصود الاهتمام والمتابعة لأحوالهم فأسند هذا الاشراف والاهتمام إلى العين باعتبار أنها أداة الإشراف المألوف فى حراسة الشىء ، فإن الحراسة لاتتحقق بدون رؤية عادة (ولا تعد عيناك عنهم) .

---

(١) ١٨-٢٤ سورة المدثر .
(٢) ١٨٥ سورة الأعراف .
(٣) ٦ سورة ق .
(٤) ٢ سورة الكهف .

ومن دلالة العين على الإشراف والرعاية قوله تعالى مخاطبا نوحا عليه السلام فى شأن صنع السفينة التى أمره الله بصنعها ، فلعل نوحا كان يخشى عدم توفيقه فى صنع السفينة كما ينبغى أو فى الصورة أو الحجم المناسب ، فيطمئنه الله إلى أنه سيصنعها بتوفيق وتوجيه من الله بما يشبه اشراف البشر على شىء إشرافا مباشرا (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا) (١) فجعلت العين رمزا لكل ذلك (بأعيننا) لتوفيق الله وتوجيهه الذى يشبه فى صنع البشر الإشراف والرعاية والاهتمام .

وكذلك من استخدام القرآن العين فى معنى الإشراف والاهتمام وعد الله سبحانه أم موسى حين أمرها بإلقائه فى اليم عقب ولادته بأنه سبحانه سيتولى رعايته والاشراف على تربيته بصفة خاصة حتى تطمئن أمه ويذهب عنها ما تجد من لوعة وهلع عليه ، فيقول (... وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى) (٢) فجعل القرآن العين تعبيرا عن الإشراف والرعاية ، والزمخشرى يشرح تعبير (على عينى) بقوله (لتربى ويحسن إليك وأنا مراعيك وراقبك كما يراعى الرجل الشىء بعينيه إذا اعتنى به ، وتقول للصانع اصنع هذا على عينى أنظر إليك لئلا تخالف به عن مرادى وبغيتى) (٣) .

١١ - الطمـــع :

ومن المعانى التى استخدم القرآن فيها العين الطمع ، حيث يجعلها فى بعض الأحيان كأنها هى أداة الطمع فيما لدى الغير ، باعتبار أن الرغبة فى الشىء تنبع عادة من رؤيته أولا ثم ما يترتب على ذلك من عوامل نفسية حول تمنى هذا الشىء والسعى إلى تملكه ونحو ذلك .

ومن ذلك قوله تعالى مخاطبا النبى فى سياق أن الله أعطاه أعظم ما يعطى لبشر وهو القرآن ، فكل ما أعطى لغيره بجانب القرآن يسير صغير ، فلا ينبغى أن يتطلع إلى تمنى شىء لدى غيره بعد ذلك على الإطلاق (. . لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) (٤)

---

(١) ٢٧ سورة هود .
(٢) ٣٩ سورة طه .
(٣) تفسير الكشاف ٣/٥٠
(٤) ٨٨ سورة الحجر .

بمعنى لا تطمع فيما متعنا به أحدا من الناس ، ولكن جعلت العين فى تطلعها إلى ما يملكه الغير كأنها هى الطامعة ، وتعبير الأزواج يراد به العموم والشمول أى لا تتطلع إلى مايملكه أحد على الإطلاق من باب قوله تعالى (ومن كل شىء خلقا زوجين) (١) .

١٢ - المشاهدة والشهادة :

وهذا الاستخدام هو أقرب أساليب استخدام العين إلى الحقيقة ، فإن وظيفة العين الإبصار ، والقرآن يستخدم العين كثيرا فى حقيقة وظيفتها وهى الرؤية البصرية كقوله تعالى فى سياق الحديث عن ابراهيم عليه السلام (فلما رأى القمر بازغا . .) وكذلك (فلما رأى الشمس بازغة) (٢)

كما يستخدم القرآن الرؤية بمعنى الرأى أو العلم واليقين ، كقوله على لسان ابراهيم عليه السلام مخاطبا أباه المشرك (إنى أراك وقومك فى ضلال مبين) (٣)

ولكن القرآن يستخدم العين فى بعض الأحيان بمعنى الاشهاد على شىء ، ومن ذلك فى سياق قصة ابراهيم حين كسر الأصنام وترك كبيرها لغرض فى نفسه سيظهره عند محاجة قومه إياه وسؤالهم عمن فعل هذا بالأصنام ، والذى حدث أنهم فوجئوا ذات صباح بأصنامهم التى يعبدونها مدمرة ، فتشاوروا فيمن يمكن أن يفعل هذا فأشارت كل أصابع الاتهام إلى ابراهيم الذى يعلمون جميعا استنكاره وتسفيهه لعبادة هذه الأصنام ، ولكنهم مع ذلك ، ومع قولهم (سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) (٤) فلم يحكموا على ابراهيم بهذه الجريمة بمجرد الاتهام رغم أن كل الملابسات تؤكده ، وإنما لجأوا إلى مساءلته والتحقيق معه ، وهذا لذاته من سلوك العدل والإنصاف الذى يشهد به القرآن كثيرا لخصومه حين يصدر منهم موقف محمود مهما بلغت عداوتهم لله ، ومهما بلغ سخط الله عليهم ، من باب (ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعلوا هو أقرب للتقوى) (٥) وفوق ذلك ليعلم القرآن الطغاة الذين يأخذون بالظنة

---

(١) ٤٩ سورة الذاريات . (٢) ٧٧-٧٨ سورة الانعام .
(٣) ٧٤ سورة الأنعام . (٤) ٦٠ سورة الأنبياء .
(٥) ٨ سورة المائدة .

ويعاقبون بمجرد الشبهة أو بمجرد الاتهام بدون دليل أو حتى بدليل دون مساءلة المتهم والتحقيق معه تحقيقا عادلا وليس تحقيقا زائفا لايهدف إلا إلى إلصاق التهمة مما ينافى فى كل شرائع السماء وكل قوانين الأرض ، بل وما لم يفعله عبدة الأصنام مع ابراهيم الذى حطم أقدس مقدساتهم وهى الآلهة التى يعبدونها ، فلم يفاجئوه بالقبض عليه ، أو بعقابه أو قتله ، وإنما لجأوا إلى مساءلته والتحقيق معه وهو العدل ، والقرآن يشهد لهم ضمنا بهذا (١) حيث يقول (قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟)(٢) ورغم أن ابراهيم إراد أن يلفت عقولهم إلى السفه فى عبادة الجماد فادعى أن كبير الآلهة هو الذى غضب على الآلهة الصغيرة فحطمها إلا أنه عاد فاعترف بأنه هو الذى فعل هذا إصلاحا لعقيدتهم الفاسدة ، عندئذ وبعد اعترافه أصدروا حكمهم عليه ، أما قبل ذلك فقد تريثوا ولم يندفعوا وراء حملة من الاتهام والسخط المنصب عليه من كل وجه .

بل بلغ بهم الإنصاف أن يجعلوا محاكمته بما فيها التحقيق والمساءلة علنية يريدون من الجميع أن يشهدوها ، حيث يقولون (فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون) .

ومع هذه العبر المتتالية التى يسوقها القرآن فإن كثيرا من أئمة المسلمين ذوى السلطان ، بل من بعض من كانوا يوصفون بأنهم خلفاء ، أى خلفاء رسول الله ، وممن هم أصغر منهم سلطانا من ولاتهم ، بل من عمال ولاتهم ، ما أكثر ما أودعوا فى السجون حتى الموت ، وما أكثر ما أراقوا من دماء زكية بريئة ، دون مساءلة أو محاكمة ، كما فعل الحجاج بن يوسف - ولم يمض على بدء الاسلام بضع عشرات من السنين - فى قتل ما لا يحصى من وجوه الناس وعلمائهم ، بل ومن بعض التابعين لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل وفى إبادة أسر وطوائف من المسلمين لم يعرف منهم ذنب ولم تصدر منهم خطيئة ، كما أبيدت أسرة البرامكة دون أن يعرف التاريخ حتى اليوم سببا لابادتهم .

---

(١) انظر كتاب إنصاف الخصم فى القرآن للمؤلف - طبع الهيئة العامة للكتاب .

(٢) ٦١، ٦٢ سورة الأنبياء

وكما أبيدت إلا قليلا أسرة بنى أمية على يد العباسيين ، وكما أبيدت إلا قليلا أيضا أسرة العلويين على يد بنى أمية وبنى العباس كليهما دون مساءلة أو محاكمة ، بل دون جرم ارتكبوه ، وما زال كثير من أئمة المسلمين ذوى السلطان فى بقاع كثيرة من الأمة الإسلامية يفعلون نحوا من ذلك ، ويعاقبون بشتى أنواع العقاب دون مساءلة أو محاكمة عادلة مما أباه عبدة الأصنام الذين (قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون) .[1]

ونعود فنقول إن القرآن يستخدم العين هنا ليس لمجرد الرؤية البصرية ، فهم لايريدون إحضار إبراهيم ليراه الناس ويشاهدوا شخصه ، وإنما ليشهدوا محاكمته علانية .

وليس فى سرد هذه الأمثلة من استخدام القرآن للعين استقصاء وإحصاء ، وإنما هو اقتطاف ومحض أمثلة .

ومن تكرار القول أنه ليست كل هذه النماذج فى استخدام العين داخلة فى باب الوعيد ، ولكن الحديث حين طرق هذا الموضوع رأيت من الخير استكمال جوانبه بقدر الإمكان ، وذلك بالتطواف مع عدة أغراض استخدم القرآن فيها العين ، بحيث توحى هذه الأغراض فى مجموعها بأهمية العين من حيث كونها نافذة تطل مباشرة على أعماق الإنسان لتكشف كل مشاعره وانفعالاته .

---

(١) ٦١ سورة الأنبياء

الفهرس

تابع الفهرس

رقم الايداع	٩٩/١٧٣٦٩
الترقيم الدولي	I.S.B.N. 977-241-305-1